



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



اشرافيية
عليه صلوات الله
عليه وآله

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مفاتيح الترتيب

تأليف

الإمام جعفر السبكي

الجزء الخامس

تصور مؤرخي القرآن في دراسة الآيات المتشابهة
والآيات متضمنة الألفاظ والأشياء
والآيات المتشابهة لصور التسمية والظهور في
الإمام، وطاعة السلطان الجاهل

مؤسسة الفاروق العربي

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مفاهيم القرآن

كاتب:

آية الله العظمى جعفر السبحاني التبريزي

نشرت في الطباعة:

مؤسسه التاريخ العربي

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
17	مفاهيم القرآن المجلد 5
17	هوية الكتاب
17	اشارة
21	كلمة قدسية
24	كتاب كريم
24	اشارة
27	منهج التفسير الموضوعي :
31	المفاهيم القرآنية بين الجمود والتأويل
31	اشارة
33	1. مبتدعة السلف :
37	2. معطلة السلفية
43	3. المؤولة
45	التأويل باسم التفسير العلمي
46	التأويل الإلحادي
49	عصمة الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم
49	اشارة
51	عصمة الأنبياء في القرآن الكريم
51	اشارة
52	مبدأ ظهور فكرة العصمة في الأمة الإسلامية
54	القرآن يطرح مسألة العصمة
55	عصمة النبي في القرآن الكريم
56	نظرية أحمد أمين حول كلام الشيعة

60 عود على بدء

63 ما هي حقيقة العصمة ؟

63 اشارة

65 1. العصمة الدرجة القصوى من التقوى

66 2. العصمة : نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي

69 3. الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجماله

71 الروح التي تسدد الأولياء

73 هل العصمة موهبة إلهية أو أمر اكتسابي ؟

76 العصمة المفاضة كمال لصاحبها

79 كلام السيد المرتضى

80 هل العصمة تسلب الاختيار ؟

85 مراحل العصمة ودلالاتها

85 اشارة

88 المرحلة الأولى : عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة

91 القرآن وعصمة النبي في مجال تلقي الوحي و

91 اشارة

91 الآية الأولى

95 الآية الثانية

96 الآية الثالثة

97 العقل وعصمة الأنبياء

98 سؤال وجواب

99 تقرير المرتضى لهذا البرهان

102 إجابة عن سؤال آخر

103 القرآن وعصمة الأنبياء من المعصية

103 اشارة

103 الآية الأولى

105 الآية الثانية

105 الآية الثالثة

107 الآية الرابعة

109 الآية الخامسة

113 حجة المخالفين للعصمة

113 اشارة

113 الطائفة الأولى : ما يمس ظاهرها عصمة جميع الأنبياء

113 الآية الأولى

121 الآية الثانية

122 1. ما معنى أمانة الرسول أو النبي ؟

124 2. ما معنى إلقاء الشيطان في أمانة الرسل ؟

126 3. ما معنى نسخه سبحانه ما يلقيه الشيطان ؟

127 4. ما معنى إحكامه سبحانه آياته ؟

128 5. ما هي النتيجة من هذا الصراع ؟

130 التفسير الباطل للآية

135 الطائفة الثانية: ما يمس عصمة عدة خاصة من الأنبياء

135 اشارة

135 عصمة آدم عليه السلام والشجرة المنهي عنها وجعل الشريك لله

135 اشارة

137 التساؤلات حول الآيات

138 1. ما هي نوعية النهي في قوله تعالى : (لا تُقْرَبَا)

138 اشارة

139 ولتوضيح ذلك نأتي بمثال

- 143 جواب آخر عن الإشكال
- 144 جواب ثالث عن الإشكال
- 144 2. ما معنى وسوسة الشيطان لآدم ؟
- 146 3. ماذا يراد من قوله : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ) ؟
- 146 4. ما معنى قوله : (وَعَصَى) و (فَعَوَى) ؟
- 149 5. ما معنى قول آدم عليه السلام : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) ؟
- 150 6. ما المراد من قوله : (فَتَابَ عَلَيْهِ) ؟
- 151 7. ما معنى الغفران في قوله : (وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا) ؟
- 151 إشارة
- 153 عصمة آدم عليه السلام وجعل الشريك لله !
- 158 عصمة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام والمطالبة بنجاة ابنه العاصي
- 158 إشارة
- 166 جواب ثالث للوجه الثاني
- 167 الوجه الثالث : تفسير قوله تعالى : (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي)
- 169 عصمة إبراهيم الخليل عليه السلام والمسائل الثلاث
- 169 إشارة
- 170 الآية الأولى
- 172 الآية الثانية
- 175 جواب آخر عن السؤال
- 176 الآية الثالثة
- 178 جواب آخر عن الشبهة
- 180 عصمة يوسف عليه السلام وقول الله (... وَهَمَّ بِهَا)
- 180 يوسف الصديق هو الأسوة
- 184 1. ما معنى الهم ؟
- 185 2. ما هو جواب لولا ؟

- 187 3. ما هو البرهان ؟
- 188 4. دلالة الآية على عصمة يوسف عليه السلام .
- 190 أسئلة وأجوبة .
- 190 اشارة
- 190 السؤال الأول
- 191 السؤال الثاني
- 192 السؤال الثالث
- 193 السؤال الرابع
- 194 المعنى الثاني للآية .
- 196 المعنى الثالث للآية
- 198 عصمة موسى عليه السلام وقتل القبطي ومشاجرته أخاه
- 198 اشارة
- 199 ألف : عصمة موسى عليه السلام وقتل القبطي .
- 205 ب. مشاجرته أخاه هارون عليه السلام .
- 210 عصمة داود عليه السلام وقضاؤه في النعجة .
- 210 اشارة
- 211 1. توضيح المفردات .
- 212 2. إيضاح القصة .
- 213 3. هل الخصمان كانا من جنس البشر ؟
- 214 4. كون الاستغفار لأجل ترك الأولى
- 216 عصمة سليمان عليه السلام ومسألة عرض الصافيات الجياد وطلب الملك
- 216 اشارة
- 220 نقد التفسير المفروض على القرآن .
- 224 الفتنة التي امتحن بها سليمان
- 230 عصمة أيوب عليه السلام ومسّ الشيطان له بعداب

230 اشارة

232 تفسير قوله : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) .

233 تفسير قوله : (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ) ..

237 عصمة يونس عليه السلام وذهابه مغضباً .

237 اشارة

239 1. لماذا كشف العذاب عن قوم يونس دون غيرهم ؟

241 2. هل كان كشف العذاب تكديماً لإيعاد يونس ؟

243 3. أسئلة ثلاثة حول عصمته .

247 الطائفة الثالثة: عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما تمسكت به المخطئة .

247 اشارة

251 أدلة المخطئة ..

251 اشارة

252 الأولى : العصمة والخطابات الحادة .

256 الآية الثانية : العصمة والعفو والاعتراض

260 الآية الثالثة : العصمة والأمر بطلب المغفرة

263 الآية الرابعة : العصمة وغفران الذنب

263 اشارة

264 1. ما هو المراد من الفتح في الآية ؟

266 2. ما هو المراد من الذنب ؟

267 3. الغفران في اللغة .

268 4. الفتح لغاية مغفرة الذنب .

273 الآية الخامسة : العصمة والتولي عن الأعمى

279 دين النبي الأكرم قبل البعثة

279 اشارة

280 1. عبد المطلب وإيمانه .

- 285 2. شيخ الأباطح أبو طالب وإيمانه .
- 285 اشارة .
- 286 إيمانه بالله قبل البعثة .
- 289 إيمانه بعد البعثة .
- 291 إيمان والدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .
- 298 إيمان النبي الأكرم قبل البعثة .
- 299 الشريعة التي كان يعمل بها النبي صلى الله عليه وآله .
- 301 نظرة إجمالية على حياته .
- 304 نظرية التوقف في تعبد .
- 304 نظرية عمله بالشرائع السابقة .
- 308 الوجوه الأخيرة الثلاثة المتقاربة .
- 310 حاله بعد البعثة .
- 313 الآيات التي وقعت ذريعة لبعض المخطئة .
- 313 اشارة .
- 315 الآية الأولى : الهداية بعد الضلالة ؟ .
- 315 اشارة .
- 319 حول الاحتمالين الآخرين .
- 322 الآية الثانية : الأمر بهجر الرجز .
- 324 الآية الثالثة : عدم علمه بالكتاب والإيمان .
- 324 اشارة .
- 329 تفسير الآية بآية أخرى .
- 331 الآية الرابعة : عدم رجائه إلقاء الكتاب إليه .
- 334 الآية الخامسة : لو لم يشأ الله ما تلوته .
- 334 اشارة .
- 335 عصمة النبي الأعظم عن الخطأ .

- 337 القرآن وعصمة النبي عن الخطأ والسهو .
- 342 أدلة المخطئة .
- 342 اشارة .
- 345 1. الرأي السائد بين الإمامية حول سهو النبي صلى الله عليه وآله .
- 348 2. كيفية معالجة المأثورات حول سهو النبي صلى الله عليه وآله .
- 353 مفهوم الإمام في القرآن الكريم .
- 353 اشارة .
- 355 مفهوم الإمام في القرآن الكريم .
- 355 اشارة .
- 355 الإمامة تفويض اجتماعي .
- 357 الخليفة والعدالة .
- 359 الإمامة والاجتهاد .
- 361 الإمامة منصب إلهي .
- 361 اشارة .
- 366 1. ما هو الهدف من الابتلاء ؟ .
- 370 2. ما هو المراد من الكلمات ؟ .
- 376 3. المراد من الإتمام .
- 378 4. المراد من الإمام .
- 378 اشارة .
- 378 ألف. الإمام في اللغة .
- 379 ب. مفهوم الإمام في القرآن .
- 380 ج. ما هو ملاك إمامة الخليل في الآية ؟ .
- 381 الملاك الأول هو النبوة .
- 385 الملاك الثاني كونه أسوة في المجالات الثلاثة .
- 385 اشارة .

- 387 تحليل النظرية
- 389 الملاك الثالث : كونه معلم الهداية عبر العصور
- 389 اشارة
- 390 تحليل هذه النظرية
- 391 الملاك الرابع : كونه مفترض الطاعة
- 391 اشارة
- 393 إمامة الرسول
- 394 الشواهد القرآنية على تفسير الإمامة بافتراض الطاعة
- 398 الملك العظيم في القرآن
- 401 الملك العظيم في الأحاديث الإسلامية
- 402 أسئلة وأجوبتها
- 402 1. هل زعامة هؤلاء كانت بتشريع من الله ؟
- 403 2. ما هي النسبة بين النبوة والإمامة الواردة في الآية ؟
- 404 3. هل الامام لا يحقق أهدافه إلا في ضوء الشريعة ؟
- 406 4. الإمامة رهن الابتلاء
- 410 5. هل حقق الخليل أهداف الإمامة ؟
- 411 دلانل إمامة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله
- 416 الإمامة في الأحاديث الإسلامية
- 417 الملاك الخامس : تسيير النفوس إلى الكمال بهداية تكوينية
- 417 اشارة
- 421 تحليل هذه النظرية
- 424 5. الإمامة عهد من الله
- 425 6. ما هو المقصود من الظالمين ؟
- 426 7. دلالة الآية على عصمة الإمام
- 427 سؤال وجواب

428	الجواب
428	اشارة
429	الأول : طريق العقل
430	الثاني طريق النقل
431	سؤال وجواب
435	إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة و عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان
435	اشارة
437	إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة
437	اشارة
439	إطاعة السلطان الجائر
451	صراع بين العقيدة والوجدان
454	عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان
454	اشارة
454	من هو الصحابي ؟
456	عدالة الصحابة جميعهم
458	تقييم نظرية عدالة الصحابة كلهم
461	الصحابة في الذكر الحكيم
461	اشارة
461	1. السابقون الأولون
461	2. المبايعون تحت الشجرة
462	3. المهاجرون
462	أصحاب الفتح
462	الأصناف الأخرى للصحابة
462	اشارة
463	1. المنافقون المعروفون

- 463 2. المنافقون المختفون
- 464 3. مرضى القلوب
- 465 4. السَّمَاعون
- 465 5. خالطو العمل الصالح بالسيء
- 465 6. المشرفون على الارتداد
- 466 7. الفاسق
- 467 8. المسلمون غير المؤمنين
- 467 9. المؤلِّفة قلوبهم
- 468 10. المولِّون أمام الكفَّار
- 470 الصحابة في السنَّة النبوية
- 472 الصحابة والتاريخ المتواتر
- 473 آراء الصحابة بعضهم حول بعض
- 476 التعذير التافه أو أسطورة الاجتهاد
- 478 خاتمة المطاف
- 482 قتل الخليفة المفترض الطاعة
- 484 عثرة لا تقال
- 485 صورتان متضادتان أو رسالتان متضادتان دراسة موجزة وتحليل رافع للشروط اللازمة للرسالة الخالدة والنبوة الدائمة
- 485 اشارة
- 487 « صورتان متضادتان » أو « رسالتان متضادتان »
- 487 اشارة
- 490 نظرتنا حول هذه الجولة
- 492 الملامح العامة للشعب الإيراني في الرسالة الأولى
- 493 الملامح العامة للشعب الإيراني في الرسالة الثانية
- 494 النشاطات القرآنية في الجمهورية الإسلامية
- 500 الركون إلى الظالم وحكمه في الإسلام

506 موجز الرسالة الثانية .
506 اشارة .
506 الشرط الأول للرسالة الخالدة .
506 اشارة .
507 تحليل هذه النظرية .
509 ما أشبه الليلة بالبارحة .
510 فلسفة جديدة .
511 النبي الأعظم كان ناجحاً في دعوته .
514 الشرط الثاني للرسالة الخالدة .
518 الشرط الثالث للرسالة الخالدة .
518 اشارة .
522 الرسائل المفردة حول صيانة القرآن من التحريف .
525 الكافي كتاب حديث لا كتاب عقيدة .
526 التحريف في كتب أهل السنة .
527 اقتراح للمتسرّعين في الكتابة .
528 الشرط الرابع للنبوة الخالدة .
528 اشارة .
529 نظريتنا في هذا الشرط وتحليله .
534 الشيعة وفكرة التشريع إنّ الشيعة .
536 ما هي المشكلة الأساسية للمسلمين ؟
539 فهرس المحتويات .
556 تعريف مركز .

هوية الكتاب

المؤلف: الشيخ جعفر السبحاني

الناشر: مؤسسة الامام الصادق عليه السلام

المطبعة: الإعتقاد

الطبعة: 2

الموضوع: القرآن وعلومه

تاريخ النشر: 1422 هـ.ق

ISBN (ردمك): 4-75-6243-964

الكتب بساتين العلماء

مفاهيم القرآن

تأليف: العلامة جعفر السبحاني

الجزء الخامس

يبحث عن عصمة الأنبياء ويعالج أدلة المخطئة لها، وعن مفهوم الإمام وعصمته، وعدالة الصحابة، وإطاعة السلطان الجائر في القرآن الكريم،

مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

ص: 1

إشارة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع

The Arabic History Publishing Distributing

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف 01/540000 - 01/455559 - فاكس 850717 - ص. ب. 11/7957

Beyroth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/54000- 01455559 -7957/11 Fax: 850717 - p. o

ص: 4

تفضّل بها سماحة العلامة الأستاذ المحقّق آية الله الشيخ لطف الله الصافي

صاحب المؤلفات الإسلامية القيّمة، والمواقف الجهادية المشكورة

دام ظلّه الوارف

بسم الله الرحمن الرحيم

العصر الحاضر والمفاهيم الدينية

يشهد عصرنا الحاضر المسمّى بعصر الذرة والفضاء، صورة جديدة من رفض النصوص الشرعية، يتمثل في موقف خاص من قضايا الدين، وهو تفسير الحوادث الخارقة للعادة والحقائق الغيبية وما يتحقّق في مستقبل الزمان من الآيات والملاحم الثابتة كلّها في الدين، والتي أخبرت بها نصوص الكتاب والسنة، وتحققت أو تتحقّق - بإرادة الله تعالى وإذنه - بالتفسير والتعليل المادي الذي ينكر تأثير عالم الغيب في عالم الشهادة.

وهو موقف نابع وناشئ من انبهار طائفة كبيرة من المثقفين ببريق النهضة المادية الحديثة، ومن الإفتتان بالتقدم الصناعي الراهن، الأمر الذي آل إلى ظهور الاتجاهات العلمانية التي تعتقد بفصل الدين عن الدنيا، والدنيا عن الدين حيناً، وبإخضاع المفاهيم الدينية الغيبية لمقاييس العلوم المادية الحديثة حيناً آخر.

ومما يزيد الطين بلةً ، والداء تفاقمًا ، أن هذا الفريق يظهر الإسلام ويتظاهرون بالنصيحة له وللمسلمين ، ويدعون أنه لا بد من تفسير الدين بنحو يقبله المفكر الغربي ، ولا يستنكره الملحد الشرقي ، وبالتالي : لا بد من تأويل اصطلاحاته وقضاياها بنحو يوافق المذاهب المادية ، والقوانين الطبيعية ، بينما يسعى فريق آخر إلى التوفيق بين الدين ونظاماته في الإدارة والحكم وغيرهما ، وبين الأنظمة الديمقراطية ، كما يريد بعضهم التوفيق بين الدين - وهو دين إلهي - مع الأنظمة الماركسية الملحدة.

فالثقافة عند هؤلاء هو التردد والتشكيك في الحقائق المقبولة في الدين ، والتي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة ، مما لا يمكن أن يعلل بالعلل ، وبالتالي إخضاع الدين لمعطيات الحضارة المادية الحديثة ، ومقاييسها ، فإذن نحن في عصر يزداد فيه التخوف من تعريض المفاهيم الدينية لخطر التحريف والتأويل ، وإخضاع الدين للأهواء والأمزجة والأذواق الشخصية ، على أيدي الجهال والانهمامين.

فما أحوجنا - في هذا العصر - إلى تبين مفاهيم الكتاب والسنة ، وتثبيت ما أتى به الإسلام ، على حقيقته ، وإرجاع الناس إلى النصوص ودلالاتها ، ورد المتشابهات إلى المحكمات ، في ضوء الكتاب العزيز والسنة المطهرة الشاملة لما ورد عن العترة الطاهرة.

ولقد نهض بهذه المهمة منذ أقدم العصور - ولله الحمد - رجال من رواد مذهب أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم ممن دفعتهم غيرتهم الدينية إلى الدفاع عن حياض الشريعة المقدسة ، مع الاحتفاظ بنصوص الكتاب والسنة ، فأبقوا على مفاهيم الإسلام غضة طرية ، ناصعة ، ساطعة ، فشكر الله مساعيهم الجميلة

وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء.

ومما يثلج الصدر أن تستمر هذه الجهود الخالصة المخلصة في سبيل الحفاظ على مفاهيم الدين ، حيث قام في عصرنا هذا جماعة من الأعلام بنفس هذا العمل العظيم ، ونخص بالذكر صديقنا العلامة الفقيه والباحث المحقق الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني في ما كتب في سلسلة « مفاهيم القرآن الكريم » هذه المجموعة التي صدرت منها إلى الآن أربعة أجزاء ، والتي سدّت فراغاً واسعاً في هذا المجال حيث أوضحت - في غاية القوة والإحاطة والإتقان والتحقيق - كثيراً من المفاهيم القرآنية الإسلامية وسدّت الطريق في وجه المبتدعين والمحرّفين ، والمأولين والمشكّكين ، وأجابت بأسلوب برهاني مقنع على أسئلة طالما شغلت أذهان الشباب ، وأصحاب المدارس الحديثة.

وقد جاء الجزء الرابع ردّاً على الاتجاه المذكور وهو تفسير الجوانب الغيبية بالتعليقات المادية.

فلله درّ مؤلفه الفقيه المحقق العلامة وحفظه الله ذخراً للحوزة والأمة ، ونفع المسلمين جميعاً بعلومه ومؤلفاته. انه سميع مجيب.

لطف الله الصافي

23 - ربيع الثاني - 1406 هـ

ص: 7

تفضل به العلامة الحجة الأستاذ المحقق آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

- دام ظله - نشره تقديراً لجهوده العلمية الكبرى مشفوعاً

بالشكر والتكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (1)

إنّ الواصف المطري مهما جدّ واجتهد ، ومهما بلغ شأواً عظيماً في القدرة على التحديد والتوصيف ، لا يتمكن من أن يصف كلامه سبحانه ويحدّده بما هو لائق به ، كيف ؟ وهو كلام من لا يتناهى كمالاً وجمالاً ، كما لا يتناهى علماً وقدرة.

فلو كانت هناك صلة بين الأثر والمؤثر وكان الأثر ظلاً له ، فكلامه سبحانه لا يتناهى في الروعة والجمال ، لكونه أثراً للكمال المطلق والجمال غير المتناهيين ، وعند ذلك لا يجد الباحث معرفاً محدداً لكلامه أحسن ممّا ورد في الذكر الحكيم في هذا المضمّار ، قال سبحانه : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) .

وقال سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) (2).

ص: 8

1- المائة : 15.

2- النساء : 174.

وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (1) إلى غير ذلك من الآيات التي تعدُّ الذكر الحكيم نوراً منزلاً من الله سبحانه إلى البشر كله في جميع العصور والقرون ، ولجميع الأجيال والمجتمعات ، فيجب علينا أن نقف على السر الذي أصبح به القرآن نوراً وضياءً.

أقول : إنَّ علماء الطبيعة كشفوا عن أسرار النور وخواصه ، فلاحظوا :

أولاً : أنَّ سرعة النور لا تضاهيها سرعة أيِّ شيءٍ آخر.

ثانياً : أنَّ حياة النبات والحيوان رهن للنور ، فلولا له لما استقرت الحياة وما اخضر لها عود.

ثالثاً : أنَّ النور يكافح العوامل الهدامة للحياة فيقتل بعض الجراثيم والميكروبات المضرة ، ويبقي الذرات النافعة للحياة ، إلى غير ذلك من الآثار المكشوفة الثابتة للنور في مجال علم الطبيعة.

مضافاً إلى أنَّ النور يكشف الحجب في المجتمع فلا يرى إجرام المجرم في وضوح النهار ، وإذا طرأت الظلمة خرج المجرمون من أوكارهم ابتغاءً للفساد ، ونشراً للرديلة.

هذا هو حال النور الحسِّي الذي يمشي به الإنسان في حياته المادية ، وإذا كان هذا حال النور الحسِّي فالنور المعنوي الذي به حياة الإنسان الروحية ، أولى أن يكون كذلك.

ومن حسن الحظ أن نجد النور المعنوي (القرآن والسنة) حاملاً لهذه

ص: 9

1- الشورى : 52.

الأوصاف والآثار على الوجه الأكمل والأتم.

فإذا كان النور الحسّي أسرع الأشياء المادية في السير والدوران ، فالنور الذي يحمله القرآن الكريم مثله في السرعة والانتشار ، فقد انبثق نور القرآن من أمّ القرى وانتشر بسرعة فائقة في أجواء العالم ، وبدد الظلام عن أمّ القرى وما حولها إلى أن وصل إلى منتهى الخف والحافر.

وإذا كانت الحياة المادية لا تستقر في هذا الكوكب إلا بضوء الشمس فالحياة المعنوية لا تستقر في هيكل الفرد والمجتمع ، إلا بالإيمان والعمل الصالح ، ولا يهتدي الإنسان إلى كل منهما إلا ببركة الوحي المجسّد في الذكر الحكيم.

وإذا كان ضوء الشمس ونور الكوكب يبدّد الحجب في البوادي والصحاري والمدن والبلدان فيغيّب المجرم ، ويخفي المسيء ، فالنور المعنوي الذي يحمله القرآن ومثله كل وحي سماوي ، يضيء المجتمع وينور القلوب ، فلا تجد فيه مجالاً لظهور الرذائل وانتشار المساوئ ، وإنما تظهر رذائل الأخلاق في غياب الإيمان والقرآن عن المجتمع.

وإذا كان النور الحسّي يكافح العوامل الهدّامة للحياة ، فالنور المعنوي أيضاً يكافح الغي والفساد ، والهرج والمرج ، والجهل والفقر ، وغيرها من الأمور التي تعد من العوامل الهدّامة لحياة الإنسان المعنوية.

ولأجل ذلك نرى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله يأمر بالتمسك بالقرآن الكريم عند التباس الفتن على الإنسان كقطع الليل المظلم ويقول : « إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشقّع وماحل مصدّق ... » (1).

ص: 10

ولأجل هذا الأمر وغيره عكف علماء الإسلام منذ فجر الدعوة الإسلامية على دراسة القرآن وقراءته وحفظه وتفسيره والعناية به بشتى الطرق والوجوه. وقد بلغ إقبال المسلمين والعناية بكتابهم مبلغاً لا يوجد له نظير في جميع أنحاء العالم والمجتمعات البشرية. كيف ؟ وقد أسسوا للاستضاءة من ذلك النور ، علوماً كثيرة خدموا بها القرآن الكريم وعالجوا بها مشاكله ومبهماتة ومعضلاته ، شكر الله مساعي الجميع.

منهج التفسير الموضوعي :

إنّ السيرة الرائجة في تفسير القرآن الكريم هي تفسيره سورة بعد سورة ، فالمفسر الموقّق هو من يأخذ بتفسير سورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران وهكذا إلى أن ينتهي إلى آخر القرآن ، أو إلى ما تصل إليه جهوده ، وهذه سيرة رائجة في جميع القرون ، غير أنّ هناك منهجاً آخر لتفسير الذكر الحكيم لم يقع موضع العناية الكبيرة للسلف الصالح من المفسرين وهو « المنهج الموضوعي » لتفسير القرآن.

والمقصود منه جمع الآيات الواردة في كل موضوع والبحث عنها دفعة واحدة ، وهذا هو الطريق الأمثل الذي ستحل به معضلات الآيات ، وترتفع مبهماتاها ، فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وينطق بعضه ببعض ، ولا مناص للمجتمع القرآني من العناية بهذا المنهج أيضاً كما كان له العناية بالمنهج الأوّل ، فالمنهجان متواكبان في الإضاءة والتنوير ، ولكل مزيتة ومحاسنه.

ثم إنّ من الذين عانوا في سد هذا الفراغ وبذلوا جهوداً واسعة في سبيله العلامة الحجّة المحقّق الأخ الشيخ جعفر السبحاني أدام الله تأييده.

فقد سلك هذا الطريق وكشف حقائق قيّمة ، فشكر الله مساعيه ووفقه

فقد اختار من بين الموضوعات أولاً ما يتصل بالله سبحانه ، وصفاته وأفعاله ، والنبوات العامة والخاصة ، فلأجل ذلك قام بطرح مباحث التوحيد في الجزء الأول في اثني عشر فصلاً على وجه بديع.

ولقد أعجبني من هذه الفصول الفصل المعقود لتفسير التوحيد في العبادة ، وما يتميز به ما يشبه العبادة عن غيره ، فقد اعتمد في هذا المبحث على ضابطة قيمة استنبطها من الذكر الحكيم.

ولما انتهى بحثه في هذا الجزء إلى قسم خاص من التوحيد وهو « التوحيد في الحاكمية » وإنّ الحكم حق مختص بالله سبحانه ، لا يناله غيره إلا بإذنه ، جعل مدار البحث في الجزء الثاني « معالم الحكومة الإسلامية » بأسلوب رائق وطريقة جديدة في نوعها ، إلى غير ذلك ممّا يراه القارئ في أجزاء هذا الكتاب القيم من الموضوعات الهامة.

أضف إلى ذلك كلّ أنّ الكتاب يشتمل على مزايا أخرى قيمة في ذاتها ، منها الصراحة في البحث ، وطرح المباحث بقلم واضح بعيد عن التعقيد ، والإيجاز المخل ، والإطناب الممل.

ومنها الحفاظ على المفاهيم الإسلامية من دون أيّ تحوير فيها وتغيير ، والتحرّز عن المناهج المزيجية الملفقة ، التي تأخذ من الإسلام شيئاً ، ومن المناهج غير الإسلامية شيئاً آخر ، فتمزجهاما وتقدّم المجموع الملقق باسم الإسلام ، من المناهج التي لها الضرر الكثير على الإسلام وأهله ، أعاذنا الله من شرور هذه الفكرة وخطورة هذه المناهج.

وقد مشى المؤلف فيما يمتّ إلى هذه المباحث في ضوء القرآن الكريم من دون أي خضوع للأفكار المادية، أو إخضاع المفاهيم الإسلامية لتلك المناهج، فشكر الله سعيه، وضاعف أجره وجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

ناصر مكارم الشيرازي

قم - الحوزة العلمية

12 - شوال - 1407 هـ

ص: 13

المفاهيم القرآنية بين الجمود والتأويل

إشارة

إنّ الذكر الحكيم يشتمل على معارف وأصول كما يشتمل على أحكام وفروع ، والغاية المتوخّاة من المعارف والأصول ، هي تحصيل العلم والمعرفة أولاً ، والإذعان والإيمان ثانياً ، كما أنّ الهدف من تشريع الأحكام والفروع هو الدعوة إلى العمل والتطبيق.

فلو كان شرف كل علم بشرف موضوعه ، فالعلم الأوّل - بما أنّه يبحث عن معرفة الله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وما ينبغي له وما لا ينبغي له - يكون هو الأشرف والفقّه الأكبر ، كما أنّ العلم الثاني - بما أنّه يبحث عن حكمه سبحانه بما يتعلّق بأفعال العباد - يكون هو الفقّه الأصغر. ولكلّ أئمّة وقادة مفكّرون ، وكثيراً ما يكون الإنسان إماماً في باب المعارف والعقائد ، وفي الوقت نفسه يكون غير رفيع المستوى في باب معرفة الأحكام ، وربّما يكون على العكس ، فالكل إذا تكلموا فيما أحسنوا ، أرشدوا إلى الطريق المهيع والحق المبين ، فإذا نطقوا في غيره أتوا بما تندهش منه العقول ويقضي منه العجب (1).

فاللازم على رواد العلم حسب ما أمر به الرسول من تنزيل كل أمرئ

ص: 15

1- قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لو سكت من لا يعلم لرفع الاختلاف » لاحظ درر الحكم للآمدي.

منزلته (1) والأخذ عنهم فيما برعوا وفاقوا فيه ، وترك الاقتفاء والتبعية فيما لا حذق لهم فيه ولا براعة ، وهذا هو دأب الدين ، وهي السنّة القرآنية التي أمر الله سبحانه بها حيث قال : (وَأَتُوا بُيُوتَ مَنْ أَبْوَإِبَهَا) (2).

وكذلك علم الحديث والسنّة ، فربّما يكون الرجل قدوة في الحفظ ، عارفاً بمتون الأحاديث وأسانيدها ، وليس له مقدرة علمية لتحليل مفادها والغور في أعماقها ، فيكون ذلك من موارد قوله صلى الله عليه وآله : « نصّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها ، فربّ حامل فقه غير فقيه ، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » (3).

فليس كل من روى كلاماً للنبي صلى الله عليه وآله ، يقبل رأيه الذي رأى ، ولا كل من حفظ اللفظ ، كان أهلاً لبيان كنه المعنى ، وما يستنبط منه ، بل لكل من الحفظ والنقد والتحليل رجال متخصصّ صون ، ولكل فن أهل وأرباب ، فمن خاض في علم بلا كفاءة كان خطاؤه أكثر من صوابه وكان ما يفسده أكثر ممّا يصلحه.

هذا هو الأصل الذي دعا إليه القرآن ، واستقرت عليه سيرة العقلاء ، ولكن الغفلة عن هذا الأصل في بدايات القرون الهجرية الأولى ، أحدثت تخبطاً في الأوساط الإسلامية فنجمت بين المسلمين بدع يهودية وآراء مسيحية ، من القول بالتشبيه ، وإثبات المحل لله تعالى ، والجهة له سبحانه ، فوصف الباري - المنزه عن كل نقص - بالجلوس ، والنزول إلى الأرض ، وأثبتت له الأجزاء والأعضاء كالوجه والعين واليد والرجل ، ونسب إليه الاستعلاء الحسي على العرش ، وكان السبب لهذا

ص: 16

1- روى مسلم في صحيحه : (5 / 1) عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرنا أن ننزل الناس منازلهم.

2- البقرة : 189.

3- سنن الترمذي : 5 / الباب 7 ، كتاب العلم ، الحديث 2657 ; مسند أحمد : 2 / 225.

أولاً : الاغترار بما وضعه أعداء الإسلام من الأحبار والرهبان الذين تظاهروا بالإيمان وأضمرُوا الكفر تنفيذاً لحقدهم وعدائهم ، ويقف القارئ على نماذج كثيرة من هذه الإسرائيليّات فيما روي عن كعب الأحبار ، ووهب من منبهه ، وعبد الملك بن جريج ، ومن شاكلهم من المتأسلمين لا المسلمين الحقيقيين .

ثانياً : الجمود على ظواهر بعض الآيات والأحاديث من دون تعمق في أغوارها ، ولا تفحص في مفاهيمها وأعماقها ، حتّى عاد التفكير في مفاد الآية والحديث تأويلاً بغيضاً ، فعند ذلك هاجت بحار الفتن وتلاطمت أمواجه بالبدع المهلكة ، فسُمّي التفكير في القرآن والتدبر في كلمات الرسول « كفرةً » و « زندقةً » وعدّ إقصاء العقل وعزله عن القضاء في المعارف والأصول « قداسةً » و « نزاهةً » !!!

ففي هذه الظروف والأحوال قامت قيامة تأسيس المناهج ، ونجمت فرق كثيرة ، كلُّ يدعي الانتساب إلى الوحي والسنة .

وكلُّ يدعي وصلاً بليلى *** وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

وإليك تسمية بعض هذه الفرق وبيان رؤوسها :

1. مبتدعة السلف :

وهم المغترون بكل حديث وقعت أعينهم عليه ، فجمعوا في حقائبهم كل رطب ويابس ، وأخذوا بالظواهر وتركوا الاستعانة بالقرائن ، وسمّوا كل بحث من أيّ أصل من الأصول والمعارف « تأويلاً » و « خروجاً عن الدين » وكبحوا العقل بتهمة الزندقة ، واستراحوا لما روي عن أئمتهم من ذم علم الكلام ، فوصفوا الجمال

المطلق والكمال اللامتناهي بالمحل والجسم ، والنزول والصعود ، وخرقوا له كثيراً من الأشباه والنظائر .

ترى كثيراً من هذه الأحاديث في مرويات حمّاد بن سلمة ، ونعيم بن حمّاد ، ومقاتل بن سليمان ، ومن لف لفهم ، ففي مروياتهم تلك الآثار المشينة ، وقد قلّدهم كثير من البسطاء في القرون المتأخرة ، فحسبوا حقائق راهنة وألّفوا فيها الكتب .

وعلى هذا الأساس أُلّف كتاب « التوحيد » لمحمد بن إسحاق بن خزيمة (المتوفى عام 321 هـ) ، وكتاب « السنّة » لعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وكتاب « النقض » لعثمان بن سعيد الدارمي السجزي المجسّم فإنه أول من اجترأ من المجسّم بالقول : بأنّ الله لو شاء لاستقرّ على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ، فكيف على عرش بعيد (1) .

ولقد عذب عن هؤلاء المساكين أنّ التفكير في أي الذكر الحكيم والغور في أعماقها ممّا أمر به منزله سبحانه حيث قال : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) (2) . وليس صرف آيات الاستواء على العرش والوجه واليد والعين وما شابهها ، عن الظاهر المتبادر من مفرداتها ، إلى ما هو المتبادر عند أئمة البلاغة ، تأويلاً وخرجاً عن ظاهر الكلام ، إذ للكلمة بمفردها حكم ، وللجملة المتكوّنة من بعض الكلمات حكم آخر .

وإن كنت في ريب من هذا فلاحظ لفظ الأسد بمفرده ، ونفس اللفظ في قول القائل : « رأيت أسداً يرمي » ، فحملها في الجملة الثانية على الحيوان المفترس

ص : 18

1- لاحظ مقدمة الشيخ محمد زاهد الكوثري على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي .

2- ص : 29 .

صرف لظاهر الكلام بلا دليل ، وتأويل بلا مسوغ.

وبهذا يظهر أنّ الصفات الخبرية الواردة في القرآن كالوجه وغيره لها حكم عند الأفراد ، ولها حكم آخر إذا ما جاءت في ضمن الجمل ، فلا يصحّ حملها على المعاني اللغوية إذا كانت هناك قرائن صارفة عنها ، فإذا قال سبحانه : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (1) ، فيحمل على ما هو المتبادر من الآية عند العرف العام ، أعني : الإسراف والتقتير ، فبسط اليد كناية عن الإنفاق بلا شرط ، كما أنّ جعل اليد مغلولة إلى العنق كناية عن البخل والتقتير ، ولا يعني به بسط اليد بمعنى مدها ، ولا غلّ اليد إلى العنق بمعنى شدّها إليه .

وعلى هذا يجب أن يفسر قوله سبحانه : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (2) ، فالعرش في اللغة هو السرير ، والاستواء عليه هو الجلوس ، غير أنّ هذا حكم مفرداتها ، وأمّا معنى الجملة فيتفرع الاستظهار منها ، على القرائن الحافة بها ، فالعرب الأفحاح لا يفهمون منها سوى العلو والاستيلاء ، وحملها على غير ذلك يعدّ تصرفاً في الظاهر ، وتأويلاً لها ، فإذا سمع العرب قول القائل :

قد استوى بشر على العراق *** من غير سيف ودم مهراق

أو سمع قول الشاعر :

ولما علونا واستوينا عليهم *** تركناهم مرعى لنسر وكاسر

فلا يتبادر إلى أذهانهم سوى العلو والسيطرة والسلطة ، لا العلو المكاني

ص: 19

1- الإسراء : 29.

2- طه : 5.

الَّذِي يَعِدُ كَمَالاً لِلْجِسْمِ ، وَأَيْنَ هُوَ مِنَ الْعُلُوِّ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي هُوَ كَمَالُ الذَّاتِ .

وقد جاء استعمال لفظ الاستواء على العرش في سبع آيات مقترناً بذكر فعل من أفعاله ، وهو رفع السماوات بغير عمد ، أو خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، فكان ذلك قرينة على أن المراد منه ليس هو الاستواء المكاني بل الاستيلاء والسيطرة على العالم كله ، فكما لا- شريك له في الخلق والإيجاد لا شريك له أيضاً في الملك والسلطة ، ولأجل ذلك يقول في بعض هذه الآيات : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (1).

فالتأويل بلا قيد وشرط ، إذا كان ضلالاً - كما سيوافيك بيانه - فكذلك الجمود على ظهور المفردات ، وترك التفكر والتعمق أيضاً ابتداءً مفض إلى صريح الكفر ، فلو حمل القارئ قوله سبحانه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (2) على أن لله مثلاً ، وليس لهذا المثل مثل ... إذن يقع في مغبة الشرك وحبائله ، وقد نقل الرازي في تفسيره لهذه الآية كلاماً عن ابن خزيمة فراجع (3).

وما أحسن قول ابن العربي في هؤلاء المجسمة المشبهة :

قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا *** عنها العدول إلى رأي ولا نظر

بينوا عن الخلق لستم منهم أبداً *** ما للأنام ومعلوف من البقر

وهؤلاء سلف المشبهة وأئمة المجسمة ، وقد اغتر بقولهم جماعة من البسطاء المحدثين إلى أن طلع إمام الأشاعرة فادّعى في الفترات الأخيرة من حياته أنه تاب

ص: 20

1- الأعراف : 54.

2- الشورى : 11.

3- مفاتيح الغيب : 8 / 388.

من الاعتزال وصار من شيعة منهج أحمد بن حنبل ، وأنّ مذهبه لا يفترق عنه قيد شعرة ، فقام بتعديله وإصلاحه بشكل خاصّ خال عمّا يناقض عقول الناس ، إلاّ فيما شذّ وندر . وليس مذهب الأشعري إلاّ صورة معدلة من مذهب الحنابلة وأهل الحديث ، كما سيوافيك ، فصار القول بالتشبيه والتجسيم الصريح متروكاً بعده إلى قرون .

ولكن العجب أنّ هذه البدع بعد إخمادها ، أخذت تنتعش في أوائل القرن الثامن بيد أحمد بن عبد الحلّيم بن تيمية الحرّاني (المتوفّى عام 728 هـ) ، فجَدّد ما اندرس من آثار تلك الطائفة المشبهة ، وقد وصفه السبكي في السيف الصقيل : « بأنّه رجل جسور يقول بقيام الحوادث بذات الرب » ، ولكنه يقول بأنكر من ذلك ، وقد أتى بنفس ما ذكره الدارمي المجسّم في كتابه « غوث العباد » المطبوع بمصر عام 1351 هـ في مطبعة الحلبي .

وعلى ذلك فابن تيمية إذن إمام المدافعين عن بيضة أهل التشبيه ، وشيخ أهل التجسيم ممن سبقه من الكرامية وجهلة المحدثين ، الذين اهتموا بالحفظ المجرّد ، وغفلوا عن الفهم والتفكير ، ولأجل ذلك نرى أنّ الشيخ الحرّاني يرمي المفكرين من المسلمين كإمام الحرمين ، والغزالي ، في كتابيه « منهاج السنّة والموافقة المطبوع على هامش الأول » بأنّهما أشدّ كفرًا من اليهود والنصارى . مع أنّه (أي ابن تيمية) يعتنق عقائد يخالف جمهرة المسلمين وأئمّة أهل البيت عليهم السلام .

2. معظلة السلفية

وهذه الزمرة من السلفية وإن كانت بريئة ممّا ذهبت إليه المجسّمة فهم لا يقننون أثر الظواهر ، بل يصرفونها عمّا يتبادر منها في بادئ النظر ، إلاّ أنّهم

لا يخوضون في المراد منها حذراً ممّا يسمى بـ « وصمة التأويل ».

فعقيدة هؤلاء في الصفات الخبرية أنّ لله سبحانه يداً وعيناً واستواءً على العرش ، لكن لا نعلم كنهها ، وفي مقدم هؤلاء مالك بن أنس ، وقد سئل عن معنى قوله سبحانه : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) أنّه كيف استوى ؟ فقال في جواب السائل : ما أظنّك إلاّ صاحب بدعة ، فالاستواء المذكور ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب . وفي رواية : والكيف غير معقول .

فلو صحت نسبة هذا الكلام إلى إمام المالكية ، فهو بلا شك من المعطّلة ، خصوصاً إذا كانت الرواية على قوله : « الكيف مجهول » ، فهو يعتقد أنّ لله سبحانه جلوساً على العرش ، لكن مجهولاً كنهه أو محالاً دركه ، فيجب الإيمان به لا السؤال عن حقيقته ، فيتوجه السؤال إلى إمام المذهب المالكي أنّه لماذا هجم على السائل بقوله ما أظنّك إلاّ صاحب بدعة؟! مع أنّ وظيفة العالم إرشاد الجاهل لا الهجوم عليه بكلمة لاذعة ، كما أنّه يتوجه إليه أنّ الآية ونظائرها تصحّح عند ذاك من الألغاز التي لا يفهم معناها ، بل يجب الإيمان بها ، ومع ذلك كلّه فقد راج هذا المذهب بعد ما رجع الإمام الأشعري من مذهب الاعتزال إلى مذهب المحدثين ، وفي مقدمهم أحمد بن حنبل ، يقول ابن خلكان : كان أبو الحسن الأشعري أولاً معتزلياً ، ثم تاب من القول بالعدل ، وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورقى كرسيّاً ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن ، وإنّ الله لا تراه الأبصار ، وإنّ أفعال الشر أنا أفعالها وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة من خرج لفضائحهم ومعائبهم (1).

ص: 22

فغاية ما عند الإمام الأشعري وأتباعه أن لله سبحانه صفات خبرية مثل اليدين ، والوجه ، ولكن لا نعرف كنه اللفظ الوارد فيه ، ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له وليس كمثلته شيء ، وذلك قد أثبتناه يقيناً (1).

وهذه الطائفة قد خرجت من مغبة التشبيه والتجسيم ، غير أنهم تورطوا في أشراك التعطيل وحبائله ، فعطلوا العقول عن التفكر في المعارف والأصول كما عطلوها عن التدبر في الآيات والأحاديث ، فكان القرآن أُلغز نزلت إلى البشر ، وليس كتاباً للتعليم والإرشاد ، قال تعالى : (وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) (2) ، فإذا كان القرآن مبيّناً لكل شيء فكيف لا يكون مبيّناً لنفسه؟! وكيف يكون المطلوب منه نفس الاعتقاد من دون فهم معناه؟ وفي الختام نشير إلى عدّة أمور :

1. أن القوم يطلقون عنوان « المعطّلة » على القائلين بوحدة الذات والصفات بمعنى أن صفاته سبحانه عين ذاته لا شيء زائد عليه ، وأن الذات كلّها علم وكلّها قدرة ، وكلّها حياة ، وليست هذه الصفات أموراً زائدة على نفس الذات.

والقوم لما لم يصلوا إلى مغزى تلك العقيدة رموا القائلين بها بالتعطيل ، أي تعطيل الذات عن الاتصاف بالصفات ، وهم برآء عن هذه التهمة ، إذ لم يعطلوها عن الاتصاف بها ، بل نزهوا الذات عن الاتصاف بالصفات الزائدة ، فكم فرق بين تعطيل الذات عن الصفات ، وبين تنزيهه عن الصفات الزائدة؟ فتوصيفهم بالتعطيل ظلم واضح ، بل المعطّلة حقيقة هم الذين عطلوا العقول عن البحث

ص: 23

1- الملل والنحل للشهرستاني : 1 / 92.

2- النحل : 89.

حول المعارف واكتفوا بالإيمان المجرد الخالي عن التعمق والتفهم.

2. إن معطلة السلف كانوا يرمون النظر في المعارف بحجة أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال : عليكم بدين العجائز ، فإنه الفائز. غير أنّ هذا النص لم يوجد في صحاح القوم ، ولا في مسانيدهم ، بل الصحيح ما روي أنّ « عمرو بن عبيد » لمّا أثبت منزلة بين الكفر والإيمان ، فقالت عجوزة : قال الله تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) فلم يجعل الله من عباده إلا الكافر والمؤمن. فقال سفيان : عليكم بدين العجائز.

وأقصى ما يمكن أن يقال : إنّ الرواية صدرت من النبي صلى الله عليه وآله عندما استدلت العجوز على وجود الصانع بحركة دولابها ، وكف اليد عن تحريكها ، على ما هو معروف ، فاستدلت بحركة الأجرام السماوية على أنّ لها محركاً كما أنّ لحركة دولابها محركاً ، وأين هذا من تعطيل العقول عن المعارف؟!

3. ثم إنّ تعطيل العقول عن البحث والمعرفة أخذ في هذه الأعصار صبغة علمية مادية بحثة بحجة أنّ مبادئها ومقدماتها ليست في متناول الباحثين ، لأنّها موضوعات وراء الحس والطبيعة ولا تعمل فيها حواس الإنسان ، فهذا هو السيد الندوي يتمسك بهذا الوجه ويعدّ ترك البحث فضيلة ، والبحث عن المعارف القرآنية كفراناً للنعمة.

يقول : وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته ، وآتاهم علم ذلك كلّه بواسطة عفوهم بدون تعب ، وكفؤهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول ، لأنّ هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيهما حواسهم ، ولا يؤدي إليها

نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً ، وأبدوا البحث أنفاً ، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خريئاً (1).

إن الكاتب حسب ما توحى عبارته متأثر بالفلسفة المادية التي تحصر أدوات المعرفة بالحس ، ولا يقيم وزناً للعقل الذي هو إحدى أدواتها ، وهذا من الكاتب أمر عجيب جداً ، فإن الله سبحانه كما دعا إلى الانتفاع بالحس ومطالعة الطبيعة وكشف قوانينها وأنظمتها دعا إلى التعقل والتفكر في كل ما ورد في القرآن الكريم حيث قال : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (2).

وليست الآية ناظرة إلى التدبر في خصوص الأنظمة السائدة على النبات والحيوان والإنسان ، بل التدبر في مجموع ما جاء في القرآن ، فقد جاء في القرآن الكريم معارف دعي إلى التدبر فيها ، نظير : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (3) . (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (4) . (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (5) . (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) (6).

(فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (7).

ص: 25

1- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : 97.

2- محمد : 24.

3- الشورى : 11.

4- النحل : 60.

5- طه : 8.

6- الحشر : 23.

7- البقرة : 115.

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (1).

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (2).

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ) (3).

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (4).

إلى غير ذلك من المعارف العليا الواردة في القرآن الكريم ، ولا- يحصل عليها الإنسان إلا بالتدبر والتعقل ، ولا تكفي في التعرف عليها العلوم الحسّية وإن بلغت القمة.

ثم إنّ لصدر المتألّهين كلاماً حول هذه الطائفة طويلاً الحديث عن ذكره ، كما أنّ للسيد العلامة الطباطبائي كلاماً قيماً آخر تركنا ذكره روماً للاختصار (5).

4. إنّ العقيدة الأشعرية هي عقيدة حنبلية معدّلة ، وقد تصرّفت في جميع ما كان غير معقول في العقيدة الأولى ، فلأجل ذلك حلّت محل ذلك المذهب بعد اضطرابات واشتباكات بين معدّل المذهب وأتباع العقائد الحنبلية.

وقد توفّق الرجل في تعديل المذهب ، وأوّل منه ما يناقض العقول ، ومع ذلك كلّه أبقى من المذهب الحنبلي أموراً على وجهها ولم يقدر على تأويلها ، وهي عبارة عن : مسألة قدم القرآن أولاً ، ورؤية الله سبحانه ثانياً ، والقول بالقضاء والقدر على وجه يجعل الإنسان مكتوف الأيدي ، فلو أغمضنا النظر عن هذه المسائل الثلاث ،

ص: 26

1- الحديد : 3.

2- الحجر : 21.

3- الحديد : 4.

4- الرعد : 39.

5- لاحظ الأسفار الأربعة : 1 / 5 ; الميزان : 8 / 158.

فقد توفّق الإمام الأشعري في إصلاح العقائد الحنبلية بعد ثبوتها في نفوس الناس وانتشارها في العالم.

3. المؤولة

إنّ المؤولة من الباطنية ليسوا بأقل خطراً من أصحاب الجمود ، فقد وضعوا لتفسير المفاهيم الإسلامية ضابطة باطلة لا يوافقها العقل ولا دلّ عليها من الشرع شيء ، قالوا :

للقرآن ظاهر وباطن ، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر ، وإنّ باطنه يؤدي إلى ترك العمل بظاهره ، واستدلوا على ذلك بقوله سبحانه : (فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (1). (2)

فإذا كانت تلك الضابطة في فهم الشريعة والعمل بالقرآن صحيحة ، إذن أصبحت الشريعة غرضاً لكل نابل ، وفريسة لكل آكل ، فلا يبقى منها شيء ، وفي هذه الحالة يدّعي كل مؤول أنّ الحق معه ، وأنّ المراد ما اختاره من التأويل على الرغم من اختلاف تأويلاتهم ، انظر إلى ما يقولون حول المفاهيم الإسلامية وأنّهم كيف يتلاعبون بها ، فالصلاة عبارة عن الناطق الذي هو الرسول ، لقوله سبحانه : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (3).

والغسل عبارة عن تجديد العهد ممن أفشى سراً من أسرار الباطنية من غير

ص: 27

1- الحديد : 13.

2- الفرق بين الفرق : 18.

3- العنكبوت : 45.

قصد ، والاحتلام عبارة عن إفشائه ، والزكاة هي تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين ، والجنة راحة الأبدان عن التكاليف ، والنار مشقتها بمزاولة التكاليف (1).

فإذا كان ما ذكره حقيقة الدين والتكاليف فلم يبق بين الديانة والإلحاد حد ولا فصل.

هذه نماذج من تأويلات الباطنية ، وقد ظهرت بوادر هذه الفتنة ونبتت نواتها زمن المأمون العباسي إلى أن صاروا طائفة كبيرة حاكمة على الإسلام والمسلمين ، ومحاربة لهم بغير السيف والنار ، عن طريق الاحتيال الموصل لهم إلى مآربهم وأهوائهم.

ويليهم في التخريب والإضرار التصوف الذي جاء به ابن العربي شيخ هذه الطريقة ، فقد قام بتأويل المفاهيم القرآنية على وجه لا دليل عليه ، فيقول : إن جبرائيل هو العقل الفعّال ، وميكايل هو روح الفلك السادس ، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع ، وعزرائيل هو روح الفلك السابع (2).

كما يفسر قوله سبحانه : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ) (3) بأنّ مرج البحرين هو بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد ، وهو العذب الفرات ، يلتقيان في الموجود الإنساني ، وأنّ بين الهيولى الجسماني والروح المجرد برزخ ، هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها.

ص: 28

1- المواقف : 8 / 390.

2- تفسير ابن العربي : 1 / 150.

3- الرحمن : 19 - 20.

ولكن مع ذلك لا يبغيان ، أي لا يتجاوز أحدهما حدّه فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح المجرّدة تجرّد البدن وتخرج به وتجعله من جنسه ، ولا البدن يجسّد الروح ويجعله مادياً (1).

تجد نظائر هذا في كتبه ، كالفتوحات المكية ، والفصوص ، فيطبّق كثيراً من الآيات القرآنية على كثير من نظرياته الصوفية ، وقد مني الإسلام بأصحاب الجمود في القرون الأولى وحتى الآن ، كما مني بالمؤولة من الباطنية والمتصوفة من أوائل القرن الثالث حتى الآن.

التأويل باسم التفسير العلمي

غير أنّ التأويل قد اتخذ في العصر الحاضر لوناً خاصاً واسماً فخماً ، يطلق عليه التفسير العلمي ، فالغاية عند هذه الطبقة إخضاع القرآن للمكتشفات العصرية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية ، والحيوانات والنباتات ، والجواهر المعدنية ، وقد ظهرت هذه النزعة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، وألّفت هناك كتب أبسطها كتاب « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » للشيخ طنطاوي جوهري المصري.

لكن التفسير بهذا النمط ، إنّما يستحسن إذا وافق ظاهر الآية ، غير أنّ المؤلفين في هذا القسم لا يكتفون بذلك بل يفسرون القرآن لغاية إخضاعه للمكتشفات ، ترى أنّهم يفسرون قوله سبحانه : (وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) (2) بالميكروب ، وقد ناقشنا هذا اللون من التفسير في بعض مسفوراتنا.

ص : 29

1- تفسير ابن العربي : 2 / 280.

2- الفيل : 3.

هذا النوع من التأويل مني به الإسلام منذ زمن بعيد غير أنه أخذ في هذه الأعصار صبغة علمية تخدع عقول الشباب ، والحافر إلى هذا النوع من التأويل هو إخضاع المفاهيم الغيبية للأمر الحسيّة المادية ، ونأتي بنماذج من هذا النوع حتى يقف القارئ الكريم على أنّ هذا النوع من التأويل في العصر الحاضر ، والتأويل عند الباطنية في الأعصار السالفة ، وجهان لعملة واحدة.

1. أنه سبحانه عندما يعدّ معاجز عيسى وآياته يقول : (قَدْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) (1) فأصحاب تلك المدرسة يزعمون أنه تمثيل لأخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره ، وأنّ المراد من (الأَكْمَةَ) من ليس عنده نظر ، كما أنّ المراد من (الأَبْرَصَ) المتلون بما يشوّه الفطرة (2).

فإذا كان هذا هو المقياس في تفسير القرآن الكريم فهو تفسير القرآن على عمى ، فلا تراعى فيه اللغة ، ولا قوانين الأدب ، ولا قوانين البلاغة ، ولا السنّة الصحيحة ولا ... ولا ...

وعلى هذا الأساس عاد الكاتب ينكر أن يكون إبراهيم قد أُلقي في النار وخرج منها سالماً (3). كما ينكر معاجز داود وسليمان ، وينكر الملائكة والجن والشيطان (4). إلى غير ذلك من التأويلات المزيّفة التي تسير الروح الإلحادية.

ص: 30

1- آل عمران : 49.

2- الهدية والعرفان في تفسير القرآن : 45.

3- لاحظ المصدر نفسه : 7 ، 256 ، 357.

4- لاحظ المصدر نفسه : 7 ، 256 ، 357.

والعجب أن علامة مصر الشيخ محمد عبده شيخ الأزهر الذي كان يرتجى منه الحفاظ على المفاهيم الأصيلة، تورّط في هذا المأزق، ففسر الملائكة وإبليس تفسيراً مادياً بعيداً عن ساحته (1).

كما أن موقفه في تفسير السحر كذلك أيضاً، حيث يفسر قوله سبحانه: (مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) (2) بالتمامين المقطعين لروابط الإلفة، المحرقين لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم (3).

وقد تأثر بهذا المنهج تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، فعاد ينكر أن يكون للنبي معجزة غير القرآن الكريم، ويقول في جواب المحتجين بانشقاق القمر: قد بيّننا أن ما تدلّ عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته في القرآن، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء (4).

فإذا كان شيخ الأزهر (عبده) وتلميذه سائرين على هذا النمط من التأويل، فما الظن بغيرهما من البسطاء؟!

إذا كان ربّ البيت بالدف مولعاً *** فشيمة أهل البيت كلهم الطرب

ولقد كان المفسّر المعاصر سيد قطب يميل إلى هذا النوع من التأويل، ولكنه عندما وصل إلى تفسير سورة الجن تنبّه إلى أن هذا اللون من التأويل ضرراً وبيلاً وقال: الجزم بنفي وجود الجن، ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضلالة بحيث لا تسمع بإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء.

ص: 31

1- لاحظ المنار: 1 / 267.

2- الفلق: 4.

3- تفسير جزء عم: 180.

4- تفسير المنار: 11 / 333; الوحي المحمدي: 69.

إنّ طريقنا هو إبطال الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس بلا حجة ولا دليل (1).

وهذه المناهج المنحرفة ممّا لا يوافق عليها العقل ولا الكتاب العزيز ولا السنّة النبوية ولا أحاديث العترة الطاهرة ، فلا مناص من الحفاظ على المعارف الغيبية والتعمّق فيها ، مجاناً الجمود على الظواهر ، والتأويل بلا دليل وحجة ، وهذا هو الآذي سلكناه في فهم كتاب الله واستخراج معارفه ، أرجو منه سبحانه أن يجعله ضياءً ونوراً يسعى بين أيدينا في يوم القيامة إنّه بذلك قدير وبالإجابة جدير.

جعفر السبحاني

قم المقدّسة

15 شوال المكرم 1407 هـ

ص: 32

1- في ظلال القرآن الكريم : 29 / 140.

عصمة الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم

إشارة

ص: 33

1. مبدأ ظهور فكرة العصمة في الأمة الإسلامية.
2. ما هي حقيقة العصمة؟
3. العصمة هي الدرجة القصوى من التقوى.
4. العصمة نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي.
5. العصمة الاستشعار بعظمة الرب وكماله.
6. هل العصمة موهبة إلهية أو أمر اكتسابي؟
7. هل العصمة تسلب الاختيار؟
8. مراحل العصمة الثلاث.
9. الآيات الدالة على عصمة الأنبياء في أمر الرسالة.
10. الآيات الدالة على مصونية الأنبياء عن المعصية.
11. حجة المخالفين للعصمة.
12. ما يستدل به من الآيات على عدم عصمتهم في مورد مطلق الأنبياء.
13. ما يستدل به من الآيات التي تمس عصمة عدة خاصة من الأنبياء.
14. عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما تمسكت به المخطئة.
15. عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من الخطأ والسهو.
16. دين النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قبل البعثة، والآيات الخمس التي تمسكت بها المخطئة في ذلك المجال.

قد استعملت لفظة « العصمة » في القرآن الكريم بصورها المختلفة ثلاث عشرة مرة ، وليس لها إلا معنى واحد وهو الإمساك والمنع ، ولو استعملت في موارد مختلفة فإنما هو بملاحظة هذا المعنى .

قال ابن فارس : « عصم » أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة ، والمعنى في ذلك كله معنى واحد ، من ذلك : « العصمة » أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه ، « واعتصم العبد بالله تعالى » : اذا امتنع ، و « استعصم » : التجأ ، وتقول العرب : « أعصمت فلاناً » أي هيأت له شيئاً يعتصم بما نالته يده . أي يلتجئ ويتمسك به (1).

إنَّ الله سبحانه يأمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله بقوله : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (2).

والمراد التمسك والأخذ به بشدة وقوة وينقل سبحانه عن امرأة العزيز قولها : (وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) (3).

وقد استعملت تلك اللفظة في الآية الأولى في الإمساك والتحفظ ، وفي الآية

ص : 35

1- المقاييس : 4 / 331.

2- آل عمران : 103.

3- يوسف : 32.

الثانية في المنع والامتناع ، والكل يرجع إلى معنى واحد.

ولأجل ذلك نرى العرب يسمون الحبل الذي تشد به الرحال : « العصام » ، لأنه يمنعها من السقوط والتفريق.

قال المفيد : إنَّ العصمة في أصل اللغة هي ما اعتصم به الإنسان من الشيء كأنه امتنع به عن الوقوع في ما يكره ، ومنه قولهم : اعتصم به الإنسان من الشيء كأنه امتنع به عن الوقوع في ما يكره. ومنه قولهم : « اعتصم فلان بالجبل » إذا امتنع به ، ومنه سميت العصم وهي وعول الجبال لامتناعها بها.

والعصمة من الله هي التوفيق الذي يسلم به الإنسان في ما يكره إذا أتى بالطاعة ، وذلك مثل إعطائنا رجلاً غريقاً حبلاً ليتشبث به فيسلم ، فهو إذا أمسكه واعتصم به ، سمي ذلك الشيء عصمة له ، لما تشبث به فيسلم به من الغرق ، ولو لم يعتصم به لم يسم عصمة (1).

وعلى كل تقدير فالمراد من العصمة صيانة الإنسان من الخطأ والعصيان ، بل الصيانة في الفكر والعزم ، فالمعصوم المطلق من لا يخطأ في حياته ، ولا يعصي الله في عمره ولا يريد العصيان ولا يفكر فيه.

مبدأ ظهور فكرة العصمة في الأمة الإسلامية

إنَّ الكتب الكلامية - قديمها وحديثها - مليئة بالبحث عن العصمة ، وإنما الكلام في مبدأ ظهور تلك الفكرة بين المسلمين ، وأنه من أين نشأ هذا البحث وكيف التفت علماء الكلام إلى هذا الأصل ؟

لا شك انَّ علماء اليهود ليسوا بالمبدعين لهذه الفكرة ، لأنهم ينسبون إلى

ص: 36

أنبيائهم معاصي كثيرة ، والعهد القديم يذكر ذنوب الأنبياء التي يصل بعضها إلى حد الكبائر ، وربما يخجل القلم عن ذكر بعضها استحياء ، فالأنبياء عندهم عصاة خاطئون ، وعند ذلك لا تكون أحبار اليهود مبدعين لهذه المسألة.

نعم إن علماء النصارى ، وإن كانوا ينزهون المسيح من كل عيب وشين ، ولكن تنزيههم ليس بملاك إن المسيح بشر أرسل لتعليم الإنسان وإيقاده ، بل هو عندهم « الإله المتجسد » أو هو ثالث ثلاثة.

وعند ذلك لا يمكن أن يكون علماؤهم مبدعين لهذه المسألة في الأبحاث الكلامية ، لأن موضوع العصمة هو « الإنسان ».

ويذكر « المستشرق رونالدسن » في كتابه « عقيدة الشيعة » أن فكرة عصمة الأنبياء في الإسلام مدينة في أصلها وأهميتها التي بلغتها بعدئذ ، إلى تطور « علم الكلام » عند الشيعة وأنهم أول من تطرق إلى بحث هذه العقيدة ووصف بها أئمتهم ، ويحتمل أن تكون هذه الفكرة قد ظهرت في عصر الصادق ، بينما لم يرد ذكر العصمة عند أهل السنة إلا في القرن الثالث للهجرة بعد أن كان الكليني قد صنف كتابه « الكافي في أصول الدين » (1) وأسهب في موضوع العصمة.

ويعلل « رونالدسن » بأن الشيعة لكي يثبتوا دعوى الأئمة تجاه الخلفاء السنيين أظهروا عقيدة عصمة الرسل بوصفهم أئمة أو هداة (2).

ص: 37

1- لقد توفي محمد بن يعقوب الكليني في العقد الثالث من القرن الرابع أي عام 328 هـ ، فلو استفحلت مسألة العصمة في القرن الثالث عند أهل السنة حسب اعتراف الرجل ، فكيف يكون كتاب الكافي منشأً لهذه الحركة الفكرية ، أفهل يمكن تأثير المتأخر في المتقدم ، وهل يكون العائش في القرن الرابع مؤثراً في فكر من يعيش في القرن الثالث ، أضف إليه أن كتاب الكافي لم يؤلف في الأصول وحدها ، بل هو كتاب مشتمل على أحاديث تربو على ستة عشر ألف حديث حول أصول الدين وفروعه.

2- عقيدة الشيعة : 328.

إنّ هذا التحليل لا يبتنى على أساس رصين وإنّما هو من الأوهام والأساطير التي اخترعتها نفسية الرجل وعداؤه للإسلام والمسلمين أولاً ،
والشيعة وأنتمهم ثانياً ، وسيوافيك بيان منشأ ظهور تلك الفكرة.

القرآن يطرح مسألة العصمة

إنّ العصمة بمعنى المصونية عن الخطأ والعصيان مع قطع النظر عنمن يتصف بها ، قد ورد في القرآن الكريم ، فقد جاء وصف الملائكة
الموكلين على الجحيم بهذا الوصف إذ يقول : (عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (1).

ولا يجد الإنسان كلمة أوضح من قوله سبحانه : (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) في تحديد حقيقة العصمة ، وواقعها ،
والفات الإنسان المتدبر في القرآن إلى هذه الفكرة ، وذلك الأصل.

إنّ الله سبحانه يصف الذكر الحكيم بقوله : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (2).

كما يصفه أيضاً بقوله : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ) (3).

فهذه الأوصاف تنص على مصونية القرآن من كل خطأ وضلال.

وعلى ذلك فالعصمة بمفهومها الواسع ، مع قطع النظر عن موصوفها ، قد طرحها القرآن وألفت نظر المسلمين إليها ، من دون أن يحتاج
علمائهم إلى أخذ

ص: 38

1- التحريم : 6.

2- فصلت : 42.

3- الإسراء : 9.

هذه الفكرة من الأحبار والرهبان.

نعم إنّ الموصوف في هذه الآيات وان كانت هي الملائكة أو القرآن الكريم والمطروح عند علماء الكلام هو عصمة الأنبياء والأئمة، لكن الاختلاف في الموصوف لا يضر بكون القرآن مبدعاً لهذه الفكرة، لأنّ المطلوب هو الوقوف على منشأ تكوّن هذه الفكرة، ثم تطورها عند المتكلمين، ويكفي في ذلك كون القرآن قد طرح هذه المسألة في حق الملائكة والقرآن.

عصمة النبي في القرآن الكريم

إنّ العصمة ذات مراحل أربع، وقد تكفل القرآن ببيان تلك المراحل في مورد الأنبياء عامة، ومورد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خاصة، وسيوافيك بيان تلك المراحل ودلائلها القرآنية.

فإذا كان القرآن هو أول من طرح هذه المسألة بمراحلها ودلائلها، فكيف يصح أن ينسب إلى الشيعة ويتصور أنّهم الأصل في طرح هذه المسألة؟!*

وإن كنت في ريب مما ذكرناه - هنا - فلاحظ قوله سبحانه في حق النبي الأكرم حيث يصف منطقته الشريف بقوله: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (1).

فترى الآيتين تشيران - بوضوح - إلى أنّ النبي لا - ينطق عن ميول نفسانية وأنّ ما ينطق به، وحي أُلقي في روعه وأُوحى إلى قلبه، ومن لا يتكلم عن الميول النفسانية، ويعتمد في منطقته على الوحي يكون مصوناً من الزلل في المرحلتين: مرحلة الأخذ والتلقّي ومرحلة التبليغ والتبيين.

على أنّ الآيات القرآنية تصف فؤاده وعينه بأنّهما لا يكذبان ولا يزيغان ولا

ص: 39

1- النجم: 3 - 4.

يطغيان ، إذ قال سبحانه : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * ... مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) (1).

أفصح بعد هذه الآيات القرآنية تصديق ما ذكره هذا المستشرق اليهودي أو ذلك المستشرق النصراني فيما زعما في كون الشيعة مبدأ لطح العصمة على بساط البحث ، وأنه وليد تكامل علم الكلام عند الشيعة في عصر الإمام الصادق عليه السلام مع أننا نرى أن للمسألة جذوراً قرآنية ولا عتب على الشيعة أن يفتنوا أثر كتاب الله سبحانه ، ويصفوا أنبياءه ورسله بما وصفهم به صاحب العزة في كتابه.

نظرية أحمد أمين حول كلام الشيعة

إن بعض المصريين كأحمد أمين ومن حذا حذوه يصرون على أن الشيعة أخذت منهجها الفكري في العدل والعصمة وغيرهما من الأفكار ، من المعتزلة حيث قالوا : إن الشيعة يقولون في كثير من مسائل أصول الدين بقول المعتزلة ، فقد قال الشيعة كما قال المعتزلة بأن صفات الله عين ذاته ، وبأن القرآن مخلوق وإنكار الكلام النفسي ، وإنكار رؤية الله بالبصر في الدنيا والآخرة ، كما وافق الشيعة المعتزلة في القول بالحسن والقبح العقليين ، وبقدرة العبد واختياره وأنه تعالى لا يصدر عنه قبيح وإن أفعاله معللة بالأغراض.

وقد قرأت كتاب الياقوت لأبي إسحاق إبراهيم من قدماء متكلمي الشيعة الإمامية (2) فكنت كأني أقرأ كتاباً من كتب أصول المعتزلة إلا في مسائل معدودة ، كالفصل الأخير في الإمامة وإمامة علي وإمامة الأحد عشر بعده ، ولكن أيهما أخذ من الآخر !؟

ص : 40

1- النجم : 11 - 17.

2- قال أحمد أمين تعليقاً على هذه الجملة : وهو مخطوط نادر تفضل صديقي الأستاذ أبو عبد الله الزنجاني فأهدانيه. أقول : إن هذا الكتاب طبع أخيراً في إيران مع شرح العلامة الحلبي.

أما بعض الشيعة فيزعمون أنّ المعتزلة أخذوا عنهم وأنّ واصل بن عطاء تتلمذ لجعفر الصادق ، وأنا أرجح أن الشيعة هم الذين أخذوا من المعتزلة تعاليمهم ... ونشوء مذهب الاعتزال يدل على ذلك ، وزيد بن علي زعيم الفرقة الشيعية الزيدية تتلمذ لواصل ، وكان جعفر « الصادق » يتصل بعمه زيد ويقول أبو الفرج في مقاتل الطالبين : كان جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب ، ويسوي ثيابه على السرج (1) فإذا صح ما ذكره الشهرستاني وغيره من تتلمذه لواصل ، فلا يعقل كثيراً أن يتلمذ واصل لجعفر ، وكثير من المعتزلة كان يتشيع ، فالظاهر أنّه عن طريق هؤلاء تسربت أصول المعتزلة إلى الشيعة (2).

مناقشة نظرية أحمد أمين

ما ذكره الكاتب المصري اجتهاد في مقابل تنصيب أئمة المعتزلة أنفسهم بأنهم أخذوا أصولهم من محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم وهما أخذوا عن علي بن أبي طالب والدهما العظيم ، وإليك بعض نصوصهم :

قال الكعبي : والمعتزلة يقال أن لها ولمذهبها اسناداً يتصل بالنبي ليس لأحد من فرق الأمة مثله ، وليس يمكن خصومهم دفعهم عنه ، وهو أنّ خصومهم يقرّون بأنّ مذهبهم يسند إلى واصل بن عطاء ، وان واصلاً يسند إلى محمد بن علي بن أبي طالب ، وابنه أبي هاشم « عبد الله بن محمد بن علي » وأنّ محمداً أخذ عن أبيه علي وأنّ علياً أخذ عن رسول الله (3).

وقال أيضاً : وكان واصل بن عطاء من أهل المدينة ربّاه محمد بن علي بن أبي

ص : 41

1- مقاتل الطالبين : 93.

2- ضحى الإسلام : 267 - 268.

3- رسائل الجاحظ : 228 ، تحقيق عمر أبو النصر.

وكان مع ابنه أبي هاشم في الكتاب ثم صحبه بعد موت أبيه مدة طويلة وحكي عن بعض السلف أنه قيل له : كيف كان علم محمد بن علي فقال : إذا أردت أن تعلم ذلك فانظر إلى أثره « واصل ».

وهكذا ذكروا في عمرو بن عبيد أنه أخذ عن أبي هاشم أيضاً ، وقال القاضي « عبد الجبار » : فأما أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي فلو لم يظهر علمه وفضله إلا بما ظهر عن واصل بن عطاء لكفى ، وكان يأخذ العلم عن أبيه وكان واصل بمنزلة كتاب صنعه أبو هاشم ، وكذلك أخوه غيلان بن عطاء يقال أنه أخذ العلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أخي أبي هاشم (2).

وقال الجاحظ : ومن مثل محمد الحنفية وابنه أبي هاشم الذي قرأ علوم التوحيد والعدل حتى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول.

قال ابن أبي الحديد : إن أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرف ، ومن كلامه (علي) عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، ومنه ابتدئ وإليه انتهى ، فإن المعتزلة - الذين هم أصل التوحيد والعدل وأرباب النظر ومنهم تعلم الناس هذا الفن - تلامذته ، وأصحابه ، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه.

وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة فالأشعرية

1- فضل الاعتزال : 234.

2- فضل الاعتزال : 226.

ينتهون بالآخرة إلى استاذ المعتزلة ومعلمهم ، وهو علي بن أبي طالب (1).

وقال المرتضى في أماليه : اعلم أنّ أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وخطبه ، فإنّها تتضمن من ذلك ما لا زيادة عليه ، ولا غاية وراءه ، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه ، علم أنّ جميع ما أسهب المتكلمون من بعده في تصنيفه وجمعه إنّما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول ، وروي عن الأئمة من أبنائه عليه السلام في ذلك ما لا يكاد يحاط به كثرة ، ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه ، أصاب منه الكثير ، الغزير ، الذي في بعضه شفاء للصدر السقيمة ، وتناج للعقول العقيمة (2).

وقال العلامة السيد مهدي الروحاني في تعليقه على نظرية أحمد أمين : إنّ أحمد أمين قد لفق ذلك التوجيه والرد ليقطع انتساب الاعتزال والمعتزلة إلى أمير المؤمنين ولم نر أحداً من الشيعة قال بتلمذ وأصل للإمام الصادق عليه السلام حتى يرد عليه أنّ الصادق كان يمسك الركاب لتلميذ وأصل ، وهو زيد. فتلمذه للصادق بعيد ، بل وجه اتصال المعتزلة بأمير المؤمنين هو ما ذكروه أنفسهم (حسب ما عرفت) ، ومجرد إمساك الإمام الصادق بالركاب لعنه زيد رحمه الله لا يدل على أنّ الصادق تتلمذ لعنه زيد ، وإنّما فعل أحمد أمين ذلك بدافع من هواه المعروف عنه ، والظاهر في كتبه ، وهو أن يسلب عن علي ما ينسب إليه من الفضائل مهما أمكن ولكن بصورة التحقيق العلمي علّ ذلك ينطلي على الناس ... وذلك بعد ما ظهر من الغربيين تقریظات ومقالات فيها تعظيم للمعتزلة وتعريف لهم بأنهم أصحاب الفكر الحر ، لم تسمح نفس أحمد أمين بأن تكون جماعة كهؤلاء ينتسبون في أصول مذهبهم وأفكارهم إلى علي ، فلفق ذلك التوجيه والرد والإغفال.

ص: 43

1- الشرح الحديدي : 1 / 17.

2- غرر الفوائد ودرر القلائد أو أمالي المرتضى : 1 / 148.

كما أنه قد أنكر بلا دليل انتساب علم النحو إليه مع أن ابن النديم قال في الفهرست: زعم أكثر العلماء أنّ النحو أخذه أبو الأسود عن أمير المؤمنين عليه السلام (1).

عود على بدء

فلنرجع إلى دراسة وجود جذور عصمة النبي في كلام علي عليه السلام حيث إنه يصف النبي في الخطبة القاصعة بقوله:

ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره (2).

ودلالة هذه القمة العالية من هذه الخطبة على عصمة النبي في القول والعمل عن الخطأ والزلل واضحة، فإنّ من رباه أعظم ملك من ملائكة الله سبحانه من لدن أن كان فطيماً، إلى أخريات حياته الشريفة، لا تنفك عن المصونية من الانحراف والخطأ، كيف وهذا الملك يسلك به طريق المكارم، ويربيه على محاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، وليست المعصية إلاّ سلوك طريق المآثم ومساوئ الأخلاق، ومن يسلك الطريق الأوّل يكون متجنباً عن سلوك الطريق الثاني.

إنّ الإمام أمير المؤمنين لا يصف خصوص النبي صلى الله عليه وآله بالعصمة في هذه الخطبة، بل يصف آل النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبرهم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقتهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد

ص: 44

1- بحوث مع أهل السنّة والسلفية: 108، وقد نقلنا بعض النصوص السابقة في حق المعتزلة عن ذلك الكتاب.

2- نهج البلاغة الخطبة: 187، طبعة عبده.

الحق في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ودعاية « (1).

لاحظ هذا الكلام وأمعن النظر فيه هل ترى كلمة أوضح في الدلالة على مصونيتهم من الذنوب وعصمتهم عن الآثام من قوله : « لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه » أي لا يعدلون عن الحق ، ولا يختلفون فيه ، قولاً وفعلاً كما يختلف غيرهم من الفرق ، وأرباب المذاهب ، فمنهم من له في المسألة قولان ، أو أكثر ، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه ، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه .

إن الإمام يصف آل النبي بقوله : « عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية » أي عرفوا الدين ، وعلموه ، معرفة من فهم الشيء وأتقنه ، ووعوا الدين وحفظوه ، وحاطوه ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ودعاية » .

وعلى الجملة إن قوله عليه السلام : « لا يخالفون الحق » ، دليل على العصمة عن المعصية وقوله : « عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية » دليل على مصونيتهم عن الخطأ ، وسلامتهم في فهم الدين ووعيه .

والإمام لا يكتفي ببيان عصمة آل رسول الله بهذين الكلامين ، بل يصف أحب عباد الله إليه بعبارات وجمل تساوق العصمة ، وتعادلها ، إذ يقول :

« أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه ، وأعدّ القرى ليومه النازل به ، فقرب على نفسه البعيد ، وهون الشديد ، نظر فأبصر ، وذكر فاستكثر ، وارتوى من عذب فرات سهلت له موارده فشرب نهلاً ، وسلك سبيلاً جديداً ، قد خلع سراويل الشهوات ، وتخلّى من الهموم إلاّ

ص: 45

هماً واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى ، ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه ، وسلك سبيله ، وعرف مناره وقطع غماره ، واستمسك من العرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس ، قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه ، وتصيير كل فرع إلى أصله ، مصباح ظلمات ، كشاف عشوات ، مفتاح مبهمات ، دقّاع معضلات ، دليل فلوات ، يقول فيفهم ، ويسكت فيسلم ، قد أخلص لله فاستخلصه فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العدل فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه ، يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية ، إلا أمّها ، ولا مظنة إلا قصدها ، قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وإمامه ، يحل حيث حل ثقله ، وينزل حيث كان منزله (1).

ولا أرى أحداً نظّر في هذه الخطبة ، وأمعن النظر في عباراته وجملته ، إلا وأيقن أنّ الموصوف بهذه الصفات في القمة الأعلى من العصمة. فهل ترى من نفسك أنّ من لا يكون له إلا هم واحد وهو الوقوف عند حدود الشريعة ومن ألزم على نفسه العدل ونفى الهوى عن نفسه ، أن لا يكون مصوناً من المعصية ، ومعتصماً من الزلل ، كيف وقد أمكن القرآن من زمامه ، فهو قائده وإمامه يحل حيث حل ، وينزل حيث نزل.

قال ابن أبي الحديد : إنّ هذا الكلام منه أخذ أصحابه علم الطريقة والحقيقة وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله ، والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً مناسبة للنبوة ويختص الله تعالى بها من يقربه إليه من خلقه.

وقال أيضاً : إنّ هذه الصفات والشروط والنعوت التي ذكرها في شرح حال العارف إنّما يعني بها نفسه ، وهو من الكلام الذي له ظاهر وباطن ، فظاهره أن

ص: 46

يشرح حال العارف المطلق ، وباطنه أن يشرح حال العارف المعين وهو نفسه عليه السلام .

ثم إنَّ الشارح الحديدي أخذ في تفسير هذه الصفات والشروط واحداً بعد آخر ، إلى أن بلغ إلى الشرط السادس عشر (1) ومن أراد الوقوف على أهداف الخطبة فليرجع إليه وإلى غيره من الشروح.

هذه جذور المسألة في الكتاب والسنة ، نعم انَّ المتكلمين هم الذين عنونوا مسألة العصمة وطرحوها في الأوساط الإسلامية ، فذهبت العدلية من الشيعة والمعتزلة إلى جانب النفي والسلب على أقوال وتفاصيل بين طوائفهم ، وقد أقام كل فريق دليلاً على مدعاه.

ولا يمكن أن ينكر أن المناظرات التي دارت بين الإمام علي بن موسى الرضا وأهل المقالات من الفرق الإسلامية قد أعطت للمسألة مكانة خاصة ، فقد أبطل الإمام الرضا عليه السلام كثيراً من حجج المخالفين في مجال نفي العصمة عن الأنبياء عامة والنبي الأعظم خاصة ، ولولا خوف الإطالة لأتينا ببعض هذه المناظرات التي دارت بين الإمام عليه السلام وأهل المقالات من الفرق الإسلامية ، وإن شئت الوقوف عليها فراجع بحار الأنوار (2). وسوف نرجع في نهاية المطاف إلى تفسير بعض الآيات التي تمسك بها المخالف في مجال نفي العصمة عن الأنبياء.

ما هي حقيقة العصمة ؟

إشارة

عرف المتكلمون العصمة على الإطلاق بأنها قوة تمنع الإنسان عن اقتفاف

ص: 47

1- الشرح الحديدي : 6 / 367 - 370.

2- بحار الأنوار : 11 / 72 - 85.

المعصية والوقوع في الخطأ (1).

وعرفها الفاضل المقداد بقوله : العصمة عبارة عن لطف يفعله الله في المكلف بحيث لا يكون له مع ذلك داع إلى ترك الطاعة ولا إلى فعل المعصية مع قدرته على ذلك ويحصل انتظام ذلك اللطف بأن يحصل له ملكة مانعة من الفجور والإقدام على المعاصي مضافاً إلى العلم بما في الطاعة من الثواب ، والعصمة من العقاب ، مع خوف المؤاخذة على ترك الأولى ، وفعل المنسي (2) إبطال نهج الباطل لفضل بن رزبهان على ما نقله عنه صاحب دلائل الصدق: 370/1-371.(3).

أقول : اذا كانت حقيقة العصمة عبارة عن القوة المانعة عن اقتراف المعصية والوقوع في الخطاء ، كما عرفه المتكلمون فيقع الكلام في موردين :

الأول : العصمة عن المعصية.

الثاني : العصمة عن الخطأ.

ولتوضيح حال المقامين من حيث الاستدلال والبرهنة يجب أن يبحث قبل كل شيء عن حقيقة العصمة.

إن حقيقة العصمة عن اقتراف المعاصي ترجع إلى أحد أمور ثلاثة على وجه منع الخلو ، وان كانت غير مانعة عن الجمع :

ص: 48

1- الميزان : 2 / 142 ، طبعة طهران.

2- إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين : 301 - 302 ، ومن العجب تفسير الأشاعرة للعصمة على ما يقتضيه أصلهم من استناد الأشياء كلها إلى الخالق المختار ابتداءً : بأن لا يخلق الله فيهم ذنباً)
3-).

1. العصمة الدرجة القصوى من التقوى

العصمة ترجع إلى التقوى بل هي درجة عليا منها ، فما توصف به التقوى وتعرف به تعرف وتوصف به العصمة.

لا شك أنّ التقوى حالة نفسانية تعصم الإنسان عن اقتراح كثير من القبائح والمعاصي ، فإذا بلغت تلك الحالة إلى نهايتها تعصم الإنسان عن اقتراح جميع قبائح الأعمال ، وذميم الفعال على وجه الإطلاق ، بل تعصم الإنسان حتى عن التفكير في المعصية ، فالمعصوم ليس خصوص من لا يرتكب المعاصي ويقتربها بل هو من لا يحوم حولها بفكره.

إنّ العصمة ملكة نفسانية راسخة في النفس لها آثار خاصة كسائر الملكات النفسانية من الشجاعة والعفة والسخاء ، فإذا كان الإنسان شجاعاً وجسوراً ، سخيّاً وباذلاً ، وعفيفاً ونزيهاً ، يطلب في حياته معالي الأمور ، ويتجنب عن سفاسفها فيطرده ما يخالفه من الآثار ، كالخوف والجبن والبخل والإمساك ، والقبح والسوء ، ولا يرى في حياته أثراً منها.

ومثله العصمة ، فإذا بلغ الإنسان درجة قصوى من التقوى ، وصارت تلك الحالة راسخة في نفسه يصل الإنسان إلى حد لا يرى في حياته أثر من العصيان والطغيان ، والتمرد والتجرّي ، وتصير ساحته نقية عن المعصية.

وأما أنّ الإنسان كيف يصل إلى هذا المقام؟ وما هو العامل الذي يمكنه من هذه الحالة؟ فهو بحث آخر سنرجع إليه في مستقبل الأبحاث.

فإذا كانت العصمة من سنخ التقوى والدرجة العليا منها ، يسهل لك تقسيمها إلى العصمة المطلقة والعصمة النسبية.

فإنّ العصمة المطلقة وإن كانت تختص بطبقة خاصة من الناس لكن

العصمة النسبية تعم كثيراً من الناس من غير فرق بين أولياء الله وغيرهم ، لأنّ الإنسان الشريف الذي لا يقل وجوده في أوساطنا ، وإن كان يقترف بعض المعاصي لكنه يجتنب عن بعضها اجتناباً تاماً بحيث يتجنب عن التفكير بها فضلاً عن الإتيان بها.

مثلاً الإنسان الشريف لا يتجوّل عارياً في الشوارع والطرقا مهمما بلغ تحريض الآخرين له على ذلك الفعل ، كما أنّ كثيراً من اللصوص لا يقومون بالسرقة في منتصف الليل متسلحين لانتهاج شيء رخيص ، كما أنّ كثيراً من الناس لا يقومون بقتل الأبرياء ولا بقتل أنفسهم وان عرضت عليهم مكافآت مادية كبيرة ، فإنّ الحوافز الداعية إلى هذه الأفعال المنكرة غير موجودة في نفوسهم ، أو أنّها محكومة ومردودة بالتقوى التي تحلّوا بها ، ولأجل ذلك صاروا بمعزل عن تلك الأفعال القبيحة حتى أنّهم لا يفكّرون فيها ولا يحدثون بها أنفسهم أبداً.

والعصمة النسبية التي تعرفت عليها تقرب حقيقة العصمة المطلقة في أذهاننا ، فلو بلغت تلك الحالة النفسانية الرادعة في الإنسان مبلغاً كبيراً ومرحلة شديدة بحيث تمنعه من اقتراف جميع القبائح ، يصير معصوماً مطلقاً ، كما أنّ الإنسان في القسم الأوّل صار معصوماً نسبياً.

وعلى الجملة : إذا كانت حوافز الطغيان والعصيان والبواعث على المخالفة محكومة عند الإنسان ، منفورة لديه لأجل الحالة الراسخة ، يصير الإنسان معصوماً تاماً منزهاً عن كل عيب وشين.

2. العصمة : نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي

قد تعرفت على النظرية الأولى في حقيقة العصمة وأنها عبارة عن : الدرجة

العليا من التقوى ، غير انّ هناك نظرية أخرى في حقيقتها ، لا تنافي النظرية الأولى ، بل ربّما تعد من علل تحقق الدرجة العليا من التقوى التي عرفنا العصمة بها وموجب تكونها في النفس ، وحقيقة هذه النظرية عبارة عن « وجود العلم القطعي اليقيني بعواقب المعاصي والآثام » علماً قطعياً لا يغلب ولا يدخله شك ، ولا يعتريه ريب ، وهو أن يبلغ علم الإنسان درجة يلمس في هذه النشأة لوازم الأعمال وآثارها في النشأة الأخرى وتبعاتها فيها ، ويصير على حد يدرك بل يرى درجات أهل الجنة ودركات أهل النار ، وهذا العلم القطعي هو الذي يزيل الحجب بين الإنسان وتوابع الأعمال ، ويصير الإنسان مصداقاً لقوله سبحانه : (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْبَاقِينَ * لَتَرُونَ الْجَحِيمَ) (1) ، وصاحب هذا العلم هو الذي يصفه الإمام علي عليه السلام بقوله : « فهم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون » (2).

فإذا بلغ العلم إلى هذه الدرجة من الكشف يصد الإنسان عن اجترأ المعاصي واقتراف المآثم بل لا يجول حولها فكره.

ولتوضيح تأثير هذا العلم في صيرورة الإنسان معصوماً من اقتراف الذنب نأتي بمثال :

إنّ الإنسان إذا وقف على أنّ في الأسلاك الكهربائية طاقة من شأنها قتل الإنسان إذا مسها من دون حاجز أو عائق بحيث يكون المس والموت مقترنين ، أحجمت نفسه عن مس تلك الأسلاك والاقتراب منها دون عائق.

هذا نظير الطبيب العارف بعواقب الأمراض وآثار الجراثيم ، فإنّه إذا وقف على ماء اغتسل فيه مصاب بالجذام أو البرص أو السل ، لم يقدم على شربه والاعتسال منه ومباشرته مهما اشتدت حاجته إلى ذلك لعلمه بما يجر عليه الشرب

ص: 51

1- التكاثر : 5 - 6.

2- نهج البلاغة : 2 : الخطبة 188 ، ص 187 ، طبعة عبده.

والاغتسال بذلك الماء الموبوء ، فإذا وقف الإنسان الكامل على ما وراء هذه النشأة من نتائج الأعمال وعواقب الفعال ورأى بالعيون البرزخية تبدل الكنوز المكتنزة من الذهب والفضة إلى النار المحمّاة التي تكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ، امتنع عن حبس الأموال والإحجام عن إنفاقها في سبيل الله.

قال سبحانه : (وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (1).

إنّ ظاهر قوله سبحانه : (هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) هو أنّ النار التي تكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ، ليست إلاّ نفس الذهب والفضة ، لكن بوجودهما الأخرين ، وأنّ للذهب والفضة وجودين أو ظهورين في النشأتين فهذه الأجسام الفلزية ، تتجلّى في النشأة الدنيوية في صورة الذهب والفضة ، وفي النشأة الأخرية في صورة النيران المحمّاة.

فالإنسان العادي اللا-مس لهذه الفلزات المكنوزة وان كان لا يحس فيها الحرارة ولا يرى فيها النار ولا لهيبتها ، إلاّ أنّ ذلك لأجل أنّه يفقد حين المس ، الحس المناسب لدرك نيران النشأة الآخرة وحرارتها ، فلو فرض إنسان كامل يمتلك هذا الحس إلى جانب بقية حواسه العادية المتعارفة ويدرك بنحو خاص الوجه الآخر لهذه الفلزات ، وهو نيرانها وحرارتها ، يجتنبها ، كاجتنابه النيران الدنيوية ، ولا يقدم على كنزها ، وتكديسها.

وهذا البيان يفيد أنّ للعلم مرحلة قويّة راسخة تصد الإنسان عن الوقوع في المعاصي والآثام ولا يكون مغلوباً للشهوات والغرائز.

قال جمال الدين مقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلبي في كتابه القيم

ص: 52

« اللوامع الإلهية » : « ولبعضهم كلام حسن جامع هنا قالوا : العصمة ملكة نفسانية يمنع المتصنف بها من الفجور مع قدرته عليه ، وتتوقف هذه الملكة على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات ، لأنّ العفة متى حصلت في جوهر النفس وانضاف إليها العلم التام بما في المعصية من الشقاء ، والطاعة من السعادة ، صار ذلك العلم موجباً لرسوخها في النفس فتصير ملكة » (1).

يقول العلامة الطباطبائي في هذا الصدد : إنّ القوة المسماة بقوة العصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتة ، ولو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور والإدراك ، لتسرب إليها التخلف ، ولتخبط الإنسان على أثره أحياناً ، فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم والإدراكات المتعارفة ، التي تقبل الاكتساب والتعلم ، وقد أشار الله في خطابه الذي خص به نبيه بقوله : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) (2) وهو خطاب خاص لا نفقهه حقيقة الفقه ، إذ لا تذوق لنا في هذا المجال (3).

وهو قدس سره يشير إلى كيفية خاصة من العلم والشعور الذي أوضحناه بما ورد حول الكنز وآثاره.

3. الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجماله

إنّ هاهنا نظرية ثالثة في تبين حقيقة العصمة يرجع لبها إلى أنّ استشعار العبد بعظمة الخالق وحبه وتفانيه في معرفته وعشقه له ، يصدّه عن سلوك ما يخالف رضاه سبحانه.

ص: 53

1- اللوامع الإلهية : 170.

2- النساء : 113.

3- الميزان : 81 / 5.

وتلك النظرية مثل النظرية الثانية لا تخالف النظرية الأولى التي فسرتها من أنّ العصمة هي الدرجة العليا من التقوى ، بل يكون الاستشعار والتفاني دون الحق ، والعشق لجماله وكماله ، أحد العوامل لحصول تلك المرتبة من التقوى ، وهذا النحو من الاستشعار لا يحصل إلا للكاملين في المعرفة الإلهية البالغين أعلى قممها.

إذا عرف الإنسان خالقه كمال المعرفة الميسورة ، وتعرف على معدن الكمال المطلق وجماله وجلاله ، وجد في نفسه انجذاباً نحو الحق ، وتعلقاً خاصاً به بحيث لا يستبدل برضاه شيئاً ، فهذا الكمال المطلق هو الذي إذا تعرف عليه الإنسان العارف ، يوجب في نفسه نيران الشوق والمحبة ، ويدفعه إلى أن لا يبتغي سواه ، ولا يطلب سوى إطاعة أمره وامثال نهيه ، ويصبح كل ما يخالف أمره ورضاه منفوراً لديه ، مقبوحاً في نظره ، أشد القبح. وعندئذ يصبح الإنسان مصوناً عن المخالفة ، بعيداً عن المعصية بحيث لا يؤثر على رضاه شيئاً ، وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله : « ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك إنّما وجدتك أهلاً للعبادة » (1).

هذه النظريات الثلاث أو النظرية الواحدة المختلفة في البيان والتقارير تعرب عن أنّ العصمة قوة في النفس تعصم الإنسان عن الوقوع في مخالفة الرب سبحانه وتعالى ، وليست العصمة أمراً خارجاً عن ذات الإنسان الكامل وهويته الخارجية.

نعم هذه التحاليل الثلاثة لحقيقة العصمة ، كلّها راجعة إلى العصمة عن المعصية والمصونية عن التمرد كما هو واضح لمن أعطى التأمل لها ، وأمّا العصمة في مقام تلقي الوحي والتحفظ عليه وإبلاغه إلى الناس ، أو العصمة عن الخطأ في

ص: 54

1- حديث معروف.

الحياة والأمور الفردية أو الاجتماعية فلا بد أن توجه بوجهه غير هذه الثلاثة كما سيوافيك بيانها عند البحث عن المقام الثاني ، أعني : العصمة عن الخطأ والاشتباه ، والمهم هو البحث عن المقام الأول ، ولذلك قدّمنا الكلام فيه .

نعم هناك عدة روايات تصرّح بأنّ ، هناك « روحاً » تعصم الأنبياء والرسل عن الوقوع في المهالك والخطايا ، وإليك بيانها :

الروح التي تسدّد الأولياء

روى أبو بصير قال : سألت أبا عبد الله عن قول الله تبارك وتعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) (1) قال : « خلق من خلق الله عزّ وجلّ أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده » (2).

وهذه الرواية مع أنّ ظاهرها لا ينطبق على الآية ، لأنّ الوحي يتعلّق بالمفاهيم والألفاظ لا بالجواهر والأجسام ، فالملك الذي هو أعظم من جبرئيل وميكائيل لا- يمكن أن يتعلّق به الوحي ، ويكون هو الموحى به ، وإنّما يتعلّق به الإرسال والبعث ونحو ذلك ، لا صلة لها بباب المعاصي بل هي راجعة إلى التسديد في تلقي الوحي وإبلاغه إلى الناس ، وحفظهم عن الخطأ على وجه الإطلاق.

على أنّ هناك روايات تشعر بأنّ هذه الروح التي تؤيد الأنبياء غير خارجة عن ذواتهم ، وهذا جابر الجعفي يروي عن الإمام الصادق في تفسير قوله سبحانه : (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ

ص: 55

1- الشورى : 52.

2- الكافي : 1 / 273 ، باب « الروح التي يسدّد بها الأئمة » الحديث 1 و2.

المَشَامَةُ مَا أَصْحَابُ المَشَامَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (1) : « فإلسابقون هم رسل الله ، وخاصة الله من خلقه جعل فيهم خمسة أرواح أيدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء ، وأيدهم بروح الإيمان فبه خافوا الله عز وجل ، وأيدهم بروح القوة فبه قدروا على طاعة الله ، وأيدهم بروح الشهوة فبه اشتها طاعة الله عز وجل وكرهوا معصيته ، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون » (2).

ولا يخفى أن الأرواح الأربعة غير خارجة عن ذواتهم ، ولا يبعد أن تكون الخامسة وهي روح القدس غير خارجة عن ذواتهم ويكون المراد كمال نفوسهم إلى حد يعرفون الأشياء على ما هي عليها.

قال الشيخ صالح المازندراني في تفسير هذه الأرواح الخمسة : جعل الله تعالى بالحكمة البالغة والمصلحة الكاملة في الرسل والخاصة ، خمسة أرواح لحفظهم من الخطاء وتكميلهم بالعلم والعمل ليكون قولهم صدقاً ، وبرهاناً ، والاقتداء بهم رشداً وإيقاناً كيلا يكون لمن سواهم على الله حجة يوم القيامة ، ولعل المراد بالأرواح هنا النفوس (3).

وعلى أي تقدير فهذه الروايات التي تشهد بتسديد الأنبياء بها إما راجعة إلى تسديدهم في مقام تلقي الوحي ، أو راجعة إلى تسديدهم عن الخطاء في الأحكام والموضوعات والكل خارج عن إطار البحث ، وإثما الكلام في صيانتهم عن المعاصي.

ص: 56

1- الواقعة : 6 - 11.

2- (2 الكافي : 1 / 261 باب فيه « ذكر الأرواح التي في الأئمة » الحديث 1 و 2 و 3.

3- هامش أصول الكافي : 136 ، الطبعة القديمة.

قد وقفت على حقيقة « العصمة » والعوامل التي توجب صيانة الإنسان عن الوقوع في حبال المعصية ، ومهالك التمرد والطغيان ، غير أنّ هاهنا سؤالاً هاماً يجب الإجابة عنه وهو : إنّ العصمة سواء أفسدت بكونها هي الدرجة العليا من التقوى ، أو بكونها العلم القطعي بعواقب المآثم والمعاصي ، أم فسدت بالاستشعار بعظمة الرب وجماله وجلاله ، وعلى أي تقدير فهو كمال نفساني له أثره الخاص ، وعندئذ يسأل عن أنّ هذا الكمال هل هو موهوب من الله لعباده المخلصين ، أو أمر حاصل للشخص بالاكْتساب ؟ فالظاهر من كلمات المتكلمين أنّها موهبة من مواهب الله سبحانه يتفضّل بها على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصحّحة لإفاضتها عليهم.

قال الشيخ المفيد : العصمة تفضل من الله على من علم أنّه يتمسك بعصمته (1).

وهذه العبارة تشعر بأنّ إفاضة العصمة من الله سبحانه أمر خارج عن إطار الاختيار ، غير أنّ أعمالها والاستفادة منها يرجع إلى العبد وداخل في إطار إرادته ، فله أن يتمسك بها فيبقى معصوماً من المعصية ، كما له أن لا يتمسك بتلك العصمة.

وقال أيضاً : والعصمة من الله تعالى هي التوفيق الذي يسلم به الإنسان مما يكره إذا أتى بالطاعة (2).

وقال المرتضى في أماليه : العصمة : لطف الله الذي يفعله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع عن فعل قبيح.

ص: 57

1- شرح عقائد الصدوق : 61.

2- أوائل المقالات : 11.

ونقل العلامة الحلي عن بعض المتكلمين بأنه فسر العصمة بالأمر الذي يفعله الله بالعبد من الألفاظ المقربة إلى الطاعات التي يعلم معها أنه لا يقدم على المعصية بشرط أن لا ينتهي ذلك إلى الإلجاء.

ونقل عن بعضهم: العصمة لطف يفعله الله تعالى بصاحبها لا يكون معه داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية.

ثم فسر أسباب هذا اللطف بأمر أربعة (1).

وقال جمال الدين مقداد بن عبد الله الشهير بالفاضل السيوري الحلي (المتوفى عام 826 هـ) في كتابه القيم «اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية»: «

قال أصحابنا ومن وافقهم من العدلية: «هي (العصمة) لطف يفعله الله بالمكلف بحيث يمتنع منه وقوع المعصية لانتفاء داعيه، ووجود صارفه مع قدرته عليها» ثم نقل عن الأشاعرة بأنها هي القدرة على الطاعة وعدم القدرة على المعصية (2).

كما نقل عن بعض الحكماء أنّ المعصوم خلقه الله جبلة صافية، وطينة نقية، ومزاجاً قابلاً، وخصه بعقل قوي وفكر سوي، وجعل له ألقافاً زائدة، فهو قوي بما خصه على فعل الواجبات واجتناب المقبحات، والالتفات إلى ملكوت السماوات، والإعراض عن عالم الجهات، فتصير النفس الأمانة مأسورة مقهورة في حيز النفس العاقلة (3).

وقال العلامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

ص: 58

1- كشف المراد: 228، طبعة صيدا.

2- سيوافيك أنّ العصمة لا تنافي القدرة، والهدف من نقل قول الأشاعرة هو إثبات اتفاق القائلين بالعصمة، على أنّها موهبة إلهية.

3- اللوامع الإلهية: 169.

عَنْكُمْ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (1) : إِنَّ اللَّهَ تَسْتَمِرُّ إِرَادَتُهُ أَنْ يَخَصَّكُمْ بِمَوْهَبَةِ الْعِصْمَةِ بِإِذْهَابِ الْإِعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَأَثَرِ الْعَمَلِ السَّيِّئِ عَنْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَإِيرَادِ مَا يَزِيلُ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ وَهِيَ الْعِصْمَةُ (2).

إلى غير ذلك من الكلمات التي تصرح بكون العصمة من مواهبه سبحانه إلى عباده المخلصين ، وفي الآيات القرآنية تلويحات وإشارات إلى ذلك مثل قوله سبحانه : (وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَا لَهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ) (3) ، وقوله سبحانه في حق بني إسرائيل والمراد أنبيأؤهم ورسولهم : (وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) (4).

فإنَّ قوله : (إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) وقوله : (وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ) يدل على أنَّ النبوة والعصمة ، وإعطاء الآيات لأصحابها من مواهب الله سبحانه إلى الأنبياء ، ومن يقوم مقامهم من الأوصياء.

فإذا كانت العصمة أمراً إلهياً وموهبة من مواهبه سبحانه ، فعندئذ ينطرح ها هنا سؤالان تجب الإجابة عنهما ، والسؤالان عبارة عن :

1. لو كانت العصمة موهبة من الله مفاضة منه سبحانه إلى رسله وأوصيائهم لم تعد كمالاً ومفخرة للمعصوم حتى يستحق بها التحسين والتحميد والتمجيد ، فإنَّ الكمال الخارج عن الاختيار كصفاء اللؤلؤ ، لا يستحق التحسين

ص: 59

1- الأحزاب : 33.

2- الميزان : 16 / 313.

3- ص : 45 - 48.

4- الدخان : 32 - 33.

والتمجيد ، فإنّ الحمد والثناء إنّما يصحان في مقابل الفعل الاختياري ، وما هو خارج عن إطار الاختيار لا يصح أن يحمده صاحبه عليه ، إذ هو وغيره في هذا المجال سواء ، ولو أفيض ذلك الكمال على فرد آخر لكان مثله ؟

2. إذا كانت العصمة تعصم الإنسان عن الوقوع في المعصية ، فالإنسان المعصوم عاجز عن ارتكاب المعاصي واقتراف المآثم ، وعندئذ لا يستحق لترك العصيان مدحاً ولا ثواباً إذ لا اختيار له ؟

والفرق بين السؤالين واضح ، إذ السؤال الأول يرجع إلى عد نفس إفاضة العصمة مفخرة من مفاخر المعصوم ، لأنّه إذا كانت موهبة إلهية لما صح عدها كمالاً للمعصوم ، بخلاف السؤال الثاني فإنّه يتوجه إلى أنّ العصمة تسلب القدرة عن المعصوم على ارتكاب المعاصي ، فلا يعد الترك كمالاً ولا عاملاً لاستحقاق الثواب.

وهذان السؤالان من أهم الأسئلة في باب العصمة ، وإليك الإجابة عن كليهما.

العصمة المفاضة كمال لصاحبها

إنّ العصمة الإلهية لا تفاض للأفراد إلا بعد وجود أرضيات صالحة في نفس المعصوم تقتضي إفاضة تلك الموهبة إلى صاحبها ، وأمّا ما هي تلك الأرضيات والقابليات التي تقتضي إفاضة فخارج عن موضوع البحث ، غير إنّما نقول على وجه الاجمال : إنّ تلك القابليات على قسمين : قسم خارج عن اختيار الإنسان ، وقسم واقع في إطار إرادته واختياره.

أمّا القسم الأوّل ، فهى القابليات التي تنتقل إلى النبي من آباءه وأجداده عن طريق الوراثة ، فإنّ الأولاد كما يرثون أموال الآباء وثوراتهم ، يرثون أوصافهم

الظاهرية والباطنية، فترى أنّ الولد يشبه الأب أو العم، أو الأم أو الخال، وقد جاء في المثل: الولد الحلال يشبه العم أو الخال.

وعلى ذلك فالروحيات الصالحة أو الطالحة تنتقل من طريق الوراثة إلى الأولاد، فنرى ولد الشجاع شجاعاً، وولد الجبان جباناً إلى غير ذلك من الأوصاف الجسمانية والروحانية.

إنّ الأنبياء كما يحدثنا التاريخ كانوا يتولّدون في البيوتات الصالحة العريقة بالفضائل والكمالات، وما زالت تنتقل تلك الكمالات والفضائل الروحية من نسل إلى نسل وتتكامل إلى أن تتجسد في نفس النبي ويتولد هو بروح طيبة وقابلة كبيرة لإفاضة المواهب الإلهية عليه.

نعم ليست الوراثة العامل الوحيد لتكوّن تلك القابليات بل هناك عامل آخر لتكوّنها في نفوس الأنبياء وهو عامل التربية، فإنّ الكمالات والفضائل الموجودة في بيتهم تنتقل من طريق التربية إلى الأولاد.

ففي ظلّ دينك العاملين: «الوراثة والتربية» نرى كثيراً من أهل تلك البيوتات ذوي إيمان وأمانة، وذكاء ودراية، وما ذلك إلاّ لأنّ العائشين في تلك البيئات والمتولدين فيها يكتسبون جل هذه الكمالات من دينك الطريقين، وعلى ذلك فهذه الكمالات الروحية أرضيات صالحة لإفاضة المواهب الإلهية إلى أصحابها ومنها العصمة والنبوة.

نعم هناك عوامل أخر لاكتساب الأرضيات الصالحة داخلة في إطار الاختيار وحرية الإنسان وإليك بعضها:

1. إنّ حياة الأنبياء من لدن ولادتهم إلى زمان بعثتهم مشحونة بالمجاهدات الفردية والاجتماعية، فقد كانوا يجاهدون النفس الأمّارة أشدّ الجهاد، ويمارسون تهذيب أنفسهم بل ومجتمعهم، فهذا هو يوسف الصديق عليه السلام جاهد نفسه الأمّارة

وألجمها بأشد الوجوه عندما راودته من هو في بيتها (وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) فأجاب بالرد والنفي بقوله : (مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (1).

وهذا موسى كليم الله وجد في مدين امرأتين تزدودان واقفتين على بعد من البئر ، فقدم اليهما قائلاً : ما خطبكما فقالتا : انا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، وعند ذلك لم يتفكر في شيء إلا في رفع حاجتهما ، ولأجل ذلك سقى لهما ثم تولّى إلى الظل قائلاً : (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (2). (3)

وكم هناك من شواهد تاريخية على جهاد الأنبياء وقيامهم بواجبهم أبان شبابهم إلى زمان بعثتهم التي تصدت لذكرها الكتب السماوية وقصص الأنبياء وتواريخ البشر.

فهذه العوامل ، الداخلة بعضها في إطار الاختيار والخارج بعضها عن إطاره أوجدت قابليات وأرضيات صالحة لإفاضة وصف العصمة عليهم وانتخابهم لذلك الفيض العظيم ، فعندئذ تكون العصمة مفخرة للنبي صالحة للتحسين والتبجيل والتكريم.

وإن شئت قلت : إن الله سبحانه وقف على ضمانهم وتياتهم ومستقبل أمرهم ، ومصير حالهم وعلم أنهم ذوات مقدسة ، لو أفيضت إليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطاعة وترك المعصية بحرية واختيار ، وهذا العلم كاف لتصحيح إفاضة تلك الموهبة عليهم بخلاف من يعلم من حاله خلاف ذلك.

ص: 62

1- يوسف : 23.

2- القصص : 23 - 24.

3- لاحظ قصة موسى في دفعه القبطي المعتدي على إسرائيلي في سورة القصص الآيات : 15 - 20 وفي ذلك يقول : (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ) (القصص : 17).

يقول العلامة الطباطبائي: إنَّ الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة، واعتدال الخلقة، فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقادة، وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة، وقلوب سليمة، فنالوا بمجرد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب بل أعلى وأرقى لطهارة داخلهم من التلوث بألوان الموانع والمزاحمات، والظاهر أنَّ هؤلاء هم المخلصون (بالفتح) لله في مصطلح القرآن، وهم الأنبياء والأئمة، وقد نص القرآن بأنَّ الله اجتباهم، أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته، قال تعالى: (وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (1) وقال: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (2). (3)

وهذه العبارة من العلامة الطباطبائي تشير إلى القسم الثاني وهو القابليات الخارجة عن اختيار الأنبياء غير أنَّ هناك أموراً واقعة في اختيارهم كما عرفت، فالكل يعطي الصلاحية لإفاضة الموهبة الإلهية على تلك النفوس المقدسة.

كلام السيد المرتضى

إنَّ للسيد المرتضى كلاماً في الإجابة عن هذا السؤال نأتي بنصه:

فإن قيل: إذا كان تفسير العصمة ما ذكرتم فالأعصم الله تعالى جميع المكلفين وفعل بهم ما يختارون عنده الامتناع من القبائح؟

قلنا: كل من علم الله تعالى أنَّ له لطفاً يختار عنده الامتناع من القبائح فإنه لا بد أن يفعل به وإن لم يكن نبياً ولا إماماً، لأنَّ التكليف يقتضي فعل اللطف على

ص: 63

1- الأنعام: 87.

2- الحج: 78.

3- الميزان: 11 / 177.

ما دل عليه في مواضع كثيرة غير أنه لا يتمتع أن يكون في المكلفين من ليس في المعلوم أن شيئاً متى فعل ، اختار عنده الامتناع من القبيح ، فيكون هذا المكلف لا عصمة له في المعلوم ولا لطف ، وتكليف من لا لطف له يحسن ولا يقبح وإنما القبيح منع اللطف في من له لطف مع ثبوت التكليف (1).

وحاصل ما أفاده هو : أن الملاك في إفاضة هذا الفيض هو علمه سبحانه بحال الأفراد في المستقبل فكل من علم سبحانه أنه لو أفيض عليه وصف العصمة لاختار عنده الامتناع من القبائح ، فعندئذ تقاض عليه العصمة ، وان لم يكن نبياً ولا إماماً ، وأما من علم أنه متى أفيضت إليه تلك الموهبة لما اختار عندها الامتناع من القبيح لما أفيضت عليه العصمة لأنه لا يستحق الإفاضة.

وعلى ذلك فوصف العصمة موهبة إلهية تقاض لمن يعلم من حاله أنه ينتفع منها في ترك القبائح عن حرية واختيار.

ولأجل ذلك يعد مفخرة قابلة للتحسين والتكريم ولا يلزم أن يكون المعصوم نبياً أو إماماً ، بل كل من ينتفع منها في طريق كسب رضاه سبحانه تقاض عليه.

إلى هنا تمت الإجابة على السؤال الأول ، وبقيت الإجابة على السؤال الثاني ، وإليك ذلك :

هل العصمة تسلب الاختيار ؟

ربما يتخيل أن المعصوم لا يقدر على ارتكاب المعصية واقتراف المآثم ، فالعصمة تسلب القدرة والاختيار عن صاحبها ، وعند ذلك لا يعد ترك العصيان مكرمة.

ص: 64

1- أمالي المرتضى : 2 / 347 - 348 ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

وفي هذا الصدد يقول السيد المرتضى :

ما حقيقة العصمة التي يُعتقد وجوبها للأنبياء والأئمة عليهم السلام؟ وهل هي معنى يضطر إلى الطاعة ويمنع من المعصية، أو معنى يضام الاختيار؟ فإن كان معنى يضطر إلى الطاعة ويمنع من المعصية، فكيف يجوز الحمد والذم لفاعلها؟ وإن كان معنى يضام الاختيار فاذكروه، ودلّوا على صحة مطابقته له (1).

والجواب: إنّ العصمة لا- تسلب الاختيار عن الإنسان بأي معنى فسرت، سواء أقلنا بأنّها الدرجة العليا من التقوى، أو أنّها نتيجة العلم القطعي بعواقب المآثم والمعاصي، أو أنّها أثر الاستشعار بعظمة الرب والمحبة لله سبحانه، وعلى كل تقدير فالإنسان المعصوم مختار في فعله، قادر على كلا طرفي القضية من الفعل والترك، وتوضيح ذلك بالمثال الآتي :

إنّ الإنسان العاقل الواقف على وجود الطاقة الكهربائية في الأسلاك المنزوعة من جلدّها، لا يمسهّا كذلك، كما أنّ الطبيب لا يأكل سور المجذومين والمسلولين لعلمهما بعواقب فعلهما، وفي الوقت نفسه يرى كل واحد منهما نفسه قادراً على ذلك الفعل، بحيث لو أغمض العين عن حياته وهيا نفسه للمخاطرة بها، لفعل ما يتجنبه، غير أنّهما لا يقومان به لكونهما يحبان حياتهما وسلامتهما.

فإن شئت قلت: إنّ العمل المزبور ممكن الصدور بالذات من العاقل والطبيب، غير أنّه ممتنع الصدور بالعرض والعادة، وليس صدوره محالاً ذاتياً وعقلياً، وكم فرق بين المحالين، ففي المحال العادي يكون صدور الفعل من الفاعل ممكناً بالذات، غير أنّه يرجح أحد الطرفين على الآخر بنوع من الترجيح بخلاف الثاني فإنّ الفعل فيه يكون ممتنعاً بالذات، فلا يصدر لعدم إمكانه الذاتي.

ص: 65

وإن شئت فلاحظ صدور القبيح منه سبحانه فإنّ صدوره منه أمر ممكن بالذات ، داخل في إطار قدرته فهو يستطيع أن يدخل المطيع في نار الجحيم والمعاصي في نعيم الجنة ، غير أنّه لا- يصدر منه ذلك الفعل لكونه مخالفاً للحكمة ومبايناً لما وعد به وأوعد عليه ، وعلى ذلك فامتناع صدور الفعل عن الإنسان مع التحفظ على الأغراض والغايات ، لا يكون دليلاً على سلب الاختيار والقدرة.

فالنبي المعصوم قادر على اقرار المعاصي وارتكاب الخطايا ، حسب ما أُعطي من القدرة والحريّة ، غير أنّه لأجل حصوله على الدرجة العليا من التقوى واكتساب العلم القطعي بآثار المآثم والمعاصي واستشعاره بعظمة الخالق ، يتجنب عن اقرارها واكتسابها ولا يكون مصدرًا لها مع قدرته واقتداره عليها.

ومثلهم في ذلك المورد كمثل الوالد العطوف الذي لا يقدم على قتل ولده ، ولو أُعطي له الكنوز المكنوزة والمناصب المرموقة ومع ذلك فهو قادر على قتله ، بحمل السكين والهجوم عليه وقطع أوردته ، وفي هذا الصدد يقول العلامة الطباطبائي :

إنّ هذا العلم أعني ملكة العصمة لا يغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية ، ولا يخرجها إلى ساحة الإجمار والاضطرار كيف؟ والعلم من مبادئ الاختيار ، ومجرد قوة العلم لا يوجب إلاّ قوة الإرادة كطالب السلامة إذا أيقن بكون مائع ما ، سمّاً قاتلاً من حينه فإنّه يمنع باختياره من شربه قطعاً ، وإنّما يضطر الفاعل ويجبر إذا أخرج المجرّب أحد طرفي الفعل والترك من الإمكان إلى الامتناع.

ويشهد على ذلك قوله : (وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (1) تقييد الآية أنّهم في إمكانهم أن يشركوا بالله وإن كان الاجتباء أو الهدى الإلهي مانعاً من ذلك ، وقوله : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ) (2) ، إلى غير ذلك من الآيات.

فالإنسان المعصوم إنّما ينصرف عن المعصية بنفسه وعن اختياره وإرادته ، ونسبة الصرف إلى عصمته تعالى كنسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية إلى توفيقه تعالى .

ولا ينافي ذلك أيضاً ما يشير إليه كلامه تعالى وتصرح به الأخبار من أنّ ذلك من الأنبياء والأئمة بتسديد من روح القدس ، فإنّ النسبة إلى روح القدس ، كنسبة تسديد المؤمن إلى روح الإيمان ، ونسبة الضلال والغواية إلى الشيطان وتسويله ، فإنّ شيئاً من ذلك لا يخرج الفعل عن كونه فعلاً صادراً عن فاعله مستنداً إلى اختياره وإرادته فافهم ذلك.

نعم هناك قوم زعموا أنّ الله سبحانه إنّما يصرف الإنسان عن المعصية لا من طريق اختياره وإرادته بل من طريق منازعة الأسباب ومغالبتها بخلق إرادة أو إرسال ملك يقاوم إرادة الإنسان فيمنعها عن التأثير أو يغير مجراها ويحرفها إلى غير ما من طبع الإنسان أن يقصده كما يمنع الإنسان القوي ، الضعيف عما يريده من الفعل بحسب طبعه.

وبعض هؤلاء وإن كانوا من المجبرة لكن الأصل المشترك الذي يبتني عليه نظرهم هذا وأشباهه : أنّهم يرون أنّ حاجة الأشياء إلى البارئ الحق سبحانه إنّما هي في حدوثها ، وأما في بقائها بعد ما وجدت فلا حاجة لها إليه فهو سبحانه سبب في عرض الأسباب ، إلاّ أنّه لما كان أقدر وأقوى من كل شيء كان له أن يتصرف في

ص: 67

1- الأنعام : 87 - 88.

2- المائدة : 67.

الأشياء حال البقاء أي تصرف شاء ، من منع أو إطلاق وإحياء أو إماتة ومعافاة أو تمريض وتوسعة أو تقصير إلى غير ذلك بالقهر.

فإذا أراد الله سبحانه أن يصرف عبداً عن شر مثلاً ، أرسل إليه ملكاً ينازعه في مقتضى طبعه ويغير مجرى إرادته مثلاً من الشر إلى الخير ، أو أراد أن يضلل عبداً لاستحقاقه ذلك ، سلط عليه إبليس فحولته من الخير إلى الشر وإن كان ذلك لا بمقدار يوجب الإجمار والاضطرار.

وهذا مدفوع بما نشاهده من أنفسنا في أعمال الخير والشر مشاهدة عيان أنه ليس هناك سبب آخر يغيرنا وينازعنا فيغلب علينا غير أنفسنا التي تعمل أعمالها عن شعور بها وإرادة مترتبة عليه قائمين بها ، فالذي يثبت السمع والعقل وراء نفوسنا من الأسباب كالملك والشيطان سبب طولي لا عرضي مضافاً إلى أن المعارف القرآنية من التوحيد وما يرجع إليه يدفع هذا القول من أصله (1).

ص: 68

قد وقفت على حقيقة العصمة وما يرجع إليها من المباحث الاستطردادية ، فيجب الآن الوقوف على مراحلها التالية :

1. الصيانة في تلقي الوحي والحفاظ عليه وإبلاغه إلى الناس.

2. الصيانة من المعصية وارتكاب الذنب المصطلح.

3. الصيانة من الخطأ في الأمور الفردية والاجتماعية.

هذه هي مراحل العصمة ، ويمكن تبين تلك المراحل بصورة أخرى ، وهي أنّ متعلّق العصمة والصيانة لا تخلو عن أحد أمور وهي :

إمّا كفر بالله أو عصيانه ومخالفته.

والثاني لا يخلو إمّا أن يكون معصية كبيرة ، أو صغيرة ؛ والصغيرة على قسمين : إمّا أن تكون حاكية عن خسة الفاعل ودناءة طبعه كسرقة اللقمة الواحدة ، أو لا ؛ وعلى كل حال فصدور المعصية إمّا عمدي أو سهوي ، وإمّا صادر قبل البعثة أو بعدها.

وقد فصل القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في عصره مذهب المعتزلة في العصمة ، فحكم بأنّه يجب أن يكون النبي منزهاً عمّا يقتضي خروجه من ولاية الله تعالى إلى عداوته قبل النبوة وبعدها كما يجب أن يكون منزهاً من كذب أو كتمان أو سهو أو غلط إلى غير ذلك ، ومن حقه أن لا يقع منه ما ينفر منه عن القبول منه أو

يصرف من السكون إليه أو عن النظر في علمه ، نحو الكذب على كل حال ، والتورية والتعمية في ما يؤديه ، والصغائر المستخفة (1).

وقال التفتازاني في شرح العقائد النسفية : إنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع ، وكذا من تعمّد الكبائر عند الجمهور خلافاً للحشوية ، وأما سهواً ، فجوّزه الأكثرون ؛ وأما الصغائر ، فيجوز عمداً عند الجمهور ، خلافاً للجبائي وأتباعه ، ويجوز سهواً بالاتفاق إلا ما يدل على الخسة (2).

قال الفاضل القوشجي : إن المعاصي إما أن تكون منافية لما تقتضيه المعجزة ، كالكذب في ما يتعلق بالتبليغ أو لا ، والثاني إما أن يكون كفراً أو معصية ؛ وهي إما أن تكون كبيرة كالقتل والزنا ، أو صغيرة منفرة كسرقة لقمة والتطيف بحبة ، أو غير منفرة ككذبة وشتمة ؛ وكل ذلك إما عمداً أو سهواً ، أو بعد البعثة أو قبلها (3).

فنقول : أما الأول ، أعني : صدور الكفر من المعصومين ، فلم يجوّزه أحد ، وما ربّما ينسب إلى بعض الفرق كالأزارقة من تجويز الكفر على الأنبياء ، فالمراد من الكفر هو المعصية في مصطلح المسلمين ، وإنما أطلقوا عليه لفظ الكفر ، لأجل اعتقادهم بأن كل معصية كفر ، قال الفاضل المقداد : أجمعوا على امتناع الكفر عليهم إلا الفضيلية من الخوارج فإنهم جوّزوا صدور الذنب عنهم ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم جواز الكفر عليهم ، وجوّز قوم عليهم الكفر تقيّة وخوفاً ، ومنعه ظاهر ، فإن أولى الأوقات بالتقيّة زمان بدء الدعوة لكثرة المنكرين له حينئذ ، لكن ذلك يؤدي إلى خفاء الدين بالكلية (4).

ص: 70

1- المغني : 15 / 279.

2- العقائد النسفية : 171 ، ونسب فيه للشيعة جواز إظهار الكفر للتقيّة ، وهم براء منه.

3- شرح التجريد : 464.

4- اللوامع الإلهية : 170.

وقال الفاضل القوشجي : قد جَوَّز الأزارقة من الخوارج الكفر بناء على تجويزهم الذنب مع قولهم بأن كل ذنب كفر (1).

وربما يتوهم تجويز الكفر على النبي لأجل التقية ، وهو باطل ، لأنَّ للتقية شرائط خاصة تجوز إذا حصلت ولا تقية في هذا المورد ، وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار الهمداني الأسدي : فإن قال : أفتجوزون على الرسول التقية في ما يؤدّيه ؟ قيل له : لا يجوز ذلك عليه في ما يلزمه أن يؤدّيه ، ولو كانت مجوزة لم تعظم مرتبة النبي ، لأنَّها إنّما تعظم ، لأنَّه يتكفل بأداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونه - إلى أن قال : - فلو هُدِّد بالقتل إذا أدى شريعته فما الحكم فيه ؟ قيل له : يلزمه أن يؤدّيه ويعلم انه تعالى يصرف ذلك عنه (2).

وأما غير الكفر فتفصيل المذاهب هو أنّ الشيعة اتفقت على عصمة الأنبياء عن المعصية صغيرة كانت أو كبيرة ، سهواً كانت أو عمداً قبل البعثة أو بعدها. نعم يظهر من الشيخ المفيد تجويز بعض المعاصي الصغيرة على غير عمد على الأنبياء قبل العصمة حيث قال : إنّ جميع أنبياء الله (صلى الله عليهم) معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها وبما يستخف فاعله من الصغائر كلها ، وأما ما كان من صغير لا يستخف فاعله فجاز وقوعه منهم قبل النبوة ، وعلى غير عمد ، وممتنع منهم بعدها على كل حال (ثم قال :) وهذا مذهب جمهور الإمامية (3).

ويظهر ذلك من المحقق الأردبيلي في تعاليقه على شرح التجريد للفاضل القوشجي حيث إنّ المحقق الطوسي استدل على العصمة بأنّه لولاها لما حصل الوثوق بقول الأنبياء ، وأورد عليه الشارح بأنّ صدور الذنوب لا سيما الصغيرة

ص: 71

1- شرح التجريد : 464.

2- المغني : 284 / 15.

3- أوائل المقالات : 29 و 30.

سهواً لا يخل بالوثوق ، وعلّق عليه الأردبيلي بقوله : « خصوصاً قبل البعثة » (1).

وأما غير الشيعة فقد عرفت نظرية الاعتزال غير أنّ الفاضل القوشجي يفصل بقوله : الجمهور على وجوب عصمتهم عما ينافي مقتضى المعجزة ، وقد جوزه القاضي سهواً ، زعماً منه أنّه لا يخل بالتصديق المقصود بالمعجزة وكذا عن تعمد الكبائر ، بعد البعثة ، وجوزه الحشوية ، وكذا عن الصغائر المنفرة لإحلالها بالدعوة إلى الاتباع ولهذا ذهب كثير من المعتزلة إلى نفي الكبائر قبل البعثة أيضاً والمذهب عند محققي الأشاعرة منع الكبائر والصغائر الخسيصة بعد البعثة مطلقاً ، والصغائر غير الخسيصة عمداً لا سهواً ، وذهب إمام الحرمين من الأشاعرة وأبو هاشم من المعتزلة إلى تجويز الصغائر عمداً (2).

هذه هي الأقوال المعروفة بين المتكلمين وستعرف شذوذ الكل عن الكتاب والسنة وحكم العقل غير القول الأوّل ، فنقول يقع الكلام في مراحل :

المرحلة الأولى : عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة

ذهب الأكثرون من الجمهور والشيعة أجمع إلى عصمتهم في تلك المرحلة ونسب إلى الباقلاني تجويز الخطأ في إبلاغ الرسالة سهواً ونسياناً لا عمداً وقصداً ، وقال أبو الحسن عبد الجبار المعروف بالقاضي رئيس الاعتزال في وقته (المتوفى سنة 415) : لا يجوز الكذب في ما يؤدّيه (أي النبي) عن الله تعالى ، لأنّه تعالى ، مع حكمته ، ومع أنّ غرضه بالبعثة تعريف المصالح ، لو علم أنّه يختار الكذب في ما يؤدّيه لم يكن لبعثه ، لأنّ ذلك ينافي الحكمة ، ولمثل هذه العلة لا يجوز أن لا يؤدّيه ما حمّله من الرسالة ، ولا أن يكتمه أو يكتّم بعضه .

ص: 72

1- تعاليق المحقق الأردبيلي على شرح التجريد : 464.

2- شرح التجريد للفاضل القوشجي : 664.

إلى أن قال : إنّ لا نجوز عليه السهو والغلط في ما يؤدّيه عن الله تعالى لمثل العلة التي تقدم ذكرها ، لأنّه لا فرق ، في خروجه من أن يكون مؤدياً بين أن يسهو أو يغلط أو يكتم أو يكذب ، فحال الكل يتفق في ذلك ولا يختلف.

وإنّما نجوز أن يسهو في فعل قد بينه من قبل وأدّى ما يلزم فيه حتى لم يغادر منه شيئاً ، فإذا فعله لمصالحه لم يمتنع أن يقع فيه السهو والغلط ، ولذلك لم يشتبه على أحد الحال في أنّ الذي وقع منه من القيام في الثانية هو سهو ، وكذلك ما وقع منه في خبر ذي اليمين إلى غير ذلك (1).

وفي ما ذكره من تجويز السهو على النبي في الفعل الذي بين حكمه سيأتي الكلام فيه.

وقد استدل المحققون من المتكلمين على عصمتهم في تلك المرحلة بوجوه أشار إليها المحقّق الطوسي في تجريده بقوله : ليحصل الوثوق بأفعاله وأقواله ، ويحصل الغرض من البعثة وهو متابعة المبعوث إليهم له في أوامره ونواهيته (2).

وما ذكره من الدليلين وإن كان لا يختص بهذه المرحلة بل يعم المراحل الأخر ، ولكنه برهان تام يعتمد عليه العقل والوجدان في مسألة عصمة الأنبياء في مجال تبليغ الرسالة.

توضيحه :

إنّ الهدف الأسمى والغاية القصوى من بعث الأنبياء هو هداية الناس إلى التعاليم الإلهية والشرائع المقدسة ، ولا تحصل تلك الغاية إلاّ بإيمانهم بصدق

ص: 73

1- المغني : 15 / 281.

2- شرح التجريد للفاضل القوشجي : 463 ، وكشف المراد : 217 طبع صيدا.

المبعوثين ، وإذعانهم بكونهم مرسلين من جانبه سبحانه ، وإنّ كلامهم وأقوالهم كلامه وقوله سبحانه ، وهذا الإيمان والإذعان لا يحصل إلاّ بإذعان آخر وهو الإذعان بمصونيتهم عن الخطاء في المراحل الثلاث في مجال تبليغ الرسالة ، وهي المصونية في مقام أخذ الوحي ، والمصونية في مقام التحفّظ عليه ، والمصونية في مقام الإبلاغ والتبيين ، ومثل هذا لا يحصل إلاّ بمصونية النبي عن الزلل والخطاء عمده وسهوه. قال القاضي أبو الحسن عبد الجبار : إنّ النفوس لا تسكن إلى القبول - ممّن يخالف فعله قوله - سكونها إلى من كان منزهاً عن ذلك ، فيجب أن لا يجوز في الأنبياء عليهم السلام إلاّ ما نقوله من أنّهم منزّهون عمّا يوجب العقاب والاستخفاف والخروج من ولاية الله تعالى إلى عداوته.

يبين ذلك أنّهم لو بعثوا لل منع من الكبائر والمعاصي بالمنع والردع والتخفيف فلا يجوز أن يكونوا مقدمين على مثل ذلك ، لأنّ المتعالم أنّ المقدم على الشيء لا يقبل منه منع الغير منه للنهي والزجر ، وإنّ هذه الأحوال منه لا تؤثر ... ولو إنّ واعظاً انتصب يخوف من المعاصي من يشاهده مقدماً على مثلها لاستخف به وبوعظه (1).

وقال في موضع آخر : إنّ الواعظ والمذكّر وإن غلب على ظننا من حاله أنّه مقلع تائب لما أظهره من أمارات التوبة والندامة حتى عرفنا من حاله الانهماك في الشرب والفجور من قبل ، لم يؤثر وعظه عندنا كتأثير المستمر على النظافة والنزاهة في سائر أحواله (2).

وما ذكره أخيراً دليل وجوب العصمة حتى قبل البعثة.

وهذا البرهان لو قرر على الوجه الكامل لكفي برهاناً في جميع مراحل

ص: 74

1- المغني : 15 / 303.

2- المصدر نفسه : 305.

العصمة التي سنينها في الأبحاث الآتية.

هذا منطق العقل ، وأما منطق الوحي فهو يؤكد على مصونية النبي في تبليغ الرسالة في المجالات الثلاثة الماضية ، وإليك بيان ذلك :

القرآن وعصمة النبي في مجال تلقي الوحي و ...

إشارة

هناك آيات تدل على العصمة في ذلك المجال نذكرها واحدة بعد الأخرى :

الآية الأولى

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) . (1)

(إِلَّا مَنْ أَزْوَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) (2).

(لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) (3).

إن دلالة الآيات هذه على مصونية الرسل والأنبياء في مجال تلقي الوحي وما يليه من التحفظ والتبليغ تتوقف على توضيح بعض مفرداته :

1. قوله : (فَلَا يُظْهِرُ) من باب الافعال بمعنى الاعلام كما في قوله سبحانه : (وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ) (4).

2. لفظة (مِنْ) في قوله : (مِنْ رَسُولٍ) بيانية تبين المرضي عند الله ،

ص: 75

1- الجن : 26.

2- الجن : 27.

3- الجن : 28.

4- التحريم : 3.

فالرسول هو المرتضى الذي اختاره الله تعالى لتعريفه على الغيب.

3. والضمير في (إِنَّهُ) في قوله : (إِنَّهُ يَسْأَلُكَ) يرجع إلى الله ، كما أنّ ضمير الفاعل في قوله : (يَسْأَلُكَ) أيضاً يرجع إليه ، وهو بمعنى : يجعل.

4. والضمير في (يَدِيهِ وَمَنْ خَلْفِهِ) يرجع إلى الرسول.

5. و (رَصَدًا) هو الحارس الحافظ يطلق على الجمع والمفرد.

6. والمراد من : (بَيْنَ يَدَيْهِ) أي ما بين يدي الرسول : ما بينه وبين الناس ، المرسل إليهم.

كما أنّ المراد من (مِنْ خَلْفِهِ) ما بين الرسول وبين مصدر الوحي الذي هو سبحانه.

وعلى ذلك فالنبي مصون ومحفوظ في مجال تلقي الوحي من كلا الجانبين.

وقد اعتبر في هذا التعبير ما يوهمه معنى الرسالة من أنّه فيض متصل من المرسل (بالكسر) وينتهي إلى المرسل إليه (بالفتح) والآية تصف طريق بلوغ الغيب إلى الرسل وأنّ الرسول محاط بالرصد والحارس من أمامه « ما بين يديه » و « خلفه » وورائه ، فلا يصيبه شيء يباين الوحي.

ومعنى الآية : إنّ الله يجعل (يسلك) ما بين الرسول ومن أرسل إليه ، وما بين الرسول ومصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة ، وليس جعل الرصد امام الرسول وخلفه إلاّ للتحفظ على الوحي من كل تخليط وتشويش بالزيادة والنقص التي يقع فيها من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها.

ثم إنّ سبحانه علّل جعل الرصد بين يدي الرسول وخلفه بقوله : (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ) .

والمراد من العلم هو العلم الفعلي بمعنى التحقق الخارجي على حد قوله : (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (1).

أي ليتحقق إبلاغ رسالات ربهم على ما هي عليه من غير تغيير وتبدل.

7. قوله : (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) بمنزلة الجملة المتممة للحراسة المستفاد من قوله : (رَصَدًا) .

وعلى الجملة فهذه العبارات الثلاث الواردة في الآية تقيد مدى عناية الباري للحراسة والحفاظ على الوحي إلى أن يصل إلى المرسل إليهم بلا تغيير وتبدل ، وهذه الجمل عبارة عن :

أ. (مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ) .

ب. (وَمِنْ خَلْفِهِ) .

ج. (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) .

فالجملة الأولى تشير إلى وجود رصد بين الرسول والناس .

كما أن الجملة الثانية تشير إلى وجود رصد محافظين بينه وبين مصدر الوحي .

والجملة الثالثة تشير إلى وجود الحفظة في داخل كياناتهم .

فتصير النتيجة أن الوحي في أمن وأمان من تطرق التحريف منذ أن يفاض من مصدر الوحي ويقع في نفس الرسول إلى أن يصل إلى الناس والمرسل إليهم .

8. قوله : (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) مسوق لإفادة عموم علمه بكل شيء سواء في ذلك الوحي الملقى إلى الرسول وغيره .

ص: 77

1- العنكبوت : 3.

يقول العلامة الطباطبائي : إنَّ قوله سبحانه : (فَإِنَّهُ يَسَّرُ لَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) إلى آخر الآيتين يدل على أنَّ الوحي الإلهي محفوظ من لدن صدوره من مصدر الوحي إلى بلوغه الناس ، مصون في طريق نزوله إلى أن يصل إلى من قصد نزوله إليه .

أمَّا مصونيته من حين صدوره من مصدره إلى أن ينتهي إلى الرسول فيكفي في الدلالة عليه قوله : (مِنْ خَلْفِهِ) وأمَّا مصونيته حين أخذ الرسول إياه وتلقيه من ملك الوحي بحيث يعرفه ولا يغلط في أخذه ، ومصونيته في حفظه بحيث يعيه كما أوحى إليه من غير أن ينساه أو يغيره أو يبدله .

ومصونيته في تبليغه إلى الناس من تصرف الشيطان فيه فالدليل عليه قوله : (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ) حيث يدل على أنَّ الغرض الإلهي من سلوك الرصد أن يعلم إبلاغهم رسالات ربهم أي أن يتحقَّق في الخارج إبلاغ الوحي إلى الناس ، ولازمه بلوغه إيَّاهم ولولا مصونية الرسول في الجهات الثلاث المذكورة جميعاً لم يتم الغرض الإلهي وهو ظاهر .

وحيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض طريقاً غير سلوك الرصد دل ذلك على أنَّ الوحي محروس بالملائكة وهو عند الرسول ، كما أنَّه محروس بهم في طريقه إلى الرسول حتى ينتهي إليه ، ويؤكدده قوله بعده : (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) .

وأمَّا مصونيته في مسيره من الرسول حتى ينتهي إلى الناس فيكفي فيه قوله : (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) على ما تقدم معناه .

أضف إلى ذلك دلالة قوله : (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ) بما تقدم من تقريب دلالاته .

ويتفرع على هذا البيان : أنَّ الرسول مؤيد بالعصمة في أخذ الوحي من ربه وفي حفظه وفي تبليغه إلى الناس ، مصون من الخطأ في الجهات الثلاث جميعاً لما مرَّ

من دلالة على أنّ ما نزلّه الله من دينه على الناس من طريق الرسالة بالوحي ، مصون في جميع مراحلها إلى أن ينتهي إلى الناس ومن مراحلها مرحلة أخذ الرسول للوحي وحفظه له وتبليغه إلى الناس.

والتبليغ يعم القول والفعل فإنّ في الفعل تبليغاً كما في القول ، فالرسول معصوم من المعصية باقتراف المحرمات وترك الواجبات الدينية ، لأنّ في ذلك تبليغاً لما يناقض الدين فهو معصوم من فعل المعصية كما أنّه معصوم من الخطأ في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه قولاً.

وقد تقدمت الإشارة إلى أنّ النبوة كالرسالة في دورانها مدار الوحي ، فالنبي كالرسول في خاصة العصمة ، ويتحصل بذلك أنّ أصحاب الوحي سواء كانوا رسلاً أو أنبياء معصومون في أخذ الوحي وفي حفظ ما أوحى إليهم وفي تبليغه إلى الناس قولاً وفعلاً (1).

الآية الثانية

قوله سبحانه : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (2).

إنّ الآية تصرح بأنّ الهدف من بعث الأنبياء هو القضاء بين الناس في ما اختلفوا فيه ، وليس المراد من القضاء إلاّ القضاء بالحق ، وهو فرع وصول الحق إلى القاضي بلا تغيير وتحريف.

ص: 79

1- الميزان : 20 / 133.

2- البقرة : 213.

ثم إن نتيجة القضاء هي هداية من آمن من الناس إلى الحق بإذنه كما هو صريح قوله : (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) .

والهادي وإن كان هو الله سبحانه في الحقيقة لكن الهداية تتحقق عن طريق النبي ، وبواسطته ، وتحقق الهداية منه فرع كونه واقفاً على الحق ، بلا تحريف .

وكل ذلك يستلزم عصمة النبي في تلقي الوحي والحفاظ عليه ، وإبلاغه إلى الناس .

وبالجمله فالآية تدل على أن النبي يقضي بالحق بين الناس ويهدي المؤمنين إليه ، وكل ذلك (أي القضاء بالحق أولاً ، وهداية المؤمنين إليه ثانياً) يستلزم كونه واقفاً على الحق على ما هو عليه وليس المراد من الحق إلا ما يوحى إليه .

الآية الثالثة

قوله سبحانه : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (1) .

فالآية تصرح بأن النبي لا ينطق عن الهوى ، أي لا يتكلم بداعي الهوى . فالمراد إمّا جميع ما يصدر عنه من القول في مجال الحياة كما هو مقتضى إطلاقه أو خصوص ما يحكيه من الله سبحانه ، فعلى كل تقدير فهو يدل على صيانه وعصمته في المراحل الثلاث المتقدم ذكرها في مجال إبلاغ الرسالة .

وبما أن عصمة الأنبياء في تلك المرحلة تكون من المسلمات عند المحققين من أصحاب المذاهب والملل ، فلنعطف عنان البحث إلى ما تضاربت فيه آراء المتكلمين ، وإن كان للشيعه فيه قول واحد ، وهو عصمتهم عن العصيان والمخالفة لأوامره ونواهيه .

ص : 80

المرحلة الثانية : عصمة الأنبياء عن المعصية لقد وقفت على دلائل عصمة الأنبياء في تلقي الوحي وحان الحين للبحث عن عصمتهم عن المعصية. ونبحث في ذلك عن وجهتين : العقلية والقرآنية :

العقل وعصمة الأنبياء

إنّ القرآن الكريم يصرح بأنّ الهدف من بعث الأنبياء هو تزكية نفوس الناس وتصفييتهم من الرذائل وغرس الفضائل فيها قال سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم : (رَبِّدَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا - مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (1) وقال سبحانه : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (2).

والمراد من التزكية هو تطهير القلوب من الرذائل وإنماء الفضائل ، وهذا هو ما يسمى في علم الأخلاق ب « التربية ».

ولا شك أنّ تأثير التربية في النفوس يتوقف على إذعان من يراد تربيته بصدق المربي وإيمانه بتعاليمه ، وهذا يعرف من خلال عمل المربي بما يقوله ويعلمه وإلا فلو كان هناك انفكاك بين القول والعمل ، لزال الوثوق بصدق قوله وبالتالي تفقد التربية أثرها ، ولا تتحقق حينئذ الغاية من البعث.

وإن شئت قلت : إنّ التطابق بين مرحلتي القول والفعل ، هو العامل الوحيد لكسب ثقة الآخرين بتعاليم المصلح والمربي ، ولو كان هناك انفكاك بينهما

ص : 81

1- البقرة : 129.

2- آل عمران : 164.

لانفض الناس من حوله قائلين بأنه لو كان مدعناً بصحة دعوته لما خالف قوله في مقام العمل.

سؤال وجواب

نعم يمكن أن يقال : يكفي في الاعتماد على النبي مصونته عن معصية واحدة وهي الكذب فالبرهان المذكور على تماميته لا يثبت إلا مصونته عن خصوص الكذب لا مطلقاً.

أقول : الإجابة عن هذا السؤال سهلة ، لأنّ التفكيك بين المعاصي فرضية محضة لا- يصح أن تقع أساساً للتربية العامة لما فيها من الإشكالات.

أمّا أولاً : فإنّ المصونية عن المعاصي نتيجة إحدى العوامل التي أوعزنا إليها عند البحث عن حقيقة العصمة فإن تم وجودها أو وجود بعضها تحصل المصونية المطلقة للإنسان ، وإلا فلا يمكن التفكيك بين الكذب وسائر المعاصي بأن يجتنب الإنسان عن الكذب طيلة عمره ويرتكب سائر المعاصي ، فإنّ العوامل التي تسوق الإنسان إلى ارتكابها تسوقه أيضاً إلى اقتراف الكذب واجتياح التهمة.

وأما ثانياً : فلو صح التفكيك بينهما في عالم الثبوت لا يمكن إثباته (الداعي لا يكذب أبداً وإن كان يركب سائر المعاصي) في حق الداعي ومدعي النبوة ، إذ كيف يمكن الإنسان أن يقف على أنّ مدعي النبوة مع ركوبه المعاصي واقترافه للمآثم ، لا يكذب أصلاً عندما اضطر إليه حتى ولو صرح الداعي إلى الإصلاح بنفس هذا التفكيك ، لسرى الريب إلى نفس هذا الكلام أيضاً.

وعلى الجملة : إنّ الهدف من بعث الرسل وإنزال الكتب هو دعوة الناس إلى الهداية الإلهية التي يقوم بأعبائها الأنبياء والرسل ، ولا يتحقق ذلك الهدف إلا بعد

اعتماد الناس على حامل الدعوة والقائم بالهداية ، فاقتراف المعاصي ومخالفة ما يدعو إليه من القيم والخلق ، يزيل من النفوس الثقة به والاعتماد عليه.

وبهذا البيان تظهر الإجابة عن سؤال لا يقصر في الضالة عن السؤال الماضي. وهو ما ربما يقال : إن أقصى ما يثبت هذا البرهان هو لزوم نزاهة النبي عن اقتراف المعاصي في المجتمع ، وهذا لا يخالف أن يكون عاصياً ومقترفاً للذنوب في الخلوات ، وهذا القدر من النزاهة كاف في جلب الثقة.

والجواب عن هذا السؤال واضح تمام الوضوح ، فإنّ مثل هذا التصور عن النبي والقول بأنّه يرتكب المعاصي في السر دون العلن يهدم الثقة به ، إذ ما الذي يمنعه - عندئذ - من أن يكذب ويتستر على كذبه ، وبذلك تزول الثقة بكل ما يقول ويعمل.

أضف إلى ذلك أنّه يمكن خداع الناس بتزيين الظاهر مدة قليلة لا مدة طويلة ولا ينقضني زمان إلاّ وقد تظهر البواطن ويرتفع الستار عن حقيقته فتكشف سواته ، ويظهر عيبه.

إلى هنا ظهر أنّ ثقة الناس بالأنبياء إنّما هي في ضوء الاعتقاد بصحة مقالهم وسلامة أفعالهم ، وهو فرع كونهم مصونين عن الخلاف والعصيان في المأى والخلأ والسر والعلن من غير فرق بين معصية دون أخرى.

تقرير المرتضى لهذا البرهان

إنّ السيد المرتضى قد قرر هذا البرهان بيان آخر نأتي به.

قال ما هذا حاصله : إنّ تجويز الكبائر يقدح في ما هو الغرض من بعث الرسل ، وهو قبول قولهم وامثال أوامرهم ولا تكون أنفسنا ساكنة إلى قبول قوله أو استماع وعظه كسكونها إلى من لا نجوز عليه شيئاً من ذلك ، وهذا هو معنى قولنا :

إنّ وقوع الكبائر ينفّر عن القبول والمرجع فيما ينفر وما لا ينفر إلى العادات واعتبار ما تقتضيه ، وليس ذلك مما يستخرج بالأدلة والمقاييس ، ومن رجع إلى العادة علم ما ذكرناه ، وإنّه من أقوى ما ينفر عن قبول القول ، فإنّ حظ الكبائر في هذا الباب إن لم يزد على حظ السخف والمجون والخلاعة لم ينقص عنه .

فإن قيل : أليس قد جوّز كثير من الناس على الأنبياء عليهم السلام الكبائر مع أنّهم لم ينفروا عن قبول أقوالهم والعمل بما شرعوه من الشرائع ، وهذا ينقض قولكم : إنّ الكبائر منقّرة .

قلنا : هذا سؤال من لم يفهم ما أوردناه ، لأنّا لم نرد بالتنفير ارتفاع التصديق وأن لا يقع امثال الأمر جملة ، وأنّما أردنا ما فسرناه من أنّ سكون النفس إلى قبول قول من يجوز ذلك عليه لا يكون على حد سكونها إلى من لا يجوز ذلك عليه وأنّا مع تجويز الكبائر نكون أبعد عن قبول القول ، كما أنّنا مع الأمان من الكبائر نكون أقرب إلى القبول ، وقد يقرب من الشيء ما لا يحصل الشيء عنده ، كما يبعد عنه ما لا يرتفع عنده .

الأ- ترى أنّ عبوس الداعي للناس إلى طعامه وتضجّره وتبرّمه منقّر في العادة عن حضور دعوته وتناول طعامه ، وقد يقع ما ذكرناه الحضور والتناول ولا يخرج من أن يكون منقراً ، وكذلك طلاقة وجهه واستبشاره وتسمه يقرب من حضور دعوته وتناول طعامه ، وقد يرتفع الحضور مع ما ذكرناه ، ولا- يخرج من أن يكون مقرباً ، فدل على أنّ المعترف في باب المنفر والمقرب ما ذكرناه دون وقوع الفعل المنفر عنه أو ارتفاعه .

فإن قيل : فهذا يقتضي أنّ الكبائر لا تقع منهم في حال النبوة ، فمن أين يُعلم أنّها لا تقع منهم قبل النبوة ، وقد زال حكمها بالنبوة المسقطّة للعقاب والذم ، ولم يبق وجه يقتضي التنفير ؟

قلنا : الطريقة في الأمرين واحدة ، لأننا نعلم أنّ من نجوّز عليه الكفر والكبائر في حال من الأحوال وإن تاب منهما وخرج من استحقاق العقاب به لا نسكن إلى قبول قوله مثل سكوننا إلى من لا يجوز ذلك عليه في حال من الأحوال ولا على وجه من الوجوه ، ولهذا لا يكون حال الواعظ لنا ، الداعي إلى الله تعالى ونحن نعرفه مقارناً للكبائر مرتكباً لعظيم الذنوب وإن كان قد فارق جميع ذلك وتاب منه عندنا وفي نفوسنا ، كحال من لم نعهد منه إلاّ النزاهة والطهارة ، ومعلوم ضرورة الفرق بين هذين الرجلين فيما يقتضي السكون والنفور ، ولهذا كثيراً ما يعيّر الناس من يعهدون منه القبائح المتقدمة بها وإن وقعت التوبة منها ويجعلون ذلك عيباً ونقصاً وقادحاً ومؤثراً ، وليس إذا كان تجويز الكبائر قبل النبوة منخفاً عن تجويزها في حال النبوة وناقصاً عن رتبته في باب التنفير (ولأجل ذلك) وجب أن لا يكون فيه شيء من التنفير ، لأنّ الشئيين قد يشتركان في التنفير وإن كان أحدهما أقوى من صاحبه ، ألا ترى أنّ كثرة السخف والمجون والاستمرار عليه والانهماك فيها منفر لا محالة ، وإنّ القليل من السخف الذي لا يقع إلاّ في الأحيان والأوقات المتباعدة منفر أيضاً ، وإن فارق الأوّل في قوة التنفير ولم يخرج نقصانه في هذا الباب عن الأوّل من أن يكون منفرّاً في نفسه .

فإن قيل : فمن أين قلتم إنّ الصغائر لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام في حال النبوة وقبلها ؟

قلنا : الطريقة في نفي الصغائر في الحاليتين هي الطريقة في نفي الكبائر في الحاليتين عند التأمل ، لأننا كما نعلم أنّ من يجوز كونه فاعلاً لكبيرة متقدمة قد تاب منها وأقلع عنها ولم يبق معه شيء من استحقاق عقابها ودمها ، لا يكون سكوننا إليه كسكوننا إلى من لا يجوز ذلك عليه ، فكذلك نعلم أنّ من نجوّز عليه الصغائر من الأنبياء عليهم السلام أن يكون مقدماً على القبائح مرتكباً للمعاصي في حال نبوته أو

قبلها وان وقعت مكفرة لا يكون سكوننا إليه كسكوننا إلى من نأمن منه كل القبائح ولا نجوز عليه فعل شيء منها (1).

إجابة عن سؤال آخر

ربما يقال : إنّ العقلاء يكتفون في تبليغ برامجهم التعليمية والتربوية بما يغلب صدقه على كذبه ، ويكفي في ذلك كون الرسول رجلاً صدوقاً عدلاً ، ومن المعلوم أنّ الصدوق العادل ليس بمعصوم وليس صادقاً مائة بالمائة ، وفي نهاية الكمال ، ولأجل ذلك لا مانع من أن يكتفي سبحانه في تبليغ شرائع الأنبياء بأفراد صالحين يغلب حسنهم على قبائحهم وثباتهم على زللهم.

هذا هو السؤال ، وأمّا الجواب : فإنّ اكتفاء العقلاء بهذه الدرجة من الصلاح والاستقامة ، لأجل وجهين :

إمّا لعدم تمكنهم من أفراد كاملين ، وإمّا لاكتفائهم في تحقق أهدافهم على الحد الخاص من الواقعية وكلا الأمرين لا يناسب ساحته سبحانه ، إذ في وسع المولى سبحانه بعث رجال معصومين ، وتحقيق أهدافه على الوجه الأكمل.

يقول العلامة الطباطبائي في هذا الصدد : إنّ الناس يتسبّبون في أنواع تبليغاتهم وأغراضهم الاجتماعية بالتبليغ بمن لا يخلو من قصور وتقصير في التبليغ لكن ذلك منهم لأحد أمرين لا يجوز في ما نحن فيه ، لمكان المسامحة منهم في الوصول إلى الأهداف ، فإنّ مقصودهم هو البلوغ إلى ما تيسر من المطلوب والحصول على اليسير والغض عن الكثير ، وهذا لا يليق بساحته تعالى (2).

ص: 86

1- تنزيه الأنبياء : 4 - 6.

2- الميزان : 141 / 2.

ولأجل هذه الوجوه العقلية نرى القرآن يصرح بعصمة الأنبياء تارة، ويشير إليها أحياناً حيث يصفهم بأنهم مهديون لا يضلون أبداً، وإليك هذه الآيات التي تعد من أجلى الشواهد القرآنية على عصمة الأنبياء.

القرآن وعصمة الأنبياء من المعصية

إشارة

إنه سبحانه يطرح في كتابه العزيز عصمة الأنبياء ويصفهم بهذا الوصف، ويشهد بذلك لفيء من الآيات :

الآية الأولى

قال سبحانه : (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَذَكَرْنَا وَيْحَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (1).

ثم إنه يصف هذه الصفوة من عباده بقوله : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ قُلَّ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (2).

والآية الأخيرة تصف الأنبياء بأنهم مهديون بهداية الله سبحانه على وجه يجعلهم القدوة والاسوة.

هذا من جانب ومن جانب آخر نرى أنه سبحانه يصرح بأن من شملته الهداية الإلهية لا مضل له ويقول : (وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللَّهُ

ص: 87

1- الأنعام : 84 - 87.

2- الأنعام : 90.

فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ (1).

وفي آية ثالثة يصرح بأن حقيقة العصيان هي الانحراف عن الجادة الوسطى بل هي الضلالة ويقول : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) (2).

وبملاحظة هذه الطوائف الثلاث من الآيات تظهر عصمة الأنبياء بوضوح وتوضيح ذلك :

إنه سبحانه يصف الأنبياء في اللفيف الأول من الآيات بأنهم القدوة الاسوة والمهديون من الأمة كما يصرح في اللفيف الثاني بأن من شملته الهداية الإلهية لا ضلالة ولا مضل له.

كما هو يصرح في اللفيف الثالث بأن العصيان نفس الضلالة أو مقارنه وملازمه حيث يقول : (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ) وما كانت ضلالتهم إلا لأجل عصيانهم ومخالفتهم لأوامره ونواهيه.

فإذا كان الأنبياء مهديين بهداية الله سبحانه ، ومن جانب آخر لا يتطرق الضلال إلى من هداه الله ، ومن جانب ثالث كانت كل معصية ضلالاً يستتج أن من لا تتطرق إليه الضلالة لا يتطرق إليه العصيان.

وإن أردت أن تفرغ ما تقيده هذه الآيات في قالب الأشكال المنطقية فقل :

النبي : من هداه الله.

وكل من هداه الله فما له من مضل.

ينتج : النبي ما له من مضل.

ص: 88

1- الزمر : 36 - 37.

2- يس : 60 - 62.

الآية الثانية

إنه سبحانه يعد المطيعين لله والرسول بأنهم من الذين يحشرون مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين الذين أنعم الله عليهم إذ يقول :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (1).

وعلى مفاد هذه الآية فالأنبياء من الذين أنعم الله عليهم بلا شك ولا ريب ، وهو سبحانه يصف تلك الطائفة أعني : (من أنعم عليهم) بقوله : بأنهم : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) (2).

فإذا انضمت الآية الأولى الواصفة للأنبياء بالإنعام عليهم ، إلى هذه الآية الواصفة بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، يستنتج عصمة الأنبياء بوضوح ، لأنّ العاصي من يشمله غضب الله سبحانه ويكون ضالاً بقدر عصيانه ومخالفته.

وعلى الجملة : من كان غير المغضوب عليه ولا الضال فهو لا يخالف ربه ولا يعصي أمره فإنّ العاصي يجلب غضب الرب ، ويضل عن الصراط المستقيم قدر عصيانه.

الآية الثالثة

إنه سبحانه يصف جملة من الأنبياء ويقول في حق إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

ص: 89

1- النساء : 69.

2- الفاتحة : 7.

النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (1).

فهذه الآية تصف تلك الصفوة من الأنبياء بأوصاف أربعة :

1. أنعم الله عليهم.

2. هدينا.

3. واجتبتنا.

4. خرّوا سجّداً وبكياً.

ثم إنّه سبحانه يصف في الآية التالية ذرية هؤلاء وأولادهم بأوصاف تقابل الصفات الماضية ، ويقول : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا) (2).

نرى أنّه سبحانه يصف خلفهم بأوصاف ثلاثة تضاد أوصاف آبائهم وهي عبارة عن أمور ثلاثة :

1. أضاعوا الصلاة.

2. واتبعوا الشهوات.

3. يلقون غيًّا.

وبحكم المقابلة بين الصفات يكون الأنبياء ممن لم يضيّعوا الصلاة ولم يتبعوا الشهوات ، وبالنتيجة لا يلقون غيًّا ، وكل من كان كذلك فهو مصون من الخلف والمعصوم من اقتراف المعاصي ، لأنّ العاصي لا يعصي إلّا لاتباع الشهوات وسوف يلقى أثر غيه وضلالته.

ص: 90

1- مريم : 58.

2- مريم : 59.

إنَّ القرآنَ الكريمَ يدعو المسلمين إلى الاقتفاء بأثر النبي بمختلف التعابير والعبارات يقول سبحانه : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (1).

ويقول أيضاً : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (2).

ويقول في آية ثالثة : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) (3).

كما أنه سبحانه يندد بمن يتصور أنّ على النبي أن يقتضي الرأي العام ويقول : (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) (4).

وعصارة القول : إنّ هذه الآيات تدعو إلى إطاعة النبي والافتداء به بلا قيد وشرط ، ومن وجبت طاعته على وجه الإطلاق أي بلا قيد وشرط يجب أن يكون معصوماً من العصيان ومصوناً عن الخطأ والزلل.

توضيحه : أنّ دعوة النبي تتحقّق بأحد الأمرين : اللفظ أو العمل . والدعوة بالكتابة ترجع إلى أحدهما ، وعند ذلك فلو كان كل ما يدعو إليه النبي بلسانه

ص: 91

1- آل عمران : 31 - 32.

2- النساء : 80.

3- النور : 52.

4- الحجرات : 7.

وفمه وقلمه ويراعه ، صادقاً مطابقاً للواقع غير مخالف له قدر شعرة ، لصح الأمر بالاعتداء به وإن طاعته طاعة الله سبحانه كما قال : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (1).

وأما لو كان بعض ما يدعوه به باللفظ والعمل والقول والكتابة على خلاف الواقع وعلى خلاف ما يرضى به سبحانه يجب تقييد الدعوة إلى طاعة النبي ب قيد يخرج هذه الصورة.

فالحكم باتّباعه على وجه الإطلاق يكشف عن أنّ دعواته وأوامره قولاً وفعلاً حليفة الواقع ، وقرينة الحقيقة لا تتخلف عنه قدر شعرة ، من غير فرق بين الدعوة اللفظية أو العملية.

فإنّ الدعوة عن طريق العمل والفعل من أقوى العوامل تأثيراً في مجال التربية والتعليم وأرسخها وكل عمل يصدر من الرسل فالناس يتلقونه دعوة عملية إلى اقتفاء أثره في ذلك المجال.

فلو كان ما يصدر من النبي طيلة الحياة مطابقاً لرضاه وموافقاً لحكمه صح الأمر بالاعتفاء في القول والفعل ، ولو كانت أفعالهم تخالف الواقع في بعض الأحيان وتسم بالعصيان والخطأ ، لما صح الأمر بطاعته والاعتداء به على وجه الإطلاق.

كيف وقد وصف الرسول بأنه الأُسوة الحسنة في قوله سبحانه : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (2).

ص: 92

1- النساء : 80.

2- الأحزاب : 21.

فكونه أسوة حسنة في جميع المجالات لا- يتفق إلا مع عصمته المطلقة ، بخلاف من يكون أسوة في مجال دون مجال ، وعلى ذلك فهو مصون من الخلف والعصيان والخطأ والزلل.

وإن شئت قلت : لو صدر عن النبي عصيان وخلاف فمن جانب يجب علينا طاعته واقتفاؤه واتباعه ، وبما ان الصادر منه أمر منكر يحرم الاقتداء به واتباعه وتجب المخالفة ، فعندئذ يلزم الأمر بالمتناقضين ، والقول بأنه يجب اتباعه في خصوص ما ثبت كونه موافقاً للشرع أو لم تعلم مخالفته له ، خلاف إطلاق الآيات الأمرة بالاتباع على وجه الإطلاق من غير فرق بين فعل دون فعل ، ووقت دون وقت.

وهذا المورد من الموارد التي يستكشف بإطلاق الحكم حال الموضوع وسعته وأنه مطابق للشرع ، وكم له من مورد في الأحكام الفقهية (1).

الآية الخامسة

إن الله سبحانه يحكي عن الشيطان الطريد بأنه قال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (2).

ويقول أيضاً : (وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (3).

ص: 93

1- وقد عنوانه الأصوليون في أبحاث العام والخاص فيستكشفون عن إطلاق الحكم سعة الموضوع كما في مثل قوله : « لعن الله بني أمية قاطبة » فيستدل بإطلاقه على سعته وعدم وجود مؤمن فيهم ، وإلا لما صح الحكم بالإطلاق.

2- ص: 83 - 84.

3- الحجر: 39 - 40.

فهذه الآيات ونظائرها تحكي عن نزاهة المخلصين عن إغواء الشيطان وجزّه إيّاهم إلى الطرق المظلمة.

توضيحه : إنّ الغي يستعمل تارة في خلاف الرشد وإظلام الأمر ، وأخرى في فساد الشيء ، قال ابن فارس : فالأول الغي وهو خلاف الرشد ، والجهل بالأمر والانهماك في الباطل ، يقال : غوى يغوي غياً ، قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره *** ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

وذلك عندنا مشتق من الغياية ، وهي الغبرة والظلمة تغشيان ، كأنّ ذا الغي قد غشيه ما لا يرى معه سبيل حق.

وأما الثاني : فمنه قولهم : غوي الفصيل إذا أكثر من شرب اللبن ففسد جوفه ، والمصدر : الغوى (1).

وعلى ذلك فسواء فسرت الغواية في الآيتين بالمعنى الأوّل كما هو الأقرب أو بالمعنى الثاني ، فالعباد المخلصون منزهون عن أن تغشاهم الغبرة والظلمة في حياتهم أو أن يرتكبوا أمراً فاسداً ، ونفي كلا الأمرين يستلزم العصمة ، لأنّ العاصي تغشاه غبرة الجهل وظلمة الباطل ، كما أنّه يفسد علمه بالمخالفة.

نعم إثبات الغواية لا يستلزم إثبات المعصية ، فإنّ مخالفة الأوامر الإرشادية التي لا تتبنى إلاّ النصح والإرشاد وإن كانت تلازم غشيان الغبرة في الحياة وفساد العمل ، لكنها لا تستلزم التمرد والتجري اللذين هما الملاك في صدق المعصية.

ص: 94

وعلى كل تقدير ، فما ورد في هذه الطائفة من الآيات بمنزلة ضابطة كلية في حق المخلصين ونزاهتهم عن الغواية الملازمة لنزاهتهم عن المعصية.

وهناك آيات أخرى تأتي بأسماء المخلصين وتصنفهم وتقول : (وَأذْكَرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَأذْكَرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ) (1).

فقوله سبحانه : (إِنَّا أَخْلَصْنَا لَهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) خير دليل على أن المعدودين والمذكورين في هذه الآيات من إبراهيم وذريته كلهم من المخلصين الذين شهدت الآيات على تنزههم من غواية الشيطان الملازم لنزاهتهم عن العصيان والخلاف.

نعم هذه الطائفة لا تدل على عصمة جميع الأنبياء والرسل إلا بعدم القول بالفصل حيث إن العلماء متفقون إماماً على العصمة أو على خلافها ، وليس هناك من يفصل بين نبي دون نبي بأن يثبت العصمة في حق بعضهم دون بعض.

هذا بعض ما يمكن الاستدلال به على عصمة الأنبياء وبقية هناك آيات يمكن الاستدلال بها على العصمة أيضاً مثل قوله سبحانه : (وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (2).

لأن المراد من الاجتباء هو الاجتباء بالعصمة وان كان يحتمل أن يكون المراد

ص: 95

1- ص: 45 - 48.

2- الأنعام: 87.

الاجتناب بالنبوة ، والكلام هنا في الاجتناب دون الهداية.

ومثله قوله سبحانه : (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (1).

ص: 96

1- مريم : 58.

إشارة

قد تعرفت على الآيات الدالة على عصمة الأنبياء في المجالات التالية: « تلقى الوحي ، والتحفّظ عليه ، وإبلاغه إلى الناس ، والعمل به » غير أنّ هناك آيات ربما توهم في بادئ النظر خلاف ما دلت عليه صراحة الآيات السابقة ، وقد تذرعت بها بعض الفرق الإسلامية التي جوزت المعصية على الأنبياء بمختلف صورها.

وهذه الآيات على طوائف :

الأولى : ما يمس ظاهرها عصمة جميع الأنبياء بصورة كلية.

الثانية : ما يمس عصمة عدة منهم كآدم ويونس بصورة جزئية.

الثالثة : ما يتراءى منه عدم عصمة النبي الأكرم.

فعلينا دراسة هذه الأصناف من الآيات حتى يتجلى الحق بأجلى مظاهره :

الطائفة الأولى : ما يمس ظاهرها عصمة جميع الأنبياء

الآية الأولى

ومن هذه الطائفة قوله سبحانه : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (1).

ص: 97

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْلَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (1).

استدل القائل بعدم وجود العصمة في الأنبياء بظاهر الآية قائلاً بأن الضمائر الثلاثة في قوله : (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) ترجع إلى الرسل ، ومفاد الآية أنّ رسل الله سبحانه وأنبياءه كانوا يندرون قومهم ، وكان القوم يخالفونهم أشد المخالفة ، وكان الرسل يعدون المؤمنين بالنصر عن الله والغلبة ويوعدون الكفار بالهلاك والإبادة ، لكن لما تأخر النصر الموعود وعقاب الكافرين « ظن الرسل أنّهم قد كذبوا » فيما وعدوا به من جانب الله من نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين ، ومن المعلوم أنّ هذا الظن سواء أكان بصورة الإذعان واليقين أو بصورة الزعم والميل إلى ذلك الجانب ، اعتقاد باطل لا يجتمع مع العصمة.

وإن شئت تفسير الآية فعليك بإظهار مراجع الضمائر بأن تقول : لما أخرنا العقاب عن الأمم السالفة ظن الرسل أنّ الرسل قد كذب (بصيغة المجهول) الرسل في ما وعدوا به من النصر للمؤمنين والهلاك للكافرين.

وعلى هذا فكل جواب من العدلية القائلين بعصمة الرسل على خلاف هذا الظاهر يكون غير متين ، بل يجب أن يكون الجواب منطبقاً على هذا الظاهر.

وإليك الأجوبة المذكورة في التفاسير :

الأول : أنّ الضمائر الثلاثة ترجع إلى الرسل غير أنّ الوعد الذي تصور الرسل أنّهم قد كذبوا (أي قيل لهم قولاً كاذباً) هو تظاهر عدة من المؤمنين بالإيمان وادّعاؤهم الإخلاص لهم ، فتصور الرسل أنّ تظاهر هؤلاء بالإيمان كان كذباً وباطلاً ، وكأنّهم تصوروا أنّ الذين وعدوهم بالإيمان من قومهم أخلفوهم أو كذبوا فيما أظهره من الإيمان (2).

ص: 98

1- يوسف : 110.

2- مجمع البيان : 5 - 6 / 415 ، ط دار المعرفة ، بيروت.

وفيه : انّ هذا الجواب وان كان أظهر الأجوبة إذ ليس فيه تفكيك بين الضمائر كما في سائر الأجوبة الآتية لكن الذي يردّه هو بعده عن ظاهر الآية ، إذ ليس فيها عن إيمان تلك الثلاثة القليلة أثر حتى يقع متعلّق الكذب في قوله سبحانه : (قَدْ كُذِبُوا) .

وإن شئت قلت : ليس في مقدم الآية ولا في نفسها ما يشير إلى أنّه قد آمن بالرسول عدّة قليلة وتظاهروا بالإيمان غير أنّه صدر عنهم ما جعل الأنبياء يظنون بكذبهم في ما أظهره من الإيمان حتى يصح أن يقال أنّ متعلّق الكذب هو هذا ، وأنّما المذكور في مقدمها ونفسها هو مخالفة الزمرة الطاغية من أقوام الأنبياء وعنادهم ولجاجهم مع رسل الله وأنبيائه حيث يقول : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (1).

ومجرد قوله : (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا) لا يكفي في جعل إيمانهم متعلّقاً للكذب ، إذ عندئذ يجب أن تتعرض الآية إلى إيمان تلك الشرذمة وصدور ما يوجب ظنهم بخلاف ما تظاهروا به حتى يصح أن يقال إنّ الرسل ظنوا أنّ المتظاهرين بالإيمان قد كذبوا في ادّعاء الإيمان بالرسول .

أضف إلى ذلك : إنّ هذه الإجابة لا تصحّ العصمة المطلقة للأنبياء ، إذ على هذا الجواب يكون ظن الرسل بعدم إيمان تلك الشرذمة القليلة خطأً ، وكان ادّعاؤهم للإيمان صادقاً ، وهذا يمس كرامتهم من جانب آخر ، لأنّهم تخيّلوا غير الواقع واقعاً ، والمؤمن كافراً .

على أنّ ذلك الجواب لا يناسب ذيل الجملة فأنّه سبحانه يقول بعد تلك الجملة : (جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنَّا فَفَجَّيْنَا مِنْ نَّشَاءٍ) مع أنّ المناسب على هذه الإجابة أن

ص : 99

يقول : « بل تبين للرسول صدق ادعاء المؤمنين فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ».

الثاني : ان معنى الآية : ظن الأمم ان الرسول كذبوا في ما أخبروا به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا الوجه هو المروي عن سعيد بن جبير واختاره العلامة الطباطبائي ، فالآية تهدف إلى أنه إذا استيئس الرسول من إيمان أولئك الناس ، هذا من جانب ومن جانب آخر ظنّ الناس - لأجل تأخر العذاب - انّ الرسول قد كذبوا ، أي أخبروا بنصر المؤمنين وعذاب الكافرين كذباً ، جاءهم نصرنا ، فنجّي بذلك من نشاء وهم المؤمنون ، ولا يرد بأسنا أي شدتنا عن القوم المجرمين.

وقد دلّت الآيات على أنّ الأمم السالفة كانوا ينسبون الأنبياء إلى الكذب ، قال سبحانه في قصة نوح حاكياً عن قول قومه : (بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَاذِبِينَ (1)) ، وكذا في قصة هود وصالح.

وقال سبحانه في قصة موسى : (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) (2). (3)

ولا يخفى ما في هذا الجواب من الإشكال ، فإنّ الظاهر هو انّ مرجع الضمير المتصل في « ظنّوا » هو الرسول المقدم عليه ، وإرجاعه إلى الناس على خلاف الظاهر ، وعلى خلاف البلاغة وليس في نفس الآية حديث عن هذا اللفظ (الناس) حتى يكون مرجعاً للضمير في « ظنّوا ».

أضف إلى ذلك انّ ما استشهد به مما ورد في قصة نوح لا يرتبط بما ادّعاها فإنّ

ص: 100

1- هود : 27.

2- الإسراء : 101.

3- الميزان : 11 / 279.

معنى (بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَاذِبِينَ) انّ الناس صوّروا نفس الرسل كاذبين وأنّهم قد تعمّدوا التقوّل على خلاف الواقع ، والمذكور في الآية المبحوث عنها ليس كون الرسل كاذبين بل كونهم مكذوبين ، أي وعدوا كذباً وقيل لهم قولاً غير صادق وإن تصوّروا أنفسهم صادقين في ما يخبرون به ، وبين المعنيين بون بعيد.

الثالث : ما روي عن ابن عباس من أنّ الرسل لَمَّا ضعُفوا وغلبوا ظنّوا أنّهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال كانوا بشراً ، وتلا قوله : (وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ) (1).

وقال صاحب الكشف في حق هذا القول : إنّه إن صح هذا عن ابن عباس ، فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية ، وأمّا الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم ، وإنه متعال عن خلف الميعاد منزّه عن كل قبيح (2).

وهذا التفسير مع التوجيه الذي ذكره الزمخشري وإن كان أوقع التفاسير في القلوب غير أنّه أيضاً لا يناسب ساحة الأنبياء الذين تسددهم روح القدس وتحفظهم عن الزلل والخطأ في الفكر والعمل ، وتلك الهاجسة وإن كانت بصورة حديث النفس وشبه الوسوسة لكنها لا تلائم العصمة المطلقة المترتبة من الأنبياء.

الرابع (وهو المختار)

إنّ المستدل زعم أنّ الظن المذكور في الآية أمر قلبي اعترى قلوب الرسل ،

ص : 101

1- البقرة : 214.

2- الكشف : 2 / 157.

وأدر كوه بمشاعرهم وعقولهم مثل سائر الظنون التي تحدق بالقلوب البشرية وتتقدح فيها.

مع أنّ المراد غير ذلك ، بل المراد أنّ الظروف التي حاقت بالرسول بلغت من الشدة والقسوة الى حد صارت تحكي بلسانها التكويني عن أنّ النصر الموعود كأنه نصر غير صادق ، لا أنّ هذا الظن كان يراود قلوب الرسل ، وأفئدتهم ، وكم فرق بين كونهم ظانين بكون الوعد الإلهي بالنصر وعداً مكذوباً ، وبين كون الظروف والشرائط المحيطة بهم من المحنة والشدة كانت كأنها تشهد في بادئ النظر على أنه ليس لوعده سبحانه خبر ولا أثر.

فحكاية وضعهم والملابسات التي كانت تحدق بهم عن كون الوعد كذباً أمر ، وكون الأنبياء قد وقعوا فريسة ذلك الظن غير الصالح أمر آخر ، والمخالف للعصمة هو الثاني لا الأول ، ولذلك نظائر في الذكر الحكيم.

منها قوله سبحانه : (وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (1) ، فإنّ يونس النبي بن متى كان مبعوثاً إلى أهل نينوى ، فدعاهم فلم يؤمنوا ، فسأل الله أن يعذبهم ، فلما أشرف عليهم العذاب تابوا وآمنوا ، فكشفه الله عنهم وفارقهم يونس قبل نزول العذاب مغاضباً لقومه ظاناً بأنه سبحانه لن يضيق عليه وهو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته وتأديبه ، لأجل مفارقتة قومه مع إمكان رجوعهم إلى الله سبحانه وإيمانهم به وتوبتهم عن أعمالهم.

فما هذا الظن الذي ينسبه سبحانه إلى يونس ، هل كان ظناً قائماً بمشاعره ، فنحن نجلّه ونجلّ ساحة جميع الأنبياء عن هذا الظن الذي لا يتردد في ذهن غيرهم ، فكيف الأنبياء؟! بل المراد أنّ عمله هذا (أي ذهابه ومفارقة قومه) كان

ص: 102

1- الأنبياء : 87.

ممثلاً بأنه يظن أنّ مولاة لا يقدر عليه وهو يفوته بالابتعاد عنه فلا يقوى على سياسته ، فكم فرق بين ورود هذا الظن على مشاعر يونس ، وبين كون عمله مجسماً وممثلاً لهذا الظن في كل من رآه وشاهده ؟ فما يخالف العصمة هو الأول لا الثاني.

ومنها : قوله سبحانه في سورة الحشر حاكياً عن بني النضير إحدى الفرق اليهودية الثلاث التي كانت تعيش في المدينة ، وتعاهدوا مع النبي على أن لا يخونوا ويتعاونوا في المصالح العامة ، ولما خدعوا المسلمين وقتلوا بعض المؤمنين في مرأى من الناس ومسمع منهم ، ضيق عليهم النبي ، فلبجأوا إلى حصونهم ، وفي ذلك يقول سبحانه : (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) (1).

فما هذا الظن الذي ينسبه سبحانه إلى تلك الفرقة ؟ هل كانوا يظنون بقلوبهم أنّ حصونهم مانعتهم من الله ؟ فإنّ ذلك بعيد جداً ، فإنّهم كانوا موحدّين ومعترفين بقدرته سبحانه غير أنّ علمهم والتجاءهم إلى حصونهم في مقابل النبي الذي تبين لهم صدق نبوته كان يحكي عن أنّهم مصدر هذا الظن وصاحبه.

ولذلك نظائر في المحاورات العرفية فإنّنا نصف المتهاككين في الدنيا والغارقين في زخارفها ، والبانين للقصور المشيدة والأبراج العاجية بأنّهم يعتقدون بخلود العيش ودوام الحياة ، وإنّ الموت كأنه كتب على غيرهم ، ولا شك أنّ هذه النسبة نسبة صادقة لكن بالمعنى الذي عرفت أي أنّ عملهم مبدأ انتزاع هذا الظن ، ومصدر هذه النسبة.

وعلى ذلك فالآية تهدف إلى أنّ البلايا والشدائد كانت تحق بالأنبياء طيلة

ص: 103

1- الحشر : 2.

حياتهم وتشدد عليهم الأزيمة والمحنة من جانب المخالفين ، فكانوا يعيشون بين أقوام كأنهم أعداء ألداء ، وكان المؤمنون بهم في قلة ، فصارت حياتهم المشحونة بالبلايا والنوازل ، والبأساء والضراء ، مظنة لأن يتخيل كل من وقف عليها من نبي وغيره ، انّ ما وعدوا به وعد غير صادق ، ولكن لم يبرح الوضع على هذا المنوال حتى يفاجئهم نصره سبحانه ، للمؤمنين ، وإهلاكه وإبادته للمخالفين كما يقول : (فَتَنَّبِيَّ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (1).

ويشعر بما ذكرناه قوله سبحانه : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (2).

فالمراد من الرسول هو غير النبي الأكرم من الرسل السابقين ، فعندما كانت البأساء والضراء تحديق بالمؤمنين ونفس الرسول ، وكانت المحن تزلزل المؤمنين حتى أنّها كانت تحبس الأنفاس ، فعند ذلك كانت تكاد تلك الأنفاس المحبوسة والآلام المكنونة تتفجر في شكل ضراعة إلى الله ، فيقول الرسول والذين آمنوا معه (مَتَى نَصُرَ اللَّهُ) ؟ فإن كلمة (مَتَى نَصُرَ اللَّهُ) مقرونة بالضراعة والالتماس ، تعمظنة تصور استيلاء اليأس والقنوط عليهم لا- بمعنى وجودهما في أرواحهم وقلوبهم ، بل بالمعنى الذي عرفت من كونه ظاهراً من أحوالهم لا من أقوالهم.

وما برح الوضع على هذا إلى أن كان النصر ينزل عليهم وتتقشع عنهم سحب اليأس والقنوط المنتزع من تلك الحالة.

هذا ما وصلنا إليه في تفسير الآية ، ولعلّ القارئ يجد تفسيراً أوقع في النفس مما ذكرناه.

ص: 104

1- يوسف : 110.

2- البقرة : 214.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (1).

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (2).

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (3).

وهذه الآية أو الآيات من أوثق الأدلة في نظر القائل بعدم عصمة الأنبياء ، وقد استغلها المستشرقون في مجال التشكيك في الوحي النازل على النبي على وجه سيوافيك بيانه.

وكانَّ المستدل بهذه الآية يفسر إلقاء الشيطان في أمانة الرسول أو النبي بالتدخل في الوحي النازل عليه فيغيره إلى غير ما نزل به.

ثم إنَّه سبحانه يمحو ما يلقي الشيطان ويصحح ما أنزل على رسوله من الآيات ، فلو كان هذا مفاد الآية ، فهو دليل على عدم عصمة الأنبياء في مجال التحفظ على الوحي أو إبلاغه الذي اتفقت كلمة المتكلمين على المصونية في هذا المجال.

وربما يُريد هذا التفسير بما رواه الطبري وغيره في سبب نزول هذه الآية ، وسيوافيك نصه وما فيه من الإشكال.

فالأولى تناول الآية بالبحث والتفسير حتى يتبين أنّها تهدف إلى غير ما فسّره المستدل فنقول : يجب توضيح نقاط في الآيات.

الأولى : ما معنى أمنية الرسول أو النبي ؟ وإلى مَ يهدف قوله سبحانه : (إِذَا تَمَنَّى) ؟

الثانية : ما معنى مداخلة الشيطان في أمنية النبي الذي يفيد قول الله سبحانه : (أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) ؟

الثالثة : ما معنى نسخ الله سبحانه ما يلقيه الشيطان ؟

الرابعة : ماذا يريد سبحانه من قوله : (ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) وهل المراد منه الآيات القرآنية ؟

الخامسة : كيف يكون ما يلقيه الشيطان فتنة لمرضى القلوب وقاسيتها ؟ وكيف يكون سبباً لإيمان المؤمنين ، وإخبات قلوبهم له ؟

وبتفسير هذه النقاط الخمس يرتفع الإبهام الذي نسجته الأوهام حول الآية ومفادها فنقول :

1. ما معنى أمنية الرسول أو النبي ؟

أمّا الأمنية قال ابن فارس : فهي من المنى ، بمعنى تقدير شيء ونفاذ القضاء به ، منه قولهم : مني له الماني أي قدر المقدر قال الهذلي :

لا تأمنن وان أمسيت في حرم *** حتى تلاقي ما يمني لك الماني

والمنا : القدر ، وماء الإنسان : مني ، أي يُقدّر منه خلقته. والمنيّة : الموت ، لأنّها مقدّرة على كل أحد ، وتمنى الإنسان : أمل يقدره ، ومنى مكة : قال قوم : سمّي به لما قُدّر أن يُذبح فيه ، من قولك مناه الله (1).

ص: 106

وعلى ذلك فيجب علينا أن نقف على أمانة الرسل والأنبياء من طريق الكتاب العزيز ، ولا يشك من سبر الذكر الحكيم أنه لم يكن للرسل والأنبياء ، أمانة سوى نشر الهداية الإلهية بين أقوامهم وإرشادهم إلى طريق الخير والسعادة ، وكانوا يدأبون في تنفيذ هذا المقصد السامي ، والهدف الرفيع ولا يألون في ذلك جهداً ، وكانوا يخططون لهذا الأمر ، ويفكرون في الخطوة بعد الخطوة ، ويمهدون له قدر استطاعتهم ، ويدل على ذلك جمع من الآيات نكتفي بذكر بعضها :

يقول سبحانه في حق النبي الأكرم : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (1).

ويقول أيضاً : (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (2).

ويقول أيضاً : (إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (3).

ويقول سبحانه : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (4).

ويقول سبحانه : (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (5).

هذا كله في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .

ويقول سبحانه حاكياً عن استقامة نوح في طريق دعوته : (وَإِنِّي كَلَّمَا

ص: 107

1- يوسف : 103 .

2- فاطر : 8 .

3- النحل : 37 .

4- القصص : 56 .

5- الغاشية : 21 - 22 .

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا نِيَابَهُمْ وَأَصْرَبُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتَكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (1).

ويقول سبحانه بعد عدة من الآيات : (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا) (2).

فهذه الآيات ونظائرها تنبئ بوضوح عن أن أُمْنِيَةَ الأنبياء الوحيدة في حياتهم وسبيل دعوتهم هو هداية الناس إلى الله ، وتوسيع رقعة الدعوة إلى أبعد حد ممكن ، وان منعتهم من تحقيق هذا الهدف عراقيل وموانع ، فهم يسعون إلى ذلك بعزيمة راسخة ورجاء واثق.

إلى هنا تبين الجواب عن السؤال الأول ، وهلم معي الآن لنقف على جواب السؤال الثاني ، أعني :

2. ما معنى إلقاء الشيطان في أُمْنِيَةِ الرسل ؟

وهذا السؤال هو النقطة الحاسمة في استدلال المخالف ، وبالإجابة عليها يظهر وهن الاستدلال بوضوح فنقول : إن إلقاء الشيطان في أُمْنِيَتِهِمْ يتحقق بإحدى صورتين :

1. أن يوسوس في قلوب الأنبياء ويوهن عزائمهم الراسخة ، ويقنعهم بعدم جدوى دعوتهم وإرشادهم ، وأن هذه الأمة أُمَّةٌ غير قابلة للهداية ، فتظهر بسبب

ص: 108

1- نوح : 7 - 9.

2- نوح : 21 - 24.

ذلك سحائب اليأس في قلوبهم ويكفوا عن دعوة الناس وينصرفوا عن هدايتهم.

ولا شك أنّ هذا المعنى لا يناسب ساحة الأنبياء بنص القرآن الكريم ، لأنّه يستلزم أن يكون للشيطان سلطان على قلوب الأنبياء وضمائرهم ، حتى يوهن عزائمهم في طريق الدعوة والإرشاد ، والقرآن الكريم ينفي تسلل الشيطان إلى ضمائر المخلصين الذين هم الأنبياء ومن دونهم ، ويقول سبحانه : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) (1).

ويقول أيضاً ناقلاً عن نفس الشيطان : (فِعِزَّتِكَ لِأَعْوَبِنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ) (2).

وليس إيجاد الوهن في عزائم الأنبياء من جانب الشيطان إلا إغواءهم المنفي بنص الآيات.

2. أن يكون المراد من إلقاء الشيطان في أمانة النبي هو إغراء الناس ودعوتهم إلى مخالفة الأنبياء عليهم السلام والصمود في وجوههم حتى تصبح جهودهم ومخططاتهم عقيمة غير مفيدة.

وهذا المعنى هو الظاهر من القرآن الكريم حيث يحكي في غير مورد أنّ الشيطان كان يحض أقوام الأنبياء عليهم السلام على المخالفة ويعدهم بالأمانى ، حتى يخالفوهم.

قال سبحانه : (يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (3).

ص: 109

1- الحجر : 42 ، الإسراء : 65.

2- ص : 82 - 83.

3- النساء : 120.

وقال سبحانه : (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) (1).

وهذه الآيات ونظائرها تشهد بوضوح على أنّ الشيطان وجنوده كانوا يسعون بشدة وحماس في حصّ الناس على مخالفة الأنبياء والرسل ، وكانوا يخدعونهم بالعدة والأمانى ، وعند ذلك يتضح مفاد الآية ، قال سبحانه : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى) (أي إذا فكّر في هداية أمته وخطّ لذلك الخطط ، وهياً لذلك المقدمات) (الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) (بحض الناس على المخالفة والمعاكسة وإفشال خطط الأنبياء حتى تصبح المقدمات عقيمة غير منتجة).

3. ما معنى نسخه سبحانه ما يلقيه الشيطان ؟

إذا عرفت هذا المقطع من الآية يجب أن نقف على مفاد المقطع الآخر منها وهو قوله سبحانه : (فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) وما معنى هذا النسخ ؟

والمراد من ذلك النسخ ما وعد الله سبحانه رسله بالنصر ، والعون والإنجاح ، قال سبحانه : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (2) ، وقال سبحانه : (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (3) ، وقال سبحانه : (بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) (4).

ص: 110

1- إبراهيم : 22.

2- غافر : 51.

3- المجادلة : 21.

4- الأنبياء : 18.

وقال سبحانه : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) (1).

وقال في حق النبي الأعظم صلى الله عليه وآله : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (2).

وقال سبحانه : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (3).

إلى غير ذلك من الآيات الساطعة التي تحكي عن انتصار الحق الممثل في الرسالات الإلهية في صراعها مع الباطل وأتباعه.

4. ما معنى إحكامه سبحانه آياته ؟

إذا تبين معنى نسخه سبحانه ما يلقيه الشيطان ، يتبين المراد من قوله سبحانه : (ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) .

فالمراد من الآيات هي الدلائل الناصعة الهادية إلى الله سبحانه وإلى مرضاته وشرائعه.

وإن شئت قلت : إذا نسخ ما يلقيه الشيطان ، يخلفه ما يلقيه سبحانه إلى أنبيائه من الآيات الهادية إلى رضاه أولاً ، وسعادة الناس ثانياً .

ومن أسخف القول : إن المراد من الآيات ، الآيات القرآنية التي نزلت على النبي الأكرم ، وذلك لأن موضوع البحث فيها ليس خصوص النبي الأكرم ، بل الرسل والأنبياء على وجه الإطلاق ، أضف إليه أنه ليس كل نبي ذا كتاب وآيات ،

ص: 111

1- الصفات : 171 - 173.

2- التوبة : 33.

3- الأنبياء : 105.

فكيف يمكن أن يكون ذا قرآن مثله ؟

ويعود مفاد الجملة إلى أن الله سبحانه يحكم دينه وشرائعه وما أنزله الله إلى أنبيائه وسفرائه من الكتاب والحكمة.

والحاصل : أنّ في مجال الصراع بين أنصار الحق وجنود الباطل يكون الانتصار والظفر للأول ، والاندحار والهزيمة للثاني فتضمحل الخطط الشيطانية وتنهزم أذنابه ، بإرادة الله سبحانه ، فتخلفها البرامج الحيوية الإلهية وآياته الناصعة ، فيصبح الحق قائماً وثابتاً ، والباطل دائراً وزاهقاً ، قال سبحانه : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (1).

5. ما هي النتيجة من هذا الصراع ؟

قد عرفت أنّ الآية تعلق الهدف من هذا الصراع بأنّ ما يلقيه الشيطان يكون فتنة لطوائف ثلاث :

1. الذين في قلوبهم مرض.

2. ذات القلوب القاسية.

3. الذين أتوا العلم.

إنّ نتيجة هذا الصراع تعود إلى اختبار الناس وامتحانهم حتى يظهر ما في مكامن نفوسهم وضمائر قلوبهم من الكفر والنفاق أو من الإخلاص والإيمان.

فالنفوس المريضة التي لم تنلها التزكية والتربية الإلهية ، والقلوب القاسية التي أسّرتها الشهوات ، وأعمتها زبارج الحياة الدنيا ، تتسابق إلى دعوة الشيطان

ص: 112

1- الإسراء : 81.

وتتبعه فيظهر ما في مكامنها من الكفر والقسوة ، فيثبت نفاقها ويظهر كفرها.

وأما النفوس المؤمنة الواقفة على أن ما جاء به الرسل حق من جانب الله سبحانه ، فلا يزيدها ذلك إلا إيماناً وثباتاً وهداية وسموداً.

وهذه النتيجة حاكمة في عامة اختبارات الله سبحانه لعباده ، فإن اختبارات سبحانه ليس لأجل العلم بواقع النفوس ومكامنها ، فإنه يعلم بها قبل اختبارها (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (1) ، وإنما الهدف من الاختبار هو إخراج تلك القوى والقابليات الكامنة في النفوس والقلوب ، إلى عالم التحقق والفعلية وبالتالي تمكين الاستعدادات من الظهور والوجود.

وفي ذلك يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في معنى الاختبار بالأموال والأولاد الوارد في قوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) (2) : « ليتبين الساخط لرزقه ، والراضي بقسمه ، وان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب » (3).

وقد وقفت بعد ما حررت هذا على كلام لفقيه العلم والتفسير الشيخ محمد جواد البلاغي - قدس الله سره - وهو قريب مما ذكرناه : قال : المراد من الأمانة هو الشيء المتمنى كما هو الاستعمال الشائع في الشعر والنثر ، كما أن الظاهر من التمني المنسوب إلى الرسول والنبى ويشهد به سوق الآيات ، هو أن يكون ما يناسب وظيفتهما ، وهو تمنى ظهور الهدى في الناس وانطماس الغواية والهوى ، وتأييد شريعة الحق ، ونحو ذلك ، فيلقي الشيطان بغوايته بين الناس في هذا المتمنى

ص: 113

1- الملك : 14.

2- الأنفال : 28.

3- نهج البلاغة : قسم الحكم الرقم : 93.

الصالح ما يشوشه ، ويكون فتنة للذين في قلوبهم مرض ، كما ألقى بين أمة موسى من الضلال والغواية ما ألقى ، وألقى بين أتباع المسيح ما أوجب ارتداد كثير منهم ، وشك خواصهم فيه واضطرابهم في التعاليم ، وأحكام الشريعة بعده ، وألقى بين قوم رسول الله ما أهاجهم على تكذيبه وحربه وبين أُمَّته ما أوجب الخلاف وظهور البدع فيسوخ الله بنور الهدى غياهب الضلال وغواية الشيطان ، فيسفر للعقول السليمة صبح الحق ، ثم يحكم الله آياته ويؤيد حججه بإرسال الرسل ، أو تسديد جامعة الدين القيم (1).

وما ذكره - قدس الله سرّه - كلام لا غبار عليه ، وقد شيدنا أساسه فيما سبق.

إلى هنا تبين مفاد جميع مقاطع الآية بوضوح وبقي الكلام في التفسير السخيف الذي تمسك به بعض القساوسة الطاعنين في الإسلام ، ومن حذا حذوهم من البسطاء.

التفسير الباطل للآية

ثم إن بعض القساوسة الذين أرادوا الطعن في الإسلام والتنقيص من شأن القرآن ، تمسكوا بهذه الآية وقالوا : بأن المراد من الآية هو أنّ « ما من رسول ولا نبي إلا إذا تمّنى وتلا الآيات النازلة عليه تدخل الشيطان في قراءته فأدخل فيها ما ليس منها » واستشهدوا لذلك التفسير بما رواه الطبري عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس قالوا : جلس رسول الله صلى الله عليه وآله في ناد من أندية قریش كثير أهله فتمنى يومئذ أن لا- يأتیه من الله شيء فينفروا عنه ، فأنزل الله عليه (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) (2) فقرأها صلى الله عليه وآله حتى إذا بلغ : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) (3) ألقى عليه الشيطان كلمتين : « تلك

ص: 114

1- الهدى إلى دين المصطفى : 1 / 134.

2- النجم : 1 - 2.

3- النجم : 19 - 20.

الغرائقة العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها ، فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، فرضوا بما تكلم به وقالوا قد عرفنا : إن الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك ، قالوا : فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه ، قال ما جئتك بهاتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : افترت على الله وقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) إلى قوله : (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (1) ، فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) قال فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا : هم أحب إلينا فوجدوا قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان (2).

ولا يخفى ما في هذا التفسير وشأن النزول من الإشكالات التي تسقطه عن صحة الاستناد إليه.

أمّا أولاً : فلائنه مبني على أن قوله « تمنى » بمعنى تلا ، وإن لفظة « أمنيته » بمعنى تلاوته ، وهذا الاستعمال ليس مأنوساً في لغة القرآن والحديث ولو صح فإثما هو استعمال شاذ يجب تنزيه القرآن عنه.

ص: 115

1- الإسراء : 73 ، 75.

2- تفسير الطبري : 17 / 131 ، ونقله السيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية.

نعم استدل بعضهم بقول حسان على ذلك الاستعمال :

تمنى كتاب الله أول ليلة *** وآخره لاقى حمام المقادر

وقول الآخر :

تمنى كتاب الله آخر ليلة *** تمنى داود الزبور على رسل

وهذان البيتان لو صح اسنادهما إلى عربي صميم كحسان لا يحسن حمل القرآن على لغة شاذة.

أضف إلى ذلك أنّ البيت غير موجود في ديوان حسان ، وأنما نقله عنه المفسرون في تفاسيرهم ، وقد نقله أبو حيان في تفسيره (ج 6 ص 382) واستشهد به صاحب المقاييس (ج 5 ص 277).

ولو صح الاستدلال به فرضاً فإنّما يتم في اللفظ الأول دون الأمنية لعدم ورودها فيه.

وثانياً : أنّ الرواية لا يمكن أن يحتج بها لجهاث كثيرة أقلها أنّها لا تتجاوز في طرقها عن التابعين ومن هو دونهم إلا إلى ابن عباس مع أنّه لم يكن مولوداً في الوقت المجعول للقصة.

أضف إلى ذلك ، الاضطراب الموجود في متنها فقد نقل بصور مختلفة يبلغ عدد الاختلاف إلى أربع وعشرين صورة وقد جمع تلك الصور المختلفة العلامة البلاغي في أثره النفيس ، فلاحظ (1).

وثالثاً : أنّ القصة تكذب نفسها ، لأنّها تتضمن أنّ النبي بعد ما أدخل الجملتين الزائدتين في ثنايا الآيات ، استرسل في تلاوة بقية السورة إلى آخرها

ص: 116

1- الهدى إلى دين المصطفى : 1 / 130.

وسجد النبي والمشركون الحاضرون معه ، فرحاً بما جاء في تينك الجملتين من الثناء على آلهتهم.

ولكن الآيات التي وقعت بعدهما ، واسترسل النبي في تلاوتها عبارة عن قوله سبحانه : (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) (1) إلى آخر الآيات.

وعندئذ يطرح هذا السؤال ، وهو أنه كيف رضي متكلم العرب ومنطيقهم وحكيمهم وشاعرهم : الوليد بن المغيرة عن النبي صلى الله عليه و آله بهذا الثناء القصير ، وغفل عن الآيات اللاحقة التي تندد بآلهتهم بشدة وعنف ، ويعدها معبودات خرافية لا تملك من الإلهية إلا الاسم والعنوان؟!

أو ليس ذلك دليلاً على أن جاعل القصة من الوضّاعين الكذّابين الذي افتعل القصة في موضع غفل عن أنه ليس محلاً لها ، وقد قيل : لا ذكرة لكذوب.

ورابعاً : أن الله سبحانه يصف في صدر السورة نبيه الأكرم بقوله : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (2) ، وعندئذ كيف يصح له سبحانه أن يصف نبيه في أول السورة بهذا الوصف ، ثم بيدر من نبيه ما ينافي هذا التوصيف أشد المنافاة وفي وسعه سبحانه صون نبيه عن الانزلاق إلى مثل هذا المنزلق الخطير؟!

وخامساً : أن الجملتين الزائدتين اللتين ألصقتا بالآيات ، تكذبهما سائر الآيات الدالة على صيانة النبي الأكرم في مقام تلقّي الوحي والتحفّظ عليه وإبلاغه كما مرّ في تفسير قوله سبحانه : (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) (3).

ص: 117

1- النجم : 22 - 23.

2- النجم : 3 - 4.

3- الجن : 27.

وقوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) (1).

وسادساً : أنّ علماء الإسلام ، وأهل العلم والدراية من المسلمين قد واجهوا هذه الحكاية بالرد ، فوصفها المرتضى بالخرافة التي وضعوها (2).

وقال النسفي : إنّ القول بها غير مرضي. وقال الخازن في تفسيره : إنّ العلماء وهنّوا أصل القصة ولم يروها أحد من أهل الصحة ، ولا أسندها ثقة بسند صحيح ، أو سليم متصل ، وإنّما رواها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، الملقون من الصحف كل صحيح وسقيم ، والذي يدل على ضعف هذه القصة اضطراب روايتها ، وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها (3).

هذه هي أهم الإشكالات التي ترد على القصة وتجعلها في موضع من البطلان قد ذكرها المحققون في الرد على هذه القصة وقد ذكرنا قسماً منها في كتابنا « فروغ أبديت » (4) ، ولا نطيل المقام بذكرها.

ص: 118

1- الحاقة : 44 - 46.

2- تنزيه الأنبياء : 109.

3- الهدى إلى دين المصطفى : 1 / 130.

4- كتاب ألف في بيان سيرة النبي الأكرم من ولادته إلى وفاته صلى الله عليه وآله وقد طبع في جزئين.

إشارة

فهذه الطائفة عبارة عن الآيات التي تمس بظاهرها عصمة بعض الأنبياء بصورة جزئية وها نحن نذكرها واحدة بعد أخرى.

1

عصمة آدم عليه السلام والشجرة المنهي عنها وجعل الشريك لله

إشارة

وقد طرحنا في هذه الطائفة أبرز الآيات التي وقعت ذريعة بأيدي المخطئة في مجال نفي العصمة عن عدة معينة من الأنبياء ، وراعينا الترتيب التاريخي لهم ، فنقدم البحث عن عصمة آدم عليه السلام على البحث عن عصمة نوح عليه السلام وهكذا.

إنّ حديث الشجرة المنهي عنها هو أقوى ما تمسك به المخالفون للعصمة المجوزون صدور المعصية من الرسل والأنبياء ، ويعدّ ذلك في منطقتهم « كبيت القصيد » في ذلك المجال ، ولأجل ذلك ينبغي التوسّع في البحث واستقصاء ما يمكن أن يقع ذريعة في يد المخالف فنقول :

ص: 119

إنّ حديث الشجرة ورد على وجه التفصيل في سور ثلاث ، نذكر منها ما يتعلّق بمورد البحث قال سبحانه : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (1).

ويقول سبحانه : (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجْرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجْرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجْرَةِ وَأَقْبَل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) (2).

فأنت ترى أنّه سبحانه يتوسّع في بيان القصة في هذه السورة ، بينما هو يختصر في بيانها في السورة السابقة ، ووجه ذلك أنّ سورة الأعراف مكّية وسورة البقرة مدنية ، ولما توسّع في البيان في السورة المتقدمة أوجز في السورة اللاحقة ولم يفصل .

ص: 120

1- البقرة: 35 - 37.

2- الأعراف: 19 - 24.

ويقول سبحانه : (وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تُبَيِّنُكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) (1).

هذه السور الثلاث قد احتوت على مهمات هذه القصة ، فينبغي علينا توضيح ما ورد فيها من الجمل والكلمات التي تعتبر ماثراً للتساؤلات الآتية :

التساؤلات حول الآيات

إنّ التساؤلات المطروحة حول الآيات عبارة عن :

1. ما هي نوعية النهي في قوله تعالى : (لا تُقْرَبَا) ؟
2. ما هو المراد من وسوسة الشيطان لآدم وزوجته ؟
3. ماذا يراد من قوله : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ) ؟
4. ماذا يراد من قوله : (وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ) وهل العصيان والغواية يلازمان المعصية المصطلحة ؟
5. ما معنى اعتراف آدم بظلمه لنفسه في قوله : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) ؟

ص: 121

6. ماذا يراد من قوله سبحانه : (فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) فهل التوبة دليل العصيان ؟

7. ما معنى قوله : (وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا) ؟

فلنبداً بالإجابة على هذه الأسئلة واحداً بعد واحد ، وعند ختام البحث يقف القارئ على أن آدم أبا البشر كان نزيهاً عما أُلصق به من المخالفة للتكليف الإلهي الإلزامي المولوي الموجب للعقوبة.

1. ما هي نوعية النهي في قوله تعالى : (لا تَقْرَبَا)

إشارة

إن النهي ينقسم إلى قسمين : مولوي وإرشادي ، والفرق بين القسمين بعد اشتراكهما غالباً في أن كلاً منهما صادر عن أمر عال إلى من هو دونه ، هو أنه الأمر قد ينطلق في أمره ونهيه من موقع المولوية والسلطة ، متخذاً لنفسه موقف الأمر ، الواجبة إطاعته ، فيأمر بما يجب أن يطاع ، كما أنه ينهى عما يجب أن يُجتنب ، فعند ذلك يترتب الثواب على الطاعة ، والعقاب على المخالفة ، وهذا هو شأن أكثر الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنة.

وقد ينطلق في ذلك من موقع النصح والإرشاد ، والعظة والهداية ، من دون أن يتخذ لنفسه موقف الأمر ، الواجبة طاعته ، بل يتخذ لنفسه موقف النصح المشفق ، القاصد لإسعاد المخاطب وإنجائه من الشقاء ، وعند ذلك يترك انتخاب أحد الجانبين للمخاطب ذكراً له ما يترتب على نفس العمل من آثار خاصة من دون أن تترتب على ذات المخالفة أية تبعه.

وإن شئت قلت : إن نفس العمل والفعل ذو آثار طبيعية ومضاعفات تترتب عليه في كل حين وزمان ، من دون فرق بين فاعل وآخر ، فيذكر المولى العالم

بعواقب الأعمال وآثار الأفعال ، بما يترتب على ذات العمل من سعادة وشقاء ، فيجعل المخاطب في موقف العالم بآثار الشيء ويترك اختيار أحد الطرفين إليه ، حتى يكون هو المختار في العمل ، فإن اتبع نصحه وإرشاده فقد نجا عما يترتب على العمل من الهلاك والخسران ، وإن خالفه تصيبه المضاعفات التي تكمن في ذات العمل.

ولتوضيح ذلك نأتي بمثال

إنّ الطبيب إذا وصف دواءً لمريض وأمره بتناول ذلك الدواء والاجتناب عن أمور أخرى ، فلو قام المريض بالطاعة والامتثال ، تترتب عليه الصحة والعافية ، وإن خالف أمر الطبيب لم يترتب على تلك المخالفة سوى المضاعفات المترتبة على نفس العمل ، وذلك لأنّ الطبيب لم يكتب له تلك الوصفة إلاّ بما أنه طبيب ناصح ومعالج مشفق.

ومثل ذلك ما إذا قال سبحانه : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) بعدما أمر الناس بواجبات ونهى عن أمور ، فلو خالف المكلف وترك الواجب كالصلاة والصوم وارتكب المنهيات كالكذب والغيبة ، فقد خالف عندئذ أمرين :

1. الأمر بالصلاة والصوم.

2. الأمر بإطاعة الله ورسوله.

فلا- يترتب على تينك المخالفتين سوى عقاب واحد لا عقابان ، وذلك لأنّ الأمر الثاني لم يكن أمراً مولوياً ، بل كان أمراً إرشادياً لا يترتب على مخالفته سوى ما يترتب على مخالفة الأمر الأول ، وذلك لأنّ المفروض أنّ الأمر لم يتخذ لنفسه عند الأمر بإطاعة الله ورسوله ، موقف الأمر الواجب الطاعة ، بل أمر بلباس النصح

إذا عرفت ذلك فنقول: إن مخالفة النهي عن الشجرة إنما تعدّ معصية بالمعنى المصطلح إذا كان النهي مولياً صادراً عنه سبحانه على وجه المولوية، لا -أمرأ إرشادياً وارداً بصورة النصح، والقرائن الموجودة في الآيات تشهد بأنه إرشادي، لا يترتب على مخالفته سوى ما يترتب على ذات العمل من الآثار الوضعية والطبيعية، لا مولوي حتى يترتب عليه وراء تلك الآثار، عقاب المخالفة ومؤاخذه التمرد، وإليك هذه القرائن:

1. لو كان النهي عن الشجرة نهياً مولياً يجب أن يرتفع أثره بعد التوبة والإنابة، مع أننا نرى أن الأثر المترتب على المخالفة بقي على حاله رغم توبة آدم وإنابته إلى الله سبحانه، وهذا دليل على أن الخروج عن الجنة والتعرض للشقاء والتعب، كان أثراً طبيعياً لنفس العمل، وكان النهي لغاية صيانة آدم عليه السلام عن هذه الآثار والعواقب، كما إذا نهى الطبيب المصاب بمرض السكر عن تناول المواد السكرية.

2. إن الآيات الواردة في سورة « طه » تكشف النقاب عن نوعية هذا النهي، وتصرح بأن النهي كان نهياً إرشادياً لصيانة آدم عليه السلام عما يترتب عليه من الآثار المكروهة والعواقب غير المحمودة، قال سبحانه: (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) (1) فإن قوله سبحانه: (فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) صريح في أن أثر امتثال النهي هو البقاء في الجنة، ونيل السعادة التي تتمثل في قوله: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا

نَصَّحَى) وانَّ أثر المخالفة هو الخروج من الجنَّة والتعرض للشقاء الذي يتمثل في الحياة التي فيها الجوع والعري ، والظمأ وحرَّ الشمس ، كل ذلك يدلُّ على أنَّه سبحانه لم يتخذ لدى النهي موقف الناهي ، الواجبة طاعته ، بل كان ينهى بصورة الإرشاد والنصح والهداية ، وإنه لو خالفه لترتب عليه الشقاء في الحياة والتعب فيها.

3. انه سبحانه - بعد ما أكل آدم وزوجته من الشجرة وبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة - ناداهما : (أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عدُوٌّ مُبِينٌ) (1).

فإنَّ هذا اللسان ، لسان الناصح المشفق الذي أرشد مخاطبه لمصالحه ومفاسده في الحياة ، ولكنه خالفه ولم يسمع قوله ، فعندئذ يعود ويخاطبه بقوله : ألم أقل لك ... ألم أنهك عن هذا الأمر ؟

4. انه سبحانه يبيِّن أنَّ وسوسة الشيطان لهما لم يكن إلاَّ لإبداء ما وُري عنهما من سوءاتهما حيث يقول : (فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوءَاتِهِمَا) (2).

وهذا يكشف عن أنَّ ما يترتب على الوسوسة ومخالفة آدم عليه السلام بعدها لم يكن إلاَّ إبداء ما وُري عنهما من السوأة ، الذي هو أثر طبيعي للعمل من دون أن يكون له أثر آخر من ابتعاده عن لطفه سبحانه ، وحرمانه عن قربه ، الذي هو أثر المخالفة للخطابات المولوية.

5. انه سبحانه يحكي أنَّ وسوسة الشيطان لهما كانت بصورة النصح

ص: 125

1- الأعراف : 22.

2- الأعراف : 20.

والإرشاد حيث قال : (وَقَاسَ مَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) (1). وهذا يكشف عن أن خطابه سبحانه إليهما كان بصورة النصح أيضاً ، وهذا واضح لمن له أدنى إلمام بأساليب الكلام.

فهذه القرائن وغيرها الموجودة في الآيات الواردة حول قصة آدم عليه السلام تدل بوضوح على أن النهي في هذا المقام كان نهياً إرشادياً لا مولوياً ، وكان الهدف تبقية آدم عليه السلام بعيداً عن عوامل الشقاء والتعب ، ولكنه لم يسمع قول ناصحه فعرض نفسه للشقاء ، وصار مستحقاً لأن يخاطب بقوله سبحانه : (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) (2) ، وقوله سبحانه : (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) (3).

أضف إلى ذلك أن الظرف الذي تلقى فيه آدم هذا النهي ، (النهي عن الأكل من الشجرة) لم يكن ظرف تكليف حتى تعد مخالفته عصيانياً لمقتضاه ، فإن ظرف التكليف هو المحيط الذي هبط إليه مع زوجته بعد رفض النصح ، أما ذلك المحيط فكان معداً لتبصير الإنسان بأعدائه وأصدقائه ، ودورة تعليمية لمشاهدة نتائج الطاعة وآثار المخالفة ، أي ما يترتب على قبول قوله سبحانه من السعادة ، وما يترتب على قبول قول إبليس من الشقاء ، وفي مثل ذلك المحيط لا يعد النهي ولا الأمر تكليفاً ، بل يعد وسيلة للتبصير وتحصيل الاستعداد لتحمل التكليف في المستقبل ، وكانت تلك الدورة من الحياة دورة إعدادية لأبي البشر وأمهم ، حتى يلمس الحقائق لمس اليد.

ص: 126

1- الأعراف : 21.

2- الأعراف : 24.

3- طه : 123.

إلى هنا تمت الإجابة على السؤال الأول ، غير أنّ هناك جواباً آخر ذكره أكثر المفسرين ، ونحن نأتي به بشكل موجز :

جواب آخر عن الإشكال

إنّ أكثر المفسرين من العدلية اختاروا أنّ مخالفة آدم لم تكن إلاّ مخالفة لنهي مولوي غير إلزامي ، وهو ما يعتبر عنه بترك الأولى وترك الأفضل ، وأمّا إطلاق العصيان وغيره من الكلمات الموهمة في المقام.

فحاصل كلامهم في ذلك : أنّ الذنب على قسمين : ذنب مطلق ، وهو مخالفة الإرادة القطعية الإلزامية للمولى الحكيم من غير فرق بين إنسان وإنسان ، فمن خالفه يكون عاصياً سواء فيه العاكف والباد.

وذنب نسبي ، وهو ما يعد ذنباً وأمراً غير صحيح بالنسبة إلى شخص دون شخص ، وهو ما يكون العمل بالذات مباحاً وجائزاً غير قبيح في حد نفسه ، غير أنّ العرف والمجتمع يستقبح صدوره من شخص خاص ، ويعده أمراً غير صحيح ، ومثاله ما يلي :

إنّ المساعدة المالية القليلة ممن يمتلك الآلاف المؤلّفة وإن كانت جائزة ، لكنّها تثير اعتراض الناس على فاعلها مع أنّه لم يرتكب عملاً قبيحاً بالذات.

كما أنّ إقامة الصلاة مع عدم تفرّغ البال مبرّنة للذمة ومسقطه للتكليف ، إلاّ أنّه إذا أتى بها النبي بهذه الصورة يُعدّ أمراً غير لائق بمقامه وغير مترقب منه ، فوزان الأكل من الشجرة الممنوعة وزان صدور بعض الأعمال المباحة بالذات من الشخصيات الكبيرة المحترمة.

ونزيد توضيحاً في ذلك : إذا وقفنا على أنّه سبحانه أعزّ آدم بتعليمه الأسماء ،

وجعله معلماً للملائكة ومسجوداً لهم ، وفي هذه الحالة طلب منه أن يترك الأكل من الشجرة المعينة ، كان المترقب من مثله أن يتورّع عن آية مخالفة مهما صغرت ، ومهما كان الأمر والنهي غير الزاميين ، ولأجل ذلك يعد هذا العمل - مع ملاحظة ما حفّه من الشرائط - عصيانياً محتاجاً إلى التوبة.

جواب ثالث عن الإشكال

وهاهنا جواب ثالث : وهو أنّ محور البحث عند المتكلّمين في عصمة الأنبياء عبارة عن مخالفة الإنسان المكلف ، للتكليف الإلهي بعد تشريع الشرائع ، وإنزال الكتب ، ولو كان هذا هو المعيار لما صدق في قصة آدم ، لأنّ البيئة التي كان أبو البشر يعيش فيها قبل الهبوط ، لم تكن دار التشريع والتكليف ، ولم تكن هناك آية شريعة ، والمخالفة في هذا المحيط لا تعد نقضاً للعصمة ، فلاحظ ، فقد تقدم بعض ذلك الكلام في ذيل الجواب الأول.

إلى هنا تبين أنّ مخالفة آدم لنهاية سبحانه لا تضاد عصمته ، وقد عرفت الأجوبة الثلاثة ، فحان حين البحث عن بعض المفاهيم الواردة في الآيات التي تقدّمت عليك وربّما يُعد بعضها دليلاً على أنّ المخالفة من آدم كانت ذنباً شرعياً ، ولأجل ذلك يجب علينا توضيح هذه المفاهيم الواردة في القصة.

2. ما معنى وسوسة الشيطان لآدم ؟

وحقيقة هذا السؤال ترجع إلى أنّ ظاهر الآيات الماضية هو تأثير الشيطان في نفس آدم بالوسوسة قال سبحانه : (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ) (1) ، وقال

ص: 128

سبحانه : (فَوْسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) (1) ، وعندئذ يتساءل : انّ تطرق الوسوسة إلى آدم من جانب الشيطان ، كيف تجتمع مع ما حكاه سبحانه من عدم تسلّط الشيطان على عباد الله المخلصين إذ قال : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (2) ، وقال سبحانه حاكياً قول إبليس : (قَالَ فِعْزَتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (3) ؟

والجواب عن ذلك : انّ المراد من (الْمُخْلَصِينَ) هم الذين اجتباهم الله سبحانه من بين خلقه ، قال تعالى مشيراً إلى ثلثة من الأنبياء : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) (4) ، وقال سبحانه مشيراً إلى طائفة من الأنبياء : (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (5).

فإذا كان المخلصون هم الذين اجتباهم الله سبحانه بنوع من الاجتباء ، لم يكن آدم عليه السلام يوم خالف النهي من المجتبيين ، وأنما اجتباه سبحانه بعد ذلك قال سبحانه : (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (6) وعلى ذلك فوسوسة الشيطان لآدم لا تنافي ما ذكره سبحانه في حق المجتبيين ، وإنّ الشيطان ليس له نصيب في حق تلك الصفوة وليس له طريق إليهم.

ص: 129

1- طه : 120.

2- الحجر : 42.

3- ص : 82 - 83.

4- مريم : 58.

5- الأنعام : 87.

6- طه : 121 - 122.

أضف إلى ذلك : أنّ وسوسة الشيطان في صدور الناس إنّما هي بصورة النفوذ في قلوبهم والسلطان عليهم بنحو يؤثر فيهم ، وإن كان لا يسلب عنهم الاختيار والحرية ، ويؤيد كون الوسوسة بصورة النفوذ ، الإتيان بلفظة « في » في قوله سبحانه : (يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) ، وأمّا (1) وسوسة الشيطان بالنسبة إلى أبي البشر فلم تكن بصورة النفوذ والتسلّط بشهادة تعديته بلفظة « لهما » أو « إليه » (2). وهذا التفاوت في التعبير يفيد الفرق بين الوسوستين ، وأنّ إحدهما على نحو الدخول والولوج في الصدور ، والأخرى بنحو القرب والمشاركة.

3. ماذا يراد من قوله : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ) ؟

وأما قوله سبحانه : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا) (3) وقوله : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا) (4) ، فلا يدلّان على كون العمل الصادر منهما عصياناً بالمعنى المصطلح ، وأمّا التعبير الوارد في الآية فهو لأجل أنّ عمل آدم لم يكن مقروناً بالمصلحة ، بل كان مقروناً بالشقاء والبعد عن الحياة السعيدة ، فكل من افتقد هذه البركات والمصالح يصدق عليه أنّه « زلّ » أو « انّ الشيطان أنزلهما عن مكاتهما بغرور ».

وبالجملة : إنّ هذه التعبيرات تجتمع مع كون النهي إرشادياً غير مولوي ، أو نهياً مولوياً تنزيهياً كما هو المقرر في الجوابين الأولين.

4. ما معنى قوله : (وَعَصَى) و (فَعَوَى) ؟

ربّما يتمسك المخالف بهذين اللفظين ، حيث قال سبحانه : (وَعَصَى آدَمُ

ص: 130

1- الناس : 5.

2- الأعراف : 20 ؛ طه : 120.

3- البقرة : 36.

4- الأعراف : 22.

رَبَّهُ فَعَوَى) لكن لادلالة لهما على ما يرتبه المستدل.

أما لفظة (عَصَى) فهي وإن كانت مستعملة في مصطلح المتشعبة في الذنب والمخالفة للإرادة القطعية الملزمة، ولكنه اصطلاح مختص بالمتشعبة ولم يجر القرآن على ذلك المصطلح، بل ولا اللغة، فإن الظاهر من القرآن ومعاجم اللغة أنّ العصيان هو خلاف الطاعة، قال ابن منظور: العصيان خلاف الطاعة، عصى العبد ربه: إذا خالف ربه، وعصى فلان أميره، يعصيه، عصياً وعصيانياً ومعصية: إذا لم يطعه. وعلى ذلك فيجب علينا أن نلاحظ الأمر الذي خولف في هذا الموقف، فإن كان الأمر مولوياً إلزامياً كان العصيان ذنباً، وإذا كان أمراً إرشادياً أو نهياً تنزيهياً لم تكن المخالفة ذنباً في المصطلح، ولأجل ذلك لا يصلح التمسك بهذا اللفظ وإثبات الذنب على آدم عليه السلام.

وأما اللفظة الثانية: أعني (فَعَوَى) فالجواب عنها: أنّ الغي يستعمل بمعنى الخيبة، قال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره *** ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

أي ومن حرم من الخير ولم يلقه، لا يحمده الناس ويلومونه.

وفي حديث موسى وآدم: (أغويت الناس) أي خيبتهم، كما أنه يستعمل في معنى الفساد، وبه فسّر قوله سبحانه: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) (أي فسد عليه عيشه كما سيأتي (1)).

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ المراد من الغي في الآية هو خيبة آدم وخسرانه وحرمانه من العيش الرغيد الذي كان مجرداً عن الظمأ والعري، بل من المنغصات

ص: 131

1- لاحظ لسان العرب: 15 / 140.

والمشقات ، وليس كل خيبة تتوجه إلى الإنسان ناشئة من الذنب المصطلح ، كما أنه يحتمل أن يكون المراد منه هو الفساد ، وبذلك فسّر ابن منظور المصري في لسانه قوله سبحانه : (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) أي فسد عليه عيشه (1) ، ولا شك أن العيش في الجدة لا يقاس بالعيش في عالم المادة الذي هو دار الفساد والانحلال.

ولو سلم أن الغي بمعنى الضلال في مقابل الرشد ، لكن ليس كل ضلال معصية ، فإن من ضل في طريق الكسب أو في طريق التعلم يصدق عليه أنه غوى : أي ضل ، ولكنه لا يلازم المعصية.

وكان سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي - رضوان الله عليه - يقول في مجلس بحثه : إن لفظة (غَوَى) تعني الحالة التي تعرض للغنم عندما تنفصل عن القطيع فتبقى حائرة تنظر يمينا وشمالاً ولا تشق طريقاً لنفسها ، وكان آدم أبو البشر حائراً بعد ما خالف نهي ربه وابتلي بما ابتلي به لا يدري كيف يعالج مشكلته ، وكيف يتخلص من هذا المأزق الحرج؟!

وبالجملة : فالغي إن أريد منه الخروج عن جادة التوحيد ، والانحراف عما رسم للإنسان من الواجبات والمحرمات ، فهو يلازم الكفر تارة والذنب أخرى ، ولكن ليس كل ضلال - على فرض كون الغي بمعنى الضلال - ملازماً للجرم والذنب ، فمن ضل عن الطريق وتاه عن مقاصده الدنيوية أو المصالح التي يجب أن ينالها ، يصدق عليه أنه (غَوَى) مقابل أنه « رشد » ولكنه لا يلازم المعصية المصطلحة.

ولا شك أن آدم بعدما أكل من الشجرة بدت له سواته وخرج من الجنة وهبط إلى دار الفساد ، فعندئذ غوى في طريقه وضل عن مصلحته.

ص: 132

1- لاحظ لسان العرب : 15 / 140 ، مادة « غوى ».

وبالجملة : فهذه الوجوه الثلاثة المذكورة حول (عَوَى) تثبت وهن الاستدلال بها على العصيان.

5. ما معنى قول آدم عليه السلام : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) ؟

إنّ الظلم ليس إلا بمعنى وضع الشيء في غير موضعه ، ومن أمثال العرب قولهم « من أشبه أباه فما ظلم » . قال الأصمعي : الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وفي المثل « من استرعى الذئب فقد ظلم » ولأجل ذلك يُعدّ العدول عن الطريق ظلماً ، يقال : « لزموا الطريق فلم يظلموه » أي لم يعدلوا عنه (1).

فإذا كان معنى الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه وتجاوز الحد ، لا يلزم أن يكون كل ظلم ذنباً بل يشمله وغيره ، فمن لم يسمع قول الناصح المشفق وعمل بخلاف قوله فقد وضع عمله في غير موضعه ، كما أنّ من خالف النهي التنزيهي فقد عدل عن الطريق الصحيح.

وبالجملة : فكل مخالفة وانحراف عن طريق الصواب ظلم. سواء أكان الأمر المخالف مولوياً أم إرشادياً ، إلزامياً أم غيره.

أضف إلى ذلك أنه سبحانه يعدّ الظلم للنفس مقابلاً لعمل السوء ، ويقول : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غُفُورًا رَحِيمًا) (2).

والآية تُعرب عن أنّ الظلم للنفس ربّما يكون غير عمل السوء ، وعند ذلك يتضح أنّ قول آدم : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) لا يستلزم الاعتراف بالذنب ، لأنّ الظلم

ص: 133

1- لسان العرب : مادة « ظلم ».

2- النساء : 110.

لنفس غير عمل السوء ، فالأول موجب لحط النفس عن مكانتها ولا يستلزم تجاوزاً عن حدود الله ، بخلاف عمل السوء فإنه تجاوز على حدوده ، وبذلك يعلم أن المراد من قوله سبحانه : (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) (1) هو الظلم للنفس المستلزم لحط النفس عن مكانتها ، في مقابل عمل السوء المستلزم للتجاوز على حدوده سبحانه.

6. ما المراد من قوله : (فَتَابَ عَلَيْهِ) ؟

(التوبة) بمعنى الرجوع ، فإذا نسبت إلى الله تتعدى بكلمة « على » قال سبحانه : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) (2) ، أي رجع عليهم بالرحمة.

وإذا نسبت إلى العبد تتعدى بكلمة « إلى » قال سبحانه : (فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) (3). وقال سبحانه : (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (4).

فإذا كانت التوبة بمعنى الرجوع ، فعندما تعدت ب « على » يكون معنى قوله : (فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ) (5) ان الله رجع عليه بالرحمة ، فالتوبة في هذه الجملة توبة من الله على العبد لا من العبد إلى الله ، ومعنى الأول هو رجوعه سبحانه على العبد باللطف والمرحمة.

ص: 134

1- البقرة : 35.

2- التوبة : 117.

3- البقرة : 54.

4- المائدة : 74.

5- البقرة : 37.

ومثله قوله سبحانه: (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) (1) فالتوبة هنا من الله على عبده ، ومعنى الآية أنه سبحانه اصطفى آدم لأجل تلقيه الكلمات وسؤاله بها ، فعندئذ رجع الله عليه بالرحمة وهداه سبحانه وأخرجه من الغواية التي غشيتها ، والظلمة التي اكتنفتها ، لأجل عدم الإصغاء إلى نصحه سبحانه وتقديم نصحه غيره عليه.

نعم إن لفظة (فَتَابَ عَلَيْهِ) في سورتي البقرة وطه ، دالة على أن آدم « تاب إلى ربه » ، ولأجل توبته إلى الله ورجوعه إليه بالندامة ، تاب الله عليه ورجع عليه بالرحمة والهداية ، ولكن لا دلالة لكل رجوع وإنابة إلى الله ، على وقوع الذنب وصدوره منه ، خصوصاً بالنظر إلى ما قدمناه في التفسير الثاني لمخالفة آدم ، وقلنا إن من الممكن أن يكون نفس العمل جائزاً ومباحاً ولكن يعد صدوره من بعض الشخصيات محظوراً وأمرأ غير صحيح ، فإنابة تلك الشخصيات إلى الله في تلك المجالات لا تعد دليلاً على صدور الذنب ، بل تعد دليلاً على سعة علمها بالعظمة الإلهية ، ولأجل ذلك يقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنه ليران على قلبي وإني استغفر الله كل يوم سبعين مرة » (2). وليس هذا الاستغفار دليلاً على صدور الذنب ، بل هو دليل على سعة علمه وعمق إدراكه لعظمة الله.

7. ما معنى الغفران في قوله : (وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا) ؟

إشارة

بقيت هنا كلمة وهي توضيح قوله سبحانه : (وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

ص: 135

1- طه : 122.

2- صحيح مسلم : 8 / 72 ، كتاب الذكر ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. وفيه : « ليغان » كان « ليران » ، وهو من مادة « الغين » أي الستر.

لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، فربّما يتبادر إلى الذهن من هذا المقطع من الآية صدور الذنب من أبينا آدم عليه السلام ، فنقول : لا دلالة فيه ولا في واحدة من كلماته على ما يتوخاه الخصم ، وإليك بيان هدف الآية ومفرداتها.

أمّا الغفران فإنّ أصله « الغفر » بمعنى التغطية والستر ، يقال : غفره ، يغفره ، غفراً : ستره ، وكل شيء سترته فقد غفرته ، فإذا كان الغفران بمعنى الستر فلا ملازمة بين الستر والذنب ، فإنّ المستور ربّما يكون ذنباً وربّما يكون أمراً جائزاً غير مترقب الصدور من الإنسان ، ولأجل ذلك طلب آدم من الله سبحانه على عادة الأولياء والصالحين في استصغارهم ما يقومون به من الحسنات واستعظامهم الصغير من العيوب فقال : (وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا) أي لم تستر عيبنا ولم (تَرْحَمْنَا) أي لم ترجع علينا بالرحمة (لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ولا شك أنّ آدم قد خسر النعيم الذي كان فيه ، بسبب عدم سماعه لنصح الله سبحانه ، ولأجل ذلك طفق يطلب منه أن يرجع عليه بالمغفرة أي بستر عيبه ، والرحمة أي بإخراجه من الخسران الذي عرض له.

إذا وقفت على ما ذكرنا حول هذه الآيات والجمل وتأملت فيها بامعان ودقة يظهر لك أنّ الاستدلال بها على صدور الذنب المصطلح من آدم من غرائب الاستدلالات وعجائبيها ، ولا يصح لباحث أن يُفسر آية دون أن يستعين لفهمها بأختها ، وبذلك يتضح أنّ ما سلكناه من المنهج في تفسير القرآن ، هو الطريق الصحيح الذي يرفع النقاب عن وجوه كثير من الحقائق التي قد تخفى على الباحثين ، وهذا الطريق هو تفسير كتابه سبحانه بالتفسير الموضوعي ، أي جمع الآيات الواردة في موضوع واحد وعرض بعضها على بعض.

قد وقفت على أعظم شبه المخطئة للأنبياء ، كما وقفت على الجواب عنها ، فهلم معي ندرس شبهة أخرى لهم جعلوها ذريعة لفكرتهم الفاسدة حيث استدلووا على عدم عصمة « آدم » عليه السلام بقوله سبحانه : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُّ شُرَكَائِهِمْ مَا لَا يُخْلَقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) (1).

استدل المخطئة لعصمة الأنبياء بقوله سبحانه : (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ) قائلين بأن ضمير التثنية في كلا الموردین يرجع إلى آدم وحواء اللذين أُشير إليهما بقوله سبحانه في صدر الآية : (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) .

ولكن الاستدلال بالآية مبني على القول بأن المراد من (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) هي الواحدة الشخصية لا الواحدة النوعية ، أعني كل أب وأم بالنسبة إلى أولادهما ، ولكن القرائن تشهد بأن المراد هو الواحد النوعي لا الشخصي .

توضيح ذلك : أن تلك اللفظة قد استعملت في القرآن الكريم بوجهين :

الأول : ما أُريد منه الواحد الشخصي كقوله سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

ص: 137

وَنِسَاءً (1) فالمراد من (نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) هو آدم ، ومعنى خلق الزوجة منها كونها من جنسها ، والدليل على أن المراد هو الواحد الشخصي قوله : (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) والمعنى أنه سبحانه خلق الخلق من أب واحد وأم واحدة ، فهذه الجماهير على كثرتها تنتهي إليهما ومثله قوله سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (2).

الثاني : ما أريد منه الواحد النوعي أي الأب لكل إنسان ومثله الأم ، وذلك مثل قوله : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) (3) ، فالمراد من (نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) هو الواحد النوعي ، والمراد أن كل واحد منّا قد ولد من أب واحد وأم واحدة ، والدليل على ذلك قوله سبحانه : (يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) .

ومثلها الآية المبحوث عنها في المقام ، إذ ليس المراد منها شخص آدم أبي البشر بعينه ، بل المراد والد كل إنسان ووالدته ، فالجنسان يتقاربان ويتولد منهما الولد ، وتدل على ما اخترنا من المعنى قرائن في نفس الآيات.

الأولى : ان الآية وقعت في عداد الآيات التي تعرب عن الميثاق الذي أعطاه الإنسان لربه في شرائط خاصة ولكنه حينما نال النعم ورفل فيها ، طفق ينقض ميثاقه ، وهذه طبيعة الإنسان المجهز بالغرائز ، ويشير إليها قوله سبحانه : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) (4) ،

ص: 138

1- النساء : 1.

2- الحجرات : 13.

3- الزمر : 6.

4- فصلت : 51.

فإذا كانت هذه طبيعة الإنسان فلا يبعد أن يسأل الله أن يرزقه ولداً صالحاً ، معطياً لله ميثاقاً بأن يشكره على تلك النعمة ولكنه عندما ينال النعمة يجعل له شركاء فيما آتاه ، وعلى ذلك فالآية جارية مجرى المثل المضروب لبني آدم في نقضهم ميثاقهم الذي واثقوه به.

والدليل على أن الآية واردة في ذلك المجال ، ما ورد قبل هذه الآية من حديث الميثاق الذي أعطاه الإنسان لربه ولكنه نقضه بعده قال سبحانه قَبِيلَ هَذِهِ الْآيَاتِ : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ سَدَّ هَدَانَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (1).

والميثاق الذي ورد في الآية ، معطوف على ذلك الميثاق الذي ورد في الآيتين ، وهذا دليل واضح على أن المراد هو تعريف طبيعة الإنسان وتوصيفها بالتعهد أولاً ، والنقض ثانياً ، وليس بصدد بيان حال الإنسان الشخصي أعني : أبانا آدم.

الثانية : ان سياق الآية ولحنها يوحيان بأن الشخص الذي سأل الله أن يرزقه ولداً صالحاً ، كان يعيش في بيئة كان فيها آباء وأولاد بين صالح وطالح ، فنظر إليهم فتمنى أن يرزقه الله ولداً صالحاً على غرار ما رآه ، غير أنه لما رزقه الله ذلك الولد الصالح ، نقض ميثاقه أي شكره لله على ما رزقه من صالح الأولاد ، وهذا غير صادق في شأن أبينا آدم وأمنا حواء ، إذ لم يكن في بيئتهم آباء وأولاد ، صالحون وطالحون حتى يتمنياً لنفسهما ولداً مثل ما رزقهم الله سبحانه.

الثالثة : ان ذيل الآية يشهد بوضوح على أنها غير مرتبطة بصفي الله آدم ،

ص: 139

وذلك لأنه سبحانه يقول في ذيلها : (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ، فلو كان المراد من النفس وزوجها في الآية شخصين معيّنين كآدم وحواء ، كان من حق الكلام أن يقول : « فتعالى الله عما يشركان » وهذا بخلاف ما أريد من النفس وزوجها ، الطبيعة الإنسانية في جانبي الذكر والأنثى ، إذ حينئذ يصح الجمع لكثرة أفراده.

الرابعة : انه سبحانه يقول : (أَيَسِّرْكَوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ سَدِيدًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) ، ومن المعلوم أنّ المراد من الشرك هو الشرك في العبادة ، وحاشا أن يكون آدم صفي الله مشركاً في العبادة ، كيف ؟ وقد وصفه الله سبحانه بالاجتباء حيث قال : (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (1) ، وقال سبحانه : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) (2) ، وقال سبحانه : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ) (3) ، وقال أيضاً : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (4).

كل هذه الآيات تشهد بوضوح على أنّ الآية تهدف إلى ذكر القصة على سبيل ضرب المثل ، وبيان أنّ هذه الحالة صورة تعم جميع الأفراد من الإنسان ، إلا من التجأ إلى الإيمان ، فكأنه سبحانه يقول : هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية ، فلما تغشى الزوج الزوجة وظهر الحمل دعوا ربهما بأنه سبحانه لو آتاهما ولدًا صالحاً سوياً ليكونا من الشاكرين لآلائه ونعمائه ، فلما آتاهما الله ولدًا صالحاً سوياً جعل الزوج والزوجة لله شركاء في ذلك الولد الذي آتاهما ، فتارة نسبوه إلى الطبيعة كما هو قول الدهريين ، وأخرى إلى الكواكب كما هو قول المنجمين ، وثالثة إلى الأصنام كما هو

ص: 140

1- طه : 122.

2- الإسراء : 97.

3- الزمر : 37.

4- الأحقاف : 5.

قول عبدها، فردَّ اللهُ سبحانه على تلك المزاعم بقوله: (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (1). وعلى ما ذكرنا يحتمل أن يكون المراد من الشرك هو الشرك في التدبير، ومثل هذا لا يليق أن ينسب إلى من هو دون الأنبياء والأولياء، فكيف يمكن أن يوصف به صفي الله آدم عليه السلام!
!؟

وأقصى ما يمكن أن يقال هو أن المراد من النفس الواحدة وزوجها في صدر الآية هو آدم وحواء الشخصيتان، ولكنه سبحانه عندما انتهى إلى قوله: (لَيْسَ كُنَّ إِلَيْهَا) التفت من شخصهما إلى مطلق الذكور والأنثى من أولادهما أو إلى خصوص المشركين من نسلهما، فيكون تقدير الكلام (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) أي تغشى الزوج الزوجة من نسلهما (حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ) ... إلى آخر الآية.

وهذا ما يسمّى في علم المعاني بالالتفات، وله نظائر في القرآن الكريم قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) (2). ترى أنه سبحانه خاطب الجماعة بالتسيير ثم خص راكب البحر بأمر آخر ومثله الآية، ترى أنه سبحانه أخبر عن عامة أمر البشر بأنهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء، ثم ساق الكلام إلى مطلق ذرية آدم من البشر.

وهذا الوجه نقله المرتضى في «تنزيه الأنبياء» عن أبي مسلم محمد بن بحر الاصفهاني (3).

وتوجد وجوه أخرى في تفسير الآية غير تامة (4). وفيما ذكرنا غنى وكفاية.

ص: 141

1- مفاتيح الغيب: 4 / 343.

2- يونس: 22.

3- تنزيه الأنبياء: 16.

4- لاحظ مفاتيح الغيب: 4 / 341 - 343; مجمع البيان: 4 / 508 - 510; أمالي المرتضى: 137 - 143.

عصمة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام والمطالبة بنجاة ابنه العاصي

إشارة

قد استدلت المخطئة لعصمة الأنبياء على عدم عصمة نوح عليه السلام بما ورد في سورة هود من الآية 45 إلى 47، وإليك الآيات :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) .

وقد استدلت بهذه الآيات بوجهه :

1. أنّ ظاهر قوله تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) تكذيب لقول نوح (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ، وإذا كان النبي لا يجوز عليه الكذب ، فما الوجه في ذلك ؟

2. قوله : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) ، فإنّ ظاهره صدور سؤال منه غير لائق بساحة الأنبياء ، ولأجل ذلك خوطب بالعتاب ونهي عن التكرار.

ص: 142

3. قوله: (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) فإن طلب الغفران آية الذنب ، وهو لا يجتمع مع العصمة.

وإليك الجواب عن الوجوه الثلاثة : الوجه الأول : كيف يجتمع قول نوح عليه السلام : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) مع قوله سبحانه : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) ؟

فتوضيح دفعه : أنه سبحانه قد وعد نوحاً بإنجاء أهله إلا من سبق عليه القول وقال : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (1) ، وهذا الكلام يعرب عن أنه سبحانه وعد بكلامه شيخ الأنبياء بأنه ينجي أهله ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر يجب أن نقف على حالة ابن نوح وأنه إما أن يكون متظاهراً بالكفر وكان أبوه واقفاً على ذلك ، وإما أن يكون متظاهراً بالإيمان مبطناً للكفر ، وكان أبوه يتصور أنه من المؤمنين به.

فعلى الفرض الأول : يجب أن يقال : إن نوحاً قد فهم من قوله سبحانه : (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) في سورتي هود الآية 40 والمؤمنون الآية 27 (2) أنه قد تعلقت مشيئته بإنجاء جميع أهله الذين ينتمون إليه بالوشيجة النسبية والسببية ، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين غير امرأته التي كانت كامراً لوط تخونه ليلاً ونهاراً ، وعندئذ يكون المراد من قوله : (إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) هو

ص: 143

1- هود : 40.

2- قال سبحانه في سورة هود : (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) . وقال سبحانه في سورة المؤمنون : (فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ)

زوجته فقط ، ولما رأى نوح أنّ الولد أدركه الغرق تخالّج في قلبه أنّه كيف يجتمع وعده سبحانه بإنجاء جميع الأهل مع هلاك ولده ؟ وعند ذلك اعتراه الحزن ورفع صوته بالدعاء منادياً : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) من دون أن يسأل منه شيئاً بل أظهر ما اختلج في قلبه من الصراع والتضاد بين الأمرين : الإيمان بصدق وعده ، كما يفصح عنه قوله : (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) وغرق ولده وهلاكه .

وعلى هذا الفرض لم يكذب نوح عليه السلام حتى بكلمة واحدة ، بل لما فهم من قوله (وَأَهْلَكَ) نجاة مطلق المنتمين إليه بالوشيجة الرحمية أو السببية ، أبرز ما فهم وقال : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ، فلا يعد الإنسان كاذباً عند نفسه إذا أبرز ما اعتقده وأفرغه في قالب القول وان كان المضمون خلاف الواقع في حد نفسه ، وحينئذ أجابه سبحانه بأنّ الموعود بإنجائهم هم الصالحون من أهلك لا مطلق المنتمين إليك بالوشائج الرحمية أو السببية .

وبعبارة أخرى : إنّ ولدك وإن كان من أهلك حسب الوشيجة الرحمية ، لكنّه ليس من الأهل الذين وعدت بنجاتهم وخلصهم .

وبعبارة ثالثة : (إِنَّ ابْنَكَ) داخل في المستثنى ، أعني قوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) كما أنّ زوجتك داخله فيه أيضاً .

وهذا الجواب على صحة الفرض تام لا غبار عليه ، لكن أصل الفرض وهو كون ابن نوح متظاهراً بالكفر وكان الأب واقفاً عليه غير تام لما فيه :

أولاً : إنّ من البعيد عن ساحة نوح عليه السلام أن يطلب من الله سبحانه أن لا يندر على الأرض من الكافرين ديّاراً ، كما يعرب عنه قوله سبحانه حاكياً عنه عليه السلام : (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا) ، ويتبادر (1) إلى ذهنه من قوله سبحانه :

ص : 144

(وَأَهْلَكَ) مطلق المنتمين إليه مؤمناً كان أم كافراً. بل يعد دعاؤه هذا قرينة على أن الناجين من أهله هم المؤمنون فقط لا الكافرون، وأن المراد من (مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) مطلق الكافرين سواء كانوا منتمين إليه أو لا.

ثانياً: أنه لا دليل على أنه فهم من قوله: (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) خصوص زوجته، بل الظاهر أنه فهم أن المراد من المستثنى كل من عاند الله وحاد رسوله من غير فرق في ذلك بين الزوجة وغيرها.

وثالثاً: أنه سبحانه بعدما أمر نوحاً عليه السلام بصنع الفلك أوحى إليه بقوله: (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ) (1)، والظاهر من قوله: (الَّذِينَ ظَلَمُوا) مطلق المشركين حميماً كان أو غريباً، فإذا قال بعد ذلك: (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) يكون إطلاق الجملة الأولى قرينة على أن المراد من الأهل هو خصوص المؤمن لا الظالم منهم، إذ الظالم منهم داخل في قوله: (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا).

وإن شئت قلت: إن صراحة الجملة الأولى قرينة على أن المراد من قوله: (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) مطلق الظالم والكافر زوجة كانت أم غيرها، رحماً كان أم غيره، وهذه الصراحة قرينة على أن المراد من (أَهْلَكَ) هو خصوص المؤمن لا الأعم منه.

وبالجملة: فلو صحت النظرية صح الجواب، لكنها باطلة لأجل الأمور الثلاثة التي ألمعنا إليها.

وأما الفرض الثاني، فالظاهر أنه الحق، وحاصله: أن الابن كان متظاهراً بالإيمان مبطناً للكفر، ويدل على ذلك قول نوح لابنه عندما امتنع أن يواكب أباه

ص: 145

في ركوبه السفينة : (يَا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) (1)، أي لا تكن معهم حتى تشاركهم في البلاء ، ولو كان عارفاً بكفره لكان عليه أن يقول : « ولا تكن من الكافرين » وبما أنه كان معتقداً بإيمان ولده كان مدعناً بدخوله في قوله : (وَأَهْلَكَ) ولما أدركه الغرق أدركته الحيرة في أنه كيف غرق مع أن وعده سبحانه حق لا يشوبه ريب ، وعندئذ أظهر ما في قلبه وقال : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ، وأجابه سبحانه بأنه ما أدركه الغرق إلاّ لأجل كفره ، فهو كان داخلاً في قوله : (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) (2) أولاً ، وثانياً في المستثنى أي قوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) لا المستثنى منه أي (أَهْلَكَ) .

وعندئذ يقع السؤال والجواب في موقعهما ولا يكون نوح عليه السلام في حكمه كاذباً ، لأنه كان يتصور أن ولده مؤمن فنبتّه سبحانه على أنه كافر ، فأين الكذب في هذين الحكمين ؟ وفي قوله سبحانه : (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) إعلام بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وإن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد وإن كان حبشياً وكنت قرشياً ، لصيقك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو بعيد عنك إيماناً وعقيدة وروحاً .

ثم إن الإخبار عن ابن نوح بأنه عمل غير صالح مكان كونه عاملاً غير صالح ، لأجل المبالغة في ذمه مثل قوله « فإنما هي إقبال وإدبار » (3).

وهاهنا نكتة يجب التنبيه عليها ، وهي أن العنصر المقوم لصدق عنوان الأهل عند أصحاب اللغة والعرف هو انتساب الإنسان إلى شخص بوشيجة من

ص: 146

1- هود : 42.

2- هود : 37.

3- الكشاف : 2 / 101.

الوشائج النسبية أو السببية ، وان لم يكن بينهما تشابه ووحدة من حيث المسلك والمنهج.

غير أن التشريع الإلهي أدخل فيه عنصراً آخر وراء الوشيحة المادية وهو صلة الشخص بالإنسان من جهة الإيمان ، ووحدة المسلك ، إلى حد لو فقد هذا العنصر لما صدق عليه ذلك العنوان ، بل صار ذلك العنصر إلى حد ربّما يكتفي به في صدق الأهل على الأفراد سواء أكانت فيه وشيحة نسبية أم لا ، ولأجل ذلك نجد أنه سبحانه يكتفي بلفظ الأهل في التعبير عن كل المؤمنين ، فيقول في قصة « لوط » : (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) (1) ، وقال أيضاً : (إِنَّا مُنَجِّوْكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) (2) ، وقال أيضاً : (وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ) (3) ، ترى أنه سبحانه اكتفى بلفظ الأهل من دون أن يعطف عليه لفظ « المؤمنين » أو « من آمن به » مع عدم اختصاص النجاة بخصوص أهله وعمومها للمؤمنين ، معرباً عن أن الإيمان يجعل البعيد أهلاً ، والكفر يجعل القريب بعيداً.

ولأجل ذلك اكتفى في قصة نوح بلفظ الأهل فقال : (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) (4) ، وقال أيضاً : (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) (5) ، ومن المعلوم عدم اختصاص النجاة بخصوص الأهل بشهادة قوله : (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

ص: 147

1- الأعراف : 83.

2- العنكبوت : 33.

3- الصافات : 133 - 135.

4- الأنبياء : 76.

5- الصافات : 75 - 76.

وبذلك يظهر سرّ قوله صلى الله عليه وآله : « سلمان منّا أهل البيت » فعد غير العرب من أهل بيته ، وما هذا إلا لأنّ التشابه الروحي أوثق صلة وأحكم عرى ، كما أنّ التباين الروحي خير أداة لقطع العرى وهدم الوشيجة المادية.

ولأجل ذلك قال الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا عليهما السلام في حق ابن نوح : « لقد كان ابنه ولكن لما عصى الله عزّ وجلّ نفاه عن أبيه ، وكذا من كان منّا لم يطع الله عزّ وجلّ فليس منّا ، وأنت إذا أطعت الله فأنت منّا أهل البيت » (2).

نعم لا- نقول إنّ ما ذكرناه هو المصطلح الوحيد في القرآن ، بل له مصطلح آخر يتطابق مع اصطلاح أهل اللغة والعرف ، وهو الاكتفاء بالوشيجة المادية ، ونرى كلا المصطلحين واردان في سورة هود قال سبحانه : (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ) ، فأطلق لفظ الأهل على مطلق المنتمي إلى شيخ الأنبياء ، كافرأ كان أم مؤمناً ، ثم أخرج الكافر من الحكم (احمل) لا من الموضوع وهو (الأهل) وقال : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) .

وفي الوقت نفسه يجيب نداء نوح عليه السلام بعد قوله : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) بقوله : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) . الوجه الثاني : لا دلالة لقوله : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) على صدور سؤال غير لائق بساحة الأنبياء :

قد عرفت ما في الوجه الأوّل من نسبة الكذب إلى شيخ الأنبياء نوح عليه السلام في قوله : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ، فهلمّ معي ندرس الوجه الثاني ، وهو أنّ قوله

ص: 148

1- هود : 40.

2- البحار : 219 / 49 ضمن ح 3.

سبحانه : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) يعرب عن وجود سؤال غير لائق بساحة الأنبياء ، فلأجل ذلك خوطب ونهي عن التكرار.

فنقول : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وعده بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم ، وهذا الاستثناء كان دليلاً على أنَّ في جملة « أهله » من هو مستوجب للعذاب ، وأنَّهم كلَّهم ليسوا بناجين ، وعندئذ كان على نوح أن لا تخالجه شبهة حين أشرف ولده على الغرق في أنَّه من المستثنى ، وليس داخلاً في المستثنى منهم ، فعوتب على أنَّه اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتهه عليه (1).

وعلى هذا يكون المراد من قوله : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) النهي عن السؤال الذي لا يليق أن يطرح ويسأل إذا كان الجواب معلوماً بالقرائن والتفكر في أطراف القضية ، وإلاَّ فالسؤال اتِّمَّ يتعلَّق بما لا يعلم لا بما يعلم. هذا ما أجاب به صاحب الكشف.

وهناك جواب أوضح ولعله أليق بساحة الأنبياء ، وهو : أنَّه لما وعد نوحاً بنجاة الأهل بقوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) ولم يكن نوح مطلقاً على باطن ابنه ، بل كان معتقداً بظاهر الحال أنَّه مؤمن ، بقي متمسكاً بصيغة العموم للأهلية ولم يعارضه يقين ولا شك بالنسبة إلى إيمان ابنه ، فلذلك (نَادَى رَبَّهُ) .

وأما قوله : (إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فليس راجعاً إلى كلامه وندائه ، بل كان نداؤه ربِّه في هذا الظرف واقعاً موقع القبول ، وكان السؤال صحيحاً ورضيماً ، بل هو راجع إلى وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره ، وأنَّه إن سأل في المستقبل كان من الجاهلين ، والغرض من ذلك تقديم

ص: 149

ما يقيه عليه السلام على سمة العصمة ، والموعظة لا تستدعي وقوع الذنب وصدوره بل ربّما يكون الهدف التحفّظ على أن لا يصدر الذنب منه في المستقبل ، ولذلك امثّل عليه السلام نهى ربّه وقال : (أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) (1).

جواب ثالث للوجه الثاني

هذا وللعلامة الطباطبائي جواب ثالث أمتن من الجوابين السابقين حيث قال : إن قول نوح : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) في مظنة أن يسوقه إلى سؤال نجاة ابنه ، وهو لا يعلم أنه ليس من أهله ، فشملته العناية الإلهية وحال التسديد الغيبي بينه وبين السؤال فأدركه النهي بقوله : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) بتفريع النهي على ما تقدّم ، مخبراً نوحاً بأن ابنك ليس من أهلك ، لكونه عملاً غير صالح ، فلا سبيل لك إلى العلم به ، فإيتاك أن تبادر إلى سؤال نجاته ، لأنّه سؤال ما ليس لك به علم ، والنهي عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق السؤال منه لا مستقلاً ولا ضمناً ، والنهي عن الشيء لا يستلزم الارتكاب قبلاً ، وإنما يتوقف على أن يكون الفعل اختيارياً ومورداً لابتلاء المكلف ، فإنّ من العصمة والتسديد أن يراقبهم الله سبحانه في أعمالهم ، وكلّما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم الله لوجه الصواب ، ودعاهم إلى السداد والتزام طريق العبودية ، قال تعالى : (وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَّ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِدَّ عَفَا الْحَيَاةِ وَضِدَّ عَفَا الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) (2).

ومما يدل على أنّ النهي في قوله (فَلَا تَسْأَلْنِ) نهى عمّا لم يقع بعد ، قول

ص: 150

1- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين الاسكندري المالكي : 2 / 101 على هامش الكشاف.

2- الإسراء : 74 - 75.

نوح عليه السلام بعد استماع خطابه سبحانه : (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) .

ولو كان سأل شيئاً من قبل لكان عليه أن يقول : أعوذ بك ممّا سألت أو ما يشابه ذلك ، وممّا يوضح أنّ نوحاً لم يسأل شيئاً من ربه قوله سبحانه : (إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) تعليلاً لنهيهِ (فَلَا تَسْأَلِنِ) ، فلو كان نوح عليه السلام سأل شيئاً من قبل لكان من الجاهلين ، لأنّه سأل ما ليس له به علم .

وأيضاً لو كان المراد من النهي عن السؤال أن لا يتكرر منه ذلك بعد ما وقع منه مرّة لكان الأنسب أن يصرّح بالنهي عن العود إلى مثله دون النهي عن أصله ، كما ورد نظيره في القرآن الكريم : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ... يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) (1) . (2)

إلى هنا تبين الجواب عن السؤال الثاني ، واتضح أنّه لم يسبق منه عليه السلام سؤال غير لائق بساحته ، بقي الكلام في السؤال الثالث .

الوجه الثالث : تفسير قوله تعالى : (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي) .

وحاصله : أنّ طلب الغفران في قوله : (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) لا يجتمع مع العصمة .

أقول : إنّ هذا كلام ، صورته التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب ، أمّا أنّ صورته صورة التوبة ، فإنّ في ذلك رجوعاً إلى الله تعالى بالاستعاذة ، ولازمها طلب مغفرة الله ورحمته ، أي ستره على الإنسان ما فيه زلته ،

ص: 151

1- النور : 15 - 17 .

2- الميزان : 10 / 245 .

وشمول عنايته لحاله ، والمغفرة بمعنى طلب الستر أعم من طلبه على المعصية المعروفة عند المتشريعة ، وكل ستر إلهي يسعد الإنسان ويجمع شمله.

وأما كون حقيقته الشكر ، فإنَّ العناية الإلهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين ، كانت سترًا إلهيًا على زلة في طريقه ، ورحمة ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه فقوله : (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بمعنى أنه إن لم تعذني من الزلات ، لخسرت ، فهو ثناء وشكر لصنعه الجميل (1).

وتظهر حقيقة ذلك الكلام مما قدمناه في قصة آدم من أن كثيراً من المباحات تعد ذنباً نسبياً بالنسبة إلى طبقة خاصة من الأولياء والأنبياء ، فعند صدور مثل ذلك يجب عليهم - تكمياً لعصمتهم - طلب الغفران والرحمة ، حتى لا يكونوا من الخاسرين ، وليس الخسران منحصرًا في الإتيان بالمعصية ، بل ربّ فعل سائغ يعد صدوره من الطبقة العليا خسراناً وخيبة ، كما أوضحناه في قصة آدم.

نعم لم يصدر من شيخ الأنبياء في ذلك المقام فعل غير أنه وقع في مظنة صدور ذلك الفعل ، وهو السؤال عمّا لا يعلم ، فلأجل ذلك صح له أن يطلب الستر على تلك الحالة بالعناية الإلهية الحائلة بينه وبين صدوره.

إلى هنا تبين مفاد الآيات وأنه ليس فيها إشعار بصدور الذنب بل حتى ما يوجب العتاب واللوم.

ثم إنَّ لبعض المفسرين من العدلية أجوبة أخرى للأسئلة المطروحة ، فمن أراد الوقوف عليها ، فليرجع إلى مظاهرها (2).

ص: 152

1- الميزان : 10 / 238.

2- لاحظ تنزيه الأنبياء : 18 - 19 ; مجمع البيان : 3 / 167 ; بحار الأنوار : 11 / 213 - 314 إلى غير ذلك.

عصمة إبراهيم الخليل عليه السلام والمسائل الثلاث

إشارة

عصمة إبراهيم الخليل عليه السلام والمسائل الثلاث (1)

إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَتْنَى عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَطْلَ التَّوْحِيدِ بِأَجْمَلِ الثَّنَاءِ ، وَحَمْدِ مَحْنَتِهِ فِي سَبِيلِهِ سَبَّحَانَهُ أَبْلَغَ الْحَمْدِ ، وَكَرَّرَ ذِكْرَهُ بِاسْمِهِ فِي نَيْفِ وَسْتَيْنِ مَوْضِعاً مِنْ كِتَابِهِ ، وَذَكَرَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِ شَيْئاً كَثِيراً وَقَالَ : (وَلَقَدْ اصَّ طَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (2). وَقَدْ حَفِظَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ حَيَاتِهِ الْكَرِيمَةَ وَشَخْصِيَّتَهُ الدِّينِيَّةَ لِمَا سَمَّى هَذَا الدِّينَ الْقَوِيمَ بِالْإِسْلَامِ وَنَسَبَ التَّسْمِيَةَ بِهِ إِلَيْهِ قَالَ تَعَالَى : (مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) (3). وَقَالَ سَبَّحَانَهُ : (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (4).

وَمَعَ هَذَا الثَّنَاءِ الْمُتَضَافِرِ مِنْهُ سَبَّحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَرَى أَنَّ بَعْضَ الْمُخَطِّئَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ يَرِيدُ أَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِشَأْنِهِ مُسْتَدَلًّا بِآيَاتٍ نَأْتِي بِهَا وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَنَبِّينَ حَالَهَا.

ص: 153

- 1- أ. قوله للنجم : (هَذَا رَبِّي) . ب. قوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) . ج. قوله لقومه : (إِنِّي سَقِيمٌ) .
- 2- البقرة : 130 .
- 3- الحج : 78 .
- 4- الأنعام : 161 .

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (1).

قالت المخطئة : إن قوله : (هَذَا رَبِّي) في المواضع الثلاثة ظاهر في أنه عليه السلام كان يعتقد في وقت من الأوقات بربوبية هذه الأجرام السماوية ، وهذا مما لا يجوز على الأنبياء عند العدالة ، وإن زعمت العدالة أنه عليه السلام تكلم بها ظاهراً غير معتقد باطناً ، فهذا أيضاً غير جائز على الأنبياء ، لأنه يقول شيئاً غير معتقد به ، وهو أمر قبيح سواء سمّي بالكذب أم لا .

والجواب : إن الاستدلال ضعيف ، لأنّ الحال لا تخلو من إحدى صورتين :

الأولى : إن إبراهيم كان في مقام التحري والتعرف على الربّ المدبر للعالم ، ولم يكن آنذاك واقفاً على الحقيقة ، لأنه - كما قيل - كان صيباً لم يبلغ الحلم ، وصار بصدد التحقيق والتحري ، فعندئذ طرح عدّة احتمالات واحداً بعد واحد ، ثم شرع في إبطال كل واحد منها ، إلى أن وصل إلى الربّ الواقعي والمدبر الحقيقي .

وهذا نظير ما يفعله الباحثون عن أسباب الظواهر وعللها ، فتراهم يطرحون على طاولة التحقيق سلسلة من الفرضيات والاحتمالات ، ثم يعمدون إلى التحقيق عن حال كل واحد منها إلى أن يصلوا إلى العلة الواقعية ، وعلى هذا يكون معنى

ص: 154

قوله: (هَذَا رَبِّي) مجرد فرض لا إذعان قطعي ، وليس مثل هذا غير لائق بشأن الأنبياء.

وفي هذا الصدد يقول السيد المرتضى - جواباً عن السؤال - : إنه لم يقل ذلك مخبراً ، وإنما قال فرضاً ومقدراً على سبيل الفكر والتأمل .

ألا ترى أنه قد يحسن من أحدنا إذا كان ناظراً في شيء وممثلاً بين كونه على إحدى صفتيه أن يفرضه على إحدهما لينظر فيما يؤدي ذلك الفرض إليه من صحة أو فساد ، ولا يكون بذلك مخبراً عن الحقيقة ، ولهذا يصح من أحدنا إذا نظر في حدوث الأجسام وقدمها أن يفرض كونها قديمة ليتبين ما يؤدي إليه ذلك الفرض من الفساد (1).

وقد روي هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن قول إبراهيم : (هَذَا رَبِّي) أشرك في قوله : (هَذَا رَبِّي) ؟ فقال عليه السلام : « لا ، بل من قال هذا ، اليوم فهو مشرك ، ولم يكن من إبراهيم شرك ، وإنما كان في طلب ربه وهو من غيره شرك » (2).

وفي رواية أخرى عن أحدهما (الباقر والصادق عليهما السلام) : « إنما كان طالباً لربه ولم يبلغ كفراً ، وأنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته » (3).

غير أن هذا الفرض ربّما لا يكون مرضياً عند بعض العدلية ، لأنّ الأنبياء منذ أن فطموا من الرضاع إلى أن ادرجوا في أكفانهم ، كانوا عارفين بتوحيده سبحانه ذاتاً وفعلاً ، خالقاً وربّاً ، ولو كان هناك إراءة من الله لخليقه كما في قوله : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ) كانت لزيادة المعرفة وليكون من الموقنين .

ص: 155

1- تنزيه الأنبياء : 22.

2- و (3) نور الثقلين : 1 / 610 - 611 ، الحديث 149 و 150 و 151.

الثانية : انه كان معترفاً بربوبيته نافياً ربوبية غيره ، ولكنه حيث كان بصدد هداية قومه وفكّهم من عبادة الأجرام ، جارا هم في منطقتهم لكي لا يصدّم مشاعرهم ويثير عنادهم ولجاجهم ، فتدرج في إبطال ربوبية معبوداتهم الواحد تلو الآخر ، بما يطرأ عليها من الأفول والغيبة والتحوّل والحركة مما لا يليق بالربّ المدبّر ، ومثل هذا جائز للمعلم الذي يريد هداية جماعة معاندة في عقيدتهم ، منحرفة عن جادة الصواب ، وهذه إحدى طرق الهداية والتربية ، فأين التكلم بكلمة الشرك عن جد ؟!

وإلى ذلك الجواب أشار السيد المرتضى في كلامه بأن إبراهيم عليه السلام لم يقل ما تضمنته الآيات على طريق الشك ، ولا في زمان مهلة النظر والفكر ، بل كان في تلك الحال موقناً عالمياً بأنّ ربّه تعالى لا يجوز أن يكون بصفة شيء من الكواكب ، وإنما قال ذلك على أحد وجهين :

الأول : انه ربّي عندكم ، وعلى مذاهبكم ، كما يقول أحدنا على سبيل الإنكار للمشتبه هذا ربّه جسم يتحرك ويسكن.

الثاني : انه قال ذلك مستفهماً وأسقط حرف الاستفهام للاستغناء عنها (1).

والوجه الأول من الشقين في هذا الجواب هو الواضح.

الآية الثانية

قوله سبحانه : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ... وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصَدَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ... قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا

ص : 156

فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَلَا تَعْقِلُونَ (1).

فزعمت المخطئة أن قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) كذب لا شك فيه، لأنه هو الذي كسر الأصنام وجعلها جذاذاً إلا كبيرها، فكيف نسب التكسير إلى كبيرها؟

ولا يخفى أن الشبهة واهية جداً، مثل الشبهة السابقة، لأن الكذب في الكلام إنما يتحقق إذا لم يكن هناك قرينة على أنه لم يرد ما ذكره، بالإرادة الجدية، وإنما ذكره لغاية أخرى، ومع تلك القرينة لا يُعد الكلام كذباً، والقرينة في الكلام أمران:

الأول: قوله عليه السلام عند مغادرة قومه البلد ومخاطبتهم بقوله: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصَدَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) (2)، ولا يصح حمل ذلك على أنه قاله في قلبه وفكرته، لا بصورة المشافهة والمصارحة، وذلك لأن إبراهيم كان مشهوراً بعدائه وكرهه للأصنام، حتى أنهم بعد ما رجعوا إلى بلدهم ووجدوا الأصنام جذاذاً، أساءوا الظن به، واتهموه بالعدوان على أصنامهم وتخريبها و (قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) (3).

الثاني: أن من المسلم بين إبراهيم وعبدة الأصنام أن آلهتهم صغیرها وكبیرها

ص: 157

1- الأنبياء: 51 - 67.

2- الأنبياء: 57.

3- الأنبياء: 60.

لا تقدر على الحركة والفعل ، فمع تلك القرينة والتسليم الواضح بينه وبينهم ، بل وبين جميع العقلاء ، إذا أجاب إبراهيم بهذا الكلام يعلم منه أنه لم يتكلم به لغاية الجد ، بل لغاية أخرى حتى ينتبه القوم إلى خطئهم في العقيدة.

ويزيد توضيحاً ما ورد في القصص : إن إبراهيم بعد أن حطّم الأصنام الصغيرة جعل الفأس على عنق كبيرها ، حتى تكون نسبة التحطيم إلى الكبير مقرونة بالقرينة وهي : أن آلة الجرم تشهد على كون الكبير هو المجرم دون إبراهيم ، ومن المعلوم أن هذا العمل والشهادة المزعومة ، أشبه شيء في مقام العمل باستهزائه بالقوم وسخريته مما يعتقدون.

فعلى تلك القرائن قد تكلم إبراهيم بهذه الكلمة لا عن غاية الجد ، بل لغاية أخرى كما بيّنها القرآن ، فإذا انتفى الجد بشهادة القرائن القاطعة ينتفي الكذب.

وأما الغاية من هذا الكلام فهو أنه طرح كلامه بصورة الجد وإن لم يكن عن جد حقيقي ، وطلب منهم أن يسألوا الأصنام بأنفسهم ، وأنه من فعل هذا بهم ؟ لغاية أخذ الاعتراف منهم بما أقرّوا به في الآية ، أعني قولهم : (لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) حتى يتسنى للخليل عليه السلام كتبهم وتوبيخهم - بأنه إذا كان هؤلاء على ما يصفون - بقوله عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (1) ، وفي موضع آخر يقول : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (2) ، فتبين من ذلك أن قوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) لم يكن كلاماً عن جد وجزم وعزم حتى يوصف بالكذب ، بل

ص: 158

1- الأنبياء : 66 - 67.

2- الصفات : 95 - 96.

كان كلاماً ألقى على صورة الجدل ليكون ذريعة لإبطال عبادتهم وشركهم ، وكانت القران تشهد على أنه ليس كلاماً جدياً ولو كان هذا الكلام صادراً من عاقل غير النبي عليه السلام لأجزنا لأنفسنا أن نقول : إن الغاية ، الاستهزاء والتهمك بعبدة الأصنام والأوثان حتى يتنبهوا بذلك الوجه إلى بطلان عقيدتهم.

ولما كان هذا النمط من الحوار والاحتجاج الذي سلكه إبراهيم في غاية القوة والمتانة ، لم يجد القوم جواباً له إلا الحكم عليه بالتعذيب والإحراق شأن كل مجادل ومعاند إذا أفحم ، كما يقول سبحانه : (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) (1) ، وفي آية أخرى : (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) (2) ، هذا هو الحق الصراح لمن طالع القصة في القرآن الكريم ، ومن أمعن النظر فيها يجد أن الجواب هو ما ذكرنا.

جواب آخر عن السؤال

وربما يجب بأنه لم يكذب وإنما نسب الفعل إلى كبيرهم مشروطاً لا منجزاً ، وإنما يلزم الكذب لو نسبته على وجه التنجيز حيث قال : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) فكأنه قال : فعل كبيرهم هذا العمل إن كانت الأصنام المكسورة ناطقة ، وبما أن المشروط ينتفي بانتفاء شرطه ، وكان الشرط - أعني نطقها - منتفياً كان المشروط - أي كون الكبير قائماً بهذا الفعل - منتفياً أيضاً.

وهذا الجواب لا ينطبق على ظاهر الآية ، لأنها تشتمل على فعلين :

أحدهما قريب من الشرط ، والآخر بعيد عنه ، ومقتضى القاعدة رجوع

ص: 159

1- الصفات : 97 - 98.

2- الأنبياء : 68.

الشرط إلى القريب من الفعلين لا إلى البعيد ، والرجوع إلى كلا الفعلين خلاف الظاهر أيضاً ، وإليك توضيحه :

1. بل فعله كبيرهم : الفعل البعيد من الشرط.

2. فاسألوهم : الفعل القريب من الشرط.

3. ان كانوا ينطقون : هذا هو الشرط.

فرجوعه إلى الأول وحده ، أو كليهما ، خلاف الظاهر ، والمتعين رجوعه إلى الثاني ، فصار الحكم بأنه فعله كبيرهم منجزاً لا مشروطاً.

الآية الثالثة

استدلت المخطئة لعصمة إبراهيم بالآية الثالثة ، أعني قوله سبحانه : (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتُنْفِكُوا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) (1).

فاستدلوا بقوله : (إِنِّي سَقِيمٌ) قائلين بأنه لم يكن سقيماً ، وإنما ذكر ذلك عذراً لترك مصاحبتهم في الخروج عن البلد.

أضف إلى ذلك أنّ قوله : (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) يشبه ما يفعله المنجمون حيث يستكشفون من الأوضاع الفلكية ، الأحداث الأرضية.

والجواب : أنّ الإشكال مبني على أنّه عليه السلام قال : (إِنِّي سَقِيمٌ) ولم يكن سقيماً ، ولم يدل على ذلك دليل إذ من الممكن أنّه كان سقيماً في ذلك الوقت ، وأما

ص: 160

قوله : (فَتَنْظَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) ، فمن المحتمل جداً أنه نظر إلى السماء متفكراً حتى يلاحظ حاله وأنه هل يقدر على المغادرة معهم أم لا ، والعرب تقول لمن تفكر : « نظر في النجوم » بمعنى أنه نظر إلى السماء متفكراً في جواب سؤال القوم ، كما يفعل أحدنا عندما يريد أن يفكر في شيء .

ويؤيد ذلك أنه عليه السلام قاله عندما دعاه قومه إلى الخروج معهم لعيد لهم ، فعند ذلك نظر إلى النجوم وأخبرهم بأنه سقيم ، ومن المعلوم أن الخروج إلى خارج البلد لأجل التنزه لم يكن في الليل بل كان في الضحى ، فلو كانت الدعوة عند مطلع الشمس وأول الضحى لم يكن النظر إلى النجوم بمعنى ملاحظة الأوضاع الفلكية ، إذ كانت النجوم عندئذ غاربة ، فلم يكن الهدف من هذه النظرة إلا التفكير والتأمل .

نعم لو كانت الدعوة في الليل لأجل الخروج في النهار كان النظر إلى النجوم مظنة لما قيل ، ولكنه غير ثابت .

نعم هناك معنى آخر لقوله : (فَتَنْظَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) ، وهو أنه عليه السلام كان به حمى ذات نوبة تعتريه في أوقات خاصة متعينة بطلوع كوكب أو غروبه ، فلأجل ذلك نظر في النجوم ، ووقف على أنها قريبة الموعد ، والعرب تسمي المشاركة على الشيء باسم الداخل فيه ، ولهذا يقولون لمن أضعفه المرض ، وخيف عليه الموت « هو ميت » وقال تعالى لنبيه : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (1) .

وأما استعمال كلمة « في » مكان « إلى » في قوله : (فِي النُّجُومِ) ، فلأجل أن الحروف يقوم بعضها مقام بعض ، قال الله تعالى : (وَأَصْلَبَّ نَبِّكُمْ فِي جُدُوعِ)

ص : 161

1- الزمر : 30 .

التَّخْلِ (1) وإِنَّمَا أَرَادَ عَلِيٌّ جَذْوَعَهَا ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وافتحى الباب وانظري في النجوم *** كم علينا من قطع ليل بهيم

جواب آخر عن الشبهة

وربَّما يجاب عن الإشكال : أنَّه من قبيل المعاريض في الكلام ، والمعاريض : عبارة عن أن يقول الرجل شيئاً يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده ، فلعلَّه نظر في النجوم نظر الموحِّد في صنعه تعالى ، الذي يستدل به على خالقه وصفاته ، ولكن القوم حسبوا أنَّه ينظر إليها نظر المنجِّم فيها ليستدل بها على الحوادث ، فقال : (إِنِّي سَقِيمٌ) (2).

ولا يخفى أنَّ الجواب مبني على أنَّه لم يكن سقيماً آنذاك ، وهو بعد غير ثابت ، على أنَّ المعاريض غير جائزة على الأنبياء لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم.

وبذلك يعلم قيمة ما أخرجه أصحاب الصحاح والسنن من طرق كثيرة عن أبي هريرة : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله : قوله : (إِنِّي سَقِيمٌ) وقوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقوله في سارة : (هي أُختي) (3).

وقد عرفت أنَّ إبراهيم لم يكذب في الأولين ، وأمَّا الثالثة فهي مروية في التوراة المحرَّفة ، فهل يمكن بعد هذا ، الاعتماد على الرواية؟!

والعجب أنَّ ابن كثير صار بصدد تصحيح الرواية ، وقال : ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلاً ، وإنَّما أُطلق الكذب على هذا

ص: 162

1- طه : 71.

2- تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 4 / 13.

3- تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 4 / 13.

تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث « انّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب ».

ونحن لا (1) نعلّق على الحديث ولا على التوجيه الذي ارتكبه ابن كثير شيئاً وإنما نحيل القضاء فيه إلى وجدان القارئ الكريم ، وكفى في سقم الحديث أنّه من مرويات أبي هريرة ، كما يكفي في كذب الحديث أنّه من الإسرائيليات التي وردت في التوراة المحرّفة.

والعجب أنّ رواة هذا الحديث يزرون على الشيعة في قولهم بالتقية ، بأنّها مستلزمة للكذب مع أنّ التقية من المعاريض التي جوّزها القرآن والسنة في شرائط خاصة لأشخاص معينين.

هذه هي الآيات التي استدلت المخطئة بها على عدم عصمة بطل التوحيد ، وقد عرفت مفادها ، وهناك آيات أخر آيات نزلت في حقه ، ربّما وقعت ذريعة لهؤلاء المخطئة ، وبما أنّها واضحة المضمون لا نرى حاجة إلى البحث عنها ، وكفانا في هذا المضمون ما ذكره السيد المرتضى في « تنزيهه » فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إليه.

كما أنّهم استدّلوا بآيات نزلت في حق يعقوب ، لتخطئته وبما أنّ الشبهات ضعيفة تركنا البحث عنها وعطفنا عنان القلم إلى بعض ما استدلت به المخطئة في هذا المضمون في حق صديق عصره ونزيه دهره سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.

ص: 163

عصمة يوسف عليه السلام وقول الله (... وَهَمَّ بِهَا)

يوسف الصديق هو الأسوة

إنّ فيما ورد في سورة يوسف من الآيات ، لأجلى دليل على أنّه الإنسان المثالي الذي لا يعدّ له مثال ، كيف ؟ وقد دلّت الآيات على أنّه سبحانه اجتباه من بداية حياته وصباه ، وعلمه من تأويل الأحاديث ، وأتمّ نعمته عليه ، وقد قام القرآن بسرد قصته وأسمائها بأحسن القصص ، ففيها براهين واضحة على طهارته ونزاهته وعصمته من الذنوب ، وصيانتته من المعاصي ، وتقانيه في مرضاة الله ، كيف ؟ وقد ابتلاه الله سبحانه بلاءً حسناً ، فوجده صابراً متمالكاً لنفسه عند الشهوات والمحرمات ، وناجياً من الغمرات التي لا ينجو منها إلاّ من عصمه الله سبحانه ، فقد ظهر بهذا البلاء باطنه ، وتجلّت به حقيقته ، وبان أنّه الإنسان الذي حاق به الخوف من الله سبحانه ، فطفق لا يغفل عنه طرفة عين ولا يبدل رضاه بشيء.

كيف ؟ ومن طالع القصة يقف على أنّ نجاته يوسف من مخالب الشهوة وخدعة امرأة العزيز لم تكن إلاّ أمراً خارقاً للعادة ، ولولا عصمته لما كانت النجاة ممكنة ، بل كانت أمراً أشبه بالرؤيا منه باليقظة.

ص: 164

وفي هذا الصدد يقول العلامة الطباطبائي :

فقد كان يوسف رجلاً، ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً، بالغاً أشده، وذاك أوان غليان الشهوة وفوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب، والجمال والملاحة يدعوان إلى الهوى؟ هذا من جانب، ومن جانب آخر كان مستغرقاً في النعمة وهنيء العيش، محبوراً بمثوى كريم، وذلك من أقوى أسباب التهوؤس، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال كما هو الحال في حرم الملوك والعظماء، وكانت لا محالة متزينة لما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر - ومع ذلك - عاشقة له والهة تتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف، وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان وقد تعرّضت له، ودعته إلى نفسها، والصبر مع التعرّض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحّت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدت قميصه، والصبر معه أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي رتبة خصّصها بها العزيز، وكان في قصر زاه من قصور الملوك ذي المناظر الرائعة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء.

وكانا في خلوة، وقد غلّقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن من الشرع مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانتهاك الستر، لأنها كانت عزيزة، بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كانت مفتاحاً لعيش هنيء طويل، وكان يمكن ليوسف أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانها كالملك والعزة والمال.

فهذه أسباب وأمر هائلة لو توجهت إلى جبل لهدهته، أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها، ولم يكن هناك ممّا يتوهم مانعاً إلاّ الخوف من ظهور الأمر، أو

مناعة نسب يوسف ، أو قبح الخيانة للعزير ، ولكن الكل غير صالح لمنع يوسف عن ارتكاب العمل .

أمّا الخوف من ظهور الأمر فقد مرّ أنّه كان في أمن منه ، ولو كان بدا من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تأوّله تأويلاً كما فعلت فيما ظهر من أمر مرادتها ، فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاءً ، فلم يؤاخذها بشيء ، وقلبت العقوبة على يوسف حتى سجن .

وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عمّا هو أعظم من الزنا وأشدّ اثماً ، فإنّهم كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب أمثال يوسف ، فلم تمنعهم شرافة النسب من أن يهّموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ، ويبيعه من السيّارة بيع العبيد ، ويثكلوا فيه أباهم يعقوب النبي ، فبكى حتى ابيضّت عيناه .

وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية ، والقوانين الاجتماعية إنّما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة وذلك إنّما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوّة المجرية والحكومة العادلة ، وأمّا لو أغفلت القوّة المجرية ، أو فسقت فأهملت ، أو خفي الجرم عن نظرها ، أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذٍ لشيء من هذه القوانين .

فلم يكن عند يوسف ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه ، إلاّ أصل التوحيد وهو الإيمان بالله .

وإن شئت قلت : المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه ، فلم تترك لغيرها محلاً ولا موضع أصبع (1) .

ص : 166

هذا هو واقع الأمر غير أن بعض المخطئة لم يرتض ليوسف هذه المكارم والفضائل ، واستدل على عدم عصمته بما ورد في سورة يوسف في حق العزيرة ومن هو في بيتها ، قال سبحانه : (وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا - أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (1).

ومحل الاستدلال : قوله (وَهَمَّ بِهَا) أي همَّ بالمخالطة ، وإن همَّ بها كان كهمَّها به ، ولولا أن رأى برهان ربِّه لفعل ، وقد صانته عن ارتكاب الجريمة - بعد الهمَّ بها - رؤية البرهان.

وبعبارة أخرى : إن المخطئة جعلت كلا من المعطوف والمعطوف عليه (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) كلاماً مستقلاً غير مقيد بشيء ، وكأنه قال :

ولقد همَّتْ به : أي بلا شرط وقيد.

وهمَّ بها : أي جزماً وحتماً.

ثم بعد ذلك - أي بعد الإخبار عن تحقُّق الهم من الطرفين - استدرك بأن العزيرة بقيت على همَّها وعزمها إلى أن عجزت ، وأمَّا يوسف فقد انصرف عن الاقتراف لأجل رؤية برهان ربِّه ، ولأجل ذلك قال :

(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أي ولولا الرؤية لاقترف وفعل وارتكب ، لكنَّه رأى فلم يقترف ولم يرتكب ، فجواب لولا محذوف وتقديره « لاقترف ».

ثم إنَّ المخطئة استعانوا في تفسير الآية بما ذكروه من الإسرائيليات التي لا

ص: 167

1- يوسف : 23 - 24.

يصح أن تنقل ، وأنما ننقل خبراً واحداً ليكون القارئ على اطلاع عليها : قالوا : جلس يوسف منها مجلس الخائن ، وأدركه برهان ربّه ونجّاه من الهلكة ، ثم إنهم نسجوا هناك أفكاراً خيالية في تفسير هذا البرهان المرئي؛ فقالوا : إنّ طائراً وقع على كتفه ، فقال في أذنه : لا تفعل ، فإن فعلت سقطت من درجة الأنبياء؛ وقيل : إنّه رأى يعقوب عاضاً على إصبعه ، وقال : يا يوسف أما تراني ؟ إلى غير ذلك من الأوهام التي يخجل القلم من نقلها.

غير أنّ رفع الستر عن مرمى الآية يتوقف على البحث عن أمور :

1. ما هو معنى « اللهم » في قوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) .

2. ما هو جواب (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهذا هو العمدة في تفسير الآية.

3. ما هو معنى البرهان ؟

4. دلالة الآية على عصمة يوسف ، وإليك تفسيرها واحداً تلو الآخر.

1. ما معنى الهم ؟

لقد فسّره ابن منظور في لسانه بقوله : همّ بالشيء يهيم همّاً : نواه وأراده وعزم عليه ، قال سبحانه : (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) (1).

روى أهل السير : أنّ طائفة من المنافقين عزموا على أن يغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله في العودة من تبوك ، ولأجل ذلك وقفوا على طريقه ، فلمّا قربوا من رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بتنحياتهم ، وسّمّاهم رجلاً رجلاً (2).

ص: 168

1- التوبة : 74.

2- مجمع البيان : 51 / 3 وغيره.

هذا هو معنى الهم ، وتؤيده سائر الآيات الواردة فيها لفظ الهم ، ولو استعمل في مورد في خطور الشيء بالبال ، وإن لم يقع العزم عليه ، فهو استعمال نادر لا يحمل عليه صريح الكتاب.

أضف إلى ذلك أنّ الهمين في الموردین بمعنی واحد ، وبما أنّ هم العزیزة كان بنحو العزم والإرادة ، وجب حمل الهم في جانب يوسف عليه أيضاً لا على خطور الشيء بالبال ، لأنه تفكيك بين اللفظين من حيث المعنى بلا قرينة ، ولكن تحقق أحد الهمين دون الآخر ، لأنّ هم يوسف كان مشروطاً بعدم رؤية برهان ربّه ، وبما أنّ العدم انقلب إلى الوجود ، ورأى البرهان لم يتحقق هذا الهم من الأساس ، كما سيوافيك ، نعم لا ننكر أنّ الهم قد يستعمل بالقرينة في مقابل العزم ، قال كعب بن زهير :

فكم فهموا من سيد متوسع *** ومن فاعل للخير ان همّ أو عزم

ولكن التقابل بين الهم والعزم أوجب حمل الهم على الخطور بالبال ، ولولاه لحمل على نفس العزم.

كما ربّما يستعمل في معنى المقاربة فيقولون : همّ بكذا وكذا ، أي كاد يفعله ، وعلى كل تقدير فالمعنى اللائح من الهم في الآية هو العزم والإرادة.

2. ما هو جواب لولا ؟

لا شك أنّ « لولا » في قوله سبحانه : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ابتدائية. فلا تدخل إلا على المبتدأ مثل « لوما » قال ابن مالك.

لولا ولوما يلزمان الابتداء *** إذ امتناعاً بوجود عقدا

ومما لا شك فيه أنّ « لولا » الابتدائية تحتاج إلى جواب ، ويكون الجواب مذكوراً غالباً مثل قول القائل :

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية *** لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

وقد تواترت الروايات عن الخليفة عمر بن الخطاب أنّه قال في مواضع خطيرة : « لولا علي لهلك عمر » .

وربّما يحذف جوابها لدلالة القرينة عليه أو انفهامه من السياق ، كقوله سبحانه : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) (1) ، أي ولولا- فضل الله ورحمته عليكم لهلكتم ، وربّما يحذف الجواب لدلالة الجملة المتقدمة عليه كقوله : « قد كنت هلكت لولا أن تداركتك » ، وقوله : « وقتلت لولا أنّي قد خلصتك » ، والمعنى لولا تداركي لهلكت ، ولولا تخليصي لقتلت ، ومثل لولا سائر الحروف الشرطية قال الشاعر :

فلا يدعني قومي صريعاً لحرّة *** لئن كنت مقتولاً ويسلم عامر

وقال الآخر :

فلا يدعني قومي ليوم كريهة *** لئن لم أعجل طعنة أو أعجل

فحذف جواب الشرط في البيتين لأجل الجملة المتقدمة.

وبالجملة : لا إشكال في أنّ جواب الحروف الشرطية عامة ، وجواب « لولا » خاصة ، يكون محذوفاً إمّا لفهمه من السياق أو لدلالة كلام متقدم عليه والمقام من

ص: 170

1- النور : 10.

قبيل الثاني ، فقوله سبحانه : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) يؤوّل إلى جملتين : إحداهما مطلقة ، والأخرى مشروطة .

أمّا المطلقة فهي قوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) ، وهو يدل على تحقق « الهم » من عزيمة مصر بلا تردد .

أمّا المقيدة فهي قوله : (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وتقديره : « لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها » فيدل على عدم تحقق الهم منه لما رأى برهان ربّه ، وأمّا الجملة المتقدمة على « لولا » أعني قوله (وَهَمَّ بِهَا) فلا تدل على تحقق الهم ، لأنّها ليست جملة منفصلة عمّا بعدها ، حتى تدل على تحقق الهمّ ، وإنّما هي قائمة مكان الجواب ، فتكون مشروطة ومعلّقة مثله ، وسيوافيك تفصيله عن قريب .

3. ما هو البرهان ؟

البرهان هو الحجة ويراد به السبب المفيد لليقين ، قال سبحانه : (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) (1) ، وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّكُمْ) (2) ، وقال سبحانه : (أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (3) ، فالبرهان هو الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريباً لمرتاب ، وعلى ذلك فيجب أن يعلم ما هذا البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام ؟

والذي يمكن أن يكون مصداق البرهان في المقام هو العلم المكشوف واليقين المشهود الذي يجز النفس الإنسانية إلى طاعة لا تميل معها إلى معصية ،

ص: 171

1- القصص : 32.

2- النساء : 174.

3- النمل : 64.

وانقياد لا تصاحبه مخالفة ، وقد أوضحنا عند البحث عن العصمة أنّ إحدى أسس العصمة هو العلم اليقين بنتائج المآثم وعواقب المخالفة علماً لا يغلب ، وانكشافاً لا يقهر ، وهذا العلم الذي كان يصاحب يوسف هو الذي صدّه عمّا اقترحت عليه امرأة العزيز.

ويمكن أن يكون المراد منه سائر الأمور التي تفيض العصمة على العباد التي أوضحنا حالها (1).

4. دلالة الآية على عصمة يوسف عليه السلام

إنّ الآية على رغم ما ذهب إليه المخطّئة تدل على عصمة يوسف عليه السلام قبل أن تدلّ على خلافها.

توضيحه : أنّه سبحانه بيّن همّ العزيزة على وجه الإطلاق وقال : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) ، وبيّن همّ يوسف بنحو الاشتراط وقال : (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، فالقضية الشرطية لا تدل على وقوع الطرفين خصوصاً مع كلمة « لولا » الدالة على عدم وقوعهما.

فإن قلت : إنّ كلاً من الهمين مطلق حتى الهم الوارد في حق يوسف وأنّما يلزم التعليق لو قلنا بجواز تقدم جواب لولا الامتناعية عليها وهو غير جائز بالاتفاق وعليه فيكون قوله : (وَهَمَّ بِهَا) مطلقاً إذ ليس جواباً لكلمة « لولا ».

قلت : إنّ جواب « لولا » محذوف وتقديره « لهمّ بها » وليست الجملة المتقدمة جواباً لها حتى يقال : إنّ تقدم الجواب غير جائز بالاتفاق ، ومع ذلك فليست تلك الجملة مطلقة ، بل هي أيضاً مقيدة بما قيد به الجواب ، لأنّه إذا كان الجواب مقيداً

ص: 172

1- راجع ص 21 - 25 من هذا الكتاب.

فالجملّة القائمة مكانه تكون مثله ، وله نظير في الكتاب العزيز مثل قوله : (وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (1) ، والمعنى أنّه سبحانه ثبت نبيه فلم يتحقّق منه الركون ولا الاقتراب منه .

وقال سبحانه : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) (2) والمعنى أنّ تفضّله سبحانه على نبيه صار سبباً لعدم هم الطائفة على إضلاله .

والآية مثل الآيتين غير أنّ الجواب فيها محذوف لدلالة الجملة المتقدمة عليه بخلافهما .

وحاصل الكلام : أنّه في مورد الآية ونظائرها يكون الجزاء منتفياً بانتفاء شرطه ، غير أنّ هذه الجمل إنّما تستعمل في ما إذا كانت هناك أرضية صالحة لتحقق الجزاء ، وإن لم يتحقق لانتهاء الشرط ، وفي مورد الآية ، أرضية الهم كانت موجودة في جانب يوسف لتجهزه بالقوى الشهوية ، وغيرها من قوى النفس الأمارة ، وكانت هذه العوامل مقتضية لحدوث الهم بالفحشاء ، ولكن صارت خائبة غير مؤثرة لأجل رؤية برهان ربّه ، والشهود اليقيني الذي يمنع النبي عن اقتراف المعصية والهم بها .

وإن شئت قلت : منعته المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه ، فلم تترك لغيرها موضع قدم ، فطرد ما كان يضاد تلك المحبة .

وهذا هو مفاد الآية ولا يشك فيه من لاحظ المقدمات الأربع التي قدّمناها .

وعلى ذلك فبما أنّ « اللام » في قوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) للقسم يكون معنى

ص : 173

1- الإسراء : 74 .

2- النساء : 113 .

قوله : (وَهَمَّ بِهَا) بحكم عطفه عليه والمعنى : والله لقد همت امرأة العزيز به ووالله لولا- أن رأى يوسف برهان ربّه لهمّ بها ، ولكنه لأجل رؤية البرهان واعتصامه ، صرف عنه سبحانه السوء والفحشاء ، فإذا به عليه السلام لم بهم بشيء ولم يفعل شيئاً ، لأجل تلك الرؤية.

أسئلة وأجوبة

إشارة

ولأجل رفع الغطاء عن وجه الحقيقة على الوجه الأكمل تجب الإجابة عن عدة من الأسئلة التي تثار حول الآية ، وإليك بيانها وأجوبتها :

السؤال الأول

إن تفسير الهمّ الوارد في الآية في كلا الجانبين بالعزم على المعصية ، تكرار لما جاء في الآية المتقدمة بصورة واضحة وهي قوله : (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) ومع هذا البيان الواضح لا وجه لتكراره ثانياً بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) خصوصاً في همّها به إذ ورد في الآية المتقدمة بصورة واضحة أعني قوله : (هَيْتَ لَكَ) .

والجواب : إنّ الدافع إلى التكرار ليس هو لإفادة نفسه مرة ثانية بل الدافع هو بيان كيفية نجاة يوسف من هذه الغائلة ، ولأجل ذلك عاد إلى نفس الموضوع مجدداً ليذكر مصير القصة ونهايتها ، وهذا نظير ما إذا حدث أحد عن تنازع شخصين وإضرار أحدهما بالآخر واستعداده للدفاع عن نفسه ، فإذا أفاد ذلك ثم أراد أن يشير إلى نتيجة ذلك العراك يعود ثانية إلى بيان أصل التنازع حتى يبين مصيره ونهايته والآيتان من هذا القبيل .

وبذلك يظهر أنّ ما أفاده صاحب المنار في هذا المقام غير سديد حيث قال : إنّهُ قد علم من القصة أنّ هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً مصرّة عليه ليس عندها أدنى تردّد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضى له ، فإذاً لا يصح أن يقال : إنّها همّت به مطلقاً إذ الهم مقارنة الفعل المتردد فيه (1).

أقول : قد عرفت دافع التكرار فلا- نعيده ، بقي الكلام فيما أفاده في تفسير الهم بأنّه عبارة « عن مقارنة الفعل المتردد فيه » ولا يخفى أنّه لا يصح في قوله سبحانه : (وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ) (2) ، أي إخراج الرسول من مكة ، فهم كانوا جازمين بذلك ، وقد تأمروا عليه في ليلة خاصة معروفة في السيرة والتاريخ ، كما لا يصح في قوله سبحانه : (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) (3) ، حيث حاول المنافقون أن ينفروا بعير النبي صلى الله عليه وآله في العقبة في منصرفه من غزوة تبوك.

السؤال الثاني

إنّ تفسير البرهان بالعصمة لا يتناسب مع سائر استعمالاته في القرآن مثلاً البرهان في قوله سبحانه : (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ) (4) عبارة عن معاجز موسى من العصا واليد البيضاء ، وعلى ذلك فيجب أن يفسر البرهان بشيء ينطبق على الإعجاز لا العصمة التي هي من مقولة العلم.

والجواب : إنّ البرهان بمعنى الحجة وهي تنطبق تارة على المعجزة وأخرى على العلم المكشوف واليقين المشهود الذي يصون الإنسان عن اقتراف المعاصي ،

ص: 175

1- تفسير المنار : 12 / 286.

2- التوبة : 13.

3- التوبة : 74.

4- القصص : 32.

وقد سبق منا أنّ العصمة (1) لا تسلب القدرة، فهي حجة للنبي في آجله وعاجله ودليل في حياته إلى سعادته.

السؤال الثالث

إنّ قوله سبحانه: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) ظاهر في أنّ (السُّوءَ) غير (الْفَحْشَاءَ) فلو فسر قوله: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) بالعزم على المعصية يلزم كونهما بمعنى واحد وهو خلاف الظاهر.

والجواب: إنّ المراد من (السُّوءَ) هو الهم والعزم، والمراد من (الْفَحْشَاءَ) هو نفس العمل، فالله سبحانه صرف ببركة العصمة - نفس الهم ونفس الاقتراف - كلا الأمرين.

قال العلامة الطباطبائي: الأنسب أنّ المراد بالسوء هو الهم بها والميل إليها، كما أنّ المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا، ثم قال: ومن لطيف الإشارة ما في قوله: (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) حيث جعل السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفاً عنهما، لما في الثاني من الدلالة على أنّه كان فيه ما يقتضي اقترافه لهما المحوج إلى صرفه عن ذلك، وهو ينافي شهادته تعالى بأنّه من عباده المخلصين، وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركهم فيه شيء، ولا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أيّ داع من دون الله سبحانه.

ثم قال: وقوله: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) في مقام التعليل لقوله: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ)، والمعنى عاملنا يوسف كذلك، لأنّه من عبادنا المخلصين، ويظهر من الآية أنّ من شأن المخلصين أن يروا برهان ربّهم

ص: 176

وإنَّ الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقتربون معصيته ولا يهتمون بها بما يريهم الله من برهانه ، وهذه هي العصمة الإلهية (1).

السؤال الرابع

لو كان المراد من (بُرْهَانَ رَبِّهِ) هو العصمة ، فلماذا قال سبحانه : (رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، فإنَّ هذه الكلمة تناسب الأشياء المحسوسة كالمعاجز والكرامات لا العصمة التي هي علم قاهر لا يغلب ويصون صاحبه عن اقتراف المعاصي.

أقول : إنَّ الرؤية كما تستعمل في الرؤية الحسية والرؤية بالأبصار ، تستعمل أيضاً في الإدراك القلبي والرؤية بعين الفؤاد قال سبحانه : (مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) (2) ، وقوله سبحانه : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) (3) ، وقوله سبحانه : (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (4) ، وهذه الآيات ونظائرها تشهد بوضوح بأنَّ الرؤية تستعمل في الإدراك القلبي والاستشعار الباطني.

وعلى ذلك فيوسف الصديق لما وقع مقابل ذلك المشهد المغربي ، الذي يسلب اللب والعقل عن البشر ، كان المتوقع بحكم كونه بشراً ، الميل إلى المخالطة معها والعزم على الإتيان بالمعصية ، ولكنَّه لما أدرك بالعلم القاطع أثر تلك المعصية صانه ذلك عن أي عزم وهم بالمخالطة.

هذا هو المعنى المختار في الآية ، وبذلك تظهر نزاهة يوسف عن أي هم

ص: 177

1- الميزان : 11 / 142.

2- النجم : 11.

3- فاطر : 8.

4- الأعراف : 149.

وهناك تفسير آخر للآية يتفق مع المعنى المختار في تنزيه يوسف عن كل ما لا يناسب ساحة النبوة غير أنه من حيث الانطباق على ظاهر الآية يعد في الدرجة الثانية، وهذا المعنى هو الذي اختاره صاحب « المنار » وطلاه بعض المعاصرين وزوّقه، وسيوافيك بيان صاحب المنار وما جاء به ذلك المعاصر في البحث التالي :

المعنى الثاني للآية

انّ المراد من الهم في كلا-الموردين هو العزم على الضرب والقتل مثل قوله سبحانه: (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) (1) حيث قصد المشركون اغتيال النبي عند منصرفه من تبوك، فيكون المعنى أنّ امرأة العزيز همت بضربه وجرحه وبطبيعة الحال لم يكن أمام يوسف إلا أن يدافع عن نفسه غير أنّه رأى انّ ذلك ربّما ينجر إلى جرح امرأة العزيز ويكون ذلك ذريعة بيدها لاتّهام يوسف وبهته، فقد أدرك هذا المعنى ولم يهمل بها وسبقها إلى الباب ليتخلّص منها، وعلى ذلك فيكون معنى الهم في كلا الموردين هو المضاربة لكنه من جانب العزيزة بدافع ومن جانب يوسف بدافع آخر.

وهذا التوجيه يتناسب مع حالة العاشق الواله عندما يخفق في نيل ما يصبو إليه ويتوق إلى تحصيله، فإنّه في مثل هذا الموقف تحدث له حالة باطنية تدفعه إلى الانتقام من معشوقه الذي لم يسايره في مطلبه ولم يحقق له غرضه، وقد حدث مثل هذا لامرأة العزيز، فإنّ - ها عندما أخفقت في نيل ما تريد من يوسف، دفعها الشعور بالهزيمة والإخفاق إلى الانتقام من يوسف وهذا هو معنى قوله: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ)

ولم يكن في هذه الحالة أمام يوسف إلا أن يدافع عن نفسه ، ولكنه لما استشعر بأن ضرب العزيرة سوف يتخذ ذريعة لبهته واتهامه ، اعتصم عن ضربها والهّم بها ، وهذا معنى قوله : (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) .

وهذا المعنى هو المختار لبعض أهل التفسير ، واختاره صاحب المنار ، وسعى في تقويته بقوله : تالّله لقد همّت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها وهي في نظرها سيدهته وهو عبدها وقد أدلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ولكن هذا العبد العبراني قد عكس القضية وخرق نظام الطبيعة فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في دلالتها وتمنعها وهبط بالسيدة المالكة من عز سيادتها وسلطانها وعندئذ همّت بالبطش به في ثورة غضبها وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها في كل زمان ومكان (1).

ثم إن بعض المعاصرين اختار المعنى المذكور غير أنه فسر (بُرْهَانَ رَبِّهِ) بغير الوجه المذكور في هذا الرأي بل فسره بانفتاح الباب بإرادة الله سبحانه حيث إن امرأة العزيز كانت قد غلقت الأبواب وأحكمت سدها ، وعندما وقع هذا الشجار بينها وبين يوسف ، سبق يوسف إلى الباب فراراً منها وانفتح الباب له بإرادة الله سبحانه ، وهذا هو برهان الرب الذي رآه ، ويدل على ذلك أنّ القرآن يصرح بغلق الأبواب ولا يأتي عن انفتاح الباب بأي ذكر ، وهذا يدل على أنّ المراد من (بُرْهَانَ رَبِّهِ) هو فتح الباب من عند الله سبحانه في وجه يوسف كرامة له .

ولا يخفى ضعف هذا التفسير ، وذلك لأنه لو كان المراد من البرهان هو

انفتاح الباب لزم ذكره عند قوله أو قبله (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) لا في الآية المتقدمة عليه ويظهر ذلك بملاحظتهما حيث قال :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ...) (1).

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) (2).

ترى أنه يذكر همّه بها ورؤية البرهان في آية ثم يذكر استباقهما إلى الباب في آية أخرى مع الفصل بينهما بذكر أمور منها (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) ، فلو كان المراد من « رؤية البرهان » هو انفتاح الباب كان المناسب ذكر الاستباق قبلها.

على أن الظاهر من قوله « وغلقت الأبواب » هو سدّ الأبواب لا إقفالها بمعنى وضع قفل عليها يمتنع معه فتحها بيسر ، وإنما لم تقفلها لأنها لم تكن تتوقع من يوسف أن لا يستجيب لها ويعصي أمرها.

المعنى الثالث للآية

إنّ الهمّ من جانب يوسف هو خطور الشيء بالبال وإن لم يقع العزم عليه ، وربما يستعمل الهم في ذلك ، قال كعب بن زهير :

فكم فهموا من سيد متوسع *** ومن فاعل للخير أنّ همّ أو عزم

ولا- يخفى أنّ هذا التفسير عليل ، لأنّ الظاهر من الهمّ في كلا الموردين واحد ولم يكن الهمّ من جانب العزيمة إلاّ العزم ، والتفكيك بين الهمين خلاف الظاهر.

وعلى كل تقدير فقصة يوسف الواردة في القرآن تدل على نزاهته من أول

ص: 180

1- يوسف : 24.

2- يوسف : 25.

الأمر إلى آخره وإنه لم يتحقق منه عزم ولا هم بالمخالطة لا أنه هم وعزم وانصرف لعله خاصة.

ثم إن هناك لأكثر المفسرين أقوالاً في تفسير الآية أشبه بقصص القصّاصين ، وقد أضربنا عن ذكرها صفحاً ، فمن أراد فليرجع إلى التفاسير.

وفي مختتم البحث نأتي بشهادة العزيزة بنزاهة يوسف عند ما حصحص الحق وبيانت الحقيقة وقد نقلها سبحانه بقوله : (قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (1) وشهدت في موضع آخر على طهارته واعتصام نفسه وقالت : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) (2).

ص: 181

1- يوسف : 51.

2- يوسف : 32.

عصمة موسى عليه السلام وقتل القبطي ومشاجرته أخاه

إشارة

إنّ الكلّيم موسى بن عمران أحد الأنبياء العظام ، وصفه سبحانه بأتم الأوصاف وأكملها ، قال عزّ من قائل : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (1).

وقال سبحانه : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) (2).

ووصف كتابه بقوله : (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) (3).

ومع ذلك كلّه : فقد استدل المخالف بعدم عصمته بأمرين :

أحدهما : قتله القبطي وتوصيفه بأنّه من عمل الشيطان.

ثانيهما : مشاجرته أخاه مع عدم كونه مقصراً ، وإليك البحث عن كل واحد منهما.

ص: 182

1- مريم : 51 - 53.

2- الأنبياء : 48.

3- الأحقاف : 12.

قال عزّ من قائل : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) (1).

ويذكر القرآن تلك القصة في سورة الشعراء بصورة موجزة ويقول سبحانه : (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتَاكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) (2).

وتدلّ الآيات على أنّ موسى عليه السلام ورد المدينة عندما كان أهلها غافلين عنه ، إمّا لآفته ورد نصف النهار والناس قائلون ، أو ورد في أوائل الليل ، وإمّا لغير ذلك ، فوجد فيها رجلين كان أحدهما إسرائيلياً والآخر قبطياً يقتتلان ، فاستنصره الذي من شيعته على الآخر ، فنصره ، فضربه بجمع كفه في صدره فقتله ، وبعدما فرغ من أمره ندم ووصف عمله بما يلي :

1. (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) .

2. (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) .

3. (فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ) .

4. (فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) .

ص: 183

1- القصص : 14 - 17.

2- الشعراء : 18 - 20.

وهذه الجمل الأربع تعرب عن كون القتل أمراً غير مشروع ، ولأجل ذلك وصفه تارة بأنه من عمل الشيطان ، وأخرى بأنه كان ظالماً لنفسه ، واعترف عند فرعون بأنه فعل ما فعل وكان عند ذلك من الضالين ثالثاً ، وطلب المغفرة رابعاً.

أقول : قبل توضيح هذه النقاط الأربع نلفت نظر القارئ الكريم إلى بعض ما كانت الفراعنة عليه من الأعمال الإجرامية ، ويكفي في ذلك قوله سبحانه : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (1) ، ولم يكن فرعون قائماً بهذه الأعمال إلا بعمالة القبطيين الذين كانوا أعضاده وأنصاره ، وفي ظل هذه المناصرة ملكت الفراعنة بني إسرائيل رجالاً ونساءً ، فاستعبدهم كما يعرب عن ذلك قوله سبحانه : (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (2) ولما قال فرعون لموسى : (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) (3) واستعلى عليه بأنه ربّه وليداً منذ أن ولد إلى أن كبر ... أجابه موسى بأنه هل تمن علي بهذا وقد عبدت بني إسرائيل ؟

وعلى ذلك فقتل واحد من أنصار الطغمة الأثيمة التي ذبحت مئات بل الآف الأطفال من بني إسرائيل واستحيوا نساءهم ، لا يعد في محكمة العقل والوجدان عملاً قبيحاً غير صحيح ، أضف إلى ذلك أن القبطي المقتول كان بصدد قتل الإسرائيلي لو لم ينصره موسى كما يحكي عنه قوله : (يَقْتُلَانِ) ، ولو قتله القبطي لم يكن لفعله أي رد فعل ، لأنه كان منتبهاً للنظام السائد الذي لم يزل يستأصل بني إسرائيل ويريق دماءهم طوال سنين ، فكان قتله في نظره من قبيل قتل الإنسان الشريف أحد عبيده لأجل تخلفه عن أمره.

إذا وقفت على ذلك ، فلنرجع إلى توضيح الجمل التي توهم المستدل بها

ص: 184

1- القصص : 4.

2- الشعراء : 22.

3- الشعراء : 18.

دلالتها على عدم العصمة فنقول :

1. ان قوله : (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون لفظ « هذا » إشارة إلى المناقشة التي دارت بين القبطي والإسرائيلي وانتهت إلى قتل الأول ، وعلى هذا الوجه ليست فيه أية دلالة على شيء مما يتوخاه المستدل ... وقد رواه ابن الجهم عن الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن قوله : (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) فقال : الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى من قتله (1).

الثاني : ان لفظ « هذا » إشارة إلى قتله القبطي ، وإنما وصفه بأنه من عمل الشيطان ، لوجهين :

ألف : ان العمل كان عملاً خطأً محضاً ساقه إلى عاقبة وخيمة ، فاضطر إلى ترك الدار والوطن بعد ما انتشر سره ووقف بلاط فرعون على أن موسى قتل أحد أنصار الفراعنة ، وأتمروا عليه ليقتلوه ، ولولا أن مؤمن آل فرعون أوقفه على حقيقة الحال ، لأخذته الجلاوزة وقضوا على حياته ، كما قال سبحانه : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (2) ، فلم تكن لهذا العمل أية فائدة فردية أو اجتماعية سوى إيجائه إلى ترك الديار وإلقاء الرحل في دار الغربة « مدين » ، والاشتغال برعي الغنم أجيراً لشعيب عليه السلام .

فكما أن المعاصي تنسب إلى الشيطان ، قال سبحانه : (إِنَّمَّا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (3) ،

ص: 185

1- البرهان : 224 / 3 ; عيون أخبار الرضا : 199 / 1.

2- القصص : 20.

3- المائدة : 90.

فكذلك الأعمال الخاطئة الناجمة من سوء التدبير وضلال السعي ، السائقة للإنسان إلى العواقب المرة ، تنسب إليه أيضاً.

فالمعاصي والأعمال الخاطئة كلاهما تصح نسبتهما إلى الشيطان بملاك أنه عدو مضل للإنسان ، والعدو لا يرضى بصلاحه وفلاحه بل يدفعه إلى ما فيه ضرره في الآجل والعاجل ، ولأجل ذلك قال بعدما قضى عليه : (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) .

ب. انّ قتل القبطي كان عملاً ناجماً عن العجلة في محاولة تدمير العدو ، ولو أنه كان يصبر على مضض الحياة قليلاً لنبذ القبطي مع جميع زملائه في اليم من دون أن توجد عاقبة وخيمة ، كما قال سبحانه : (فَأَخَذْنَا وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (1).

2. وبذلك يعلم مفاد الجملة الثانية التي هي من إحدى مستمسكات المستدل أعني قوله : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) ، فإنّ الكلام ليس مساوفاً للمعصية ومخالفة المولى ، بل هو كما صرح به أئمة اللغة وقدمنا نصوصهم عند البحث عن عصمة آدم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه ، وقد عرفت أنّ عمل موسى كان عملاً واقعاً في غير موقعه ، وخاطئاً من جهتين : من جهة أنه ساقه إلى عاقبة مرة ، حيث اضطر إلى ترك الأهل والدار والديار ، ومن جهة أخرى أنه كان عملاً ناشئاً من الاستعجال في إهلاك العدو بلا موجب ، ولأجل تينك الجهتين كان عملاً واقعاً في غير محله ، فصح أن يوصف العمل بالظلم ، والعامل بالظالم ، والذي يعرب عن ذلك إنه جعله ظلماً لنفسه لا للمولى ، ولو كان معصية لكان ظلماً لمولاه وتعدياً على حقوقه ، كما هو الحال في الشرك فإنه ظلم للمولى وتعدّ

ص: 186

1- القصص : 40.

عليه ، قال سبحانه : (لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (1).

3. وأما الجملة الثالثة ، أعني قوله : (فَاعْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ، فليس طلب المغفرة دليلاً على صدور المعصية ، لأنه بمعنى الستر ، والمراد منه إلغاء تبعة فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملائه ، وقد عبر عنه سبحانه : (وَكَتَلْتَنَّهُ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) (2) ، وقد نجاه سبحانه بإخبار رجل من آل فرعون عن المؤامرة عليه ، فخرج من مصر خائفاً يترقب إلى أن وصل أرض مدين ، فنزل دار شعيب ، وقص عليه القصص ، وقال له شعيب : (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (3).

وبذلك غفر وستر عمله ونجاه سبحانه من أعين الفراعنة ، ومكّن له الورود إلى ماء مدين والنزول في دار أحد أنبيائه عليهم السلام .

أضف إلى ذلك : أن قتل القبطي وإن لم يكن معصية ولكن كان المترقب من موسى تركه وعدم اقترافه ، فصدور مثله من موسى يناسب طلب المغفرة ، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، إذ ربّ عمل مباح لا يؤاخذ به الإنسان العادي ولكنه يؤاخذ به الإنسان العارف ، فضلاً عن شخصية إلهية سوف تبعث لمناضلة طاغية العصر ، فكان المناسب لساحتها هو الصبر والاستقامة في حوادث الحياة ، حلوها ومرّها ، والفصل بين المتخاصمين بكلام لين ، وقد أمر به عند ما بعث إلى فرعون فأمره سبحانه أن يقول له قولاً ليناً (4) ، وقد أوضحنا مفاد هذه الكلمة عند

ص: 187

1- لقمان : 13.

2- طه : 40.

3- القصص : 25.

4- طه : 44.

البحث عن آدم وحواء إذ: (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (1).

4. وأما قوله سبحانه: (فَعَلَّتْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)، فالمراد من الضلال هو الغفلة عما يترتب على العمل من العاقبة الوخيمة، ونسيانها، وليس ذلك أمراً غريباً، فقد استعمل في هذين المعنيين في الذكر الحكيم، قال سبحانه: (مِمَّن تَرْضُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (2)، فالمراد نسيان أحد الشاهدين وغفلته عما شهد به، وقال سبحانه: (إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (3)، أي إذا غبنا فيها.

قال في لسان العرب: الضلال: النسيان وفي التنزيل: (مِمَّن تَرْضُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) أي يغيب عن حفظها، ومنه قوله تعالى: (فَعَلَّتْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) وضللت الشيء: أنسيته. وأصل الضلال: الغيبوبة يقال ضل الماء في اللبن إذا غاب، ومنه قوله تعالى: (إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (4).

وعلى الجملة: إنَّ كليم الله يعترف بتلك الجملة عندما اعترض عليه فرعون بقوله: (وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ويعتذر عنها بقوله: (فَعَلَّتْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)، والمناسب لمقام الاعتذار هو تفسير الضلال بالغفلة عما يترتب على العمل من النتائج ونسيانها.

ص: 188

1- الأعراف: 23.

2- البقرة: 282.

3- السجدة: 10.

4- لسان العرب: 11 / 392 - 393، مادة « ضل ».

وحاصله : أنه قد استولت عليّ الغفلة حين الاقتراف ، وغاب عني ما يترتب عليه من رد فعل وممر العقابفة ، ففعلت ما فعلت .

ومن اللحن الواضح تفسير الضلالة بضد الهداية ، كيف وإنّ الله سبحانه يصفه قبل أن يقترب القتل بقوله : (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (1) ، كما أنّ نفس موسى بعد ما طلب المغفرة واستشعر إجابة دعائه قال : (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) (2) ، أفصح بعد هذا تفسير الضلالة بالغواية ضد الهداية؟! كلا ولا .

هذا كلّه حول المستمسك الأوّل ، أعني : قتل القبطي ، فهلم معي ندرس المستمسك الثاني للخصم من اتهام كليّم الله الأعظم ، عليه وعلى جميع رسل الله آلاف الثناء والتحية ، بعدم العصمة .

ب. مشاجرته أخاه هارون عليه السلام

إنّ الله سبحانه واعد موسى - بعد أن أغرق فرعون - بأن يأتي جانب الطور الأيمن فيوفيه التوراة التي فيها بيان الشرائع والأحكام وما يحتاج إليه ، وكانت المواعدة على أن يوافي الميعاد مع جماعة من وجوه قومه ، فتعجّل موسى من بينهم شوقاً إلى ربّه وسبقهم على أن يلحقوا به ، ولمّا خاطبه سبحانه بقوله : (وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى) أجابه بأنهم (عَلَيَّ أَثْرِي) وورائي يدركونني عن قريب ، وعند ذلك أخبره سبحانه بأنّه امتحن قومه بعد فراقه (وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ) ، فرجع موسى من الميقات إلى بني إسرائيل حزيناً مغضباً ، فرأى أنّ السامري

ص: 189

1- القصص : 14 .

2- القصص : 17 .

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا) جسداً له صوت ، وقال : إنه إله بني إسرائيل عامة ، وتبعه السفلة والعوام ، واستقبل موسى هارون فألقى الألواح وأخذ يعاتب هارون ويناقشه ، وهذا ما يحكيه سبحانه في سورتين ويقول : (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضًا بَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاللَّيَالِي الْأَلْوَابُ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (1).

ويقول سبحانه : (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضًا بَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * ... قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) (2). فهاهنا يطرح سؤالان :

1. لماذا ألقى الألواح ؟

2. لماذا ناقش أخاه وقد قام بوظيفته ؟

واليك تحليل السؤالين بعد بيان مقدمة وهي :

إن موسى قد خلف هارون عندما ذهب إلى الميقات ، وقد حكاه سبحانه بقوله : (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (3). وقام هارون بوظيفته في قومه ، فعند ما أضلهم السامري ناظرهم بقوله : (يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) (4) واكتفى في ذلك بالبيان واللوم ولم يقم في وجههم بالضرب والتأديب وقد بينه

ص: 190

1- الأعراف : 150.

2- طه : 86 ، 92 - 94.

3- الأعراف : 142.

4- طه : 90.

لأخيه بقوله: (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْتُبْ قَوْلِي).

هذا ما يخص هارون، وأما ما يرجع إلى موسى، فقد أخبره سبحانه عن إضلال السامري قومه بقوله: (فَأِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) (1)، ورجع إلى قومه غضبان أسفاً وخاطبهم بقوله: (بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ) وقال أيضاً: (أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعُدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ). وفي هذا الظرف العصيب أظهر كلیم الله غضبه بإنجاز عملين:

1. إلقاء الألواح جانباً.

2. مناقشته أخاه بقوله: (مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)، فعند ذلك يطرح السؤالان نفسيهما:

لماذا ألقى الألواح أولاً؟ ولماذا ناقش أخاه وناظره وقد قام بوظيفته ثانياً؟ فنقول:

لا شك أنّ ما اقترفه بنو إسرائيل من عبادة العجل كان من أقبح الأعمال وأفظعها، كيف؟! وقد أهلك الله عدوهم وأورثهم أرضهم، فكان المترقب منهم هو الثبات على طريق التوحيد ومكافحة ألوان الشرك - ومع الأسف - فإنهم كفروا بعظيم النعمة، وتركوا عبادته سبحانه، وانخرطوا في سلك الثنوية مع الجهل بقبح عملهم وفضاعة فعلهم.

إنّ أمة الكليم وإن كانت غافلة عن مدى قبح عملهم، لكن سيدهم ورسولهم كان واقفاً على خطورة الموقف وتعدّي الأئمة، فاستشعر بأنّه لو لم يكافحهم بالعنف والشدة ولم يقم في وجههم بالاستنكار مع إبراز التأسف

ص: 191

1- طه: 85.

والغضب، فربما تمادى القوم في غيهم وضلالهم وحسبوا أنهم لم يقترفوا إلا ذنباً خفيفاً أو مخالفة صغيرة ولم يعلموا أنهم حتى ولو رجعوا إلى الطريق المهيع، واتبعوا جادة التوحيد ربّما بقيت رواسب الشرك في أغوار أذهانهم، فلأجل إيقافهم على فظاعة العمل، قام في مجال الإصلاح مثل المدير الذي يواجه الفساد فجأة في مديريته ولا يعلم من أين تسرب إليها.

فأول ما يبادر إليه هو مواجهة القائم مقامه الذي خلفه في مكانه، وأدلى إليه مفاتيح الأمور، فإذا ثبتت براءته ونزاهته وأنه قام بوظيفته خير قيام حسب تشخيصه ومدى طاقته، تركه حتى يقف على جذور الأمر والأسباب الواقعية التي أدت إلى الفساد والانهيار.

وهكذا قام الكلیم بمعالجة القضية، وعالج الواقعة المدهشة التي لوبقيت على حالها، لانتهدت إلى تسرب الشرك إلى عامة بني إسرائيل وذهب جهده طوال السنين سدى، فأول رد فعل أبداه، أنه واجه أخاه القائم مقامه في غيبته، بالشدة والعنف حتى يقف الباقون على خطورة الموقف، فأخذ بلحيته ورأسه مهيمناً عليه متسائلاً بأنه لماذا تسرب الشرك إلى قومه مع كونه فيهم؟! ولما تبينت براءته وأنه أدى وظيفته كما يحكيه عنه سبحانه بقوله: (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَوْا عَفْوَني وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) اندفع إليه بعطف وحنان ودعا له فقال: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ). ان طلب المغفرة (1) لنفسه وأخيه لا يدل على صدور أي خلاف منهما، فإن الأنبياء والأولياء لاستشعارهم بخطورة الموقف وعظمة المسؤولية، ما زالوا يطلبون غفران الله ورحمته لعلو درجاتهم كما هو واضح لمن تتبع أحوالهم، وسيوافيك بيانه عند البحث عن عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .

ص: 192

1- الأعراف : 151.

وبعدما تبين ان السبب الواقعي لتسرب الشرك إلى قومه هو السامري وتبعه السفلة والعوام ، أخذ بتبنيهم بقوارع الخطاب وعواصف الكلام بما هو مذكور في سورتي الأعراف وطه نكتفي ببعضها حيث خاطب عبدة العجل بقوله : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) (1).

ولمّا واجه السامري خاطبه بقوله : (فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) (2).

وبما ذكرنا يعلم أنه لماذا ألقى الألواح وتركها جانباً؟ فلم يكن ذلك العمل إلا كرد فعل على عملهم القبيح وفعلهم الفظيع إلى حد استولى الغضب على موسى فألقى الألواح التي ظل أربعين يوماً في الميقات لتلقيها حتى يحاسب القوم حسابهم ويقفوا على أنهم أتوا بأعظم الجرائم وأكبر المعاصي.

ص: 193

1- الأعراف : 152.

2- طه : 95 - 98.

عصمة داود عليه السلام وقضاؤه في النعجة

إشارة

قد وصف سبحانه داود النبي عليه السلام بأسمى ما توصف به الشخصية المثالية، قال سبحانه: (وَأذْكَرَ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) .

وقد ذكر ملكه وسلطنته على الجبال والطيور على وجه يمثل أقوى طاقة نالها البشر طيلة استخلافه على الأرض.

قال سبحانه: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَسَخَّرْنَا مَلَكَنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ) (1).

فقد أخبر في الآية الأخيرة بأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، الذي يعد القضاء الصحيح بين المتخاصمين من فروعهِ وجزئياته.

ثم أنه سبحانه ينقل بعده قضاءه في « نبال الخصم » ويقول:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالٍ

ص: 194

نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (1).

لقد تمسكت المخطئة لعصمة الأنبياء بقوله تعالى : (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) حيث إن الاستغفار وغفرانه سبحانه له ، آية صدور الذنب.

والإجابة عن هذا الاستدلال تحتاج إلى بيان مفردات الآية وإيضاح القصة فنقول :

إن تفسير الآية يتم ببيان عدة أمور :

1. توضيح مفرداتها.

2. إيضاح القصة.

3. هل الخصمان كانا من جنس البشر؟

4. لماذا استغفر داود ، وهل كان استغفاره للذنب أو لأجل ترك الأولى؟

واليك بيان هذه الأمور :

1. توضيح المفردات

« الخصم » : مصدر « الخصومة » ، أريد به الشخصان.

ص: 195

1- ص : 21 - 26.

« التَّسْوَرُ » : الارتقاء إلى أعلى السور ، وهو ما كان حائطاً ، « كالتسنم » بمعنى الارتقاء إلى أسنام البعير ، و « التذري » بمعنى الارتقاء إلى ذروة الجبال ، والمراد من المحراب في الآية الغرفة.

« الفرع » : انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف ، وهو من جنس الجزع.

« الشطط » : الجور.

« النعجة » : الأنثى من الضأن.

والمراد من قوله : « اكفلنيها » : اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي ، ومن قوله « عزني في الخطاب » : أنه غلبني فيه.

هذا كله راجع إلى توضيح مفردات الآية.

2. إيضاح القصة

كان داود عليه السلام جالساً في غرفته إذ دخل عليه شخصان بغير إذنه ، وكانا أخوين يملك أحدهما تسعاً وتسعين نعجة ويملك الآخر نعجة واحدة ، وطلب الأول من أخيه أن يعطيه النعجة التي تحت يده ، مدعياً كونه محقاً فيما يقترحه على أخيه ، وقد ألقى صاحب النعجة الواحدة كلامه على وجه هيج رحمة النبي داود وعطفه.

فقضى عليه السلام طبقاً لكلام المدعي من دون الاستماع إلى كلام المدعى عليه ، وقال : (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ) .

ولما تنبّه أنّ ما صدر منه كان غير لائق بساحته ، وإنّ رفع الشكوى إليه كان فتنة وامتحاناً منه سبحانه بالنسبة إليه (فَاسَّ تَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) .

3. هل الخصمان كانا من جنس البشر؟

إنّ القرائن الحاففة بالآية تشعر بأنّ الخصمين لم يكونا من جنس البشر ، وهذه القرائن عبارة عن :

1. تسوّرهم المحراب ودخولهم عليه دخولاً غير عادي مع أنّ طبع الحال يقتضي أن يكون محرابه محفوظاً بالحرس ولا أقل بمن يطلعه على الأمر ، فلو كان الدخول بإذنهم كان داود عليه السلام مطلعاً عليه ولم يكن هناك أيّ فرع.

2. خطاب الخصمين لداود عليه السلام بقولهم : (لا تَخَفْ) مع أنّ هذا الخطاب لا يصح أن تخاطب به الرعية الراعي ، وطبيعة الحال تقتضي أن يخاطب به الراعي الرعية.

3. انّ خطابهما لداود بما جاء في الآية ، أشبه بخطاب ضيف إبراهيم له عليه السلام ، يقول سبحانه : (وَبَنَيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) (1) ، ويقول سبحانه : (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) (2).

4. تبهه عليه السلام بأنّه كان فتنة من الله له وامتحاناً منه ، وهي تشعر بأنّ الواقعة لم تكن عادية ، وهذا يناسب كون الدعوى مطروحة من جانبه سبحانه عن طريق الملائكة.

5. انّ الهدف من طرح تلك الواقعة كان لغاية تسديده في خلافته وحكمه بين الناس حتى يمارس القضاء بالنحو اللائق بساحته ولا يغفل عن التثبت

ص: 197

1- الحجر : 51 - 53.

2- الذاريات : 28.

ولأجل ذلك خاطبه سبحانه بعد قضائه في ذلك المورد بقوله : (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) كل ذلك يؤيد كون الخصمين من الملائكة تمثلوا له بصورة رجلين من الإنس.

نعم كانت القصة وطرح الشكوى عنده أمراً حقيقياً كقصة ضيف إبراهيم عليه الصلاة والسلام لا بصورة الرؤيا وما أشبهها.

4. كون الاستغفار لأجل ترك الأولى

استدلت المخطئة باستغفاره وإنابته إلى الله ، على صدور ذنب منه ولكنه لا يدل على ذلك :

أمّا أولاً : إنّ قضاءه لم يكن قضاءً باتاً خاتماً للشكوى ، بل كان قضاءً على فرض السؤال ، وإنّ من يملك تسعاً وتسعين نعجة ولا يقتنع بها ويريد ضم نعجة أخيه إليها ، ظالم لأخيه ، وكان المجال بعد ذلك بالنسبة إلى المعترض مفتوحاً وإن كان الأولى والأليق بساحته هو أنّه إذا سمع الدعوى من أحد الخصمين ، أن يسأل الآخر عمّا عنده فيها ولا يتسرع في القضاء ولو بالنحو التقديري.

وإنّما بادر إليه لأنّه عليه السلام فوجئ بالقضية ودخل عليه المتخاصمان بصورة غير عادية فلم يظهر منه التثبت اللائق به.

ولمّا تنبّه إلى ذلك وعرف أنّ ما وقع ، كان فتنة وامتحاناً من الله بالنسبة إليه (اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) تداركاً لما صدر منه ممّا كان الأولى تركه ، أولاً ، وشكراً وتعظيماً لنعمة التنبّه الذي نال به فوراً بعد الزلّة ، ثانياً.

وثانياً : إنّ من الممكن أن يكون قضاؤه قبل سماع كلام المدعى عليه ، لأجل انكشاف الواقع له بطريق من الطرق وإنّ الحق مع المدعى ، فقضى بلا استماع

لكلام المدعى عليه ، نعم الأولى له حتى في هذه الصورة ترك التسرع في إصدار الحكم ، والقضاء بعد الاستماع ، ولمّا ترك ما هو الأولى بحاله استغفر لذلك ، وقد تكرر منا أنّ ترك الأولى من الأنبياء ذنب نسبي وإن لم يكن ذنباً على وجه الإطلاق.

وثالثاً : لما كانت الشكوى مرفوعة إليه من قبل الملائكة ، ولم يكن ذلك الظرف ظرف التكليف ، كانت خطيئة داود في ظرف لا تكليف هناك ، كما أنّ خطيئة آدم عليه السلام كانت في الجنة ولم تكن الجنة دار تكليف ، ومع ذلك كلّه لمّا كان التسرع في القضاء بهذا الوجه أمراً مرغوباً عنه ، استغفر داود وأناب إلى الله استشعاراً بخطر المسؤولية بحيث يعد ترك الأولى منه ذنباً يحتاج إلى الاستغفار.

نعم قد وردت في التفاسير أحاديث في تفسير الآية لا يشك ذو مسكة من العقل أنّها إسرائيليّات تسربت إلى الأمة الإسلامية عن طريق أحبار اليهود ورهبان المسيحية ، فالأولى الضرب عنها صفحاً ، وسياق الآيات يكشف عن أنّ زلته لم تكن إلا في أمر القضاء فقط لا ما تدّعيه جهلة الأحبار من ابتلائه بما يخجل القلم عن ذكره ، ولأجله يقول الإمام علي عليه السلام في حق من وضع هذه الترهات أو نسبها إلى النبي داود عليه السلام : « لا أوتى برجل يزعم أنّ داود تزوج امرأة « أوريا » إلاّ جلدته حدّين : حدّاً للنبوة وحدّاً للإسلام » (1).

ص: 199

عصمة سليمان عليه السلام ومسألة عرض الصافات الجياد وطلب الملك

إشارة

إنّ سليمان النبي صلى الله عليه وآله و آله أحد الأنبياء وقد ملك من القدرة أروعها ومن السيطرة والسطوة أطولها ، وآتاه الله الحكمة والحلم والعلم ، قال سبحانه : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) (1) ، وقال عز من قائل : (وَكَلَّأْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) (2) ، وعلمه منطق الطير قال سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) (3) ، ووصف الله قدرته بقوله : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ) (4) ، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في توصيف قدرته وسعة علمه وعلو درجاته.

روى أصحاب السير : كان سليمان صلى الصلاة الأولى ، وقعد على كرسيه والخيل تعرض عليه حتى غابت الشمس . فقال : « آثرت حبّ الخيل على ذكر ربّي ، وأنّ هذه الخيل شغلتنني عن صلاة العصر » فأمر برد الخيل فأخذ يضرب سوقها وأعناقها ، لأنّها كانت سبب فوت صلاته (5).

ص: 200

1- النمل : 15.

2- الأنبياء : 79.

3- النمل : 16.

4- النمل : 17.

5- تفسير الطبري : 23 / 99 - 100 ; الدر المنثور : 5 / 309.

وفي بعض التفاسير أن المراد من « ردّوها » هو طلب رد الشمس عليه ، فردّت فصلّى العصر (1).

ويدّعي بعض هؤلاء أن ما ساقوه من القصة تدل عليه الآيات التالية ، أعني قوله سبحانه : (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَلَظِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) (2).

فهل لما ذكره مسحة من الحق أو لمسة من الصدق ، أو أن الآيات تهدف إلى أمر آخر خفي على هؤلاء ، وأنهم أخذوا ما ذكره من علماء أهل الكتاب ، كما سيوافيك بيانه ؟

ونقد هذه القصة المزعومة يتوقف على توضيح مفاد الآيات حتى يقف القارئ على أنها من قبيل التفسير بالرأي ، الممنوع ، ومن تلفيقات علماء أهل الكتاب التي حملت على القرآن وهو بريء منها.

أقول :

1. (الصَّافِرَاتُ) : جمع « الصافنة » ، وهي الخيل الواقفة على ثلاث قوائم ، الواضعة طرف السنيك الرابع على الأرض حتى يكون على طرف الحافر.

2. (الْجِيَادُ) : جمع « الجواد » ، وهي السراع من الخيل ، كأنها تجود بالركض.

3. (الْخَيْرِ) : ضد « الشر » ، وقد يطلق على المال كما في قوله سبحانه : (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) (3) ، والمراد منه هنا هي « الخيل » ، والعرب تسمي الخيل خيراً ، وتسمي

ص : 201

1- مجمع البيان ناسباً إلى « القيل » : 4 / 475.

2- ص : 30 - 33.

3- البقرة : 180.

النبيُّ زيد الخيل ب « زيد الخير » وقال صلى الله عليه وآله : « الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » وكيف لا يكون خيراً ، وهو لم يزل يعد وسيلة الحياة في عامة الحضارات.

4. « الحب » : ضد البغض ، قال في اللسان : أحببته وحببته بمعنى واحد.

5. (حُبَّ الْخَيْرِ) : بدل عن المفعول المحذوف ، وتقديره إني أحببت الخيل حبَّ الخير ، ويريد أن حبي للخيل نفس الحب للخير ، لأنَّ الخيل كما عرفت وسيلة نجاح الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية ، خصوصاً عند الجهاد مع العدو والهجوم عليه ، ويحتمل أن يكون (حُبَّ الْخَيْرِ) مفعولاً لا بدلاً عن المفعول.

6. (عَنِ ذِكْرِ رَبِّي) : بيان لمنشأ حبه للخير وسببه ، وأنَّ حبه له ناش عن ذكر ربّه.

وتقدير الجملة : أحببت الخير حباً ناشئاً عن ذكر الله سبحانه وأمره ، حيث أمر عباده المخلصين بالإعداد للجهاد ومكافحة الشرك وقلع الفساد بالسيف والخيل ، ولأجل ذلك قمت بعرض الخيل ، كل ذلك امثالاً لأمره سبحانه لا إجابة لدعوة الغرائز التي لا يخلو منها إنسان كما أشار إليه سبحانه بقوله : (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (1).

ص: 202

ويجد نظير تلك الدعوة في الذكر الحكيم ، قال سبحانه : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسَّ تَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (1).

7. فاعل الفعل في قوله : (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) أي الصافنات الجياد والمقصود : إنَّ الخيل أخذت بالركض حتى غابت عن بصره.

8. إنَّ الضمير في قوله : (رُدُّوْهَا) يرجع إلى الخيل التي تدل عليها الصافنات الجياد ، والمقصود أنه أمر بردها عليه بعدما غابت عن بصره.

9. وعند ذلك يطرح السؤال ، وهو : أنه لماذا أمر بالرد ، وما كان الهدف منه ؟ فبيّنه بقوله : (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) أي شرع بمسح أعراف خيله وعراقيبها بيده تقديراً لركابها ومربيها الذين قاموا بواجبهم بإعداد وسائل الجهاد.

إلى هنا اتضح مفاد مفردات الآية وجملها ، وعلى هذا تكون الآيات هادفة إلى تصوير عرض عسكري قام به أحد الأنبياء ذوي السلطة والقدرة في أيام ملكه وقدرته.

وحاصله : إنَّ سليمان النبي (الذي أشار القرآن إلى ملكه وقدرته وسطوته وسيطرته على جنوده من الإنس والجن وتعرّفه على منطق الطير ، إلى غير ذلك من صنوف قدرته وعظمته التي خصصها به بين الأنبياء) قام في عشية يوم بعرض عسكري ، وقد ركب جنوده من الخيل السراع ، فأخذت تركض من بين يديه إلى أن غابت عن بصره ، فأمر أصحابه بردها عليه ، حتى إذا ما وصلت إليه قام تقديراً لجهودهم بمسح أعناق الخيل وعراقيبها.

ص: 203

ولم يكن قيامه بهذا العمل صادراً عنه لجهة إظهار القدرة والسطوة أو للبطر والشهوة ، بل إطاعة لأمره سبحانه وذكره حتى يقف الموحدون على وظائفهم ، ويستعدوا للكفاح والنضال ما تمكنوا ، ويهيئوا الأدوات اللازمة في هذا المجال (1).

وهذا هو الذي تهدف إليه الآيات وينطبق عليها انطباقاً واضحاً ، فهلمّ معي ندرس المعنى الذي فرض على الآيات ، وهي بعيدة عن تحمّله وبريئة منه.

نقد التفسير المفروض على القرآن

إنّ في نفس الآيات قرائن وشواهد تدل على بطلان القصة التي اتخذت تفسيراً للآيات ، وإليك بيانها :

1. إنّ الذكر الحكيم يذكر القصة بالثناء على سليمان ويقول : (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) فاسلوب البلاغة يقتضي أن لا يذكر بعده ما يناقضه ويضاده ، فأين وصفه بحسن العبودية والرجوع إلى الله في أمور دينه ودنياه ، من انشغاله بعرض الخيل وغفلته عن الصلاة المفروضة عليه !؟

ولو فرضت صحة الواقعة ، فلازم البلاغة ذكرها في محل آخر ، لا ذكرها بعد المدح والثناء المذكورين في الآية.

2. إنّما يصح حمل قوله : (أَحَبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) على ما جاء في القصة إذا تضمن الفعل (أَحَبَبْتُ) معنى الترجيح والاختيار ، والتقدير أي أحببت حب الخير مقدماً إياه على ذكر ربّي ومختاراً إياه عليه ، وهو يحتاج إلى

ص: 204

1- وقد اختار هذا التفسير السيد المرتضى في تنزيه الأنبياء : 95 - 97 ، والرازي في مفاتيح الغيب : 7 / 136 ، والمجلسي في البحار : 14 / 103 - 104 من الطبعة الحديثة.

3. ولو قلنا بالتضمنين ، فيجب أن يقال مكان (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) « على ذكر ربي » ، أي أحببت حب الخير واخترته على ذكر الله ، كما في قوله سبحانه : (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) (1) ، وقوله تعالى : (إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ) (2).
4. إن ضمير الفعل في قوله تعالى : (تَوَارَتْ) يرجع إلى الصافنات المذكورة في الآية ، وعلى التفسير المفروض يرجع إلى الشمس ، وليست مذكورة في الآية ، ودلالة لفظ (بِالْعِشِيِّ) عليها ضعيفة جداً.
5. الضمير في قوله : (رُدُّوْهَا) - على المختار - يرجع إلى الصافنات ، وعلى التفسير المفروض يرجع إلى الشمس ، وهي غير مذكورة.
6. إن الخطاب في قوله : (رُدُّوْهَا) على المختار متوجه إلى رؤساء الجنود وهو واقع موقعه ، وعلى التفسير المنقول عن بعضهم (3) يكون متوجهاً إلى الملائكة ، وهو لا يناسب ، إلا كونه منه سبحانه لعلوه واستعلائه ، لا من مثل سليمان بالنسبة إليهم.
7. لا شك أن للصفوة من عباده سبحانه ولاية تكوينية ومقدرة موهوبة على التصرف في الكون ياذنه سبحانه ، لغايات مقدسة لإثبات نبوتهم وكونهم مبعوثين من الله سبحانه لهداية عباده ، وتدلل عليها آيات كثيرة تعرضنا لبعضها في كتابنا مفاهيم القرآن (4). ولم يكن المقام هنا مناسباً للتحدي حتى يتوصل إلى

ص: 205

1- فصلت : 17.

2- التوبة : 23.

3- نسبه الطبرسي إلى « القليل » كما مرّ.

4- لاحظ الجزء الأول : 444 - 446.

الإعجاز والتصرف في الكون بالأمر برد الشمس ، فإن الصلاة الفاتحة لو كانت مفروضة فجبرانها بقضائها ، ولو كانت مسنونة فلا إشكال في فوتها ، فلم يكن هناك لزوم للتصرف في الكون وأمر ملائكة الله بردها حتى يأتي بالصلاة المسنونة.

8. لو كان المراد من (رُدُّوْهَا) طلب رد الشمس من ملائكته سبحانه ، فاللازم أن يذكر الغاية من ردها بأن يقول : حتى أتوضأ وأصلي ، وليس لهذا ذكر في الآية ، بل المذكور قوله : (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) ، وهذا يعرب عن أن الغاية المترتبة على الرد هي مسح السوق والأعناق ، لا التوضؤ والصلاة.

9. إن تفسير المسح بالقطع ، تفسير بلا دليل ، إذ المتبادر من المسح هو إمرار اليد عليها لا قطعها واجتثاثها ، ولو كان هذا هو المراد ممّا ورد في القصة فالأنسب أن يقول : فطفق ضرباً بالسوق ، لا مسحاً.

10. إن التفسير المذكور ينتهي إلى كذاب الأخبار ، وهو كعب الذي لم يزل يدسّ في القصص والأخبار بنزعاته اليهودية ، ومن أراد أن يقف على دوره في الوضع والكذب وغير ذلك في هذا المجال فعليه أن يرجع إلى أبحاثنا في الملل والنحل.

11. إن بعض المفسرين قاموا بتفسير قوله : (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) بمسحها بالماء كناية عن الوضوء. وهو في ضعفه كما ترى ، إذ لو كان المراد ما ذكره ذلك البعض ، فلماذا بدل الغسل بالمسح ، والساقين بالسوق والعنق بالأعناق ، مع أنه لم يكن لسليمان إلا ساقان وعنق واحد؟

12. إن قتل الخيل التي عبّر عنها نفس سليمان (بالخير) بحجة أنّ الاشتغال بعرضها صار سبباً لفوت الصلاة أشبه بعمل إنسان لا يملك من العقل شيئاً ، وحاشا سليمان الذي آتاه الله الحكمة والعلم وسلّطه على الأرض من الإنس

والجن والسما، من هذا العمل الذي لا يقترفه السفلة من الناس إلا المجانين منهم ، ولا العاديون من السوق ، فضلاً عن أنبياء الله وأوليائه المنزهين.

وفي الختام نلفت نظر القارئ إلى ما ذكره « سيد قطب » في تفسير هذه الآيات في تفسيره قال :

أما قصة الخيل : إن سليمان عليه السلام استعرض خيلاً له بالعشي ، ففاته صلاة كان يصلّيها قبل الغروب ، فقال : ردّوها عليّ ، فردّوها عليه ، فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربّه.

وفي رواية : روي أنّه جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها ، لأنّها كانت خيلاً في سبيل الله.

ثم قال : وكلتا الروايتين لا دليل عليهما ، ويصعب الجزم بشيء منها (1).

والعجب من السيد أنّه أعطى الروايتين مكانة واحدة مع أنّ الأولى تضاد حكم العقل ، وسيرة الأنبياء والعلماء ، لذلك يسهل الجزم بطلانها ، وأما الثانية فهي تنطبق على ظاهر الآيات كمال الانطباق ، وهو المروي عن حبر الأمة ابن عباس.

وقد نقل الرواية الأولى عن أناس كانوا لا يتحرّزون من الأخذ عن الأخبار المستسلمين ، فنقلها الطبري في تفسيره ، عن السدي وقتادة ، حتى أنّ الطبري مع نقله أولى الروايتين اختار قول ابن عباس واستوجهه ، وقال : إنّ نبي الله لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنّه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها (2).

ص: 207

1- في ظلال القرآن الكريم : 23 / 100.

2- تفسير الطبري : 3 / 100.

ولا يقصر عنه ما نقله السيوطي في « الدر المنثور » من الأساطير حول هذه الخيول ، فروي عن إبراهيم التيمي أنه قال : كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة ، فعقرها ؛ وفي الوقت نفسه نقل قول ابن عباس في تفسير المسح : ظل سليمان يمسح أعراف الخيل وعراقيبها (1). هذا حال التفسير المفروض على الآية ، وهناك مستمسك آخر في مورد سليمان للمخطة تأتي به.

الفتنة التي امتحن بها سليمان

قال سبحانه : (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَأَبْتَبِعِيَ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (2).

وتوضيح مفاد الآيات يترتب على البحث عن الأمور التالية :

1. ما هي الفتنة التي امتحن بها سليمان ؟

2. ما معنى طلب المغفرة مع التمسك بحبل العصمة ؟

3. لماذا يطلب لنفسه الملك ؟

4. لماذا يطلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ؟

أما السؤال الأول : فليس في الآيات الواردة في المقام ما يكشف عن حقيقتها.

وأما الروايات فقد نقل أهل الحديث حول تبين الفتنة روايات يلوح منها

ص : 208

1- الدر المنثور : 5 / 309.

2- ص : 34 - 35.

أنّها إسرائيليّات ، بثّها أخبار اليهود بين المسلمين ، وقد ابتلي بها المسلمون في كثير من المجالات التفسيرية والتاريخية والعقائدية و... فالرجاء من الله سبحانه أن يقيض جماعة من المثقفين والمحقّقين ويوفّقهم لتهديب الكتب الإسلامية منها وتفتحها عن مروياتهم.

ولكن من بين هذه الروايات ما يمكن أن يعتمد عليه ، وهو ما قيل : كان لسليمان ولد شاب ذكي كان يحبّه حبّاً شديداً ، فأماته الله على بساطه فجأة بلا مرض ، اختباراً من الله تعالى لسليمان وابتلاء لصبره في إماته ولده ، وألقى جسمه على كرسيه (1).

ولا شك أنّ الابتلاء بموت الولد الشاب من أعظم الابتلاءات ، والصبر في هذا المجال وتقويض الأمر إلى الله سبحانه آية كمال النفس ، فلم يكن الهدف من الابتلاء إلا أن يفتح الكمال المركوز في ذاته ، حتى يخرج من القوّة إلى الفعل ، وسنوضح فلسفة الابتلاء عند البحث عن ابتلاء إبراهيم بالكلمات فانتظر.

والعجب أن سيد قطب قد اعتمد في تفسير الفتنة على رواية يبدو أنّها من الإسرائيليّات التي أخذها أبو هريرة عن كعب الأخبار ، قال : ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسير « الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان » سوى حديث صحيح ، في ذاته ، ولكن علاقته بأحد هذين الحادّتين ليست أكيدة. وهذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً ، ونصه : « قال سليمان : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل « إن شاء الله » ، فطاف سليمان عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده : لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل

ص: 209

ثم قال السيد: وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق، ولكن هذا مجرد احتمال (1).

نحن لا نعلّق على هذا الحديث شيئاً وإنما نترك القضاء فيه إلى القارئ لكي يقضي فيه، وكفى في ضعفه أنّه من مرويات أبي هريرة، وقد وصفها سيد قطب بأنها مجرد احتمال كما عرفت.

وبذلك يعلم الجواب عن السؤال الثاني، فالظاهر أنّه كان له عليه السلام فيه رجاء أو أمنية، فأماته وألقاه على كرسيه، حتى يوقفه على أنّ حق العبودية تفويض الأمر إلى الله والتسليم إليه، ولعل هذا المقدار من الرجاء وعقد الأمنية على الولد يعد نحو انقطاع من الله إلى الولد.

وهو وإن لم يكن معصية ولكن الأليق بحال الأولياء غيره، ولأجل ذلك لما استشعر بوظيفته التي يوجبها مقامه، أناب إلى الله ورجع إليه وطلب المغفرة كما يقول سبحانه: (ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي).

وقد تكرر ممّا أنّ طلب المغفرة ليس دليلاً على العصيان وصدور الذنب، بل كل فعل أو ترك صدر من الرجال العارفين بحقيقة الربوبية وعمق العبودية، وكان الأولى والأليق خلافه، استوجب طلب الغفران، وإن لم يكن معصية وخلافاً في منطق الشرع، ولأجل ذلك أنّ أولياء الله لم يزالوا مستغفرين كل يوم وليلة لسعة استشعارهم بعظمة الوظيفة في مقابل عظمة الخالق.

وأما السؤال الثالث: أعني طلب الملك من الله سبحانه، فلم يكن الملك

ص: 210

مقصوداً لذاته ، لأنّ مثل هذا الملك لا ينفك عن الظلم والتعدّي وهضم الحقوق إلى غير ذلك مما أشير إليه في قوله تعالى : (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أَذْلاًّ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (1) وفي قوله عز اسمه : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَأَنْتَ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (2).

هكذا كانت طبيعة الملوكية في الأعصار الغابرة والحاضرة ، فهي مع الاستبداد والاستعباد وغصب الأموال وقتل النفوس المحترمة متلازمة ، كما هو واضح لمن لاحظ تاريخ السلاطين في الأدوار الماضية والحاضرة.

وإنّما طلب سليمان ما وراء ذلك ، فقد طلب من الله سبحانه الملك الذي يقوده إنسان أوتي العلم والحكم وتشرف بالنبوة والوحي ، ومن هذا حاله ، لا يكون الملك مطلوباً له بالذات ، وإنّما يكون في طريق إحقاق الحق وإبطال الباطل والخدمة للخلق.

ولأجل أنّ المتبادر من الملك - في أذهان العامة - هو السلطة الجائرة نجد الذكر الحكيم عندما يصف الله ب (الْمَلِكِ) يتابعه ب (الْقُدُّوسِ) مشيراً إلى أنّ ملكه وسلطته تفارق سائر السلطان ، فهو في عين كونه ملكاً للعالم ، قدوس منزّه من كل عيب وشين ، ومن كل تعدّ وظلم ، فهو : (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ) (3).

نقل أهل السير أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقول : « لست بملك » مع أنّه كان حاكماً

ص: 211

1- النمل : 34.

2- الكهف : 79.

3- الحشر : 23.

إلهياً ، ورئيس دولة إسلامية أسسها منذ بدء وروده المدينة ، ومراده هو إبعاد نفسه عمّا يتبادر إلى أذهان العامة من سماع ذلك اللفظ ، وأنّه ليس من أولئك الزمرة ، بل حاكم إلهي يسعى لصالح الأمة حسب القوانين الإلهية.

وبالجملة : فرق بين السلطة التي تستخدمها الغرائز المادية ، والسلطة التي تراقبها النبوة ، ويكبح جماحها الخوف من الله ، والعشق لرضوانه ، والذي طلبه سليمان في الآية إنّما هو الثاني ، وهو عمل إلهي وخدمة للدين وعمل مقرب ، دون الأول.

ولأجل أن لا تذهب أذهان الصحابة إلى المعنى المتبادر من لفظ « الملك » قام رسول الله بتوضيح ما طلب سليمان لنفسه من الله سبحانه وقال : « أرايتم ما أعطي سليمان بن داود من ملكه ؟ فإنّ ذلك لم يزدّه إلاّ تخشعاً ، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعاً لربّه » (1).

وقد أوضحنا حقيقة السلطة الإسلامية التي دعا إلى استقرارها الكتاب والسنة ، وملامحها وأهدافها ، فلاحظ (2).

ومن هنا يعلم جواب السؤال الرابع : وأنّه لماذا قال : (لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) ؟ فإنّه لم يقل ذلك ضناً وبخلاً على الغير ، وإنّما قال ذلك ، لأنّه طلب الملك الذي لا يصلح في منطق العقل والشرع أن يمارسه غيره ، أو من هو نظيره في العلم والإيمان ، وذلك لأنّه سبحانه يبيّن ملامح هذا الحكم في آيات أخر ويقول : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ * وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ

ص: 212

1- روح البيان : 8 / 39.

2- لاحظ الجزء الثاني من هذه الموسوعة : الفصل الأول : 11 - 72.

حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (1) فالآيات بحكم « الفاء » في قوله (فَتَدْعُونَهُ) تدل على أنه لم يطلب مطلق الحكم ، وهو السلطة التي يصح أن يمارسها المتعارف من الناس خصوصاً إذا كانوا من الصالحاء ، وإنما طلب من القدرة ما يصل بها إلى تسخير الريح والجن والشياطين. ومثل هذه القدرة لا تصح في منطق العقل أن تقع في متناول المتعارف من الناس ، لأن وجود تلك السلطة في متناول غير المعصوم يؤدي إلى الطغيان وهدم الحدود وادعاء الربوبية ، إلى غير ذلك من عظيم الفساد ، وإنما تكون مقرونة بالصالح والفلاح إذا مارسها نبي عارف بعظمة المسؤولية أمام الله أولاً ، وأمام العقل والوجدان ثانياً ، وأمام الخلق ثالثاً.

ولأجل ذلك يقول : (لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) ويريد منه الإنسان المتعارف غير المتمسك بحبل العصمة ، وغير المتحلّي بالنبوة ، فإن هذا الملك - لما عرفت - لا ينبغي لأحد ، وإنما ينبغي لسليمان ومن يكون بمنزلته من الصيانة والعصمة.

وإلى ما ذكرنا يشير المرتضى ويقول : إنما التمس أن يكون ملكه آية لنبوته ، ليتبين بها عن غيره ممن ليس بنبي وقوله : (لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) أراد به لا ينبغي لأحد غيري ممن أنا مبعوث إليه ، ولم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيين (2).

ص: 213

1- ص: 36 - 40.

2- تنزيه الأنبياء : 100.

عصمة أيوب عليه السلام ومسّ الشيطان له بعذاب

إشارة

قد وصف سبحانه نبيه العظيم «أيوب» بأوصاف كبار وقال: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نُّعَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (1)، ومع ذلك كله فقد استدلت المخطئة على عدم عصمته بطواهر بعض الآيات، وهي لا تدل على ما يرتوون وإليك تلکم الآيات:

قال سبحانه: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ) (2).

وقال سبحانه: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نُّعَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (3).

استدلت المخطئة على تجويز صدور الذنب من الأنبياء بما ورد في هذه

ص: 214

1- ص: 44.

2- الأنبياء: 83 - 84.

3- ص: 41 - 44.

الآيات ممّا يوهم ذلك ، أعني قوله :

1. (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ) .

2. (بُنِصِبٌ وَعَذَابٌ) .

وقد ظنوا أنّ مسّ الشيطان يستلزم صدور الذنب منه ، غافلين عن أنّ هذه الجملة عبارة أخرى عمّا ورد في سورة الأنبياء بقوله : (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ) .

كما ظنوا أنّ العذاب عبارة عن العقوبة الإلهية غافلين عن أنّ العذاب عبارة عن كل ما شق على الإنسان ، وهو المراد من التعب ، والنصب ، والوجع ، والألم .

وبالجملة : لا دلالة للآية على صدور الذنب أبداً ، إنّما الكلام في بيان ما هي علّة ابتلاء أيوب بهذا الوجع والألم ؟ يتضح هذا باستعراض الآيات وتفسير مفرداتها فنقول :

قال الراغب : « الضر » : سوء الحال ، إمّا في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفة ، وإمّا في بدنه لعدم جارحة ونقص ، وإمّا في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه ، وقوله : (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) محتمل لثلاثتها .

غير أنّه يحتمل أن يكون الضر هنا بمعنى يساوق المرض ، وهو غير المعنى الثاني الذي أشار إليه الراغب ، ولأجل ذلك يقول العلامة الطباطبائي : الضر خصوص ما يمس النفس من الضرر كالمرض والهزال ونحوهما ، وذيل الآيات يؤيد هذا المعنى .

وأما « النصب » : فهو التعب ، وربّما يفتح كما قال الله سبحانه : (لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) (1) ، يقال أنصبني كذا أي أتعبني وأزعجني .

ص: 215

1- فاطر : 35.

وأما « الركض » : فهو الضرب بالرجل.

هذه هي اللغات الواردة في الآية ، فإذا عرفنا معانيها فلنرجع إلى تفسير الآية ، وستعرف أنه لا يستشتم منها صدور أي معصية من النبي أيوب مظهر الصبر والمقاومة.

تفسير قوله : (مَسْنِي الضُّرُّ)

أما ما ورد في سورة الأنبياء فلا يدل على أزيد من أنه مسّه الضر وشملته البلية ، فابتهل إليه سبحانه قائلاً : (أَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ، وعندئذ شملته العناية الإلهية ، فكشف الله عنه ما به من ضر ، ومن المحتمل جداً أن المراد هو المرض وشفاه الله من ذلك المرض الذي ابتلي به سنين ، ولم يكتف بذلك بل وآتاه أهله بإحيائهم ، مضافاً إلى مثلهم ، كل ذلك رحمة من عنده ، ولم يكن ذلك العمل إلا امتحاناً منه سبحانه لأيوب وغيره من العابدين ، حتى يتذكروا ويعلموا أن الله تعالى يبتلي أوليائه ثم يؤتيهم أجرهم ، ولا يضيع أجر المحسنين ، وليس الامتحان إلا لأجل تقّح الكمالات المكنونة في ذات الممتحن ، ولا تظهر تلك الكمالات إلا إذا وقع الإنسان في بوتقة الامتحان فتظهر حينئذ بواطنه من الكمالات والمواهب ، وقد أوضحنا ذلك في بعض مسطوراتنا ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال : « ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب » (1).

ص: 216

وأما الآيات الواردة في سورة « ص » فهي التي وقعت ذريعة لبعض المخطئة من أنه سبحانه ابتلى أيوب ببعض الأمراض المنفردة مع أنه ليست في الآية إشارة ولا تلويح إلى ذلك إلا في بعض الأحاديث التي تشبه الإسرائيليات ، قال سبحانه في سورة « ص » : (وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ دَاوَى رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ نُنْصِبُ وَعَدَابٍ) وقد عرفت معنى النصب ، وأما العذاب فلا يتجاوز معناه ما يؤدي الروح من سوء الحال فقولهُ : (مَسْنِي الشَّيْطَانُ) عبارة عما ذكره في سورة الأنبياء بقوله : (مَسْنِي الضُّرِّ) ، فنسب نزول النصب والعذاب في هذه الآية إلى الشيطان ولكنه سكت عن فاعله في سورة الأنبياء ، وعندئذ يجب إمعان النظر في معنى هذه الجملة فنقول : إنه يحتمل أحد معنيين :

1. أن يكون ما مسّه من الضر والمرض مستنداً إلى الشيطان بنحو من السببية والتأثير مكان استناده إلى الأسباب العادية الطبيعية ، فكما أنّ الإنسان يصيبه التعب بواسطة العلل المادية ، يصيبه التعب بنحو من مس الشيطان ، كل ذلك بإذن منه سبحانه ، وهذا المعنى هو الذي يستفاد من الروايات ، وهو وإن لم يكن له مؤيد في ظاهر الآية غير أنه ليس من الأمور المستحيلة ، فإنه إذا كان للعلل الطبيعية سلطان على الأنبياء في أمراضهم فلا مانع من أن تكون للشيطان سلطة في خصوص هذا المجال لا في إضلالهم والتصرف في قلوبهم وعقيدتهم ، كل ذلك بإذن الله سبحانه خصوصاً إذا كان ذلك لأجل الامتحان.

نعم أنكر الزمخشري هذا السلطان قائلاً بأنه لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه ليقضي من تعذيبهم وأتعابهم وطره ، فلو قدر على ذلك لم يدع صالحاً

إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب (1).

أقول : إنما يصح ما ذكره إذا كانت للشيطان مقدرة مطلقة وعمامة على كل الصالحين والمؤمنين ، وعند ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وهو غير القول بتسلطه على مورد خاص ، وهو أيوب بإذن منه سبحانه ، ولا دليل على امتناع القضية الجزئية ، كيف ؟ وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي قوله : (فَأَيُّ نَسِيْتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أذْكَرَهُ) (2).

2. أن يكون المراد من « مس الشيطان بالنصب والعذاب » هو وسوسة الشيطان إلى الناس عندما اشتد مرض أيوب حيث حثهم على أن يجتنبوه ويهجروه ، فكان التعيير من الناس والتكلم منهم لكن بوسوسة من الشيطان ، ونفس هذا التعيير كان نصباً وعذاباً على أيوب ، فالمراد من النصب والعذاب هو التعيير المستند إلى وسوسة الشيطان ، وعلى كل تقدير فلا دلالة لكلمة العذاب بعد كلمة النصب على أنه كان عقاباً منه سبحانه له ، يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام : « إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَى أَيُوبَ بِلَا ذَنْبٍ فَصَبِرَ حَتَّى عُيِّرَ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى التَّعْيِيرِ » (3).

وأما الأحاديث الواردة حول قصة أيوب من أنه أصابه الجذام حتى تساقطت أعضاؤه ، فيقول الإمام الباقر عليه السلام في حقها : « إِنَّ أَيُوبَ ابْتَلِيَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَذْنُبُونَ ، لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ ، مَطْهُرُونَ ، لَا يَذْنُبُونَ وَلَا يَزِيغُونَ ،

ص: 218

1- الكشاف : 16 / 3 .

2- الكهف : 63 .

3- بحار الأنوار : 12 / 347 نقلاً عن أنوار التنزيل .

ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً».

وقال : « إنَّ أيوب مع جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة ، ولا قبحت له صورة ، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ، ولا استقدره أحد رآه ، ولا استوحش منه أحد شاهده ، ولا تدوّد شيء من جسده ، وهكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه ، وإنّما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره ، لجهلهم بما له عند ربّه تعالى ذكره ، من التأييد والفرج ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » وإنّما ابتلاه الله عزّ وجلّ بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لئلاّ يدعوا له الربوبية ، إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمه متى شاهدوه ، ليستدلوا بذلك على أنّ الثواب من الله تعالى ذكره على ضريين : استحقاق واختصاص ، ولئلاّ يحتقروا ضعيفاً لضعفه ، ولا فقيراً لفقره ، وليعلموا أنّه يسقم من يشاء ويشفي من يشاء متى شاء كيف شاء ، بأيّ سبب شاء ، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء وشفاء لمن شاء وسعادة لمن شاء ، وهو عزّ وجلّ في جميع ذلك عدل في قضائه ، وحكيم في أفعاله ، لا يفعل بعباده إلّاّ الأصلح لهم ، ولا قوة لهم إلّاّ به » (1).

وهذه الرواية - الصادرة من بيت الوحي والنبوة - تعرب عن عقيدة الأئمة في حق الأنبياء عامة ، وفي حق النبي أيوب خاصة ، وإنّ الأنبياء لا يبتلون بالأمراض المنقّرة ، لأنّها لا تجتمع مع هدف البعثة ، وأنّ ابتلاء أيوب كان لأهداف تربوية أُشير إليها في الرواية.

قال السيد المرتضى : أفتصححون ما روي من أنّ الجذام أصابه حتى تساقطت أعضاؤه ؟

ص: 219

1- الخصال : 2 / 400 ، ط الغفاري.

قلنا : أمّا العلل المستقدرة التي تنفّر من رآها وتوحشه كالبرص والجذام ، فلا يجوز شيء منها على الأنبياء ، لما تقدم ذكره (1).

وقال العلامة المجلسي بعد نقل الخبر المتقدم عن الإمام الباقر عليه السلام : هذا الخبر أوفق بأصول متكلمي الإمامية من كونهم منزّهين عمّا يوجب تنفّر الطباع عنهم ، فتكون الأخبار الأخر محمولة على محامل أخر (2).

إلى هنا استطعنا أن نخرج بهذه النتائج في مورد هذه الروايات المرتبطة بقصة أيوب :

1. أنّ الألفاظ الواردة في الآية من قوله : (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) لا دلالة لها على صدور الذنب.

2. أنّ الروايات الواردة في بعض الكتب من إصابته بأمراض منفرة يخالفها العقل ، وتردّها النصوص المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

ص: 220

1- تنزيه الأنبياء : 64.

2- البحار : 12 / 349.

عصمة يونس عليه السلام وذهابه مغضباً

إشارة

إنَّ المخطئة لعصمة الأنبياء استدلوها على مقصودهم بما ورد حول قصة يونس من الآيات ، ونحن نذكر عامّة ما ورد في ذلك المجال ، ثم نستوضح مقاصدها.

فنقول : قد وردت قصته على نحو التفصيل والإجمال في سور أربع : يونس ، الأنبياء ، الصافات ، والقلم ، وإليك الآيات :

1. (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَتٌ فَتَفَعَّلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (1).

2. (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (2).

3. (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء : 88..

4. (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ

ص: 221

1- يونس : 98.

2- الأنبياء : 87.

فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّفْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (1).

5. (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) (2).

هذه هي الآيات الواردة حول قصة يونس ، وبالإحاطة بها يتمكن المفسر من الإجابة على الأسئلة المطروحة حولها ، وإن لم تكن لبعضها صلة بالعصمة.

أما ما جاء من الروايات حول القصة ، فكلها روايات آحاد لا يمكن الركون إلى الخصوصيات الواردة فيها ، بل بعض ما فيها لا يناسب ساحة الإنسان العادي فضلاً عن النبي ، ولأجله تركنا ذكرها.

والذي تضافرت عليه الروايات هو أنه لما دعا قومه إلى الإسلام ، وعرف منهم الامتناع ، دعا عليهم ووقف على استجابة دعائه ، فأخبرهم بنزول العذاب ، فلما ظهرت أماراته كان من بينهم عالم أشار إليهم أن افزعوا إلى الله لعله يرحمكم ، ويردّ العذاب عنكم ، فقالوا : كيف نصنع ؟ قال : اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة ، وفرّقوا بين النساء والأولاد ، وبين الإبل وأولادها ... ثم ابكوا وادعوا ، فذهبوا وفعلوا ذلك ، وضجّوا وبكوا ، فرحمهم الله ، وصرف عنهم العذاب (3).

فنعول : توضيح مفاد الآيات يتوقف على البحث عن عدّة أمور :

ص: 222

1- الصفات : 139 - 148.

2- القلم : 48 - 50.

3- بحار الأنوار : 14 / 380 من الطبعة الجديدة رواه جميل بن درّاج الثقة عن الصادق عليه السلام .

1. لماذا كشف العذاب عن قوم يونس دون غيرهم ؟

صريح قوله سبحانه : (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (1).

إن أمة يونس هي الأمة الوحيدة التي نفعها إيمانها قبل نزول العذاب وكشف عنهم ، وذلك لأن « لولا » التحضيضية إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد معنى النفي ، كما في قولك : هلا قرأت القرآن ، وعلى ذلك يكون معنى قوله سبحانه : (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ) أنه لم يكن ذلك أبداً ، فاستقام الاستثناء بقوله : (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ) ، والمعنى هلا كانت قرية من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم آمنت قبل نزول العذاب فنفعها إيمانها ، لكن لم يكن شيء من ذلك إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي.

ولا شك أنه قد نفع إيمان قوم يونس ولكن لم ينفع إيمان فرعون ، وعندئذ يطرح هنا السؤال التالي : ما الفرق بين الإيمانين ؟ حيث نفع إيمانهم دون إيمان الثاني وأتباعه ، يقول سبحانه : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) (2).

ص: 223

1- يونس : 98.

2- يونس : 90 - 92.

الجواب : الفرق بين الإيمانيين ، أحدث هذا الفرق ، حيث كان إيمان قوم يونس إيماناً عن اختيار ، ولأجل ذلك بقوا على إيمانهم بعد رفع العذاب ، وكان إيمان فرعون إيماناً اضطرارياً غير ناجم عن ثورة روحية على الكفر والوثنية ، بل كان وليد رؤية العذاب وهجوم الأمواج ، لا أقول : إن إيمان قوم يونس كان حقيقياً جدياً وإيمان الآخرين كان صورياً غير حقيقي ، بل : الكل كان حقيقياً ، وإنما الاختلاف في كون أحدهما ناشئاً من اختيار ، والآخر ناشئاً من الاضطرار والخوف ، وبعبارة أخرى : ناشئاً من عامل داخلي وناشئاً من عامل خارجي .

والدليل على ذلك استقرار وثبوت قوم يونس على الإيمان بعد كشف العذاب عنهم لقوله سبحانه : (وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) ، ويقول سبحانه : (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (1) ، والظاهر من الآية أن يونس بعدما نجا مما ابتلي به ، أرسل إلى نفس قومه ، فاستقبلوه بوجوه مشرقة وتمتعوا في ظل الإيمان إلى الوقت المؤجل في علم الله .

وأما الفراعنة فكانت سيرتهم الإيمان عند نزول العذاب والرجوع إلى الفساد وإلى ما كانوا عليه من الفساد في مجال العقيدة والعمل ، بعد كشفه ، والذكر الحكيم يصرح بذلك في الآيات التالية : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ) (2) .

ص: 224

1- الصفات : 147 - 148 .

2- الأعراف : 133 - 135 .

وثبات قوم يونس على إيمانهم وعدم انحرافهم عنه بعد كشف العذاب ، ونكث الفراعنة بعد كشف الرجز عنهم ، خير دليل على أن إيمان القوم كان إيماناً اختيارياً ثابتاً ونابعاً عن اليقين ، وإيمان الفراعنة كان اضطرارياً ناشئاً عن الخوف.

والأول من الإيمانيين يخرق حجب الجهل ، ويشاهد الإنسان عبوديته بعين القلب وعظمة الرب ونور الإيمان ، فيصير خاضعاً أمام الله ، يعبد ولا يعبد غيره.

والثاني منهما يدور مدار وجود عامل الاضطرار والإلجاء ، فيؤمن عند وجوده ويكفر بارتقاعه ، ولا يعد ذلك الإيمان كمالاً للروح ولا قيمة له في سوق المعارف ، قال سبحانه : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (1).

ولا شك أنه تعلقت إرادته التشريعية بإيمان الناس كلهم بشهادة بعث الأنبياء وإرسال الرسل ، ولكن لم تتعلق إرادته التكوينية بإيمانهم ، وإلا لم تتخلف عن مراده وأصبح الناس كلهم مؤمنين إيماناً لا عن اختيار ، ولكن بما أنه لا قيمة للإيمان الخارج عن إطار الاختيار والناشئ عن الإلجاء والاضطرار ، لم تتعلق إرادته سبحانه بإيمانهم ، وإليه يشير قوله : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) .

2. هل كان كشف العذاب تكديماً لإيعاد يونس ؟

قد وعد سبحانه في كتابه العزيز بأنه يؤيد رسله وينصرهم ولا يكذبهم وهو عز من قائل : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (2).

ص: 225

1- يونس : 99.

2- غافر : 51.

فلو أخبر واحد منهم عن وقوع حادثة أو نزول رحمة وعذاب على قوم ، فلا بد أن يكون وضع المخبر به في المستقبل على وجه لا يلزم منه تكذيبهم ، وذلك إما بوقوع نفس المخبر به كما هو الحال في إخبار صالح لقومه ، حيث تنبأ وقال : (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ) ، فلما بلغ الأجل المحدد (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصَابَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ جَائِمٌ * كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لَثَمُودَ) (1) ، وإما بظهور علامات وأمارات دالة على صدق مقال النبي وإخباره ، وإنّ عدم تحققه لأجل تغيير التقدير بالدعاء والعمل الصالح ، قال سبحانه : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) (2).

وقال عز من قائل : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (3).

هذه سنة الله سبحانه في إنزال النعمة والنعمة ورفعهما.

وما أخبر به يونس كان من هذا القبيل ، فقد تنبأ بنزول العذاب ، وشاهد القوم طلائع العذاب وعلائمه (4) ، فبادروا بالتوبة والإنابة إلى الله حسب إرشاد عالمهم ، فكشف عنهم العذاب ، وليس في هذا تكذيب ليونس ، لو لم يكن فيه تصديق حيث وقفوا على صدق مقالته غير أنّ لله سبحانه سنناً في الحياة ، فأخذ المعتدي باعتدائه سنة ، والعفو عنه لإنابته أيضاً سنة ، ولكل موضع خاص ، وهذا

ص: 226

1- هود : 65 ، 67 - 68.

2- الأعراف : 96.

3- الأنفال : 53.

4- لاحظ تفسير الطبري : 11 / 117 - 118 ؛ الدر المنثور : 3 / 317 - 318 ؛ البحار : 14 / 396 من الطبعة الحديثة.

معنى البداء الذي تقول به الإمامية ، الذي لو وقف إخواننا أهل السنة على حقيقته لاعترفوا به من صميم القلب ، ولكن الدعايات الباطلة حالت بينهم وبين الوقوف على ما تتبناه الإمامية في هذا المضممار ، وقد أوضحنا حقيقة الحال في رسالة « البداء من الكتاب والسنة » (1). ومن أراد الوقوف على واقع الحال فليرجع إليها.

3. أسئلة ثلاثة حول عصمته

ألف. ما معنى كونه مغاضباً؟ ومن المغضوب عليه؟

ب. ماذا يراد من قوله : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) ؟

ج. كيف تجتمع العصمة مع اعترافه بكونه من الظالمين؟

هذه هي الأسئلة الحساسة في قصة يونس عليه السلام ، وقد تمسك بها المخطئة ، وإليك توضيحها واحداً بعد واحد :

أما الأول : فقد زعم المخطئة أن معناه أنه خرج مغاضباً لربه من حيث إنه لم ينزل بقومه العذاب.

ولكنه تفسير بالرأي ، بل افتراء على الأنبياء ، وسوء ظن بهم ، ولا يغضب ربه إلا من كان معادياً له وجاهلاً بحكمه في أفعاله ، ومثل هذا لا يليق بالمؤمن فضلاً عن الأنبياء.

وإنما كان غضبه على قومه لمقامهم على تكذيبه وإصرارهم على الكفر ويأسه من توبتهم ، فخرج من بينهم (2).

ص: 227

1- مطبوعة منشرة.

2- تنزيه الأنبياء : 102.

هكذا فسره الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن مفاد الآية وقال : « ذلك يونس بن متى ذهب مغاضباً لقومه » (1).

وأما الثاني : أعني : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) فالفعل ، أعني : (نقدر) ، من القدر بمعنى الضيق لا من القدرة ، قال سبحانه : (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ) (2) ، وقال سبحانه : (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) (3) ، فمعنى الآية أنه ظن أن لا يضيق عليه الأمر لترك الصبر والمصابرة مع قومه ، لا-بمعنى أنه خطر هذا الظن بباله ، بل كان ذهابه وترك قومه يمثل حالة من ظن أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله ، فكانت مفارقتة قومه ممثلة لحال من يظن بمولاه ذلك.

وأما تفسيره بأنه ظن أنه سبحانه لا يقدر عليه ، فهو تفسير بما لا تصح نسبته إلى الجهلة من الناس فضلاً عن الأولياء والأنبياء.

وبما أن مفارقتة قومه بلا إذن منه سبحانه - كان يمثل حال من يظن أن لا يضيق مولاه عليه - ابتلاه الله بالحوت فالتقمه.

فوقف على أنه ترك ما هو الأولى فعلاً ، فندم على عمله (فَنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت) .

ونقل الزمخشري في كشافه : عن ابن عباس أنه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة ، فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك ، قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ هذه الآية وقال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه ؟

ص: 228

1- بحار الأنوار : 14 / 387.

2- الطلاق : 7.

3- الإسراء : 30.

قال : هذا من القدر لا من القدرة. ثم أضاف صاحب الكشف : يصح أن يفسر بالقدرة على معنى « أن لن نعمل فيه قدرتنا » ، وأن يكون من باب التمثيل ، بمعنى فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله ، ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان ثم يردعه ويردّه بالبرهان ، كما يفعل المؤمن المحقق بنزعات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت (1).

ولا يخفى أن ما نقله عن ابن عباس هو المعتمد ، بشهادة استعماله في القرآن بمعنى الضيق ، وهو المناسب لمفاد الآية ، وأما الوجهان الآخران فلا يصح الركون إليهما ، خصوصاً الوجه الأخير ، لأن الأنبياء أجل شأناً من أن تحوم حول قلوبهم الهواجس الشيطانية حتى يعودوا إلى معالجتها بالبرهان ، فليس له سلطان على المخلصين من عباده ، وقد اعترف بذلك الشيطان وقال كما يحكيه سبحانه : (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (2).

وأما السؤال الثالث : فقد مرّ أن الظلم في اللغة بمعنى وضع الشيء في غير موضعه ، ولا شك أن مفارقتة قومه وتركهم في الظرف القلق العصيب كان أمراً لا يترقب صدوره منه ، وإن لم يكن عصياناً لأمر مولاه ، فالعطف والحنان المترقب من الأنبياء غير ما يترقب من غيرهم ، فلاجل ذلك كان فعله واقعاً غير موقعه.

ومن المحتمل أن يكون الفعل الصادر منه في غير موقعه هو طلبه العذاب لقومه وترك المصابرة ، ويؤيده قوله سبحانه : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) (3) ، فالظاهر أن متعلق النداء في الآية

ص: 229

1- الكشف : 2 / 335 - 336.

2- ص : 83.

3- القلم : 48.

طلب نزول العذاب على قومه بقرينة قوله : (وَهُوَ مَكْظُومٌ) ، أي كان مملوءاً غيضاً أو غمماً ، والمعنى : يا أيها النبي لا تكن مثل صاحب الحوت ، ولا- يوجد منك مثل ما وجد منه من الضجر والمغاضبة ، فتبتلى ببلائه ، فاصبر لقضاء ربك ، فإنه يستدرجهم ويملي لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم.

ويستفاد من بعض الروايات أن سبب لومه وردعه كان أمراً ثالثاً ، وهو أنه لما وقف على نجات أُمَّته غضب وترك المنطقه (1).

والوجهان : الأول والثاني هما الصحيحان.

ومما ذكرنا يعلم مفاد قوله سبحانه : (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) ، فشبه حاله بالعبء الأبق ، وذلك لما مر من أن خروجه في هذه الحال كان ممثلاً لإباق العبد من خدمة مولاه ، فأخذه الله بذلك.

وعلى كل تقدير فالآيات تدل على صدور عمل منه كان الأليق بحال الأنبياء تركه ، وهو يدور بين أمور ثلاثة : أمّا ترك قومه من دون إذن ، أو طلب العذاب وكان الأولى له الصبر ، أو غضبه على نجات قومه.

إلى هنا تم توضيح الآيات المهمة التي وقعت ظواهرها ذريعة لأناس يستهترون بالقيم والفضائل ويستهيئون بأكبر الواجبات تجاه الشخصيات الإلهية ، وبقي الكلام في عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونفي القبول فيها في البحث الآتي.

ص: 230

إشارة

عصمة النبي الخاتم من العصيان والخطأ، من فروع عصمة الأنبياء كلهم، فما دلت على عصمتهم من الآيات، تدلّ على عصمته أيضاً بلا إشكال، ولا نحتاج بعد ذلك إلى أفراد البحث عنه في هذا المجال، فقد أفاض الله عليه ذلك الكمال كما أفاض على سائر الأنبياء من غير استثناء، فهو معصوم في المراحل الثلاث التالية:

1. مرحلة تلقي الوحي وحفظه وأدائه إلى الأمة.

2. مرحلة القول والفعل، وعلى ذلك، فهو من عباده المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون.

3. مرحلة تطبيق الشريعة وغيرها من الأمور المربوطة بحياته، فهو صلى الله عليه وآله لا يسهو ولا يخطأ في حياته الفردية والاجتماعية.

وما دلّ على عصمة تلك الطائفة في هذه المراحل الثلاث دلّ على عصمته فيها أيضاً.

نعم هناك آيات بالخصوص دالة على عصمته من العصيان ومصونيته من الخطأ ، كما أن هناك آيات وردت في حقه وقعت ذريعة لمنكري العصمة ، ولأجل ذلك أفردنا بحثاً خاصاً في هذا المقام لنوفيه حقه.

أما ما يدل على عصمته من العصيان والخلاف ، فيكفي في ذلك قوله سبحانه : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتُفْتِرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِدَّ عُفَا الْحَيَاةِ ضِدَّ عُفَا الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (1).

وقد ذكر المفسرون أسباباً لنزولها بما لا يناسب ساحة النبي صلى الله عليه وآله أوضحها ما ذكره الطبرسي في مجمعه : أن المشركين قالوا له : كف عن شتم آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا ، واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين رائحتهم رائحة الصنان (2) حتى نجالسك ونسمع منك ، فطمع في إسلامهم ، فنزلت الآية (3).

ولتوضيح مفاد الآيات نبحت عن أمور :

1. أن الآيات كما سنرى تشير إلى عصمته ، ومع ذلك استدلت المخطئة بها على خلافها ، وهذا من عجائب الأمور ، إذ لا غرو في أن تتمسك كل فرقة بقسم من الآيات على ما تتبناه ، وإنما العجب أن تقع آية واحدة مطرحاً لكلتا الفرقتين ، فيفسرها كل حسب ما يتوخاه ، مع أن الآية لا تتحمل إلا معنى واحداً لا معنيين متخالفين.

2. أن الضمير في كلا الفعلين (كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) يرجع إلى المشركين ،

ص: 232

1- الإسراء : 73 - 75.

2- الصنان : تنن الإبط.

3- مجمع البيان : 3 / 431.

ويدل عليه سياق الآيات ، والمراد من (الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) هو القرآن بما يشتمل عليه من التوحيد ونفي الشرك ، والسيرة الصالحة ، والمراد من الفتنة في (لَيَقْتُنُونَكَ) هو الإزلال والصراف ، كما أنّ الخليل من الخلة بمعنى الصداقة لا من الخلة بمعنى الحاجة.

3. انّ قوله : (وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يخبر عن دنو المشركين من إزلاله وصرفه عمّا أوحى إليه ، لا عن دنو النبي وقربه من الزلل والانصراف عمّا أوحى إليه ، وبين المعنيين فرق واضح.

4. انّ قوله سبحانه : (وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) مركب من جملتين ، إحداهما شرطية ، والأخرى جزائية ، أمّا الأولى فقوله : (وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ) ، وأمّا الأخرى فقوله : (لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) ، وبما أنّ لولا في الآية امتناعية (1) ، تدل على امتناع الجزاء لوجود التثبيت ، مثل قولنا : لولا علي لهلك عمر ، فامتنع هلاكه لوجوده.

5. وليس الجزاء هو الركون بمعنى الميل ، بل الجزاء هو القرب من الميل والانصراف كما يدل عليه قوله : (لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ) ، فامتنع القرب من الميل فضلاً عن نفس الميل لأجل وجود تثبيته.

6. انّ تثبيته سبحانه لنبيه لم يكن أمراً مختصاً بالواقعة الخاصة ، بل كان أمراً عاماً لجميع الوقائع المشابهة لتلك الواقعة ، لأنّ السبب الذي أوجب إفاضة التثبيت عليه فيها ، يوجب إفاضته عليه في جميع الوقائع المشابهة ، ولا معنى

ص: 233

1- يقول ابن مالك : لولا ولو ما يلزمان الابتداء *** إذا امتناعاً بوجود عقدا والشرط في الآية مؤول إلى الاسم أي لولا تثبتنا ، لقد كدت تركزن إليهم.

لخصوصية المعلول والمسبب مع عمومية العلة ، وعلى ذلك تكون الآية من دلائل عصمته في حياته ، وسداده فيها على وجه العموم.

وتوهم اختصاصها بالواقعة التي تأمر المشركون فيها لإزاله من كلمات رماة القول على عواهنه.

7. انّ الثبوت في مجال التطبيق فرع الثبوت في مجال التفكير ، إذ لا يستقيم عمل إنسان مالم يتم تفكيره ، وعلى ذلك يفاض على النبي السداد مبتدئاً من ناحية التفكير منتهياً إلى ناحية العمل ، فهو في ظل هذا السداد المفاض ، لا يفكر بالعصيان والخلاف فضلاً عن الوقوع فيه.

8. انّ تسديده سبحانه ، لا يخرج عن كونه فاعلاً مختاراً في عامة المجالات : الطاعة والمعصية ، فهو بعد قادر على النقص والإبرام والانتقاد والخلاف ، ولأجل ذلك يخاطبه في الآيات السابقة بقوله : (إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) .

وعلى ضوء ما ذكرنا فالآية شاهدة على عصمته ، ودالة على عنايته سبحانه برسوله الأكرم فيراقبه ويراعيه ولا يتركه بحاله ، ولا يكله إلى نفسه ، كل ذلك مع التحفظ على حرّيته واختياره في كل موقف.

فقوله سبحانه : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَّ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ) نظير قوله : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ) (1) لكن الأوّل راجع إلى صيانته عن العصيان ، والثاني ناظر إلى سداده عن السهو والخطاء في الحياة ، وسيوافيك توضيح الآية الثانية في البحث الآتي.

ص: 234

وفي الختام نذكر ما أفاده الرازي في المقام : قال : احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية بوجوه :

الأول : أنها دلّت على أنه صلى الله عليه وآله قرب من أن يفترى على الله ، والفرية على الله من أعظم الذنوب.

الثاني : أنها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه لقرب أن يركن إلى دينهم.

الثالث : أنه لولا سبق جرم وجناية لم يحتج إلى ذكر هذا الوعيد الشديد.

والجواب عن الأول : أن « كاد » معناها المقاربة ، فكان معنى الآية قرب وقوعه في الفتنة ، وهذا لا يدل على الوقوع.

وعن الثاني : أن كلمة لولا- تفيد انتفاء الشيء ، لثبوت غيره ، نقول : « لولا علي لهلك عمر » ومعناه أن وجود علي عليه السلام منع من حصول الهلاك لعمر ، فكذلك هاهنا فقوله : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) ومعناه لولا حصل تثبيت الله لك يا محمد ، فكان تثبيت الله مانعاً من حصول ذلك الركون.

وعن الثالث : أن التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها ، والدليل عليه آيات منها قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) الآيات ، وقوله تعالى : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ) وقوله : (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) (1).

أدلة المخطئة

إشارة

لقد اطلعت في صدر البحث على عصمة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله على أن هناك

ص: 235

آيات وردت في حق النبي صلى الله عليه وآله قد صارت ذريعة لبعض المخطئة الذين يحاولون إنكار العصمة ، وهي عدة آيات :

الأولى : العصمة والخطابات الحادة

هناك آيات تخاطب النبي بلحن حاد وتنهاه عن أتباع أهواء المشركين ، والشرك بالله ، والجدال عن الخائنين ، وغير ذلك ، ممّا يوهم وجود أرضية في نفس النبي صلى الله عليه وآله لصدور هذه المعاصي الكبيرة عنه ، وإليك هذه الآيات مع تحليلها :

1. (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (1).

وقد جاءت الآية في نفس هذه السورة بتفاوت في الذيل ، فقال بدل قوله : (مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ، (إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (2) ، كما جاءت أيضاً في سورة الرعد ، غير أنه جاء بدل قوله : (وَلَا نَصِيرٍ) (وَلَا وَاقٍ) .

وعلى أي حال فقد تمسكت المخطئة بالقضية الشرطية على أرضية متوقعة في نفس النبي لا تباع أهوائهم وإلا فلا وجه للوعيد.

ولكن الاستدلال على درجة من الوهن ، إذ لا تدل القضية الشرطية إلا على الملازمة بين الشرط والجزاء ، لا على تحقق الطرفين ، ولا على إمكان تحققهما ، وهذا من الواضح بمكان ، قال سبحانه : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (3) ، وليس فيها أي دلالة على تحقق المقدم أو التالي ، وبما ذكرنا يتضح حال الآيتين

ص: 236

1- البقرة : 120.

2- البقرة : 145.

3- الأنبياء : 22.

2. أنه سبحانه يخاطب النبي صلى الله عليه وآله بقضايا شرطية كثيرة قال سبحانه : (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) (1).

ومن المعلوم المقطوع به أنه سبحانه لا يستلب منه ما أوحى إليه.

3. قال سبحانه : (وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (2) ، وقال أيضاً : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) (3) ، فهذه الآيات ونظائرها التي تحكي عن القضية الشرطية لا تدل على ما يرتبه الخصم بوجه من الوجوه ، أي وجود أرضية متوقعة لصدور هذه القضايا ، وذلك لوجهين :

ألف : أن هذه الآيات تخاطب النبي صلى الله عليه وآله بما أنه بشر ذو غرائز جامحة بصاحبها ، ففي هذا المجال يصح أن يخاطب النبي بأنه لو فعل كذا لقبول بكذا ، وهذا لا يكون دليلاً على إمكان وقوع العصيان منه بعدما تشرف بالنبوة وجُهِز بالعصمة وعُزز بالرعاية الربانية ، فالآيات التي تخاطب النبي صلى الله عليه وآله بما هو بشر لا تعم ذلك المجال.

ب : أن هذه الآيات تركز على الجانب التربوي ، والهدف تعريف الناس بوظائفهم وتكاليفهم أمام الله سبحانه ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله - نبي العظمة - محكوماً

ص: 237

1- الإسراء : 86 - 87.

2- الزمر : 65.

3- الحاقة : 44 - 47.

بهذه الأحكام ومخاطباً بها ، فغيره أولى أن يكون محكوماً بها.

وعلى ذلك فتكون الآيات واردة مجرى : « إياك أعني واسمعي يا جارة » ، فهؤلاء الذين يتخذون تلك الآيات وسيلة لإنكار العصمة ، غير مّطلعين على « ألف باء » القرآن ، وبذلك يظهر مفاد كثير من الآيات النازلة في هذا المجال ، يقول سبحانه عندما يأمره بالصلاة إلى المسجد الحرام :

4. (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (1) ، ويريد بذلك تعليم الناس أن لا يقيموا وزناً لإرجاف المرجفين في العدول بالصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، كما يحكي سبحانه وتعالى عنهم بقوله : (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا) (2).

5. أنه سبحانه يبطل إلهية المسيح عليه السلام بحجة أنه وليد مريم عليها السلام بأن تولده بلا أب يشبه تكوّن آدم من غير أب ولا أم ، قال سبحانه : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ، فعند ذلك يخاطب النبي صلى الله عليه وآله بقوله : (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (3).

ولا- شك أن الخطاب جرى مجرى ما ذكرنا : « إياك أعني واسمعي يا جارة » ، فإنّ النبي الأعظم بعدما اتصل بعالم الغيب وشاهد ورأى الملائكة وسمع كلامهم ، هل يمكن أن يتسرّب إليه الشك حتى يصح أن يخاطب بقوله : (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) على الجد والحقيقة ؟

6. أنه سبحانه يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما جلس على كرسي القضاء

ص: 238

1- البقرة : 147.

2- البقرة : 142.

3- آل عمران : 59 - 60.

بقوله : (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) (1).

فالآية تكلف النبي أن لا يدافع عن الخائن ، ومن الواضح أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن في زمن حياته مدافعاً عن الخائن ، وإنما هو خطاب عام أريد منه تربية المجتمع وتوجيهه إلى هذه الوظيفة الخطيرة ، وبما أن أكثر الناس لا يتحملون الخطاب الحاد ، بل يكون مرآ في أذواق أكثرهم ، اقتضت الحكمة أن يكون المخاطب ، غير من قصد له الخطاب.

7. وعلى ذلك يحمل قوله سبحانه : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا) (2).

وأخيراً نقول : إن سورة الإسراء تحتوي على دساتير رفيعة المستوى ، ترجع إلى وظائف الأمة : الفردية والاجتماعية ، وهو سبحانه يتدنى الدساتير بقوله : (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) (3) ، وفي الوقت نفسه يختمها بنفس تلك الآية باختلاف يسير فيقول : (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) (4).

فهذه الخطابات وأشباهاها وإن كانت موجهة إلى النبي صلى الله عليه وآله لكن قصد بها عامة الناس لنكتة سبق ذكرها ، وإلا فالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله أعظم من أن يشرك بالله تعالى بعد تشرفه بالنبوة ، كيف ، وهو الذي كافح الوثنية منذ نعومة أظفاره إلى أن بعث نبياً لهدم الشرك وعبادة غير الله تبارك وتعالى.

ص: 239

1- النساء : 107.

2- النساء : 105.

3- الإسراء : 22.

4- الإسراء : 39.

وقس على ذلك كلما يمرُّ عليك من الآيات التي تخاطب النبي صلى الله عليه وآله بلحن شديد ، فتفسير الجميع بالوجهين اللذين قدمنا ذكرهما.

الآية الثانية : العصمة والعتو والاعتراض

كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بصدد خلق مجتمع مجاهد يقف في وجه الروم الشرقية ، فأذن بالجهاد إلى ثغرها (تبوك) ، فلبت دعوته زرافات من الناس بلغت ثلاثين ألف مقاتل ، إلا أن المنافقين أبوا الاشتراك في صفوف المجاهدين ، فتعلّقوا بأعدار واستأذنوا في الإقامة في المدينة ، وأذن لهم النبي الأكرم ، وفي هذا الشأن نزلت الآية التالية :

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) (1).

والآية تصرّح بعفوه سبحانه عنه كما يقول : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) ، كما تتضمن نوع اعتراض على النبي حيث أذن لهم في عدم الاشتراك ، كما يقول سبحانه : (لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) ، وعندئذ يفرض هذا السؤال نفسه :

ألف : كيف يجتمع العفو مع العصمة ؟

ب : ما معنى الاعتراض على إذن النبي ؟

أقول : أمّا الجملة الأولى : فتوضيحتها بوجهين :

الأول : أنّها إنّما تدل على صدور الذنب - على فرض التسليم - إذا كانت جملة خبرية حاكية عن شمول عفوهِ سبحانه للنبي في الزمان الماضي ، وأمّا إذا

ص : 240

كانت خبرية ولكن أريد منها الإنشاء وطلب العفو، كما في قوله: (أيّدك الله) (غفر الله لك)، فالدلالة ساقطة، إذ طلب العفو والمغفرة للمخاطب نوع دعاء وتقدير وتكريم له.

الثاني: ليس على أديم الأرض إنسان يستغني عن عفوهِ ومغفرته سبحانه حتى الأولياء والأنبياء، لأنّ الناس بين كونهم خاطئين في الحياة الدنيا، وكونهم معصومين، ووظيفة الكل هي الاستغفار.

أمّا الطائفة الأولى فواضحة، وأمّا الثانية فلوقوفهم على عظمة الرب وكبر المسؤولية، وإنّ هنا أموراً كان الأليق تركها، أو الإتيان بها، وإن لم يأمر بها الرب أمر فرض، أو لم ينه عنها نهى تحذير، والمتّرب منهم غير المتّرب من غيرهم.

ولأجل ذلك كان الأنبياء يستغفرون كل يوم وليلة قائلين: « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك ».

وحاصل الوجهين: أنّ طلب العفو نوع تكريم واحترام للمخاطب بصورة الدعاء، وليس إخباراً عن واقعية محقّقة حتى يستلزم صدور ذنب من المخاطب، هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ كل إنسان مهما كان في الدرجة العالية من التقوى، يرى في أعماله حسب عرفانه واستشعاره عظمة الرب وكبر المسؤولية، أنّ ما هو الأليق خلاف ما وقع منه، فتوحي إليه نفسه الزكية، طلب العفو والمغفرة لإزالة آثار هذا التقصير في الآجل والعاجل.

وأما الجملة الثانية:

فلا شك أنّها تتضمن نوع اعتراض على النبي صلى الله عليه وآله لكن لا على صدور ذنب أو خلاف منه، بل لأنّ إذنه كان مفوتاً لمصلحة له، وهو معرفة الصادق في إيمانه

من الكاذب في ادعائه ، كما يعرب عنه قوله : (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) .

توضيحه : أنّ المنافقين كانوا مصمّمين على عدم الخروج مع المؤمنين إلى غزو الروم ، وكان لهم تخطيط في غياب النبي صلى الله عليه و آله أبطله النبي صلى الله عليه و آله بتخليفه علياً مكانه ، قال سبحانه : (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) (1) ، والآية تدلُّ على أنّهم كانوا عازمين على الإقامة في المدينة ، وكان الاستئذان نوع تغطية لقبح عملهم حتى يتظاهروا بأنّ عدم ظعنهم مع المؤمنين كان بإذن من النبي صلى الله عليه و آله .

ومن جانب آخر أنّهم لو خرجوا مع المسلمين ما زادوهم إلاّ فتنة وخبالاً وإضعافاً لعزائم المؤمنين ، وفيهم سمّاعون لهم يتأثرون بدعاياتهم وإغوائهم كما يقول سبحانه : (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضَاعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (2).

وبما أنّهم كانوا عازمين على القعود أولاً ، وعلى الإضرار والفتنة في جهات الحرب ثانياً ، لذلك لم يكن في الإذن آية تبعة سوى فوت تميّز الخبيث من الطيب ، ومعرفة المنافق من المؤمن ، إذ لو لم يأذن لهم لظهر فسقهم وتمردهم على كلام النبي صلى الله عليه و آله ، ومثل هذا لا يعد عمل خلاف حتى يكون الاعتراض عليه دليلاً على صدور الذنب.

ولو كانت المخطئة عارفة بأساليب البلاغة وفنون الكلام لعرفت أنّ اسلوب

ص: 242

1- التوبة : 46.

2- التوبة : 47.

الكلام في الآية ، اسلوب عطف وحنان ، وأشبهه باعتراض الولي الحميم ، على الصديق الوفي ، إذا عامل عدوه الغاشم بمرونة ولين ، فيقول بلسان الاعتراض : لماذا أذنت له ، ولم تقابله بخشونة حتى تعرف عدوك من صديقك ، ومن وفي لك ممّن خانك ، على أنّه وإن فات النبي معرفة المنافق عن هذا الطريق لكنه لم يفته معرفته من طريق آخر ، صرح به القرآن في غير هذا المورد ، فإنّ النبي الأكرم كان يعرف المنافق من المؤمن بطريقتين آخرين :

1. كيفية الكلام ، ويعبر عنه القرآن بلحن القول ، وذلك أنّ الخائن مهما أصر على كتمان خيانه ، تظهر بوادرها في ثنايا كلامه ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه » (1). وفي ذلك يقول سبحانه : (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) (2).

2. التعرف عليهم بتعليم منه سبحانه قال : (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ) (3) ، والدقة في الآية تفيد بأنّ الله سبحانه يجتبي من رسله من يشاء ويطلعه على الغيب ، ويعرف من هذا الطريق الخبيث ويميّزه عن الطيب .

وعلى ذلك فلم يفت على النبي الأكرم شيء وإن فاتته معرفة المنافق من هذا الطريق ، ولكنه وقف عليها من الطريق الآخر أو الطريقتين الآخرين .

ص: 243

1- نهج البلاغة : قسم الحكم ، الرقم 26.

2- محمد : 30.

3- آل عمران : 179.

إنه سبحانه يأمر نبيه الأَعْظَمَ ، بطلب الغفران منه ويقول مخاطباً رسوله : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) . (1) ويقول سبحانه : (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) (2) . وعندئذ يخطر في ذهن الإنسان : كيف تجتمع العصمة مع الأمر بطلب الغفران ؟

أقول : التعرّف على ما مرّ في الآيتين ونظائرهما ، رهن الوقوف على الأصل المسلّم بين العقلاء ، وهو أنّ عظمة الشخصية وخطر المسؤولية متحالفتان ، وربّ عمل يُعدّ صدوره من شخص جرماً وخلاًفاً ، وفي الوقت نفسه لا يعدّ صدوره من إنسان آخر كذلك .

توضيح ذلك : إنّ الأحكام الشرعية تنقسم إلى واجب وحرام ومستحب ومكروه ومباح ، ولا محيص عن الإتيان بالواجب وترك الحرام ، نعم هناك رخصة في ترك المستحب والإتيان بالمكروه ولكن المترقب من العارف بمصالح الأحكام ومفاسدها ، تحلية الواجبات بالمستحبات ، وترك المحرمات مع ترك المكروهات ولا يقصر عنه المباح ، فهو وإن أباحه الله سبحانه ولكن ربّما يترجح فعله على تركه أو العكس لعنوان ثانوي .

فالعارف بعظمة الرب يتحمّل من المسؤولية ما لا يتحمّله غيره ، فيكون المترقب منه غير ما يترقب من الآخر ، ولو صدر منه ما لا يليق ، وتساهل في هذا

ص: 244

1- النساء : 105 - 106 .

2- محمد : 19 .

الطريق ، يتأكد منه الاستغفار وطلب المغفرة ، لا لصدور الذنب منه ، بل من باب قياس عمله إلى علو معرفته وعظمة مسؤوليته.

وإن شئت فاستوضح ذلك من ملاحظة حال المتحضر والبدوي ، فالمرجوّ من الأوّل القيام بالأداب والرسوم الرائجة في الحضارات الإنسانية ، ولكن المرجوّ من الثاني أبسط الرسوم والآداب ، فما ذلك إلا لاختلافهما من ناحية التربية والمعرفة ، كما أنّ الترقب من نفس المتحضرين مختلف جداً ، فالمأمول من المثقف أشد وأكثر من غيره كما أنّ الانضباط المرجو من الجندي يغيّر المترقب من غيره ، والغفلة القصيرة من العاشق يعدّ جرماً وخلاًفاً في منطق العشق ، وليست كذلك إذا صدرت من غيره.

وهذه الأمثلة ونظائرها الوافرة تثبت الأصل الذي أوعزنا إليه في صدر البحث من أنّ عظمة الشخصية وكبر المسؤولية متحالفان وأنّ الوظائف لا- تنحصر في الإتيان بالواجبات ، والتحرّز عن المحظورات بل هناك وظائف أخرى ، وكلّما زاد العلم والعرفان توفرت الوظائف وتكثرت المسؤوليات ، ولأجل ذلك تُعدّ بعض الغفلات أو اقتراح المكروهات من الأولياء ذنباً ، وهو في الواقع ليس بالنسبة إليهم ذنباً مطلقاً ، بل ذنباً إذا قيس إلى ما أعطوا من الإيمان والمعرفة ولو قاموا بطلب المغفرة والعفو ، فإنّما هو لأجل هذه الجهات.

نرى أنّ شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام يقول : (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا) (1).

ويقفيه إبراهيم عليه السلام ويقول : (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

ص: 245

1- نوح : 28.

ويقول النبي الأعظم : (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (2).

والمنشأ الوحيد لهذا الطلب مرّة بعد أخرى هو وقوفهم على أنّ ما قاموا به من الأعمال والطاعات وإن كانت في حد نفسها بالغة حدّ الكمال لكن المطلوب والمترقّب منهم أكمل وأفضل منه.

وعلى ذلك يحمل ما رواه مسلم في صحيحه ، عن المزني ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لِأَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » (3).

وقد ذكر المحدّثون حول الحديث نكات عرفانية من أراد التعرّف عليها ، فليرجع إلى كتاب « شفاء القاضي ».

يقول العلامة المحقّق علي بن عيسى الإزيلي : الأنبياء والأئمّة عليهم السلام تكون أوقاتهم مشغولة باللّه تعالى ، وقلوبهم مملوءة به ، وخواطرهم متعلّقة بالمبدأ ، وهم أبداً في المراقبة ، كما قال عليه السلام : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تره ، فإنّه يراك » فهم أبداً متوجهون إليه ومقبلون بكلّهم عليه ، فمتى انحطوا عن تلك المرتبة العالية ، والمنزلة الرفيعة إلى الاشتغال بالأكل والشرب والتفرّغ إلى النكاح وغيره من المباحات ، عدّوه ذنباً واعتقدوه خطيئة واستغفروا منه.

وإلى هذا أشار صلى الله عليه وآله : « انه ليران على قلبي وإني لأستغفر الله بالنهار سبعين مرّة » ولفظة سبعين ترجع إلى الاستغفار لا إلى الرين. وقوله : حسنات الأبرار

ص: 246

1- إبراهيم : 41.

2- البقرة : 285.

3- صحيح مسلم : 72 / 8 ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. وقوله : « ليغان » من الغين بمعنى الستر والحجاب والمزن.

سيئات الأقربين ... فقد بان بهذا أنه كان بعد اشتغاله في وقت ما ، بما هو ضرورة للأبدان معصية يستغفر الله منها ، وعلى هذا فقس البواقي وكلما يرد عليها من أمثالها ... ثم قال : إنَّ هذا معنى شريف يكشف بمدلوله حجاب الشبهة ويهدي به الله من حسر عن بصره وبصيرته رين العمى والعمه (1).

وما ذكره من الجواب فإنما يتمسك مع الآيات التي تمسك بها المخالف ، وأما الأدعية التي اعترف فيها الأئمة بالذنب من قوله في الدعاء الذي علمه لكميل بن زياد : « اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم » فهذا من باب التعليم للناس.

وأما ما كانوا يناجون ربهم في ظلمات الليل وفي سجداتهم ، فيحمل على ما حققه العلامة الإزيلي وأوضحنا حاله.

الآية الرابعة : العصمة وغفران الذنب

إشارة

إذا كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله معصوماً من العصيان ومصوناً من الذنب ، فكيف أخبر سبحانه عن غفران ذنبه : ما تقدم منه وما تأخر ؟ قال سبحانه : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهَبْ لَكَ صِدْقًا وَسَخَّرْنَا لَكَ رِيحًا غَافِيَةً) (2).

الجواب : إنَّ الآية تعد أكبر مستمسك لمخاطبة عصمة الأنبياء مع أن إمعان النظر في فقرات الآيات خصوصاً في جعل غفران الذنب غاية للفتح المبين ، يوضح المقصود من الذنب وأن المراد منه الاتهامات والنسب التي كانت الأعداء

ص: 247

1- كشف الغمة : 3 / 43 - 45.

2- الفتح : 1 - 3.

تصفه بها ، وإنّ ذلك الفتح المبين دلّ على افتعالها وعدم صحتها من أساسها وطهر صحيفة حياته عن تلك النسب ، وإليك توضيح ذلك ببيان أمور :

1. ما هو المراد من الفتح في الآية ؟

لقد ذكر المفسرون هنا وجوهاً ، فتردّدوا بين كون المقصود فتح مكة ، أو فتح خيبر ، أو فتح الحديبية.

لكن سياق آيات السورة لا يساعد الاحتمالين الأولين ، لأنّها ناظرة إلى قصة الحديبية والصلح المنعقد فيها في العام السادس من الهجرة ، والفتح الذي يخبر عن تحقّقه ووقوعه ، يجب أن يكون متحقّقاً في ذلك الوقت ، وأين هو من فتح مكة الذي لم يتحقّق إلاّ بعد عامين من ذلك الصلح حيث إنّ النبي صلى الله عليه وآله فتحها في العام الثامن من هجرته؟!

ولأجل ذلك حاول من قال : إنّ المراد منه فتح مكة ، أن يفسره : بأنّ إخباره عن الفتح ، بمعنى قضائه وتقديره ذلك الفتح ، والمعنى قضى ربك وقدر ذلك الفتح المبين ، فالقضاء كان متحقّقاً في ظرف النزول وإن لم يكن نفس الفتح متحقّقاً.

ولكنّه تكلف غير محتاج إليه ، وقصة الحديبية وإن كانت صلحاً في الظاهر على ترك الحرب والهدنة إلى مدّة معينة لكن ذلك الصلح فتح أبواب الظفر للنبي صلى الله عليه وآله في الجزيرة العربية ، وفسح للنبي أن يتوجّه إلى شمالها ويفتح قلاع خيبر ، ويسيطر على مكامن الشر والمؤامرة ، ويبعث الدعاة والسفراء إلى أرجاء العالم ، ويسمع دعوته أذن الدنيا ، كل ذلك الذي شرحناه في أبحاثنا التاريخية كان ببركة تلك الهدنة ، وإن كان بعض أصحابه يحقّرها ويندّد بها في أوائل الأمر.

لكن مرور الزمان ، كشف النقاب عن عظمتها وثمارها الحلوة ، فصح أن يصفها القرآن : (الفتح المبين) .

وعلى كل حال : فسياق الآيات يدل بوضوح على أنّ المراد من الفتح هو وقعة الحديدية قال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (1).

وأيضاً يقول : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) . (2) وقال أيضاً : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (3).

ولا شك أنّ المراد من البيعة هو بيعة الرضوان التي بايع المؤمنون فيها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تحت الشجرة وأعرّب سبحانه عن رضاه عنهم .

روى الواحدي عن أنس : أنّ ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وآله من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه ، فأخذهم أسراء فاستحياهم ، فأُنزل الله : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) (4).

أضف إلى ذلك أنّه سبحانه يخبر في نفس السورة عن فتح قريب ، وهذا

ص: 249

1- الفتح : 10 .

2- الفتح : 18 .

3- الفتح : 24 .

4- أسباب النزول : 218 .

يعرب عن أن الفتح المبين غير الفتح القريب ، قال سبحانه : (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) (1) ، وهذا الفتح القريب إما فتح خيبر ، أو فتح مكة. والظاهر هو الثاني ، وأما رؤيا النبي فقد تحققت في العام القابل ، عام عمرة القضاء ، فدخل النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنون مكة المكرمة آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين ، وأقاموا بها ثلاثة أيام ، ثم خرجوا متوجهين إلى المدينة ، وذلك في العام السابع من الهجرة ، وفي العام الثامن توفّق النبي لفتح مكة وتحقّق قوله سبحانه : (فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) .

هذا كلّه حسب سياق الآيات ، وأما الروايات فهي مختلفة بين تفسيرها بالحديبية ، وتفسيرها بفتح مكة ، والقضاء فيها موكول إلى وقت آخر ، ولا يؤثر هذا الاختلاف فيما نحن بصدده في هذا المقام.

2. ما هو المراد من الذنب ؟

قال ابن فارس في المقاييس : ذنب له أصول ثلاثة : أحدها الجرم ، والآخر : مؤخّر الشيء ، والثالث : كالحظ والنصيب (2).

وقال ابن منظور : الذنب : الإثم والجرم والمعصية ، والجمع ذنوب ، وذنوبات جمع الجمع ، وقد أذنب الرجل ، وقوله عزّ وجلّ في مناجاة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ) (3) ، عني بالذنب قتل الرجل الذي وكزه

ص: 250

1- الفتح : 27.

2- معجم مقاييس اللغة : 2 / 361.

3- الشعراء : 14.

موسى فقضى عليه ، وكان الرجل من آل فرعون (1).

وقد وردت تلك اللفظة في الذكر الحكيم سبع مرّات وأريد بها في الجميع الجرم قال سبحانه : (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ) (2) ، وقال عزّ وجلّ : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (3).

وعلى ذلك فكون الذنب بمعنى الجرم مما لا ريب فيه ، غير أنّ الذي يجب التنبيه عليه ، هو أنّ اللفظ لا يدل على أزيد من كون صاحبه عاصياً وطاغياً وناقضاً للقانون ، وأمّا الذي عصي وطغي عليه ونقض قانونه فهو يختلف حسب اختلاف البيئات والظروف ، وليست خصوصية العصيان لله سبحانه مأخوذة في صميم اللفظ بحيث لو أُطلق ذلك اللفظ يتبادر منه كونه سبحانه هو المعصي أمره ، وإنّما تستفاد الخصوصية من القرائن الخارجية ، وهذا هو الأساس لتحليل الآية وفهم المقصود منها.

3. الغفران في اللغة

الغفران في اللغة ، هو : الستر ، قال ابن فارس في المقاييس : عظم بابه الستر ، ثم يشدُّ عنه ما يُذكر ، فالغفر : السّتر ، والغفران والغفر بمعنى يقال : غفر الله ذنبه غفراً ومغفرةً وغفراناً (4). وقال في اللسان بمثله (5).

ص: 251

1- لسان العرب : 389 / 3.

2- غافر : 3.

3- التكوير : 8 و 9.

4- معجم مقاييس اللغة : 385 / 4.

5- لسان العرب : 25 / 5.

4. الفتح لغاية مغفرة الذنب

الآية تدل على أنّ الغاية المتوخاة من الفتح هي مغفرة ذنب النبي صلى الله عليه وآله، ما تقدّم منه وما تأخّر، غير أنّ في ترتب تلك الغاية على ذنبها غموضاً في بادئ النظر، والإنسان يستفسر في نفسه كيف صار تمكينه سبحانه نبيّه من فتح القلاع والبلدان، أو المهادنة والمصالحة في أرض الحديبية مع قريش، سبباً لمغفرة ذنوبه، مع أنّه يجب أن تكون بين الجملة الشرطية والجزائية رابطة عقلية أو عادية، بحيث تعدّ إحداها علّة لتحقق الأخرى أو ملازمة لها، وهذه الرابطة خفية في المقام جداً، فإنّ تمكين النبي من الأعداء والسيطرة عليهم يكون سبباً لانتشار كلمة الحق ورفض الباطل واستطاعته التبليغ في المنطقة المفتوحة، فلو قال: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، لتتمكن من الإصحاح بالحق، ونشر التوحيد، ودحض الباطل، كان الترتب أمراً طبيعياً، وكانت الرابطة محفوظة بين الجملتين.

وأما جعل مغفرة ذنوبه جزاء لفتحه صقعاً من الأصقاع، فالرابطة غير واضحة.

وهذه هي النقطة الحساسة في فهم مفاد الآية، وبالتالي دحض زعم المخطئة في جعلها ذريعة لعقيدتهم، ولو تبيّنت صلة الجملتين لا تضح عدم دلالتها على ما تتبناه تلك الطائفة.

فنقول: كانت الوثنية هي الدين السائد في الجزيرة العربية، وكانت العرب تقدّس أوثانها وتعبد أصنامها، وتطلب منهم الحوائج، وتتقرب بعبادتها إلى الله سبحانه هذا من جانب، ومن جانب آخر: جاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله داعياً إلى التوحيد في مجالي الخلق والأمر، وإلى حصر التقديس والعبادة في الله، وأنّه لا معبود سواه ولا

شفيح إلا بإذنه ، فأخذ بتحطيم الوثنية ورفض عبادة الأصنام ، وأنها أجسام بلا أرواح لا يملكون شيئاً من الشفاعة والمغفرة ، ولا يقدرّون على الدفاع عن أنفسهم فضلاً عن عبدتهم ، فصارت دعوته ثقيلة على قريش وأذناهم ، حتى ثارت ثائرتهم على النبي الأكرم ، فقابلوا براهين النبي بالبذاءة والشغب والسب والنسب المفتعلة ، فوصفوه بأنّه كاهن وساحر ، ومفتر وكذّاب ، وقد أعربوا عن نواياهم السيئة عندما رفعوا الشكوى إلى سيّد الأباطح وقالوا : إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضللّ آباءنا ، فإمّا أن تكفّه عنا وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه (1).

ولمّا وقف النبي صلى الله عليه وآله على كلام قومه عن طريق عمّه أظهر صموده وثباته في طريق رسالته بقوله : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » قال : ثم استعبر فبكى ، ثم قام . فلمّا ولى ناداه أبو طالب فقال : اقبل يا بن أخي ، قال : فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله ما أسلمك لشيء أبداً (2).

فلمّا وقفت قريش على صمود الرسول شرعوا بالمؤامرة والتخطيط عليه حتى قصدوا اغتياله في عقر داره ، فنجّاه الله من أيديهم .

ولمّا استقرّ النبي صلى الله عليه وآله في يثرب واعتز بنصرة الأنصار ومن حولها من القبائل جرت بينه وبين قومه حروب طاحنة أدّت إلى قتل صنّاديد قريش وإراقة دمائهم على وجه الأرض في « بدر » و « أحد » ووقعة « الأحزاب » .

ص : 253

1- تاريخ الطبري : 2 / 65.

2- السيرة النبوية لابن هشام : 1 / 285 من الطبعة الحديثة.

فهذه الحوادث الدامية عند قريش ، المزة في أذواقهم بما أنّها جرّت إلى ذهاب كيانهم ، وحدوث التفرقة في صفوفهم ، والفتك بصناديدهم على يد النبي الأكرم ، صورته في مخيلتهم وخزانة أذهانهم صورة إنسان مجرم مذنب قام في وجه سادات قومه ، فسب آلهتهم وعاب طريقتهم بالكهانة والسحر والكذب والافتراء ، ولم يكتف بذلك حتى شن عليهم الغارة والعدوان فصارت أرض يثرب وما حولها ، مجازر لقريش ، ومذابح لأسيادهم ، فأيّ جرم أعظم من هذا ، وأي ذنب أكبر منه عند هؤلاء الجهلة الغفلة ، الذين لا يعرفون الخير من الشرير ، والصديق من العدو ، والمنجي من المهلك ؟

فإذن ما هو الأمر الذي يمكن أن يبرئه من هذه الذنوب ويرسم له صورة ملكوتية فيها ملامح الصدق والصفاء ، وعلائم العطف والحنان حتى تقف قريش على خطئها وجهلها.

إنّ الأمر الذي يمكن أن ينزّه ساحته من هذه الأوهام والأباطيل ، ليست إلاّ الواقعة التي تجلّت فيها عواطفه الكريمة ، ونواياه الصالحة ، حيث تصالح مع قومه - الذين قصدوا الفتك به وقتله في داره ، وأخرجوه من موطنه ومهاده - بعطف ومرونة خاصة ، حتى أثارت تعجب الحضّار من أصحابه ومخالفيه ، حيث تصالح معهم على أنّه « من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممّناً مع محمد لم يردّه عليه ، وأنّه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » (1).

وهذا العطف الذي أبداه النبي صلى الله عليه وآله في هذه الواقعة مع كونه من القدرة بمكان ، وقريش في حالة الانحلال والضعف ، صوّر من النبي صلى الله عليه وآله عند قومه

ص: 254

وأتباعه صورة إنسان مصلح يحب قومه ويطلب صلاحهم ولا تروقه الحرب والدمار والجدال فوققوا على حقيقة الحال ، وعصّوا الأنامل على ما افتعلوا عليه من النسب وندموا على ما فعلوا ، فصاروا يميلون إلى الإسلام زرافات ووحداناً ، فأسلم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، والتحقا بالنبى قبل أن يسيطر النبى صلى الله عليه وآله على مكة وحواليها.

إنّ هذه الواقعة التي لمس الكفار منها خلقه العظيم ، رفع الستار الحديدي الذي وضعه بعض أعدائه الألداء بينه وبين قومه ، فعرفوا أنّ ما يرمى به نبىّ العظمة ويوصف به بين أعدائه ، كانت دعايات كاذبة وكان هو منزّهاً عنها ، بل عن الأقلّ منها.

ولا تقتصر عن هذه الواقعة ، فتح مكة ، فقد واجه قومه مرّة أخرى - وهم في هزيمة نكراء ، ملثفون حوله في المسجد الحرام - فخاطبهم بقوله : « ماذا تقولون وماذا تظنون؟! » فأجابوا : تقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » (1).

وهذا الفتح العظيم وقبله وقعة الحديبية أثبتا بوضوح أنّ النبى الأعظم صلى الله عليه وآله أكرم وأجل وأعظم من أن يكون كاهناً أو ساحراً ، إذ الكاهن والساحر أدون من أن يقوم بهذه الأمور الجليلة ، كما أنّ لطفه العميم وخلقته العظيم آية واضحة على أنّه رجل مثالي صدوق ، لا يفترى ولا يكذب ، وإنّ ما جرى بينه وبين قومه من الحروب الدامية ، كانت نتيجة شقاقهم وجدالهم ومؤامراتهم عليه ، مرّة بعد أخرى في موطنه ومهجره ، فجعلوه في قفص الاتهام أولاً ، وواجهوا أنصاره وأعوانه باللّوان

ص: 255

التعذيب ثانياً، فقتل من قتل وأوذى من أُوذِي، وضربوا عليه وعلى المؤمنين به، حصاراً اقتصادياً فمنعواهم من ضروريات الحياة ثالثاً، وعمدوا إلى قتله في عقر داره رابعاً، ولولا جرائمهم الفظيعة لما اخضرت الأرض بدمائهم ولا لقي منهم بشيء يكرهه، فأصبحت هذه الذنوب التي كانت تدعيها قريش على النبي بعد وقعة الحديبية، أو فتح مكة، أسطورة خيالية قضت عليها سيرته في كل من الواقعتين من غير فرق بين ما ألصقوا به قبل الهجرة أو بعدها، وعند ذلك يتضح مفاد الآيات كما يتضح ارتباط الجملتين: الجزائية والشرطية، ولولا هذا الفتح كان النبي محبوساً في قفص الاتهام، وقد كسرت هذه الواقعة، وعرفتته نزيهاً عن كل هذه التهم.

وعلى ذلك فالمقصود من الذنب ما كانت قريش تصفه به، كما أنّ المراد من المغفرة، إذهاب آثار تلك النسب في المجتمع.

وإلى ما ذكرنا يشير مولانا الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن مفاد الآية فقال: «لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا: (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) (1)، فلما فتح الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله مكة، قال له: يا محمد: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ (مكة) فَتْحًا مُبِينًا * لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله عز وجل فيما تقدم، وما تأخر، لأن مشركي مكة، أسلم

ص: 256

بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه ، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم.

فقال المأمون : لله درك يا أبا الحسن (1).

وقد أشرنا في صدر البحث إلى اختلاف الروايات في المراد من الفتح الوارد في الآية وقلنا بأن هذا الاختلاف لا يؤثر فيما نرتبه ، فلاحظ.

الآية الخامسة : العصمة والتولي عن الأعمى

استدل المخالف لعصمة النبي الأعظم بالعتاب الوارد في الآيات التالية : (عَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكِّي * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَا مِنْ اسْتَعْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي * وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) (2).

روى المفسرون أن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله وهو يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبياً وأمياً ابني خلف ، يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم ؛ فقال عبد الله : اقرئني وعلمني ممّا علمك الله ، فجعل ينادي ويكرّر النداء ولا يدري أنه مشتعل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله لقطعه كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد ، فعبس صلى الله عليه وآله وأعرض عنه ، وأقبل على القوم الذين يكلمهم ، فنزلت الآيات ، وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه ، وإذا رآه يقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي (3). ويقول : هل لك من حاجة ، واستخلفه

ص : 257

1- بحار الأنوار : 17 / 90.

2- عبس : 1 - 10.

3- أسباب النزول للواحدى : 252.

على المدينة مرتين في غزوتين (1).

وهناك وجه آخر لسبب النزول روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وحاصله أن الآية نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه وآله فجاء ابن أم مكتوم ، فلما رآه تقدّر منه ، وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه ، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه (2).

والاعتماد على الرواية الأولى مشكل ، لأن ظاهر الآيات عتاب لمن يقدم الأغنياء والمترفين ، على الضعفاء والمساكين من المؤمنين ، ويرجح أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة ، وهذا لا ينطبق على النبي الأعظم من جهات :

الأولى : أنه سبحانه حسب هذه الرواية وصفه بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهم عن الفقراء ، وليس هذا ينطبق على أخلاق النبي الواسعة وتحننه على قومه وتعطفه عليهم ، كيف ؟ وقد قال سبحانه : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (3).

الثانية : أنه سبحانه وصف نبيّه في سورة القلم ، وهي ثانية السور التي نزلت في مكة (وأولها سورة العلق) بقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (4) ، ومع ذلك كيف يصفه بعد زمن قليل بخلافه ، فأين هذا الخلق العظيم ممّا ورد في هذه السورة من العبوسة والتولي ؟ وهذه السورة حسب ترتيب النزول وان كانت متأخرة عن سورة القلم ، لكنّها متقاربة معها حسب النزول ، ولم تكن هناك فاصلة زمنية طويلة

ص: 258

1- مجمع البيان : 10 / 437 وغيره من التفاسير.

2- مجمع البيان : 10 / 437 ; تفسير القمي : 2 / 405.

3- التوبة : 128.

4- القلم : 4.

الثالثة : أنه سبحانه يأمر نبيه بقوله : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (2) ، كما يأمره أيضاً بقوله : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (3) ، (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (4).

إنَّ سورتي الشعراء والحجر ، وإن نزلتا بعد سورة « عبس » ، لكن تضافرت الروايات على أنَّ الآيات المذكورة في السورتين نزلت في بدء الدعوة ، أي العام الثالث من البعثة عندما أمره سبحانه بالجهر بالدعوة والإصغار بالحقيقة ، وعلى ذلك فهي متقدمة حسب النزول على سورة « عبس » أويصح بعد هذه الخطابات ، أن يخالف النبي هذه الخطابات بالتولي عن المؤمن؟! كلاً ثم كلاً.

الرابعة : إنَّ الرواية تشتمل على ما خطر في نفس النبي عند ورود ابن أم مكتوم من أنه صلى الله عليه وآله قال في نفسه : « يقول هؤلاء الصناديد : إنما أتباعه العميان والسفلة والعييد ، فأعرض عنه وأقبل على القوم » وعندئذ يسأل عن كيفية وقوف الراوي على ما خطر في نفس النبي صلى الله عليه وآله فهل أخبر به النبي ؟ أو أنه وقف عليه من طريق آخر؟!

والأول بعيد جداً ، والثاني مجهول.

الخامسة : أنَّ الرواية تدلُّ على أنَّ النبي كان يناجي جماعة من المشركين ، وعند ذلك أتى عبد الله ابن أم مكتوم وقال : يا رسول الله أقرئني ، فهل كان إسكات

ص: 259

1- تاريخ القرآن للعلامة الزنجاني : 36 - 37 ، وقد نقل ترتيب نزول القرآن في مكة والمدينة معتمداً على رواية محمد بن نعمان بن بشير التي نقلها ابن النديم في فهرسته ص 7 طبع مصر.

2- الشعراء : 214 - 215.

3- الحجر : 88.

4- الحجر : 94.

ابن أم مكتوم متوقفاً على العبوسة والتولي عنه ، أو كان أمره بالسكوت والاستمهال منه حتى يتم كلامه مع القوم ، أمراً غير شاق على النبي ، فلماذا ترك هذا الطريق السهل ؟

وهذه الوجوه الخمسة وإن أمكن الاعتذار عن بعضها بأن العبوسة والتولي مرة واحدة لا ينافي ما وصف به النبي في القرآن من الخلق العظيم وغيره ، لكن محصل هذه الوجوه يورث الشك في صحة الرواية ويسلب الاعتماد عليها.

هذا كله حول الرواية الأولى . وأما الرواية الثانية :

فهي لا- تنطبق على ظاهر الآيات ، لأن محصلها أن رجلاً من بني أمية كان عند النبي فجاء ابن أم مكتوم ، فلما رآه ذلك الرجل تقدّر منه وجمع نفسه ، وعبس وأعرض بوجهه عنه ، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

ولكن هذا المقدار المنقول في سبب النزول لا يكفي في توضيح الآيات ، ولا يرفع إبهامها ، لأن الظاهر أن العابس والمتولي ، هو المخاطب بقول سبحانه : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي) إلى قوله : (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) ، فلو كان المتعبس والمتولي ، هو الفرد الأموي ، فيجب أن يكون هو المخاطب بالخطابات الستة لا غيره ، مع أن الرواية لا تدل على ذلك ، بل غاية ما تدل عليه أن فرداً من الأمويين عبس وتولى عندما جاءه الأعمى فقط ، ولا تلقي الضوء على الخطابات الآتية بعد الآيتين الأوليين وإثنا إلى من تهدف ، فهل تقصد ذاك الرجل الأموي وهو بعيد ، أو النبي الأكرم ؟

هذا هو القضاء بين السببين المرويين للنزول ، وقد عرفت الأسئلة الموجهة

وعلى فرض صحة الرواية الأولى لا بد أن يقال :

إن الرواية إن دلت على شيء فإتّما تدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان موضع عنايته سبحانه ورعايته ، فلم يكن مسؤولاً عن أفعاله وحركاته وسكناته فقط ، بل كان مسؤولاً حتى عن نظراته وانقباض ملامح وجهه ، وانبساطها ، فكانت المسؤولية الملقاة على عاتقه من أشد المسؤوليات ، وأثقلها صدق الله العلي العظيم حيث يقول : (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً) (1).

كان النبي صلى الله عليه وآله يناجي صناديد قومه ورؤساءهم لينجيهم من الوثنية ويهديهم إلى عبادة التوحيد ، وكان لإسلامهم يوم ذلك تأثير عميق في إيمان غيرهم ، إذ الناس على دين رؤسائهم وأوليائهم ، وكان النبي صلى الله عليه وآله في هذه الظروف يناجي رؤساء قومه إذ جاءه ابن أم مكتوم غافلاً عمّا عليه النبي صلى الله عليه وآله من الأمر المهم ، فلم يلتفت إليه النبي ، وجرى على ما كان عليه من المذاكرة مع أكابر قومه.

وما سلكه النبي صلى الله عليه وآله لم يكن أمراً مذموماً عند العقلاء ، ولا خروجاً على طاعة الله ، ولكن الإسلام دعاه وأرشده إلى خلق مثالي أعلى ممّا سلكه ، وهو أنّ التصدي لهداية قوم يتصورون أنفسهم أغنياء عن الهداية ، يجب أن لا يكون سبباً للتولّي عمّن يسعى ويخشى ، فهداية الرجل الساعي في طريق الحق ، الخائف من عذاب الله ، أولى من التصدي لقوم يتظاهرون بالاستغناء عن الهداية وعمّا أنزل إليك من الوحي ، وما عليك بشيء إذا لم يزكّوا أنفسهم ، لأنّ القرآن تذكرة فمن شاء ذكره (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (2).

ص: 261

1- المزمل : 5.

2- الغاشية : 21 - 22.

فعظم المسؤولية اقتضى أن يعاتب الله سبحانه نبيه لترك ما هو الأولى بحاله حتى يرشده إلى ما يعد من أفاضل ومحاسن الأخلاق، وينبهه على عظم حال المؤمن المسترشد، وأن تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه، أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه، ومن هذا حاله لا يعد عاصياً لأمر الله ومخالفاً لطاعته.

وأما الرواية الثانية: فالظاهر أن الرواية نقلت غير كاملة، وكان لها ذيل يصح انطباق الخطابات الواردة في الآيات حقيقة على الشخص الذي عبس وتولى، وعلى فرض كونها تامة فالضمير الغائب في « عبس » و « تولّى » و « جاءه » يرجع إلى ذلك الفرد، وأما الخطابات فهي متوجهة إلى النبي صلى الله عليه وآله لكن من وجه إليه الخطاب غير من قصد منه، فهو من مقولة: « إياك أعني واسمعي يا جارة » ومثل هذا يعد من أساليب البلاغة، وفنون الكلام.

ص: 262

دلّت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء عامة والنبي الأكرم خاصة إلا أنّ الحكم بعصمته قبل التشرف بالنبوة ، يتوقف على إحراز تدينه بدين قبل أن يبعث ، وهذا ما نتلوه عليك في هذا البحث تكميلاً لعصمته صلى الله عليه وآله .

من الموضوعات المهمة التي شغلت بال المحققين من أهل السير والتاريخ موضوع دين النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ، وقد اتفق جمهور المسلمين على أنّه صلى الله عليه وآله كان على خط التوحيد منذ نعومة أظفاره إلى أن بُعث لهداية أمّته ، فلم يسجد لصنم ولا وثن ، وكان بعيداً عن الأخلاق والعادات الجاهلية التي تستقي جذورها من الوثنية ، وإن اختلفوا في أنّه هل كان متعبداً بشريعة أحد من الأنبياء أو بشريعة نفسه ، أو بما يلهم من الوظائف والتكاليف ؟ وعلى ذلك فنركّز البحث على نقطتين :

1. إيمانه وتوحيده قبل البعثة.

2. الشريعة التي كان يعمل بها في حياته الفردية والاجتماعية.

أمّا بالنسبة إلى النقطة الأولى : فقد كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله على الدين الحنيف لم يعدل عنه إلى غيره طرفة عين ، وتظهر هذه الحقيقة بالتعرّف على ملامح

البيت الذي ولد فيه ، وتربى في أحضان رجاله فنقول :

كان النبي كريم المولد ، شريف المحتد ، ولد من أبوين كريمين مؤمنين بالله سبحانه وموحدين ، وتربى في حضن جده عبد المطلب ، وبعده في حجر عمّه أبي طالب عليهما السلام ، وقد كان الدين السائد في ذلك البيت الرفيع ، دين التوحيد ، ورفض عبادة غير الله تعالى والعمل بالمناسك والرسوم الواصلة إليه عن إبراهيم عليه السلام .

لا أقول إنّ جميع من كان ينتمي إلى البيت الهاشمي كان على خط التوحيد وعلى الشريعة الإبراهيمية ، إذ لا شك أنّ بعضهم كان يعبد الأصنام ، ويدافع عنها كأبي لهب ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

بل أقول : الديانة السائدة في ذلك البيت هي عبادة الرحمن ورفض الأصنام والأوثان.

ويتضح وضع هذا البيت ببيان ديانة أشياخه وأسياده وأخص بالذكر منهم سيده الكبير « عبد المطلب » وشيخ الأباطح « أبو طالب » ، وإليك الكلام في ديانتهما :

1. عبد المطلب وإيمانه

عبد المطلب هو الرجل الأوّل في هذا البيت ، وكفى في صفاته وإيمانه ما ذكره المؤرّخون في حقه ، وإليك بعضه :

1. يقول اليعقوبي في الحديث عنه : ... ورفض عبد المطلب عبادة الأوثان والأصنام ، ووحّد الله عزّ وجلّ ، ووفى بالنذر ، وسنّ سنناً نزل القرآن بأكثرها ، وجاءت السنّة الشريفة من رسول الله صلى الله عليه وآله بها ، وهي الوفاء بالنذر ، ومائة من الإبل

في الدينة، وأن لا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحد عليه، والقرعة، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضيف، وأن لا ينفقوا إذا حجوا إلا من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات (1).

2. إذا أطلعنا على موقف عبد المطلب من جيش إبرهة، وتوكله على الله تعالى، وأخذه بحلقة باب الكعبة، نعلم بأنه كان الرجل الموحد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله، ولا يعرف إلا باب الله، على عكس ما كانت الوثنية عليه فإنهم كانوا يستغيثون بالأصنام المنصوبة حول الكعبة، وإليك إجمال القضية:

قدم عبد المطلب إلى معسكر إبرهة، فلما رآه إبرهة أجله وأكرمه، وبعدما وقف الملك على أنه جاء ليردّ عليه إبله التي استولى عليها عسكريه، قال له إبرهة: أتكلمني في إبلك وتترك بيتاً، هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه؟! قال له عبد المطلب: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربُّ يمنع، قال إبرهة: ما كان يمنعني وأمر برد إبله، فلما أخذها قلدها وجعلها هدياً وبثها في الحرم كي يصاب منها شيء فيغضب الله عزّ وجلّ، وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على إبرهة وجنده، فقال عبد المطلب:

ص: 265

1- تاريخ يعقوبي: 9/2، طبعة النجف. أقول: في عدّ بعض ما ذكر ذلك المؤرخ من سنن عبد المطلب نظر: فإنّ لبعضها كالوفاء بالندر، والنهي عن قتل المؤودة، والقرعة، سابقة تاريخية ترجع إلى فترات قبله.

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ *** يَا رَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حَمَاكَ

إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مِنْ عَادَاكَ *** امْنَعَهُمْ أَنْ يَخْرُبُوا فَنَاكَ

وَقَالَ أَيْضًا :

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ *** رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلَالَكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِّبَهُمْ *** وَمِحَالَهُمْ غَدُوا مِحَالَكَ (1)

3. وليست هذه الواقعة وحيدة من نوعها بل لسيد قريش مواقف أخرى تشبه هذه الواقعة حيث توسل لكشف غمته فيها باللّه سبحانه وتعالى ، وإليك مثالين :

ألف. تتابعت على قريش سنون جدب ، ذهبت بالأموال ، وأشرفت على الأنفس ، واجتمعت قريش لعبد المطلب وعلوا جبل أبي قبيس ومعهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو غلام ، فتقدم عبد المطلب وقال :

« لا هم (2) هؤلاء عبيدك وإماؤك وبنو إمانك ، وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابع علينا هذه السنون ، فذهبت بالظلف والخف والحافر ، فأشرفت على الأنفس ، فأذهب عنا الجدب ، وانتنا بالحياء والخصب » ، فما برحوا حتى سألت الأودية ، وفي هذه الحالة تقول رقيقة :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا *** وقد عدمنا الحيا واجلوذ المطر

إلى أن تقول :

ص: 266

1- السيرة النبوية لابن هشام: 1 / 50 ; الكامل لابن الأثير: 1 / 12 ، وغيرهما.

2- مخفف « اللهم ».

مبارك الاسم يستسقى الغمام به *** ما في الأنام له عدل ولا خطر (1)

وقد نقل هذه الواقعة الشهرستاني في الملل والنحل قال : ومما يدل على معرفته (عبد المطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة أنّ أهل مكة لما أصابهم ذلك الجذب العظيم وأمسك السحاب عنهم سنتين ، أمر أبا طالب ابنه أن يحضر المصطفى محمداً صلى الله عليه وآله فأحضره وهو رضيع في قماط ، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة ورماه إلى السماء ، وقال يا ربّ بحق هذا الغلام ورماه ثانياً وثالثاً. وكان يقول : بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً ، فلم يلبث ساعة أن طبق السحاب وجه السماء وأمطر حتى خافوا على المسجد.

وقال أيضاً : وببركة ذلك النور كان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيا الأمور ، وإن يقول في وصاياه : إنّه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب في ذلك ، ففكر وقال : والله إنّ وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته (2).

إنّ توسّله بالله سبحانه وتوليه عن الأصنام والأوثان والتجاءه إلى ربّ الأرباب آية توحيده الخالص ، وإيمانه بالله وعرفانه بالرسالة الخاتمة ، وقداسة صاحبها ، فلو لم يكن له إلاّ هذه الوقائع لكفت في البرهنة على إيمانه بالله وتوحيده له.

ص: 267

1- السيرة الحلبية : 1 / 131 - 133.

2- الملل والنحل للشهرستاني : القسم الثاني : 248 و 249 من الطبعة الثانية ، تخريج محمد بن فتح الله بدران القاهرة.

ب. روى أصحاب السير أنه وقع النقاش بين عبد المطلب وقريش في حفر بئر زمزم بعد ما حفره عبد المطلب ، فاتفقوا على الرجوع إلى كاهنة ، فقصدوا طريق الشام فعطشوا في الطريق وأشرفوا على الموت ، فاقترح أن يحفر كل حفرة لنفسه بما بكم الآن من قوة ، فكلما مات رجل دفنه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً ، قالوا : نعم ما أمرت به ، فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا ، لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا ؛ فارتحلوا حتى إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هو فاعلون ، تقدّم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفيها عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلم إلى الماء ، فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ؛ فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : والله قضى لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة ، لهو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلّوا بينه وبينها (1).

4. عن أم أيمن (رضي الله عنها) قالت : كنت أحضن النبي صلى الله عليه وآله - أي أقوم بتربيته وحفظه - فغفلت عنه يوماً فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسي يقول : يا « بركة » قلت : لبيك ، قال : أتدرين أين وجدت ابني ؟ قلت : لا أدري ، قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، لا تغفلي عن ابني ، فإن أهل الكتاب يزعمون

ص: 268

أنه نبي هذه الأمة وأنا لا آمن عليه منهم ، وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول : عليّ بابني ، أي احضروه ، ويجلسه بجنبه وربما أقعده على فخذه ويؤثره بأطيب طعامه (1).

هذا هو عبد المطلب وتعودّه بيت الله الحرام ومواقفه بين قومه وكلماته في المبدأ والمعاد وعطفه على رسالة خاتم النبيين ، أبعد هذا يبقى لإحد شك في توحيده وإيمانه ، بل واعترافه برسالة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله !؟

قضى النبي صلى الله عليه وآله لقيفاً من عمره في رعايته فلما بلغ أجله أوصى إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة ، وإلى أبي طالب برسوخ الله وسقاية زمزم ، وقال له : قد خلّفت في أيديكم الشرف العظيم الذي تطؤون به رقاب الناس ، وقال لأبي طالب :

أوصيك يا عبد مناف بعدي *** بمفرد بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهدي *** فكنت كالأمّ له في الوجد

تدنيه من أحشائها والكبد *** فأنت من أرجى بنيّ عندي

لدفع ضيم أو لشدّ عقد (2)

2. شيخ الأباطح أبو طالب وإيمانه

إشارة

قد تعرّفت على إيمان « عبد المطلب » الكفيل الأول لصاحب الرسالة ، فهلمّ معي ندرس حياة كفيله الآخر بعده ، وهو أبو طالب شيخ البطحاء ، فقد اتفقت

ص: 269

1- سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : 1 / 64.

2- تاريخ اليعقوبي : 2 / 10 ، طبعة النجف.

كلمة أهل السير والتاريخ على كفالته لصاحب الرسالة بعد جدّه ، ودرئه عنه كل سوء وعادية طويلة حياته ، وان اختلفت آراؤهم في إيمانه بالرسول الأكرم بعد البعثة ، ولأجل تحقيق الحال نرکز على البحث عن نقطتين : إيمانه قبل البعثة ، وإيمانه بعد البعثة :

إيمانه بالله قبل البعثة

يكفي في إيمانه بالله وخلص توحيدهُ عدّة أمور نشير إليها :

1. ما أخرجه ابن عساکر في تاريخه ، عن جلهمة بن عرفطة ، قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش يا أبا طالب أفحط الوادي وأجذب العيال فهلّم واستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلّت عنه سحابة قتماء وحوله اغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ باصبغه الغلام وما في السماء ، قرعة (1).

فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي واخصب البادي والنادي ، ففي ذلك يقول أبو طالب ويمدح به النبي أكثر من ثمانين بيتاً :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه *** ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم *** فهم عنده في نعمة وفواصل

وميزان عدل لا يخيس شعيرة *** ووزان صدق وزنه غير هائل (2)

ص: 270

1- القرعة : قطعة من السحاب.

2- السيرة الحلبية : 1 / 116. لاحظ فتح الباري : 2 / 494 ، والقصيدة المذكورة في السيرة النبوية لابن هشام : 1 / 272 - 280.

وما نسبه إليه من الأشعار جزء من قصيدته المعروفة التي نظمها أيام الحصار في الشعب ، ويشير بها إلى الواقعة التي استسقى فيها بالنبي وقد كان غلاماً في كفالته ، ولو كان آنذاك عابداً للوثن لتوسل باللات والعزى وسائر الآلهة المنصوبة حول الكعبة.

2. روى الحافظ الكنجي الشافعي : أنّ أحد الزهاد والعباد قال لأبي طالب : يا هذا إنّ العلي الأعلى ألهمني إلهاماً ، قال أبو طالب : وما هو ؟ قال : ولد يولد من ظهرك وهو ولي الله عزّ وجلّ ، فلمّا كانت الليلة التي ولد فيها عليّ عليه السلام أشرقت الأرض ، فخرج أبو طالب وهو يقول : أيّها الناس ولد في الكعبة ولي الله ، فلمّا أصبح دخل الكعبة وهو يقول :

يا رب هذا الغسق الدجيّ *** والقمر المنبلج المضي

بيّن لنا من أمرك الخفيّ *** ماذا ترى في اسم ذا الصبي

قال : فسمع صوت هاتف يقول :

يا أهل بيت المصطفى النبي *** خصصتم بالولد الزكي

انّ اسمه من شامخ العلي *** عليّ اشتق من العلي (1)

3. إنّ أبا طالب كان ممن تعرّف على مكانة النبي الأعظم عن طريق الراهب « بحيرا » ، وذلك حينما خرج في ركب إلى الشام تاجراً ، فلمّا تهيّأ للرحيل وأجمع السير هبّ له رسول الله فأخذ بزمام ناقته ، وقال : يا عم إلى من تكلمي لا أب لي ولا أمّ لي ؟ فرقّ له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معي ولا يفارقي ولا أفارقه أبداً. قال : فخرج به معه ، فلمّا نزل الركب « بصرى » من أرض الشام نزلوا قريباً

ص: 271

1- الغدير : 347 / 7 ، نقلاً عن كفاية الطالب للحافظ الكنجي الشافعي : 260.

من صومعة راهب يقال له « بحيرا » ، فلما رأى النبي جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر أشياء من جسده ، فجعل يسأله عن نومه وهيئته ، ورسول الله يخبره ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم قال لأبي طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ، ليبغته شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به إلى بلاده ، فخرج به عمّه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، وفي ذلك يقول أبو طالب :

إن ابن آمنة النبي محمداً *** عندي يفوق منازل الأولاد

لما تعلق بالزمام رحمته *** والعيس قد قلصن بالأزواد

فارفص من عيني دمع ذارف *** مثل الجمان مفرق الأفراد

إلى أن قال :

حتى إذا ما القوم بصرى عاينوا *** لاقوا على شرك من المرصاد

حبراً فأخبرهم حديثاً صادقاً *** عنه وردّ معاشر الحساد

فما رجعوا حتى رأوا من محمد *** أحاديث تجلو غم كل فؤاد

وحتى رأوا أحبار كل مدينة *** سجوداً له من عصابة وفواد (1)

وما رأى أبو طالب من ابن أخيه في هذا السفر من الكرامات وخوارق العادات التي ضبطها التاريخ ، وما سمعه من بحيرا من مستقبل أمره وأن اليهود له بالمرصاد ، كاف لإرشاد كل إنسان صافي الذهن مستقيم الطريقة ، فكيف بأبي طالب الذي كان بالإضافة إلى هاتين الصفتين ، يحبه حباً جماً أشد من حبه لأولاده

ص: 272

1- السيرة النبوية لابن هشام : 1 / 182 ؛ الطبقات الكبرى : 1 / 120 ؛ تاريخ ابن عساكر : 1 / 269 - 272 ؛ ديوان أبي طالب : 33 - 35 ؛ إلى غير ذلك من المصادر التي اهتمت بنقل هذه الواقعة.

وإخوته ، فكانت هذه الكرامات كافية في هدايته لخط التوحيد ورسالة ابن أخيه وإن لم يكن يصرح بها لفظاً قبل البعثة ، لكنه جهر بها بعده كما سيوافيك إن شاء الله.

مضافاً إلى أنه كان موضع الثقة من عبد المطلب ، وقد أوصاه برعاية ابن أخيه بعده ، فلا يصح لعبد المطلب المؤمن الموحد أن يدلي بوصيته وكفالة محمد صلى الله عليه وآله إلى من لم يكن على غير خط التوحيد ، ولم تكن بينهما وحدة فكرية ، وإلى ذلك يشير أبو طالب في هذه القصيدة الدالية :

راعيت فيه قرابة موصولة *** وحفظت فيه وصية الأجداد

إيمانه بعد البعثة

أمّا دلائل إيمانه بالله أولاً ، ورسالة ابن أخيه ثانياً ، بعد بعثة النبي الأكرم فحدث عنه ولا حرج وإن كان بعضهم قد هضم حق أبي طالب قرّة عين الرسول صلى الله عليه وآله وقالوا بما لا ينسجم مع الحقائق التاريخية ، ولو نقل معشار ما ورد عن إيمانه من فعل أو قول ، في حق غيره لاتفق الكل على إيمانه وتوحيده ، ولكن - ويا للأسف - أنّ بعض الجائرين على الحق لا يريدون أن يعتبروا تلك الدلائل وافية لإثبات إيمانه.

لم يزل سيدنا أبو طالب يكلأ ابن أخيه ويذب عنه ويدعو إلى دينه الحنيف منذ بزوغ شمس الرسالة إلى أن لقي ربّه ، وكفانا من إفاضة القول في ذلك ، الكتب المؤلفة حول تضحيته لأجل الحق ودفاعه عنه شعراً ونثراً ، ونكتفي بالنزر اليسير من الجم الغفير :

1. كتب أبو طالب إلى النجاشي عندما نزل المهاجرون من المسلمين بقيادة

جعفر الطيار أرض الحبشة وهو يحضه على حسن الجوار :

ليعلم خيار الناس أنّ محمداً *** نبيّ كموسى والمسيح بن مريم

وأنكم تتلونه في كتابكم *** بصدق حديث لا حديث المبرجم (1)

2. نحن نفترض الكلام في غير أبي طالب ، فإذا أردنا الوقوف على نفسية فرد من الأفراد والعلم بما يكتنه من الإيمان أو الكفر ، فما هو الطريق إلى كشفها ؟ فهل الطريق إليه إلاّ كلامه وقوله ، أو ما يقوم به من عمل ، أو ما يروي عنه مصاحبوه ومعاشروه ، فلو كانت هذه هي المقاييس الصحيحة للتعرف على النفسية ، فكّلها تشهد بإيمانه القويم وتوحيده الخالص ، فإنّ فيما أثر عنه من نظم ونثر ، أو نقل من عمل بار ، وسعي مشكور في نصرة النبي صلى الله عليه وآله وحفظه ، والدعوة لرسالته وما روى عنه مصاحبوه ومعاشروه - فإنّ في هذه - لدلالة واضحة على إيمانه بالله ورسالة ابن أخيه وتفانيه في سبيل استقرارها.

كيف ، وهو يقول في أمر الصحيفة التي كتبها صنديد قريش في سبيل ضرب الحصار الاقتصادي على النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم وبني المطلب :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً *** نبيّاً كموسى خط في أول الكتب

وأنّ الذي ألصقتم من كتابكم *** لكم كائن نحساً كراغية السقب (2)

ففي هذه الأبيات التي تزهو بنور التوحيد ، وتتألاً بالإيمان بالدين الحنيف دلالة واضحة على إيمانه بالرسالات الإلهية عامة ، ورسالة ابن أخيه صلى الله عليه وآله خاصة ، وكم وكم له من قصائد رائعة يطفح من ثناياها الإيمان الخالص ، والإسلام

ص: 274

1- مستدرك الحاكم : 2 / 623 - 624.

2- السيرة النبوية : 1 / 352 ، وذكر من القصيدة 15 بيتاً.

الصحيح ، ونحن نكتفي في إثبات إيمان كفيل رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا المقدار ونحيل التفصيل إلى الكتب المعدة لذلك.

فإن نقل ما أثر عنه من شعر ونثر ، أو روي من عمل مشكور ، يحتاج إلى تأليف كتاب مفرد وقد قام لفيف من محققي الشيعة بتأليف كتب حول إيمانه ، بين مسهب في الإفاضة وموجز في المقالة ، وفيما حَقَّقَه وجمعه شيخنا العلامة الأميني في غديره كفاية لطالب الحق (1).

هذا إيمان عبد المطلب وذلك توحيد ابنه البار أبي طالب ، وقد تربَّى النبي صلى الله عليه وآله وترعرع وشب واكتهل في أحضانها ، وفي قانون الوراثة أن يرث الأبناء ما في الحجور والأحضان من الخصال والأخلاق وقد قضى النبي الأكرم قسماً وافراً من عمره الشريف في تلك الربوع واستظل بفيئها.

إيمان والدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

لقد تعرفت على إيمان كفيل النبي صلى الله عليه وآله فهلمّ معي ندرس حياة والديه وإيمانها ، فقد ذهبت الإمامية والزيدية وجملة من محققي أهل السنة إلى إيمانها وكونها على خط التوحيد ، وشدّ من قال : إنَّ النبي صلى الله عليه وآله من كثرة ما أنعم الله عليه ووفور إحسانه إليه لم يرزقه إسلام والديه.

فإنَّ هذه الكلمة صدرت من غير تحقيق ، فإنَّ التاريخ لم يضبط من حياتها إلا شيئاً يسيراً ، وفيما ضبط إيعاز لو لم نقل دلالة على إيمانها وكونها على الصراط المستقيم.

ص: 275

أمّا الوالد : فقد نقلت عنه كلمات وأبيات تدل على إيمانه ، فإليك ما نقله عنه أهل السير ، عندما عرضت فاطمة الخثعمية نفسها عليه فقال رداً عليها :

أمّا الحرام فالممات دونه *** والحل لا حل فاستبينه

يحمي الكريم عرضه ودينه *** فكيف بالأمر الذي تبغينه (1)

وقد روي عن النبي الأكرم أنّه قال : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ». ولعل فيه إيعازاً إلى طهارة آبائه وأمّهاته من كل دنس وشرك (2).

وأما الوالدة : فكفى في ذلك ما رواه الحفاظ عنها عند وفاتها فإنّها (رضي الله عنها) خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وهو ابن خمس أو ست سنين ونزلت بالمدينة تزور أخوال جده صلى الله عليه وآله ، وهم بنو عدي بن النجار ، ومعها أم أيمن « بركة » الحبشية ، فأقامت عندهم ، وكان الرسول بعد الهجرة يذكر أموراً حدثت في مقامه ويقول : « إنّ أمّي نزلت في تلك الدار ، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إليّ ، فنظر إليّ رجل من اليهود ، فقال : يا غلام ما اسمك ؟ فقلت : أحمد ، فنظر إلى ظهري وسمعته يقول : هذا نبي هذه الأمة ، ثم راح إلى إخوانه فأخبرهم ، فخافت أمّي عليّ ، فخرجنا من المدينة ، فلمّا كانت بالأبواء توفيت ودفنت فيها ».

روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن أسماء بنت رهم قالت : شهدت أمّة النبي صلى الله عليه وآله في علتها التي ماتت بها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام غلام « يفع » (3) له

ص: 276

1- السيرة الحلبية : 46 / 1 وغيرها.

2- سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : 58 / 1.

3- يفع الغلام : ترعرع.

خمس سنين عند رأسها ، فنظرت إلى وجهه وخاطبته بقولها :

إنّ صح ما أبصرت في المنام *** فأنت مبعوث إلى الأنام

فألله أنهاك عن الأصنام *** أن لا توالياها مع الأقوام

ثم قالت : كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى ، وأنا ميتة ، وذكرى باق وولدت طهراً.

وقال الزرقاني في « شرح المواهب » نقلاً عن جلال الدين السيوطي تعليقاً على قولها : وهذا القول منها صريح في أنّها كانت موحّدة ، إذ ذكرت دين إبراهيم عليه السلام وبشّرت ابنها بالإسلام من عند الله ، وهل التوحيد شيء غير هذا؟! فإنّ التوحيد هو الاعتراف بالله وأنه لا شريك له والبراءة من عبادة الأصنام (1).

هذا بعض ما ذكره المؤرّخون في أحوال والدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، والكل يدل على إخلاصهما ونزاهتهما عمّا كان هو السائد في البيئة التي كانا يعيشان فيها.

وأخيراً نوجه نظر القارئ إلى الرأي العام بين المسلمين حول إيمانهما ، قال الشيخ المفيد في « أوائل المقالات » :

وانتقلت الإمامية على أنّ آباء رسول الله صلى الله عليه وآله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّ وجلّ موحّدون له ، واحتجوا في ذلك بالقرآن والأخبار ، قال الله عزّ وجلّ : (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ) (2).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لم يزل ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتى أخرجني في عالمكم هذا » ، وأجمعوا على أنّ عمّه أبا طالب (رحمه

ص: 277

1- الاتحاف للشبراوي : 144 ؛ سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : 1 / 57.

2- الشعراء : 218 - 219.

اللّه) مات مؤمناً ، وأنّ أمانة بنت وهب كانت على التوحيد ، وأنّها تحشّر في جملة المؤمنين (1).

أقول : الاستدلال بالآية يتوقف على كون المراد منها نقل روحه من ساجد إلى ساجد ، وهو المروي عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ) (2) قال : من نبي إلى نبي حتى أُخرجت نبياً (3).

وقد ذكره المفسرون بصورة أحد الاحتمالات ، ولكنّه غير متعين ، لاحتمال أن يكون المراد إنّه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ، وتقلّب في الساجدين عبارة عن تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده إذا كان إماماً لهم .

وأما الاستدلال بالحديث ، فهو مبني على أنّ من كان كافراً فليس بطاهر ، وقد قال سبحانه : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) (4).

لكن الحجة هي الاتفاق والإجماع ، مضافاً إلى ما تضافر من الروايات حول طهارة والدي النبي صلى الله عليه وآله التي جمعها الحافظ أبو الفداء ابن كثير في تاريخه قال : وخطب النبي صلى الله عليه وآله وقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ... وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها ، فأخرجت من بين أبوي ، فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً » (5).

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « قال لي جبرئيل : قلبت الأرض من مشارقها

ص: 278

1- أوائل المقالات : 12 - 13.

2- الشعراء : 219.

3- البداية والنهاية : 2 / 239 ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الرابعة - 1408 هـ .

4- مفاتيح الغيب : 6 / 431 . والآية من سورة التوبة : 28.

5- البداية والنهاية : 2 / 238.

ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم».

قال الحافظ البيهقي : وهذه الأحاديث وإن كان في روايتها من لا يحتج به ، فبعضها يؤكد بعضاً ، ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع ، والله أعلم.

قلت : وفي هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبي صلى الله عليه وآله :

إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لمفخر *** فعبدُ منافٍ سرُّها وصميُّها

فإن حصلت أشرافُ عبدٍ منافٍها *** ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها

وإن فخرتُ يوماً فإنَّ محمداً *** هو المصطفى من سرِّها وكريمُها

تداعت قريشٌ غثُّها وسميئُها *** علينا فلم تظفر وطاشت حلومُها

وكنَّا قديماً لا نقرّ ظلاماً *** إذا ماثنوا صُغَرَ الخدود نقيمُها

ونحمي حماها كل يومٍ كريهة *** ونضربُ عن أحجارها من يرومها

بنا انتعش العودُ الذواءُ وإثما *** بأكنافنا تندى وتنمى أرومها (1)

ويعجبني أن أنقل ما ذكره الشبراوي في المقام : قال : ومبدأ الكلام في ذلك إنَّ الله سبحانه قد أخرج هذا النوع الإنساني لأجله صلى الله عليه وآله وإنَّ آدم عليه الصلاة والسلام كان أوَّل فرد من أفراد هذا النوع ، وكان سائر أفراد مندرجة في صلبه بصور الذرات ، فلما نفخ الروح في آدم كان نور نسمة محمد صلى الله عليه وآله يلمع في جبهته كالشمس المشرقة ، ثم انتقل ذلك النور من صلب آدم إلى رحم حواء ، ومنها إلى صلب شيث ، ثم استمر هذا ينتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، وهو معنى قوله : (وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) ، وأشار إليه العلامة البوصيري بقوله :

لم تزل في ضمائر الكون تختا *** ر لك الأمهات والآباء

ص: 279

وكان كل جد من أجداده من لدن آدم يأخذ العهد والميثاق أن لا يوضع ذلك النور المحمدي إلا في الطاهرات ، فأول من أخذ العهد آدم ، أخذه من شيث ، وشيث من أنوش ، وهو من « قينن » ، وهكذا إلى أن وصلت النوبة إلى عبد الله بن عبد المطلب ، فلما أودع ذلك الجزء ، في صلبه لمع ذلك النور من جبهته ، فظهر له جمال وبهجة ، فكانت نساء قريش يرغبن في نكاحه ، وقد أسعد الله بتلك السعادة وشرف بذلك الشرف « آمنة » بنت وهب ، فتزوجها عبد الله .

وقد روى الترمذي عن العباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم تخيّر القبائل فجعلني في خير قبيلة ، ثم تخيّر البيوت ، فجعلني في خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . أي ذاتاً وأصلاً .

وقد دلّت الآيات والأحاديث على أنه صلى الله عليه وآله كما طابت ذاته الشريفة ، بما أُوتى من الكمال الأعلى ، كذلك طاب نسبه الشريف ، فلم يكن في آبائه ولا أمهاته من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة ، إلا من هو مصطفى مختار قد طابت أعرافه ، وحسنت أخلاقه .

أخرج ابن جرير ، عن مجاهد قال : استجاب الله تعالى دعوة إبراهيم في ولده ولم يعبد أحد منهم صنماً بعد دعوته ، واستجاب له وجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله من الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة .

قال السيوطي : وهذه الأوصاف كانت لأجداده صلى الله عليه وآله خاصة دون سائر ذرية إبراهيم ، وكل ما ذكر عن ذرية إبراهيم من المحاسن فإن أولى الناس به سلسلة الأجداد الشريفة ، الذين خصّوا بالاصطفاء وانتقل إليهم نور النبوة واحداً بعد واحد ، ولم يدخل ولد إسحاق وبقية ذريته لأنه دعا لأهل هذا البلد ، ألا تراه قال : (اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) وعقبه بقوله : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ

الأصنام (1)، فلم تزل ناس من ذرية إبراهيم عليه السلام على الفطرة يعبدون الله تبارك وتعالى ، ويدلّ عليه قوله : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ) (2) فإنّ الكلمة الباقية هي كلمة التوحيد ، وعقب إبراهيم عليه السلام هم محمد صلى الله عليه وآله وآله الكرام ، قال بعض الأفاضل : اللهم حل بيننا وبين أهل الخسران والخذلان الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وآله بنسبة ما لا يليق بأبويه الكريمين الشريفين الطاهرين - إلى أن قال - : فهما ناجيان منعمان في أعلى درجات الجنان ، وما عدا ذلك تهافت وهذيان ، لا ينبغي أن تصغي له الأذنان ولا أن يعتني بإبطاله أولو الشأن (3).

إذا وقفت على ما ذكرنا تعرف قيمة كلمة ابن حزم الأندلسي في أحكامه (4) ، حيث نسب إلى والدي النبي الأكرم ما لا يليق بساحتهما ، ويكفي في سقوط هذه الكلمة أن راويها وكاتبها ابن حزم الذي أجمع فقهاء عصره على تضليله والتشيع عليه ونهي العوام عن الاقتراب منه وحكموا بإحراق كتبه (5).

وقال ابن خلكان في وفياته : وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه ، فنفرت عنه القلوب ، واستهدف فقهاء وقته ، فتمالأوا على بغضه ، وردّوا قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنّوا عليه ، وحذّروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فأقصته الملوك وشردته عن بلاده حتّى انتهى إلى بادية « لبلة » ، فتوفي بها آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وقيل إنّه توفي في « منت ليشم » ، وهي قرية ابن حزم المذكور. وفيه قال أبو العباس ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج ابن يوسف شقيقين ، وإتّما قال ذلك لكثرة وقوعه في الأئمة (6).

ص: 281

1- إبراهيم : 35.

2- الزخرف : 28.

3- الإتحاف بحب الأشراف : 113 - 118.

4- الأحكام : 5 / 171.

5- لسان الميزان : 4 / 200 ، وقد عرّفه الألويسي في تفسيره : 21 / 76 بالضال المضل.

6- وفيات الأعيان : 3 / 327 - 328.

كان البحث عن إيمان عبد المطلب وسيد البطحاء ووالدي النبي ، كمقدمة للبحث عن إيمان النبي الأكرم قبل البعثة ، فإن إيمانه برسالته وإن كان أمراً مسلماً وواضحاً كوضوح الشمس غير محتاج إلى الإسهاب غير أن إكمال البحث يجرنا إلى أن نأتي ببعض ما ذكره التاريخ من ملامح حياته منذ صباه إلى أن بعث نبياً ، حتى يقترن ذلك الاتفاق بأصح الدلائل التاريخية ، وإليك الأقوال :

1. روى صاحب المنتقى في حديث طويل : أن النبي صلى الله عليه وآله لما تمَّ له ثلاث سنين ، قال يوماً لوالدته (لمرضعتي) « حليلة السعدية » : « مالي لا - أرى أخوي بالنهار ؟ » قالت له : يا بني إنهما يرعيان غنيمات . قال : « فما لي لا أخرج معهما ؟ » قالت له : أتحب ذلك ؟ قال : « نعم » ، فلما أصبح محمد دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يماني ، فنزعه ثم قال لأُمّه : « مهلاً يا أمّاه ، فإنّ معي من يحفظني » (1).

وهذه العبارة من الطفل الذي لم يتجاوز سنّه ثلاث سنين آية على أنّه كان يعيش في رعاية الله ، وكان له معلم غيبي « يسلك به طريق المكارم » ويلهمه ما يعجز عن إدراكه كبار الرجال آنذاك ، حيث كانت أمّه تزعم بأنّ في الجزع اليماني مقدرة الحفظ لمن علقه على جيده ، فعلى الرغم من ذلك فقد خالفها الطفل ونزعه وطرحه ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّه كان بعيداً عن تلك الرسوم والأفكار ... السائدة في الجزيرة العربية.

ص: 282

1- المنتقى الباب الثاني من القسم الثاني للكاظمي ، وقد نقله العلامة المجلسي في البحار : 15 / 392 من الطبعة الحديثة.

2. روى ابن سعد في طبقاته : أنّ بحيرا الراهب قال للنبي صلى الله عليه وآله : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عمّا أسألك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » ، قال : بالله إلا أخبرتني عمّا أسألك عنه ؟ قال : « سلني عمّا بدا لك ... » (1).

3. روى ابن سعد في طبقاته : عند ذكر خروج النبي إلى الشام للتجارة بأموال خديجة مع غلامها « ميسرة » : إنّ محمداً باع سلعته فوقع بينه ورجل تلاح ، فقال له الرجل : احلف باللات والعزى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما حلفت بهما قط ، واتي لأمر فأعرض عنهما » فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة : يا ميسرة هذا والله نبي (2).

ومما يشهد على توحيده أنه لم يرقط مائلاً عن الحق ، ساجداً لوثن أو متوسلاً به ، بل كان يتحنّث في كل سنة في غار حراء في بعض الشهور ، فوفاه جبرئيل (عليه الصلاة والسلام) في بعض تلك المواقف وبشّره بالرسالة وخلع عليه كساء النبوة.

وهذه الوقائع التاريخية أصدق دليل على إيمانه ، ولأجل اتفاق المسلمين على ذلك نظوي بساط البحث ونركّزه على بيان الشريعة التي كان عليها قبل بعثته ، وهذا هو الذي بحث عنه المتكلمون والأصوليون بإسهاب.

الشريعة التي كان يعمل بها النبي صلى الله عليه وآله

اختلف الباحثون في أنّ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله هل كان متعبداً بشرع قبل بعثته

ص: 283

1- الطبقات الكبرى : 1 / 154 ; السيرة النبوية : 1 / 182 .

2- الطبقات الكبرى : 1 / 156 .

أولاً؟ على أقوال نلفت نظر القارئ إليها :

1. لم يكن متعبداً بشرع أصلاً. نسب ذلك إلى أبي الحسن البصري.

2. التوقف وعدم الجنوح إلى واحد من الأقوال. ذهب إليه القاضي عبد الجبار والغزالي ، وهو خيرة السيد المرتضى في ذريعته.

3. إنه كان يتعبّد بشريعة من قبله مردّدة بين كونها شريعة نوح أو إبراهيم أو موسى ، أو المسيح بن مريم عليهم السلام .

4. كان يتعبّد بما ثبت أنه شرع.

5. كان يعمل في عباداته وطاعته بما يوحى إليه سواء أكان مطابقاً لشرع من قبله أم لا .

6. أنه كان يعمل بشرع نفسه.

والأخير هو الظاهر من الشيخ الطوسي في عدته قال : عندنا أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يكن متعبداً بشريعة من تقدّمه من الأنبياء لا قبل النبوة ولا بعدها ، وإنّ جميع ما تعبّد به كان شرعاً له ، ويقول أصحابنا : إنه كان قبل البعثة يوحى إليه بأشياء تخصه ، وكان يعمل بالوحي لا اتّباعاً بشريعة (1).

وما ذكره أخيراً ينطبق على القول السادس ، والأقوال الثلاثة الأخيرة متقاربة ، وإليك دراستها واحداً بعد آخر ببيان مقدمة :

ص: 284

1- راجع للوقوف على الأقوال : الذريعة : 2 / 595 ، وذكر أقوالاً ثلاثة ؛ وعدّة الشيخ الطوسي : 2 / 60 ، وذكر الأقوال مسهبة ؛ البحار : 18 / 271 ، ونقل الأقوال عن شرح العلامة لمختصر الحاجبي ؛ والمعارج للمحقّق الحلي : 60 ؛ المبادئ للعلامة الحلي : 30 ؛ القوانين للمحقّق القمي : 1 / 494.

إنّ من أطلّ النظر على حياته صلى الله عليه وآله يقف على أنّه كان يعبد الله سبحانه ويعتكف ب « حراء » كل سنة شهراً ، ولم يكن اعتكافه مجرد تفكير في جلاله وجماله وآياته وآثاره ، بل كان مع ذلك متعبداً لله قانتاً له ، وقد نزل الوحي عليه وخلع عليه ثوب الرسالة وهو متحنث (1) ب « حراء » ، وذلك مما اتفق عليه أهل السير والتاريخ.

قال ابن هشام : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره ، الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ؛ وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، ورجم العباد بها ، جاء جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى (2).

ولم تكن عبادته منحصرة بالاعتكاف أو الطواف حول البيت بعد الفراغ منه ، بل دلت الروايات المتضافرة عن أئمة أهل البيت على أنّه صلى الله عليه وآله حج عشرين حجة مستسراً (3).

ص: 285

-
- 1- التحنث : هو التحنف ، بدلت الفاء (ثاء) ، كما يقال (جدف) مكان جدث ، بمعنى القبر ، وربما يقال : بأنّه بمعنى الخروج عن الحنث بمعنى الاثم ، كما أنّ التأثم هو الخروج عن الإثم ، والأول هو الأولى.
 - 2- السيرة النبوية : 1 / 236.
 - 3- الوسائل : 8 / 87 باب 45 ، استحباب تكرار الحج والعمرة ؛ البحار : 11 / 280.

روى غياث بن إبراهيم ، عن الإمام الصادق عليه السلام : « لم يحج النبي بعد قدوم المدينة إلا واحدة ، وقد حج بمكة مع قومه حجّات »
(1).

ولم تكن أعماله الفردية أو الاجتماعية منحصرة في المستقلات العقلية ، كالاتّباع عن البغي والظلم وكالتحنن على اليتيم والعطف على المسكين ، بل كان في فترة من حياته راعياً للغنم ، وفي فترات أخرى ضارباً في الأرض للتجارة ، ولم يكن في القيام بهذه الأعمال في غنى عن شرع يطبق أعماله عليه ، إذ لم يكن البيع والربا والخل والخمر ولا المذكي وغيره عنده سواسية ، وليست هذه الأمور ونظائرها مما يستقل العقل بأحكامها.

فطبيعة الحال تقتضي أن يكون صلى الله عليه وآله عارفاً بأحكام عباداته وطاعاته ، واقفاً على حرام أفعاله وحلالها ، في زواجه ونكاحه في حلّه وترحاله ، ولولاه أشرف على اقتراح ما حرّمه الله سبحانه في عامّة شرائعه ، والاقتراح أو الدنو منه يناقض أهداف البعثة ، فإنّها لا تتحقّق إلاّ بعمله قبل بعثته بما سوف يدعو إليه بعد بعثته.

وعلى ضوء هذه المقدمة يبطل القول الأوّل من أنّه لم يكن متعبداً بشرع أصلاً ، لما عرفت من أنّ العبادة والطاعة لا تصح إلاّ بعد معرفة حدودها وخصوصيّاتها عن طريق الشرع ، كما أنّ الاجتناب عن محارم الله في العقود والإيقاعات وسائر ما يرجع إلى أعماله وأفعاله الفردية والاجتماعية ، يتوقف على معرفة الحلال والحرام ، حتى يتخذ مقياساً في مقام العمل ، وعند ذلك كيف يصح القول بأنّه لم يكن متعبداً بشرع أصلاً؟ وإلاّ يلزم أن ننكر عباداته وطاعاته قبل

ص: 286

البعثة أو نرّميه باقتراف الكبائر في تلك الفترة، وهو يضاد عصمته قبل البعثة كما يضاد أهدافها.

قال العلامة المجلسي: قد ورد في أخبار كثيرة أنه صلى الله عليه وآله كان يطوف وأنه كان يعبد الله في حراء، وأنه كان يراعي الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره، وكيف يجوز ذو مسكة من العقل، على الله تعالى أن يهمل أفضل أنبيائه أربعين سنة بغير عبادة؟! والمكابرة في ذلك سفسطة، فلا يخلو إما أن يكون عاملاً بشريعة مختصة به أوحى الله إليه بها، وهو المطلوب، أو عاملاً بشريعة غيره (1).

نعم روى أحمد في مسنده، عن سعيد بن زيد قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة هو وزيد بن حارثة، فمرّ بهما زيد بن عمرو بن نفيل فدعوه إلى سفرة لهما، فقال يابن أخي إني لا أكل مما ذبح على النصب، قال: فما روي النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على النصب، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن أبي كان كما قد رأيت وبلغك، ولو أدركك لآمن بك واتبعك فاستغفر له؟ قال: نعم، فاستغفر له فإنه يبعث يوم القيامة أمة واحدة (2).

نحن لا نعلق على هذا الحديث شيئاً سوى أنه يستلزم أن يكون زيد أعرف بأحكام الله تعالى من النبي الأكرم، الذي كان بمقربة من البعث إلى هداية الأمة، أضف إليه أن الحديث مروى عن طريق سعيد بن زيد الذي يدعي فيه شرفاً لأبيه، وفي الوقت نفسه نقصاً للنبي صلى الله عليه وآله. (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) (3).

هذا كلّه حول القول الأوّل.

ص: 287

1- البحار : 18 / 280.

2- مسند أحمد : 1 / 189 - 190.

3- الكهف : 5.

نظرية التوقف في تعبدہ

أمّا الثاني : أعني التوقف ، فقد ذهب إليه المرتضى ، واستدل على مختاره بقوله : والذي يدل عليه أنّ العبادة بالشرائع تابعة لما يعلمه الله تعالى من المصلحة بها في التكليف العقلي ، ولا يمتنع أن يعلم الله تعالى أنه لا مصلحة للنبي صلى الله عليه وآله قبل نبوته في العبادة بشيء من الشرائع ، كما أنه غير ممتنع أن يعلم أنّ له صلى الله عليه وآله في ذلك مصلحة ، وإذا كان كل واحد من الأمرين جائزاً ولا دلالة توجب القطع على أحدهما وجب التوقف (1).

وما ذكره محتمل في حد نفسه ، ولكنّه مدفوع بما في الأخبار والآثار من عبادته واعتكافه ، وقد عرفت أنّه كان يتعبد لله ، وكانت له أعمال فردية واجتماعية تحتاج إلى أن تكون وفق شريعة ما.

نظرية عمله بالشرائع السابقة

وهذا هو القول الثالث بشقوقه الأربعة : فيتصوّر على وجهين :

الأول : أن يعمل على طبق أحد الشرائع الأربع تابعاً لصاحبها ومقتدياً به بوجه يعد أنّه من أمّته ؛ وهذا الشق مردود من جهات :

أ. أنّ هذا يتوقف على ثبوت عموم رسالات أصحاب هذه الشرائع ، وهو غير ثابت ، وقد أوضحنا حالها في الجزء الثالث من موسوعة مفاهيم القرآن (2).

ب. أنّ العمل بهذه الشرائع فرع الاطلاع عليها ، وهو إما أن يكون حاصلًا

ص: 288

1- الذريعة : 2 / 596.

2- لاحظ الجزء الثالث : 77 - 116.

من طريق الوحي ، فعندئذ يكون عاملاً بشريعة من تقدم ولا يكون تابعاً لصاحبها ومقتدياً به ، وإن كان عاملاً بالشريعة التي نزلت قبله ، وهذا نظير أنبياء بني إسرائيل فقد كانوا مأمورين بالحكم على طبق التوراة مع أنهم لم يكونوا من أمة موسى قال سبحانه : (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلِمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) (1) ، وإلى هذا الشق يشير المرتضى بقوله : إنه غير ممتنع أن يوجب الله تعالى عليه بعض ما قامت الحجة من بعض الشرائع المتقدمة لا على وجه الاقتداء بغيره فيها ولا الاتباع.

وإما أن يكون حاصلًا من طريق مخالطة أهل الكتاب وعلمائهم وهذا مما لا تصدّقه حياته إذ لم يكن مخالطاً لهم ولم يتعلم منهم شيئاً ولم يسألهم.

يقول العلامة المجلسي : لو كان متعبداً بشرع لكان طريقه إلى ذلك إما الوحي أو النقل ، ويلزم من الأول أن يكون شرعاً له لا شرعاً لغيره ، ومن الثاني التعويل على اليهود ، وهو باطل (2).

ج. أنّ العمل بشريعة من قبله ما سوى المسيح بن مريم ، يستلزم أن يكون عاملاً بالشرائع المنسوخة فهو أشدّ فساداً ، فكيف يجوز العمل بشريعة نسخت ؟

قال الشيخ الطوسي : فإن قالوا : كان متعبداً بشريعة موسى ، فإنّ ذلك فاسد حيث إنّ شريعته كانت منسوخة بشريعة عيسى ، وإن قالوا : كان متعبداً بشريعة عيسى فهو أيضاً فاسد ، لأنّ شريعته قد انقطعت واندرس نقلها ولم تتصل كاتصال نقل المعجزة ، وإذا لم تتصل لم يصح أن يعمل بها (3).

ص : 289

1- المائدة : 44.

2- البحار : 18 / 276.

3- عدة الأصول : 2 / 61.

أضف إلى ذلك أنه لم يثبت أن عيسى جاء بأحكام كثيرة، بل الظاهر أنه جاء لتحليل بعض ما حرّم في شريعة موسى عليه السلام قال سبحانه : (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) (1) ، فلو كان النبي عاملاً بشريعة عيسى ففي الحقيقة يكون عاملاً بشريعة موسى المعدلة بما جاء به عيسى.

د. اتفقت الآثار على كونه أفضل الخلق واقتداء الفاضل بالمفضول غير صحيح عقلاً ، قال الشيخ الطوسي : إنّه صلى الله عليه وآله أفضل من جميع الأنبياء ولا- يجوز أن يؤمر الفاضل باتباع المفضول ، ولم يخص أحد تفضيله على سائر الأنبياء ، بوقت دون وقت ، فيجب أن يكون أفضل في جميع الأوقات.

وهذه الوجوه وإن كان بعضها غير خال من الإشكال لكن الجميع يزيّف القول بأنّه كان يعمل بشريعة من قبله.

وأما دليل من قال بهذا القول فضعيف جداً حيث قال : كيف يصح أن يقال : أنّه لم يكن متعبداً بشريعة من تقدّم مع أنّه كان يطوف بالبيت ويحج ويعتمر ويذكي ويأكل المذكي ويركب البهائم ؟ (2)

وفيه أولاً : أنّ بعض ما ذكره يعد من المستقلات العقلية ، فتكفي فيه هداية العقل ودلالته.

وثانياً : أنّ الدليل أعم من المدعى ، لأنّ عمله كما يمكن أن يكون مستنداً إلى شريعة من قبله ، يمكن أن يكون مستنداً إلى الوحي إليه ، لا اتّباعاً لشريعة ، وسوف

ص: 290

1- آل عمران : 50.

2- الذريعة : 2 / 596 ; العدة : 60 - 61.

يوافيك أنه كان يوحى إليه قبل أن يتشرف بمقام الرسالة وأن نبوته كانت متقدمة على رسالته ، وأن جبريل نزل إليه بالرسالة عندما بلغ الأربعين ، والاستدلال مبني على أن نبوته ورسالته كانتا في زمان واحد ، وهو غير صحيح كما سيأتي .

وعلى هذا الوجه الصحيح لا نحتاج إلى الإجابة عن الاستدلال بما تكلف به المرتضى في ذريعته ، والطوسي في عدته .

قال الأول : لم يثبت عنه صلى الله عليه وآله أنه قبل النبوة حج أو اعتمر ، وبالتنظي لا يثبت مثل ذلك ، ولم يثبت أيضاً أنه صلى الله عليه وآله و آله تولّى التذكية بيده ، وقد قيل أيضاً : إنه لو ثبت أنه ذكى بيده ، لجاز أن يكون من شرع غيره في ذلك الوقت ، « أن يستعان بالغير في الذكاة » (1) فذكى على سبيل المعونة لغيره ، وأكل اللحم المذكى لا شبهة في أنه غير موقوف على الشرع ، لأنه بعد الذكاة قد صار مثل كل مباح من المأكّل ، وركوب البهائم والحمل عليها ، يحسن عقلاً إذا وقع التكفل بما يحتاج إليه من علف وغيره ، ولم يثبت أنه عليه السلام فعل من ذلك ما لا يستباح بالعقل فعله (2) .

وقريب منه ما في عدّة الشيخ الطوسي (3) .

ولا يخفى أن بعض ما ذكره وإن كان صحيحاً ، لكن إنكار حجه واعتماره وعبادته في حرّاء واتجاره الذي يتوقف الصحيح منه على معرفة الحلال والحرام ، ممّا لا يمكن إنكاره ، فلا محيص عن معرفته بالمقاييس الصحيحة في هذه الموارد ، إمّا من عند نفسه ، أو من ناحية الاتّباع لشرعية غيره .

ص : 291

1- يريد أن من أحكام الشريعة السابقة أن يستعين الرجل في تذكية الحيوان بالغير - وعلى ذلك - فالنبي ذكى نيابة عن الغير ، ولأجله ولم يذك لنفسه .

2- الذريعة : 2 / 597 - 598 .

3- عدة الأصول : 2 / 63 .

إذا تبين عدم صحة هذه الأقوال الثلاثة تثبت الوجوه الأخيرة التي يقرب بعضها من بعض ، ويجمع الكل إنّه كان يعمل حسب ما يلهم ويوحى إليه ، سواء أكان مطابقاً لشرع من قبله أم مخالفاً ، وإنّ هاديه وقائده منذ صباه إلى أن بعث هو نفس هاديه بعد البعثة.

ويدل على ذلك وجوه :

1. ما أثر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من أنّه من لدن كان فطيماً كان مؤيداً بأعظم ملك يعلمه مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وهذه مرتبة من مراتب النبوة وإن لم تكن معها رسالة.

قال عليه السلام : « ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره » (1).

إنّنا مهما جهلنا بشيء ، فلا يصح لنا أن نجعل بأنّ النبوة منصب إلهي لا يتحمّلها إلاّ الأمثل فالأمثل من الناس ، ولا يقوم بأعبائها إلاّ من عمّر قلبه بالإيمان ، وزوّد بالخلوص والصفاء ، وغمره الطهر والقداسة وأعطى مقدرة روحية عظيمة ، لا يتهيب حينما يتمثل له رسول ربّه وأمين وحيه ، ولا تأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه ، وتلك المقدرة لا تقاض من الله على عبد إلاّ أن يكون في رعاية ملك كريم من ملائكته سبحانه ، يرشده إلى معالم الهداية ومدارج الكمال ، ويصونه من صباه إلى شبابه ، وإلى كهولته عن كل سوء وزلة. وهذا هو السرّ في وقوعه تحت كفالة أكبر ملك من ملائكته حتى تستعد نفسه لقبول

ص: 292

الوحي ، وتتحمل القول الثقيل الذي سيلقى عليه.

2. ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنَّث فيه ، - وهو التعمّد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ (1).

3. روى الكليني بسند صحيح عن الأ-حول قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبى والمحدّث قال : « الرسول الذي يأتيه جبرئيل قبلاً ... وأمّا النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ، ونحو ما كان رأى رسول الله من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة » (2).

وهذه المأثورات تثبت بوضوح أنه صلى الله عليه وآله قبل أن يُبعث ، كان تحت كفالة أكبر ملك من ملائكة الله ، يرى في المنام ويسمع الصوت ، قبل أن يبلغ الأربعين سنة ، فلما بلغها بُدّر بالرسالة ، وكلمه الملك معاينة ونزل عليه القرآن ، وكان يعبد الله قبل ذلك بصنوف العبادات ، إمّا موافقاً لما سيؤمر به بعد تبليغه ، أو مطابقاً لشريعة إبراهيم أو غيره ، ممن تقدمه من الأنبياء ، لا على وجه كونه تابعاً لهم وعاملاً بشريعتهم ، بل بموافقة ما أوحى إليه مع شريعة من تقدّم عليه.

ثم إن العلامة المجلسي استدل على هذا القول بوجه آخر ، وهو : أنّ يحيى وعيسى كانا نبيّين وهما صغيران ، وقد ورد في أخبار كثيرة أنّ الله لم يعط نبياً فضيلة

ص: 293

1- صحيح البخاري : 1 / 3 ، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ; السيرة النبوية : 1 / 234 - 236.

2- الكافي : 1 / 176.

ولا كرامة ولا معجزة إلا وقد أعطاهما نبينا صلى الله عليه وآله ، فكيف جاز أن يكون عيسى عليه السلام في المهدي نبياً ولم يكن نبينا صلى الله عليه وآله إلى أربعين سنة نبياً (1)؟!

قال سبحانه حاكياً عن المسيح : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) (2) ، وقال سبحانه مخاطباً ليحيى : (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (3).

ولازم ذلك أن النبي قبل بعثته في صباه أو بعد ما أكمل الله عقله كان نبياً مؤيداً بروح القدس يكلمه الملك ، ويسمع الصوت ويرى في المنام.

وإنما بُعث إلى الناس بعد ما بلغ أربعين سنة ، وعند ذلك كَلَّمَهُ الْمَلِكُ معاينة ونزل عليه القرآن وأمر بالتبليغ.

ويؤيد ذلك ما رواه الجمهور عنه صلى الله عليه وآله من أنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد (4).

هذا كله راجع إلى حاله قبل بعثته ، وأما بعدها فنأتي بمجمل القول فيه :

حاله بعد البعثة

قد عرفت حال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل بعثته ، فهلّم معي ندرس حاله بعدها ،

ص: 294

1- البحار : 18 / 279.

2- مريم : 30 - 31.

3- مريم : 12.

4- نقل العلامة الأميني مصادره عن عدة من الكتب ، وذكر أنّ للحديث عدّة ألفاظ من طرق شتى . لاحظ الجزء 9 / 287.

وقد اختلفوا فيه أيضاً على قولين :

فمن قائل : إنه كان يتعبد بشرع من قبله.

ومن قائل آخر ينفيه بتاتاً.

وقد بسط الكلام في هذا المقام السيد المرتضى في « ذريعته » وتلميذه الجليل في « عدته » فاختارا القول الثاني وأوضحا برهانه (1).

غير أنني أرى البحث في ذلك عديم الفائدة ، لأنّ المسلمين اتفقوا على أنّه بعد البعثة ، ما كان يقول إلّا ما يوحى إليه ، ولا يصدر عنه شيء إلّا عن هذا الطريق ، فإذا كان الواجب علينا اقتفاء أمره ونهيه ، والعمل بالوحي الذي نزل عليه ، فأبي فائدة في البحث عن أنّه هل كان ما يأمر به وينهى عنه ، صدر عن التعبد بشريعة من قبله ، أو صدر عن شريعته ؟ إذ الواجب علينا الأخذ بما أتى به ، بأي لون وشكل كان ، وفي ذلك يقول المحقق الحلّي : إنّ هذا الخلاف عديم الفائدة ، لأنّ لا نشك أنّ جميع ما أتى به لم يكن نقلاً عن الأنبياء ، بل عن الله تعالى بإحدى الطرق الثلاث التي أشير إليها في قوله سبحانه : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (2).

فإذا كان صلى الله عليه وآله لا يصدر عنه شيء إلّا عن طريق الوحي ، فلا تترتب على البحث أية فائدة ، فسواء أكان متعبدًا بشرع من قبله أم لم يكن ، فهو صلى الله عليه وآله لا يأمر ولا ينهى إلّا بأذنه سبحانه (3).

ص: 295

1- الذريعة : 2 / 598 ; العدة : 2 / 61.

2- الشورى : 51.

3- لاحظ المعارج : 65 ، بتوضيح منّا.

قال سبحانه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (1)، وقال عز من قائل: (كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (2)، وقال تعالى: (إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (3)، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل بوضوح على أن كل ما يأمر وينهي، مستند إلى الوحي منه سبحانه إليه، سواء أمره بالأخذ من الشرع السابق أم أمره بما يماثله أو يخالفه.

أضف إلى ذلك إنه إذا لم يجز له التعبد بالشرع السابق قبل البعثة بالدلائل السابقة لم يجز له أيضاً بعدها.

نعم هناك بحث آخر وهو حجية شرع من قبلنا للمستتبذ إذا لم يجد في الشريعة المحمدية دليلاً على حكم موضوع خاص، فهل يجوز أن يعمل بالحكم الثابت في الشرائع السماوية السالفة ما لم يثبت خلافه في شرعنا أم لا؟

فهذه مسألة أصولية طرحها الأصوليون في كتبهم قديماً وجديداً، فاستدل القائلون بالجواز بالآيات التالية:

1. (فَبِهَدَاهُمْ أَفْتَدِهِ) (4).

2. (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) (5).

3. (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا) (6).

ص: 296

1- النجم : 3 - 4.

2- الشورى : 3.

3- الأحقاف : 9.

4- الأنعام : 90.

5- النحل : 123.

6- الشورى : 13.

4. (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ) (1).

ولكن الكلام في دلالة هذه الآيات على ما يتبناه هؤلاء وهي غير واضحة ، وقد بسط المحقق الكلام في دلالة الآيات في أصوله (2) ، ونقله العلامة المجلسي في « بحاره » (3) ، ونحن نحيل القارئ الكريم إلى مظانّه.

الآيات التي وقعت ذريعة لبعض المخطئة

إشارة

هذا حال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة ، وحال أجداده وآبائه وبعض أعمامه ، وقد خرجنا من هذا البحث الضافي بهذه النتائج :

1. إنّ النبي صلى الله عليه وآله قد ولد في بيت كان يسوده التوحيد وقد ترعرع وشب واكتهل في أحضان رجال لم يتخلّفوا عن الدين الحنيف قيد شعرة.

2. إنّ النبي صلى الله عليه وآله منذ نعومة أظفاره كان تحت رعاية أكبر ملك من ملائكته سبحانه فيلهم ويوحى إليه قبل أن يبلغ الأربعين ، ويخلع عليه ثوب الرسالة.

3. إنّ النبي صلى الله عليه وآله كان مؤمناً بالله ، وموحداً له ، يعبده ، ولا يعبد غيره ، ويتقرب إليه بالطاعات والقربات ، ويتجنب المعاصي والمآثم.

هذه هي الحقيقة الملموسة من حياته يقف عليها من سبر تاريخ حياته بامعان ، وقد مرّ أنّ هناك آيات وقعت ذريعة لبعض المخطئة لعصمته ، فدخلت لأجلها في أذهانهم شبهات في إيمانه وهدايته قبل البعثة.

ص: 297

1- المائدة : 44.

2- معارج الأصول : 157.

3- البحار : 18 / 276 - 277.

وهؤلاء بدل أن يفسروا الآيات على غرار التاريخ المسلم من حياته ، أو يسلطوا الضوء عليها بما تضافرت الأخبار والروايات عليه ، عكسوا الأمر فرفضوا التاريخ المسلم الصحيح والروايات المتضافرة اغتراراً ببعض الظواهر مع أنها تهدف إلى مقاصد أخر تتضح من البحث الآتي ، وإليك هذه الآيات :

1. (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) (1).

2. (وَبِابِكَ فَطَهَّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (2).

3. (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (3).

4. (وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) (4).

5. (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (5).

وقد استدلت المنحطّة بهذه الآيات على مدّعاها ، بل على زعم سلب الإيمان عنه قبل أن يبعث ، لكنّها لا تدل على ما يريدون ولأجل تسليط الضوء على مقاصدها نبحت عنها واحدة بعد واحدة.

ص: 298

1- الضحى : 6 - 7.

2- المدثر : 4 - 5.

3- الشورى : 52.

4- القصص : 86.

5- يونس : 16.

إنّ قوله سبحانه : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) هل يتضمن هدايته بعد الضلالة ؟

وقد ذكر المفسرون للآية عدّة احتمالات أنهاها الرازي في تفسيره إلى ثمانية ، لكن أكثرها من مخترعات الذهن ، لأجل الإجابة عن استدلال الخصم على كونه صلى الله عليه وآله كان ضالاً قبل البعثة ، غير مؤمن ولا موحد ، فهده الله سبحانه ، ولكن الحق في الجواب أن يقال :

إنّ الضال يستعمل في عرف اللغة في موارد :

1. الضال : من الضلالة : ضد الهداية والرشاد.

2. الضال : من ضل البعير : إذا لم يعرف مكانه.

3. الضال : من ضل الشيء : إذا ضلّ وخفي ذكره.

وتفسير الضال بأيّ واحد من هذه المعاني لا يثبت ما تدعيه المخطئة سواء أجعلناها معاني مختلفة جوهرًا وشكلًا ، أم جعلناها معنى واحداً جوهرًا ومختلفًا شكلًا وصورة ، فإنّ ذلك لا يؤثر فيما نرتبه ، وإليك توضيحه :

أمّا المعنى الأوّل : فهو المقصود من تلك اللفظة في كثير من الآيات ، قال سبحانه : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) (1) ، لكن الضلالة بمعنى ضد الهداية والرشاد يتصور على قسمين :

قسم : تكون الضلالة فيه وصفًا وجوديًا ، وحالة واقعية كامنة في النفس ،

ص : 299

توجب منقصتها وظلمتها ، كالكافر والمشرك والفاسق ، والضلالة في هاتيك الأفراد صفة وجودية تكمن في نفوسهم ، وتزايد حسب استمرار الإنسان في الكفر والشرك والعصيان والتجزي على المولى سبحانه ، قال الله سبحانه : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (1).

فإنّ لازدياد الإثم بالجوارح تأثيراً في زيادة الكفر ، وقد وصف سبحانه بعض الأعمال بأنّها زيادة في الكفر قال سبحانه : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا) (2).

وقسم منه : تكون الضلالة فيه أمراً عديماً ، بمعنى كون النفس فاقدة للرشاد غير مالكة له ، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنّه غير واجد للهداية من عند نفسه ، وفي الوقت نفسه لا تكمن فيه صفة وجودية مثل ما تكمن في نفس المشرك والعاصي ، وهذا كالطفل الذي أشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير من الشر ، والصلاح من الفساد ، والسعادة من الشقاء ، فهو آنذاك ضال ، لكن بالمعنى الثاني ، أي غير واجد للنور الذي يهتدي به في سبيل الحياة ، لا ضال بالمعنى الأوّل بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق في روحه .

إذا عرفت ذلك ، فاعلم : أنّه لو كان المراد من الضال في الآية ، ما يخالف الهداية والرشاد فهي تهدف إلى القسم الثاني منه لا الأوّل : بشهادة أنّ الآية بصدد توصيف النعم التي أفاضها الله سبحانه على نبيّه يوم افتقد أباه ثم أمّه فصار يتيماً لا ملجأ له ولا مأوى ، فأواه وأكرمه ، بجده عبد المطلب ثم بعمّه أبي طالب ، وكان

ص: 300

1- آل عمران : 178.

2- التوبة : 37.

ضالاً في هذه الفترة من عمره ، فهداه إلى أسباب السعادة وعرفه وسائل الشقاء.

والالتزام بالضلالة بهذا المعنى لازم القول بالتوحيد الإفعالي ، فإن كل ممكن كما لا يملك وجوده وحياته ، لا يملك فعله ولا هدايته ولا رشده إلا عن طريق ربه سبحانه ، وإنما يفاض عليه كل شيء منه قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (1) ، فكما أن وجوده مفاض من الله سبحانه ، فهكذا كل ما يوصف به من جمال وكمال فهو من فيوض رحمته الواسعة ، والاعتقاد بالهداية الذاتية ، وغناء الممكن بعد وجوده عن هدايته سبحانه يناقض التوحيد الإفعالي الذي شرحناه في موسوعة مفاهيم القرآن (2).

وقد تضافرت الآيات على هذا الأصل ، وأن هداية كل ممكن مكتسبة من الله سبحانه من غير فرق بين الإنسان وغيره ، وفي الأول بين النبي وغيره ، قال سبحانه : (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (3) ، وقال سبحانه : (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) (4) ، وقال سبحانه : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) (5) ، وقال سبحانه : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) (6) ، وقال تعالى : (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) (7) ، وقال تبارك وتعالى : (وَإِنْ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) (8) ، إلى غير ذلك من الآيات.

ص: 301

1- فاطر : 15.

2- لاحظ الجزء الأول : 297 - 376.

3- طه : 50.

4- الأعلى : 2 - 3.

5- الأعراف : 43.

6- الشعراء : 78.

7- الزخرف : 27.

8- سبأ : 50.

وعلى هذا الأساس فالآية تهدف إلى بيان النعم التي أنعمها سبحانه على حبيبه منذ صباه فأواه بعد ما صار يتيماً لا مأوى له ولا ملجأ ، وأفاض عليه الهداية بعدما كان فاقداً لها حسب ذاتها ، وأما تحديد زمن هذه الإفاضة فيعود إلى أوليات حياته وأيام صباه بقرينة ذكره بعد الإيواء الذي تحقّق بعد اليتيم ، وتمّ بجده عبد المطلب فوقع في كفالته إلى ثماني سنين ويؤيد ذلك قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره » (1).

والحاصل : إنّ الهداية في الآية نفس الهداية الواردة في قوله : (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ، وفي قوله : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) إلى غير ذلك من الآيات التي أوعزنا إليها ، والاعتقاد بكونه ضالاً أي فاقداً لها في مقام الذات ثم أفيضت عليه الهداية ، هو مقتضى التوحيد الإفعالي ولازم كون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ممكناً بالذات ، فاقداً في ذاته كل كمال وجمال ، مفاضاً عليه كل جميل من جانبه سبحانه ، وأين هو من الضلالة المساوقة للكفر والشرك أو الفسق والعصيان ؟!

وإن شئت قلت : إنّ الضلالة في الآية ترادف الخسران الوارد في قوله سبحانه : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) والهداية فيها ترادف الإيمان والعمل الصالح الواردين بعده (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (2) ، فالإنسان بما أنّه يصرف رأس ماله ، أعني : عمره الغالي كل يوم ، خاسر بالذات ، إلا إذا اكتسب به ما يبقى ولا ينفد أثره وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح ، والنبي وغيره في هذه الأحكام سواسية بل في كل التوصيفات الواردة في مجال الإنسان التي يثبتها القرآن له ولا

ص: 302

1- نهج البلاغة : الخطبة 178 ، والتي تسمى بالقاصعة.

2- العصر : 2 - 3.

وجه لإرجاعها إلى صنف دون صنف ، بعد كونها من خواص الطبيعة الإنسانية ما لم تقع تحت رعاية الله وهدايته.

وبذلك يتبين أنّ الضلالة في الآية - لو فسرت بصد الهدى والرشاد - لا تدل على ما تدّعيه المخطئة ، بل هي بصدد بيان قانون كلي سائد على عالم الإمكان من غير فرق بين الإنسان وغيره ، وفي الأول بين النبي وغيره.

حول الاحتمالين الآخرين

ولكن هذا المعنى غير متعين في الآية إذ من المحتمل أن تكون الضلالة فيها مأخوذة من « ضل الشيء : إذا لم يعرف مكانه » و « ضلت الدراهم : إذا ضاعت وافتقدت » و « ضل البعير : إذا ضاع في الصحارى والمفاوز » وفي الحديث : « الحكمة ضالة المؤمن أخذها أين وجدها » أي مفقودته ولا يزال يتطلبها ، وقد اشتهر قول الفقهاء في باب « الجعالة » : « من رد ضالتي فله كذا ».

فالضال بهذا المعنى ينطبق على ما نقله أهل السير والتاريخ عن أوليات حياته من أنه ضل في شعاب مكة وهو صغير ، فمنّ الله عليه إذ رده إلى جدّه ، وقصته معروفة في كتب السير (1).

ولولا رحمته سبحانه لأدركه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً ، فشملته العناية الإلهية فردّه إلى مأواه وملجأه.

وهناك احتمال ثالث لا يقصر عمّا تقدمه من احتمالين ، وهو أن تكون

ص: 303

1- لاحظ السيرة الحلبية : 1 / 131 ويقول : عن حيدة بن معاوية العامري : سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول : يا رب رد راكبي محمداً
*** أردده ربي واصطنع عندي يداً

الضلالة في الآية مأخوذة من « ضل الشيء إذا خفي وغاب عن الأعين » قال سبحانه : (أَعِزَّا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَعِنَّا لِي خَلَقَ جَدِيدٍ) (1) ، فالإنسان الضال هو الإنسان المخفي ذكره ، المنسي اسمه ، لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ولا يهتدي كثير منهم إليه ، ولو كان هذا هو المقصود ، يكون معناه أنه سبحانه رفع ذكره وعرفه بين الناس عندما كان خاملاً ذكره منسياً اسمه ، ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتحليل ما ورد في سورة الضحى قائلاً : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنَّا وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (2) فرفع ذكره في العالم ، عبارة عن هداية الناس إليه ورفع الحواجز بينه وبين الناس ، وعلى هذا فالمقصود من « الهداية » هو هداية الناس إليه لا هدايته ، فكأنه قال : فوجدك ضالاً ، خاملاً ذكرك ، باهتاً اسمك ، فهدى الناس إليك ، وسير ذكرك في البلاد.

وإلى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام - على ما في خبر ابن الجهم - بقوله : « قال الله عز وجل لنبي محمد صلى الله عليه وآله : « (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) يقول : (أَلَمْ يَجِدْكَ) وحيداً (فَآوَى) إليك الناس (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) يعني عند قومك (فَهَدَى) أي هداهم إلى معرفتك » (3).

هذه هي الاحتمالات المعقولة في الآية ولا يدل واحد منها على ما تتبناه المخطئة وإن كان الأظهر هو الأول.

ويعجبني في المقام ما ذكره الشيخ محمد عبده في « رسالة التوحيد » فقال :

ص: 304

1- السجدة : 10.

2- الانشراح : 1 - 4.

3- البحار : 16 / 142.

وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته ، توفي جدّه ، فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنّه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله.

وكان صلى الله عليه وآله من بني عمه وصبيّة قومه ، كأحدهم على ما به من يتم ، فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقيم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من خلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنّه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين ، أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصاً مع فقر القوّم ، فاكتهل صلى الله عليه وآله كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلماً وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أنّ يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أوّل نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممّن يخالطه ، ولا سيما إن كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على مجاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالتهم كما فعل القليل ممّن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) لا يفهم منه أنّه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم

قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك لهو الافك المبين ، وإتّما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين وإرشاد الضالين (1).

الآية الثانية : الأمر بهجر الرجز

يقول سبحانه : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) (2).

استدلّت المخطّئة بأنّ الرجز بمعنى الصنم والوثن ، ففي الأمر بهجره إيعاز لوجود أرضية صالحة لعبادتهما في شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله .

أقول : إنّ الرجز في القرآن الكريم استعمل في المعاني الثلاثة التالية :

1. العذاب.

2. القذارة.

3. الصنم.

ولك أن تقول : إنّ المفاهيم الثلاثة أشكال لمعنى واحد جوهراً ، وليست بمعان متعددة ، ولكن تعيين أحد الأمرين لا يؤثر فيما نرتّبه ، توضيح ذلك :

إنّ « الرجز » : بكسر الراء قد استعمل في القرآن تسع مرّات ، وقد أريد منه في جميعها العذاب إلّا في مورد واحد ، وإليك مظانها : البقرة / 59 ، الأعراف / 134 وجاءت اللفظة فيها مرتين ، والأعراف / 145 و 162 ، الأنفال / 11 ، سبأ / 5 ، الجاثية / 11 ، والعنكبوت / 29.

ص: 306

1- رسالة التوحيد : 135 - 136.

2- المدثر : 1 - 7.

وأما « الرجز » : بضم الراء ، فقد جاء في القرآن الكريم مرّة واحدة ، وهي الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، فسواء أريد منها العذاب أم غيره من المعنيين ، فلا يدل على ما ذهبت إليه المخطّطة ، وإليك بيان ذلك :

أ. « الرجز » العذاب : فلو كان المقصود منه العذاب فيدل على الأمر بهجر ما يستلزم العذاب ، وبما أنّ الآيات القرآنية نزلت بعنوان التعليم فلا تدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان مشرفاً على ما يجزّ العذاب ، لأنّ هذه الخطابات من باب « إياك أعني واسمعي يا جارة » ، وهذا النوع من الخطاب بمكان من البلاغة ، لأنّه سبحانه إذا خاطب أعزّ الناس إليه بهذا الخطاب فغيره أولى به ، ومن هنا يقدر القارئ الكريم على حل كثير من الآيات التي تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بلحن حاد وشديد ، فتقول : (لئن أشركت ليحبطنّ عملك) (1) ، وليست الآية دليلاً على وجود أرضية الشرك في شخصية النبي صلى الله عليه وآله فنهاء عنه سبحانه ، بل الآيات آيات عامّة نزلت للتعليم ، والخطاب موجه إليه والمقصود منها عامة الناس ، نرى أنّه سبحانه يخاطب نبيّه الأكرم في سورة القصص بالخطابات الناهية الأربعة المتوالية ، الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمقصود منه هو الأمة ويقول : (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصِدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَإِذْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُسْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (2).

وهذا هو المقياس في أكثر الخطابات الناهية الواردة في القرآن الكريم.

ب. الرجز بمعنى القذارة : ثم إنّ القذارة على قسمين : القذارة المادية ،

ص: 307

1- الزمر : 65.

2- القصص : 86 - 88.

والقدارة المعنوية ، فيحتمل أن يكون المراد هو الأول ، وقد ورد في الروايات أن أبا جهل جاء بشيء قذر ونادى أصحابه ، وقال : هل فيكم رجل يأخذه مني ويلقيه على محمد ؟ فأخذه بعض أصحابه فألقاه عليه ، فحينئذ تكون الآية ناظرة إلى تطهير الثوب عن الدنس ، وإن أُريد القدارة المعنوية فالمراد هو الاجتناب عن الأفعال والصفات الذميمة ، فإن الآية نزلت للتعليم فلا تدل على اتصاف النبي الأكرم بها.

ج. الرجز بمعنى الصنم : نفترض أن المقصود منه في الآية هو الصنم لكن لا-بمعنى أنه وضع لذلك المعنى ، وإنما وضع اللفظ لمعنى جامع يعم الصنم والخمر والأزلام ، لاشتراك الجميع في كونها رجساً ، ولأجل ذلك وصف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) (1).

ولكن الجواب عن هذه الصورة هو الجواب عن الصورتين الأوليين ، والشاهد على ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله يوم نزلت الآية لم يكن عابداً للوثن ، بل كان مشمراً لتحطيم الأصنام ومكافحة عبدها ، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنه ، بهجر الأصنام إلا على الوجه الذي أوعزنا إليه.

الآية الثالثة : عدم علمه بالكتاب والإيمان

إشارة

قوله سبحانه : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (2).

ص: 308

1- المائدة : 90.

2- الشورى : 52.

استدلت المخطئة لعصمة النبي الأكرم بهذه الآية وزعمت - والعياذ بالله - دلالة الآية على أنه كان فاقداً للإيمان قبل الإحياء إليه ، وقد انقلب وصار مؤمناً موحداً بالوحي وبعد نزوله إليه.

لكن حياته المشرقة - بالإيمان والتوحيد - تفند تلك المزعمة ، بشهادة التاريخ على أنه من بداية عمره إلى أن لاقى ربه ، كان مؤمناً موحداً ، وليس ذلك أمراً قابلاً للشك والترديد ، وقد أصفق على ذلك أهل السير والتاريخ وحتى كان الأخبار والرهبان معترفين بأنه نبي هذه الأمة وخاتم الرسالات الإلهية ، وكان صلى الله عليه وآله يسمع تلك الشهادات منهم في فترات خاصة في « مكة » و « يثرب » و « بصرى » و « الشام » وغيرها ، وعلى ذلك فكيف يمكن أن يكون غافلاً عن الكتاب الذي ينزل إليه ، أو يكون مجاناً عن الإيمان بوجوده سبحانه وتوحيده ، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكد على عدم صدق ذلك الاستظهار ، وعلى ضوء هذا ، لا بد من إمعان النظر في مفاد الآية كما لا بد في تفسيرها من الاستعانة بالآيات الواردة في ذلك المساق فنقول :

بعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله - لهداية قومه أولاً ، وهداية جميع الناس ثانياً - بالآيات والبيّنات ، وأخص بالذكر منها : كتابه وقرآنه (معجزته الكبرى الخالدة) الذي بفصاحته أخرج فرسان الفصاحة ، وقادة الخطابة ، وببلاغته قهر أرباب البلاغة وملوك البيان ، وخلق عقولهم وقد دعاهم إلى التحدي والمقابلة ، فلم يكن الجواب منهم إلا إثارة التهم حوله ، فتارة قالوا : بأنه (يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) ، وأخرى بأنه (إِنْكَافُتْرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) ، وثالثة : بأنه (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) ، قال سبحانه ردّاً على هذه التهم التي أوعزنا إليها : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُسَدِّ لِمِينَ * وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (1)، وقال سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (2).

والآية التي تمسكت بها المنخضة بصدد بيان هذا الأمر وأنه وحي سماوي لا إفك افتراه، ولأجل ذلك بدأ كلامه بلفظة (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، أي كما أنه سبحانه أوحى إلى سائر الأنبياء بإحدى الطرق الثلاثة التي بينها في الآية المتقدمة، أوحى إليك أيضاً روحاً من أمرنا، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كلام ربك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام في الآية، ولأجل رفع النقاب عن مرامها نقدم أموراً تسلط ضوءاً عليه :

الأول: المراد من الروح في الآية هو القرآن، وسمي روحاً لأنه قوام الحياة الأخروية، كما أن الروح في الإنسان قوام الحياة الدنيوية، ويؤيد ذلك أمور :

أ. أن محور البحث الأصلي في سورة الشورى، هو: الوحي والآيات الواردة فيها البالغ عددها 53 آية، تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة أو بغيرها.

ب. الآية التي تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التي يكلم بها سبحانه أنبياءه ويقول: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء إنَّه عليّ حكيم) (3).

ص: 310

1- النحل : 102 - 103.

2- الفرقان : 4 - 6.

3- الشورى : 51.

ج. ما تقدم من أنه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بلفظة (وَكَذَلِكَ) ، أي كما أوحينا إلى من تقدم من الأنبياء كذلك أوحينا إليك بإحدى هذه الطرق (رُوْحًا مِّنْ أَمْرِنَا) ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين ، هو الوحي المتجلي في نبينا بالقرآن وفي غيره بوجه آخر.

كل ذلك يؤيد أن المراد منه هو القرآن الملقى إليه ، نعم وردت في بعض الروايات أن المراد منه هو (رُوْحُ الْقُدُسِ) ولكنه لا ينطبق على ظاهر الآية ، لأن « الروح » بحكم كونه مفعولاً ل (أَوْحَيْنَا) يجب أن يكون شيئاً قابلاً للوحي حتى يكون « موحاً » وروح القدس ليس موحاً ، بل هو الموحى بالكسر ، فكيف يمكن أن يكون مفعولاً ل (أَوْحَيْنَا) ، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صح اسنادها.

الثاني : ان هينة (ما كنت) أو (ما كان) تستعمل في نفي الإمكان والشأن قال سبحانه : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (1) ، وقال عز اسمه : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً) (1). وقال تعالى حاكياً عن بلقيس : (مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) (2).

وعلى ضوء هذا الأصل يكون مفاد قوله : (مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) انه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدري الكتاب ولا الإيمان ، فإن وقفت عليهما فإنما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث : ان ظاهر الآية أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان فاقداً للعلم بالكتاب والدراية للإيمان ، وإنما حصلت الدراية بهما في ظل الوحي وفضله ، فيجب إمعان

ص: 311

1- التوبة : 122.

2- النمل : 32.

النظر في الدراية التي كان النبي فاقداً لها قبل الوحي وصار واجداً لها بعده ، فما تلك الدراية وذاك العلم ؟

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب إليه اجمالاً ، والإيمان بوجوده وتوحيده سبحانه ؟ أو المراد العلم بتفاصيل ما في الكتاب والإذعان بها كذلك ؟

لا سبيل إلى الأول ، لأنّ علمه إجمالاً بأنّه ينزل إليه الكتاب ، أو إيمانه بوجوده سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي إليه ، ولم يكن العلم بهما مما يتوقف على الوحي ، فإنّ الأحبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب إليه في المستقبل إجمالاً ، وقد سمع منهم النبي صلى الله عليه وآله - في فترات مختلفة - أنّه النبي الموعود في الكتب السماوية ، وأنّه خاتم الرسالات والشرائع ، فهل يصح أن يقال : إنّ علمه صلى الله عليه وآله بنزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نزول الوحي ؟ أو أنّه كان متقدماً عليه وعلى بعثته ؟ ومثله الإيمان بالله سبحانه وتوحيده إذ لم يكن الإيمان بالله أمراً مشكلاً متوقفاً على الوحي ، وقد كان الأحناف في الجزيرة العربية ومن جملتهم رجال البيت الهاشمي ، موحدين مؤمنين مع عدم نزول الوحي إليهم.

وبالجملة : العلم الإجمالي بنزول كتاب إليه والإيمان بوجوده وتوحيده ، لم يكن أمراً متوقفاً على نزول الوحي حتى يحمل عليه قوله : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) . وعندئذ يتعين الاحتمال الثاني ، وهو أنّ العلم التفصيلي بمضامين الكتاب وما فيه من الأصول والتعاليم والقصص - ثم الإيمان والإذعان بتلك التفاصيل - كانا متوقفين على نزول الوحي ، ولولاه لما كان هناك علم بها ولا إيمان.

وإن شئت قلت : العلم والإيمان بالأُمور السمعية التي لا سبيل للعقل عليها - كالمعارف والأحكام والقصص ومحاكاة الأنبياء مع المشركين والكفار وما

نزل بساحة أعدائهم من إهلاك وتدمير - لا يحصلان إلا من طريق الوحي ، حتى قصص الأمم السالفة وحكاياتهم لتسرب الوضع والدرس إلى كتب القصاصين ، والصحف السماوية النازلة قبل القرآن.

تفسير الآية بآية أخرى

إن الرجوع إلى ما ورد في هذا المضممار من الآيات ، يوضح المراد من عدم درايته بالكتاب أولاً ، والإيمان ثانياً :

أما الأول : فيقول سبحانه : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (1) ، فالآية صريحة في أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن عالماً بتفاصيل الأنباء ، وقد وقف عليها من جانب الوحي ، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هذه الآية بقوله : (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ) وفي تلك الآية : بقوله : (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ) والفرق هو أن (الْكِتَابُ) أعم من (أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) والأول يشتمل على الأنباء وغيرها « وأما الأنباء » فإنها مختصة بالقصص ، والكل مشترك في عدم العلم بهما قبل الوحي والعلم بهما بعده.

وأما الثاني :

فقوله سبحانه : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَدِّجَعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (2) فقوله : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ) صريح في

ص: 313

1- هود : 49.

2- البقرة : 285.

أن متعلّق الإيمان الحاصل بعد الوحي ، هو الإيمان (بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ) ، أعني : تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة ، لا الإيمان بالله وتوحيده ، وعندئذ يرتفع الإبهام في الآية التي تمسّكت بها المخطّئة ، ويتبيّن أن متعلّق الإيمان المنفي في قوله : (وَلَا الْإِيمَانُ) هو « ما أنزل إليه » لا الإيمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل : أن هنا شيئاً واحداً ، أعني : الإيمان بما أنزل من المعارف والأحكام والأنباء ، فقد نفى عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناظرة إلى ما قبل البعثة ، وأثبت له في الآية الأخرى لكونها ناظرة إلى ما بعد البعثة.

ومن هنا تتضح أهمية عرض الآيات بعضها على بعض وتفسير الآية باختها ، فهاتان الآيتان كما عرفت كافلتان لرفع إبهام الآية وإجمالها. وقد تفتن المفسرون لما ذكرناه على وجه الإجمال فقال الزمخشري في الكشف : الإيمان اسم يتناول أشياء : بعضها الطريق إليه العقل ، وبعضها الطريق إليه السمع ، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل ، وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي (1).

وقال الطبرسي : (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ) ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان (2).

وقال الرازي : المراد من الإيمان هو الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به ، وأنه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى بل أنه كان عارفاً بالله ... ثم قال : صفات الله تعالى على قسمين : منها ما تمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا تمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية ، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته

ص: 314

1- الكشف : 3 / 88 - 89.

2- مجمع البيان : 37 / 5.

وقال العلامة الطباطبائي في «الميزان»: «إن الآية مسوقة لبيان أن ما عنده صلى الله عليه وآله الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه وإنما أُوتي ما أُوتي من ذلك، بالوحي بعد النبوة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية، فإن ذلك هو الذي أُوتي العلم به بعد النبوة والوحي، والمراد من عدم درايته الإيمان، عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة، وقد سمي العمل إيماناً في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ) (2)، والمراد الصلوات التي أتى بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ، والمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح، علم الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً به بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام التفصيلي والاعتقادي، وهذا لا ينافي كونه مؤمناً بالله موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله، فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً، لا نفي العلم والالتزام الإجماليين بالإيمان بالله والخضوع للحق (3).

الآية الرابعة: عدم رجائه إلقاء الكتاب إليه

قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ) (4).

ص: 315

1- مفاتيح الغيب: 410 / 7. ولاحظ روح البيان: 347 / 8؛ روح المعاني: 25 / 15.

2- البقرة: 143.

3- الميزان: 80 / 18.

4- القصص: 86.

استدل الخصم بأن ظاهر الآية نفي علمه بإلقاء الكتاب إليه ، فلم يكن النبي راجياً لذلك واقفاً عليه.

أقول : توضيح مفاد الآية يتوقف على إمعان النظر في الجملة الاستثنائية ، أعني قوله : (**إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) حتى يتضح المقصود ، وقد ذكر المفسرون في توضيحها وجوهاً ثلاثة تأتي بها :

1. أن « إلا » استدراكية وليست استثنائية ، فهي بمعنى « لكن » لاستدراك ما بقي من المقصود.

وحاصل معنى الآية : ما كنت يا محمد ترجو فيما مضى أن يوحى الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك ، إلا أن ربك رحمك وأنعم به عليك وأراد بك الخير ، نظير قوله سبحانه : (**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) (1) ، أي ولكن رحمة من ربك خصتك بها ، وهذا هو المنقول عن الفراء (2) ، وعلى هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله أي رجاء لإلقاء الكتاب إليه وإنما فاجأه الإلقاء لأجل رحمة ربه ، ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلا إذا امتنع كون الاستثناء متصلاً لكون الانقطاع على خلاف الظاهر.

2. أن يكون « إلا » للاستثناء لا للاستدراك ، وهو متصل لا منقطع ، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام ، وهو كما في الكشف : « وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » (3) ، أي لم يكن لإلقائه عليك وجه إلا رحمة من ربك ، وعلى هذا الوجه أيضاً لا يعلم أنه كان للنبي صلى الله عليه وآله رجاء لإلقاء الكتاب

ص: 316

1- القصص : 46.

2- مجمع البيان : 4 / 269 ; مفاتيح الغيب : 6 / 408.

3- الكشف : 2 / 487 - 488.

عليه وإن كان الاستثناء متصلًا ، وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر ، وإنما يصر إلى إذا لم يصح إرجاعه إلى نفس الجملة الواردة في نفس الآية كما سيبيّن في الوجه الثالث.

3. أن يكون « إلا » استثناء من الجملة السابقة عليه ، أعني قوله : (وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا) ويكون معناه : ما كنت ترجوا إلقاء الكتاب عليك إلا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك ، فتكون النتيجة : ما كنت ترجوا إلا على هذا (1) ، فيكون هنا رجاء منفي ورجاء مثبت أمّا الأول : فهو رجاءه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية ، فلم يكن ذلك الرجاء موجوداً ، وأمّا رجاءه به عن طريق الرحمة الإلهية فكان موجوداً ، فنفي أحد الرجاءين لا يستلزم نفي الآخر ، بل المنفي هو الأول ، والثابت هو الثاني ، وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية ، وقد سبق منّا أن جملة (مَا كُنْتَ) وما أشبهه تستعمل في نفي الإمكان والشأن ، وعلى ذلك يكون معنى الجملة : لم تكن راجياً لأن يلقى إليك الكتاب وتكون طرفاً للوحي والخطاب إلا من جهة خاصة ، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته فيختارك طرفاً لوحيه ، ومخاطباً لكلامه وخطابه ، فالنبي بما هو إنسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحي ويلقى إليه الكتاب ، وبما أنه صار مشمولاً لرحمته وعنايته وصار إنساناً مثالياً قابلاً لتحمل المسؤولية وتربية الأمة ، كان راجياً به ، وعلى ذلك فالنفي والإثبات غير واردين على موضع واحد.

فقد خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه صلى الله عليه وآله كان إنساناً مؤمناً موحداً عابداً لله ساجداً له قائماً بالفرائض العقلية والشرعية ، مجتنباً عن المحرمات ، عالماً بالكتاب ، ومؤمناً به إجمالاً ، وراجياً لنزوله إليه إلى أن بُعث لإنقاذ البشرية عن

ص: 317

الجهل ، وسوقها إلى الكمال ، فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً ، وبقيت هنا آية أخرى تأتي بتفسيرها إكمالاً للبحث وإن لم تكن لها صلة تامة لما تتبناه المخطئة.

الآية الخامسة : لو لم يشأ الله ما تلوته

إشارة

قال سبحانه : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (1).

والآية تؤكد أن النبي صلى الله عليه وآله كان لا يثأ في قومه ، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن أو تالياً لأي من آياته ، وليس هذا الشيء ينكره القائلون بالعصمة ، فقد اتفقت كلمتهم على أن النبي صلى الله عليه وآله وقف على ما وقف من آي الذكر الحكيم من جانب الوحي ولم يكن قبله عالماً به ، وأين هو من قول المخطئة من نفي الإيمان منه قبلها؟!

وإن أردت الإسهاب في تفسيرها فلاحظ الآية المتقدمة عليها فترى فيها اقتراحين للمشركين ، وقد أجاب القرآن عن أحدهما في الآية المتقدمة وعن الآخر في نفس هذه الآية ، وإليك نصها : (قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (2).

اقترح المشركون على النبي أحد أمرين :

1. الإتيان بقرآن غير هذا ، مع المحافظة على فصاحته وبلاغته.

ص: 318

1- يونس : 16.

2- يونس : 15.

2. تبديل بعض آياته ممّا فيه سبّ لآلهتهم وتدنيد بعبادتهم الأوثان والأصنام.

فأجاب عن الثاني في نفس الآية بأنّ التبديل عصيان لله ، وإنّه يخاف من مخالفة ربّه ، ولا محيص له إلاّ اتّباع الوحي من دون أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

وأجاب عن الأوّل في الآية المبحوث عنها بأنّه أمر غير ممكن ، لأنّ القرآن ليس من صنعني وكلامي حتى أذهب به وآتي بآخر ، بل هو كلامه سبحانه ، وقد تعلقت مشيئته على تلاوتي ، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، والدليل على ذلك إنّني كنت لابثاً فيكم عمراً من قبل فما تكلمت بسورة أو بآية من آياته ، ولو كان القرآن كلامي لبادرت إلى التكلّم به طيلة معاشرتي معكم في المدّة الطويلة.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية : إنّ الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي فإنّما أنا رسول ، ولو شاء الله أن ينزل قرآناً غير هذا لأنزل ، أو لم يشأ تلاوة هذا القرآن ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فإنّي مكثت فيكم عمراً من قبل نزوله ولو كان ذلك إليّ ويدي لبادرت إليه قبل ذلك وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه (1).

هذا آخر الكلام في عصمته عن العصيان ، وصيائه عن الخلاف ، بقي الكلام في عصمته عن الخطأ والنسيان ، فنظرها على بساط البحث إجمالاً.

عصمة النبي الأعظم عن الخطأ

عصمة النبي الأعظم عن الخطأ (2)

إنّ صيانة النبي عن الخطأ والاشتباه سواء أكان في مجال تطبيق الشريعة ، أم

ص: 319

1- الميزان : 10 / 26. ولاحظ تفسير المنار : 11 / 320.

2- البحث كما يعرب عنه عنوان البحث ، مركز على صيانة خصوص نبينا الأعظم عن الخطأ استدلالاً وإشكالاً وجواباً ، وأمّا البحث عن عصمة غيره من الأنبياء فموكول إلى مجال آخر.

في مجال الأمور العادية الفردية المرتبطة بحياته ، ممّا طرح في علم الكلام وطال البحث فيه بين متكلمي الإسلام.

غير أنّ تحقق الغاية من البعثة رهن صيانتته عن الخطأ في كلا المجالين ، وإلاّ فلا تتحقق الغاية المتوخاة من بعثته ، وهذا هو الدليل العقلي الذي اعتمدت عليه العدلية ، بعدما اتفق الكل على لزوم صيانتته عن الخطأ والاشتباه في مجال تلقي الوحي وحفظه ، وأدائه إلى الناس ، ولم يختلف في ذلك اثنان.

وإليك توضيح هذا الدليل العقلي : إنّ الخطأ في غير أمر الدين وتلقّي الوحي يتصوّر على وجهين :

أ. الخطأ في تطبيق الشريعة كالسهو في الصلاة أو في إجراء الحدود.

ب. الاشتباه في الأمور العادية المعدة للحياة كما إذا استقرض ألف دينار ، وظن أنّه استقرض مائة دينار.

وهو مصون من الاشتباه والسهو في كلا-الموردين ، وذلك لأنّ الغاية المتوخاة من بعث الأنبياء هي هدايتهم إلى طريق السعادة ، ولا تحصل تلك الغاية إلاّ بكسب اعتماد الناس على صحة ما يقوله النبي وما يحكيه عن جانب الوحي ، وهذا هو الأساس لحصول الغاية ، ومن المعلوم أنّه لو سها النبي واشتبه عليه الأمر في المجالين الأوّلين ربّما تسرب الشك إلى أذهان الناس ، وإنّه هل يسهو في ما يحكيه من الأمر والنهي الإلهي أم لا ؟

فبأي دليل أنّه لا يخطأ في هذا الجانب مع أنّه يسهو في المجالين الآخرين؟! وهذا الشعور إذا تغلغل في أذهان الناس سوف يسلب اعتماد الناس على النبي ، وبالتالي تنتفي النتيجة المطلوبة من بعثته.

نعم ، التفكير بين صيانتته في مجال الوحي وصيانتته في سائر الأمور وإن كان أمراً ممكناً عقلاً ، ولكنه ممكن بالنسبة إلى عقول الناضجين في الأبحاث الكلامية ونحوها ، وأمّا العامة ورعايا الناس الذين يشكلون أغلبية المجتمع ، فهم غير قادرين على التفكير بين تينك المرحلتين ، بل يجعلون السهو في إحداهما دليلاً على إمكان تسرّب السهو إلى المرحلة الأخرى.

ولأجل سدّ هذا الباب المنافي للغاية المطلوبة من إرسال الرسل ، ينبغي أن يكون النبي مصوناً في عامّة المراحل ، سواء أكانت في حقل الوحي أو في تطبيق الشريعة أو في الأمور العامة ، ولهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام : « جعل مع النبي روح القدس وهي لا تنام ولا تغفل ولا تلهو ولا تسهو » (1).

وعلى ذلك فيما أنّه ينبغي أن يكون النبي اسوة في الحياة في عامة المجالات يجب أن يكون نزيهاً عن العصيان والخلاف والسهو والخطأ.

القرآن وعصمة النبي عن الخطأ والسهو

قد عرفت منطق العقل في لزوم عصمة النبي من الخطأ في مجال تطبيق الشريعة ، ومجال الأمور العادية المعدّة للحياة ، وهذا الحكم لا يختص بمنطقه ، بل الذكر الحكيم يدعمه بأحسن وجه ، وإليك ما يدل على ذلك :

1. قال سبحانه : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) (2) ، وقال أيضاً : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ

ص : 321

1- بصائر الدرجات : 454.

2- النساء : 105.

شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (1).

وقد نقل المفسرون حول نزول الآيات وما بينهما من الآيات روايات رويها بطرق مختلفة نذكر ما ذكره ابن جرير الطبري عن ابن زيد قال : كان رجل سرق درعاً من حديد في زمان النبي صلى الله عليه وآله وطرحه على يهودي ، فقال اليهودي : والله ما سرقتها يا أبا القاسم ، ولكن طرحت عليّ وكان للرجل الذي سرق جيران يبرؤونه ويطرحونه على اليهودي ، ويقولون : يا رسول الله إنّ هذا اليهودي الخبيث يكفر بالله وبما جئت به ، قال : حتى مال عليه النبي صلى الله عليه وآله ببعض القول فعاتبه الله عزّ وجلّ في ذلك فقال : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) (2).

أقول : سواء أصحت هذه الرواية أم لا ، فمجموع ما ورد حول الآيات من أسباب النزول متفق على أنّ الآيات نزلت حول شكوى رفعت إلى النبي ، وكان كل من المتخاصمين يسعى ليبرئ نفسه ويتهم الآخر ، وكان في جانب واحد منهما رجل طليق اللسان يريد أن يخدع النبي صلى الله عليه وآله ببعض تسويلاته ويشير عواطفه على المتهم البريء حتى يقضي على خلاف الحق ، وعند ذلك نزلت الآية ورفعت النقاب عن وجه الحقيقة فعرف المحق من المبطل .

والدقة في فقرات الآية الثانية يوقفنا على سعة عصمة النبي من الخطأ وصيانته من السهو ، لأنّها مؤلفة من فقرات أربع ، كل يشير إلى أمر خاص :

1. (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا

ص: 322

1- النساء : 113 .

2- تفسير الطبري : 4 / 172 .

يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) .

2. (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) .

3. (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) .

4. (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) .

فالأولى منها : تدل على أن نفس النبي بمجردھا لا تصونه من الضلال (أي من القضاء على خلاف الحق) وإنما يصونه سبحانه عنه ، ولولا فضل الله ورحمته لهمت طائفة أن يرضوه بالدفاع عن الخائن والجدال عنه ، غير أن فضله العظيم على النبي هو الذي صدّه عن مثل هذا الضلال وأبطل أمرهم المؤدي إلى إضلاله ، وبما أن رعاية الله سبحانه وفضله الجسيم على النبي ليست مقصورة على حال دون حال ، أو بوقت دون وقت آخر ، بل هو واقع تحت رعايته وصيانتته منذ أن بعث إلى أن يلاقي ربّه ، فلا يتعدى إضلال هؤلاء أنفسهم ولا يتجاوز إلى النبي صلى الله عليه وآله فهم الضالون بما هموا به كما قال : (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) .

والفقرة الثانية : تشير إلى مصادر حكمه ومنابع قضائه ، وأنه لا يصدر في ذلك المجال إلا عن الوحي والتعليم الإلهي ، كما قال سبحانه : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) والمراد المعارف الكلية العامة من الكتاب والسنة .

ولما كان هذا النوع من العلم الكلي أحد ركني القضاء وهو بوحده لا يفي بتشخيص الموضوعات وتمييز الصغريات ، فلا بد من الركن الآخر وهو تشخيص المحق من المبطل ، والخائن من الأمين ، والزاني من العفيف ، أتى بالفقرة الثالثة وقال : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) ومقتضى العطف ، مغايرة المعطوف ، مع المعطوف عليه ، فلو كان المعطوف عليه ناظراً إلى تعرّفه على الركن الأول وهو العلم بالأصول والقواعد الكلية الواردة في الكتاب والسنة ، يكون المعطوف ناظراً إلى

تعرفه على الموضوعات والجزئيات التي تعد ركناً ثانياً للقضاء الصحيح، فالعلم بالحكم الكلي الشرعي وتشخيص الصغريات وتمييز الموضوعات جناحان للقاضي يحلّق بهما في سماء القضاء بالحق من دون أن يجنح إلى جانب الباطل، أو يسقط في هوة الضلال.

قال العلامة الطباطبائي: إن المراد من قوله سبحانه: (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) ليس علمه بالكتاب والحكمة، فإن مورد الآية، قضاء النبي في الحوادث الواقعة، والدعاوى المرفوعة إليه، برأيه الخاص، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء، وإن كان متوقفاً عليهما، بل المراد رأيه ونظره الخاص (1). ولما كان هنا موضع توهم وهو أنّ رعاية الله لنبيه تختص بمورد دون مورد، دفع ذلك التوهم بالفقرة الرابعة فقال سبحانه: (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) حتى لا يتوهم اختصاص فضله عليه بواقعة دون أخرى، بل مقتضى عظمة الفضل، سعة شموله لكل الوقائع والحوادث، سواء أكانت من باب المرافعات والمخاصمات، أم الأمور العادية، فتدل الفقرة الأخيرة على تعرفه على الموضوعات ومصونيته عن السهو والخطاء في مورد تطبيق الشريعة، أو غيره، ولا كلام أعلى وأغزر من قوله سبحانه في حق حبيبه: (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا).

2. قال سبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (2) إن الشهادة المذكورة في الآية حقيقة من الحقائق القرآنية تكرر ذكرها في كلامه سبحانه، قال تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (3)، وقال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ

ص: 324

1- الميزان: 81 / 5.

2- البقرة: 143.

3- النساء: 41.

كُلُّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (1)، وقال تعالى: (وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَاتِ) (2)، والشهادة فيها مطلقة، وظاهر الجميع هو الشهادة على أعمال الأمم وعلى تبليغ الرسل كما يومي إليه قوله تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) (3)، وهذه الشهادة وإن كانت في الآخرة ويوم القيامة لكن يتحملها الشهود في الدنيا على ما يدل عليه قوله سبحانه حكاية عن عيسى: (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (4)، وقال سبحانه: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) (5)، ومن الواضح أنَّ الشهادة فرع العلم، وعدم الخطأ في تشخيص المشهود به، فلو كان النبي من الشهداء يجب ألا يكون خاطئاً في شهادته، فالآية تدلُّ على صيافته وعصمته من الخطأ في مجال الشهادة كما تدلُّ على سعة علمه، لأنَّ الحواس لا ترشدنا إلا إلى صور الأعمال والأفعال، والشهادة عليها غير كافية عند القضاء، وإنَّما تكون مفيدة إذا شهد على حقائقها من الكفر والإيمان، والرياء والإخلاص، وبالجملة على كل خفي عن الحس ومستبطن عند الإنسان، أعني ما تكسبه القلوب وعليه يدور حساب رب العالمين، قال تعالى: (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) (6)، ولا شك أنَّ الشهادة على حقائق أعمال الأمة خارج عن وسع الإنسان العادي إلا إذا تمسك

ص: 325

1- النحل: 84.

2- الزمر: 69.

3- الأعراف: 6.

4- المائدة: 117.

5- النساء: 159.

6- البقرة: 225.

بحبل العصمة وولي أمر الله ياذنه ، ولنا في الأجزاء الآتية من هذه الموسوعة بحث حول الشهداء في القرآن ، فنكتفي بهذا القدر في المقام.

ثم إن العلامة الحجة السيد عبد الله شبر أقام دلائل عقلية ونقلية على صيانة النبي عن الخطأ ولكن أكثرها كما صرح به نفسه - قدس الله سره - مدخولة غير واضحة ، ومن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى كتابه (1).

أدلة المخطئة

إشارة

إن بعض المخطئة استدلت على تطرق الخطأ والنسيان إلى النبي صلى الله عليه وآله ببعض الآيات غافلة عن أهدافها ، وإليك تحليلها :

1. قال سبحانه : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْدُ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (2).

زعمت المخطئة أن الخطاب للنبي وهو المقصود منه ، غير أنها غفلت عن أن وزن الآية وزان سائر الآيات التي تقدمت في الأبحاث السابقة وقلنا بأن الخطاب للنبي ولكن المقصود منه هو الأمة ، ويدل على ذلك ، الآية التالية لها قال : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مَنْ شِئٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (3) ، فإن المراد أنه ليس على المؤمنين الذين اتقوا معاصي الله سبحانه من حساب الكفرة شيء بحضورهم مجلس الخوض ، وهذا يدل على أن النهي عن الخوض تكليف

ص: 326

1- مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار : 2 / 128 - 140.

2- الأنعام : 68.

3- الأنعام : 69.

عام يشترك فيه النبي وغيره ، وإنّ الخطاب للنبي لا ينافي كون المقصود هو الأمة.

والأوضح منها دلالة على أنّ المقصود هو الأمة قوله سبحانه : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (1).

والآية الأخيرة مدنية ، والآية المتقدمة مكية ، وهي تدل على أنّ الحكم النازل سابقاً متوجّه إلى المؤمنين وإنّ الخطاب وإن كان للنبي لكن المقصود منه غيره.

2. (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) (2) ، والمراد من النسيان نسيان الاستثناء (إلا أن يشاء الله) ووزان هذه الآية ، وزان الآية السابقة في أنّ الخطاب للنبي والمقصود هو الأمة.

3. (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) (3) ، ومعنى الآية سنجعلك قارئاً بالهام القراءة فلا تنسى ما تقرأه ، لكن المخطئة استدلت بالاستثناء الوارد بعده ، على إمكان النسيان ، لكنّها غفلت عن نكتة الاستثناء ، فإنّ الاستثناء في الآية نظير الاستثناء في قوله سبحانه (وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ) (4) ، ومن المعلوم أنّ الوارد إلى الجنة لا يخرج منها ، ولكن

ص: 327

1- النساء : 140.

2- الكهف : 23 - 24.

3- الأعلى : 6 - 7.

4- هود : 108.

الاستثناء لأجل بيان أنّ قدرة الله سبحانه بعد باقية ، فهو قادر على الإخراج مع كونهم مؤبدين في الجنة ، وأمّا الآية فالاستثناء فيها يفيد بقاء القدرة الإلهية على إطلاقها ، وإنّ عطية الله أعني « الإقراء بحيث لا تنسى » لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء ، بحيث لا يقدر بعد على إنسانك ، بل هو باق على إطلاق قدرته ، فلو شاء أنساك متى شاء ، وإن كان لا يشاء ذلك .

وبما أنّ البحث مرّكز على عصمة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله من الخطأ والنسيان دون سائر الأنبياء ذكرنا الآيات التي استدلت بها المخطئة على ما تتبناه في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، وأمّا بيان الآيات التي يمكن أن يستدل بها على إمكان صدور السهو والنسيان عن سائر الأنبياء وتفسيرها فمترك إلى مجال آخر ، ونقول على وجه الإجمال أنّه يستظهر من بعض الآيات صحة نسبة النسيان إلى غير النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ، أعني قوله سبحانه : (وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (1).

وقوله سبحانه في حق موسى : (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا) (2).

وقوله سبحانه أيضاً عنه : (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) (3).

وقوله سبحانه في حقه أيضاً : (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) (4).

لكن البحث عن مفاد هذه الآيات موكول إلى مجال آخر .

ص: 328

1- طه : 115 .

2- الكهف : 61 .

3- الكهف : 63 .

4- الكهف : 73 .

بقي هنا أمران :

الأول : ما هي النظرية السائدة بين الإمامية في مسألة سهو النبي صلى الله عليه وآله ؟

الثاني : كيفية معالجة المآثرات الظاهرة في صدور السهو عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله .

وإليك بيان الأمرين على نحو الإجمال :

1. الرأي السائد بين الإمامية حول سهو النبي صلى الله عليه وآله

يظهر من الشيخ الصدوق أنّ إنكار سهو النبي صلى الله عليه وآله كان شعار الغلاة والمفوضة، قال في كتابه « من لا يحضره الفقيه » : إنّ الغلاة والمفوضة ينكرون سهو النبي صلى الله عليه وآله، ويقولون : لو جاز أن يسهو في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ، لأنّ الصلاة عليه فريضة كما أنّ التبليغ عليه فريضة.

ثم أجاب عنه بقوله : وهذا لا يلزمنا، وذلك لأنّ جميع الأحوال المشتركة يقع على النبي صلى الله عليه وآله وفيها ما يقع على غيره... فالحالة التي اختص بها هي النبوة، والتبليغ من شرائطها، ولا يجوز أن يقع عليه في التبليغ ما يقع عليه في الصلاة، لأنّها عبادة مخصوصة، والصلاة عبادة مشتركة، وبها تثبت له العبودية، وبإثبات النوم له عن خدمة ربّه عزّ وجلّ من غير إرادة له وقصد منه إليه، نفي الربوبية عنه، لأنّ الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحي القيوم، وليس سهو النبي كسهونا، لأنّ سهوه من الله عزّ وجلّ، وإتّما أسهاه ليعلم أنّه بشر مخلوق فلا يتخذ ربّاً معبوداً دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا، وسهونا عن الشيطان، وليس للشيطان على النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة - صلوات الله عليهم - سلطان (إتّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (1) وعلى من تبعه من الغاوين.

ص: 329

ثم نقل عن شيخه محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد (المتوفى 343 هـ) أنه كان يقول : أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله (1).

وحاصل كلامه : إن السهو الصادر عن النبي إسهاء من الله إليه لمصلحة ، كنفى وهم الربوبية عنه ، وإثبات أنه بشر مخلوق ، وإعلام الناس حكم سهوهم في العبادات وأمثالها وأما السهو الذي يعترينا من الشيطان فإنه صلى الله عليه وآله منه بريء ، وهو منزّه عنه ، وليس للشيطان عليه سلطان ولا سبيل.

ومع ذلك كله ، فهذه النظرية مختصة به ، وبشيخه ابن الوليد ، ومن تبعهما كالطبرسي في « مجمه » على ما سيأتي؛ والمحققون من الإمامية متفقون على نفي السهو عنه في أمور الدين حتى مثل الصلاة.

قال المفيد : أقول إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء عليهم السلام في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء ، وأنه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ، ولا ينسون شيئاً من الأحكام ، وعلى هذا مذهب سائر الإمامية إلا من شدّ منهم وتعلّق بظاهر روايات لها تأويلات على خلاف ظنه الفاسد من هذا الباب ، والمعتزلة بأسرها تخالف في ذلك ويجوزون من الأئمة وقوع الكبائر والردّة عن الإسلام (2).

وقال في شرحه على عقائد الصدوق : فأما نص أبي جعفر رحمه الله بالغلو على من

ص: 330

1- من لا يحضره الفقيه : 1 / 232.

2- أوائل المقالات : 35.

نسب مشايخ القميين وعلمائهم (الذين جؤزوا السهو على النبي) إلى التقصير، فليس نسبة هؤلاء القوم إلى التقصير علامة على غلو الناس، إذ في جملة المشار إليهم بالشيخوخة والعلم من كان مقصراً، وإنما يجب الحكم بالغلو على من نسب المحققين إلى التقصير سواء أكانوا من أهل قم أم من غيرها من البلاد ومن سائر الناس، وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن أبي جعفر محمد بن الحسن بن الوليد رحمه الله لم نجد لها دافعاً وهي ما حكي عنه أنه قال: أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام.

ثم إن الشيخ المفيد لم يكتف بهذا القدر من الرد بل ألف رسالة مفردة في رده، وقد أدرجها العلامة المجلسي في «بحاره» (1).

وعلى هذا الرأي استقر رأي الإمامية، فقال المحقق الطوسي: وتجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق... وعدم السهو.

وقال العلامة الحلبي في شرحه: وان لا يصح عليه السهو لئلا يسهو عن بعض ما أمر بتبليغه (2).

وقال المحقق الحلبي في «النافع»: والحق رفع منصب الإمامة عن السهو في العبادة (3).

وقال العلامة في «المنتهى» في مسألة التكبير في سجدي السهو: احتج المخالف بما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: قال: ثم كبر وسجد.

والجواب: هذا الحديث عندنا باطل، لاستحالة السهو على النبي صلى الله عليه وآله.

وقال في مسألة أخرى: قال الشيخ: وقول مالك باطل، لاستحالة السهو على النبي صلى الله عليه وآله (4).

ص: 331

1- راجع البحار: 17 / 122 - 129.

2- كشف المراد: 195.

3- النافع: 45.

4- منتهى المطلب: 418 - 419.

وقال الشهيد في « الذكرى » : وخبر ذي اليمين متروك بين الإمامية ، لقيام الدليل العقلي على عصمة النبي صلى الله عليه وآله عن السهو ، لم يصر إلى ذلك غير ابن بابويه (1).

هذا هو الرأي السائد بين الإمامية ، ولم يشدّ عنهم أحد من المتأخرين سوى أمين الإسلام الطبرسي في « تفسيره » حيث قال : وأمّا النسيان والسهو فلم يُجوزوهما عليهم فيما يؤدونه عن الله تعالى ، وأمّا ما سواه فقد جوّزوا عليهم أن ينسوه أو يسهوا عنه ما لم يؤدّ ذلك إلى إخلال بالعقل (2).

وأما غيره ، فلم نجد من يوافقه ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المصادر المذكورة في الهامش.

وقد قام (3) العلامة المجلسي بإيفاء حق المقام في « بحاره » (4).

2. كيفية معالجة المأثورات حول سهو النبي صلى الله عليه وآله

روى الفريقان أحاديث حول سهو النبي صلى الله عليه وآله .

روى البخاري في كتاب الصلاة ، باب « من يكبر في سجدي السهو » عن أبي هريرة قال : صلّى النبي إحدى صلاتي العشية ... ركعتين ، فقالوا : أقصرت الصلاة ؟ ورجل يدعوه النبي ذو اليمين ، فقال : أنسيّت الصلاة أم قصرت ؟ فقال :

ص: 332

1- الذكرى : 215.

2- مجمع البيان : 317/2.

3- حق اليقين في معرفة أصول الدين : للسيد عبد الله شبر : 124 / 1 ; مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار ، له أيضاً : 134 / 2 - 142 ; تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى ; منهج الصادقين : 393 / 3 ، و 346 / 5.

4- لاحظ البحار : 97 / 17 - 129.

لم أنس ولم تقصر ، قال : بلى قد نسيت. فصلى ركعتين ثم سلم ، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه فكبر ، ثم وضع رأسه فكبر فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر (1). هذا ما رواه أهل السنة كما رووا غيره أيضاً.

أما الشيعة فقد رووا أحاديث حول الموضوع نقلها العلامة المجلسي في « بحاره » (2). ولا يتجاوز مجموع ما ورد في هذا الموضوع عن اثني عشر حديثاً ، كما أنّ أخبار نوم النبي صلى الله عليه وآله عن صلاة الصبح لا تتجاوز عن ستة أحاديث (3).

لكن الجواب عن هذه الروايات بأحد أمرين :

الأول : ما ذكره المفيد في الرسالة المومأ إليها من أنّها أخبار آحاد لا تثمر علماً ، ولا توجب عملاً ، ومن عمل على شيء منها فعلى الظن يعتمد في عمله بها دون اليقين (4).

الثاني : ما ذكره الصدوق من التفريق بين سهو النبي وسهو الآخرين بما عرفت ، والله العالم بالحقائق.

ثم الظاهر من السيد المرتضى ، تجويز النسيان على الأنبياء حيث قال في تفسير قوله سبحانه : (لا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ) (5) : إنّ النبي إنّما لا يجوز عليه النسيان فيما يؤدّيه عن الله تعالى أو في شرعه أو في أمر يقتضي التنفير عنه ، فأما فيما هو خارج عمّا ذكرناه ، فلا مانع من النسيان (6).

ص: 333

1- صحيح البخاري : 68 / 2.

2- راجع البحار : 129 - 97 / 17.

3- راجع البحار : 106 - 100 / 17.

4- البحار : 123 / 17.

5- الكهف : 73.

6- تنزيه الأنبياء : 87.

وممن وافق الصدوق من المتأخرين ، شيخنا المجيز : الشيخ محمد تقي التستري ، فقد أَلَّف رسالة في الموضوع نصر فيها الشيخ الصدوق وأُستأذه ابن الوليد ، وطبعها في ملحقات الجزء الحادي عشر من رجاله « قاموس الرجال » والرسالة تقع في 24 صفحة.

وأما العلامة المجلسي ، فالظاهر منه التوقف في المسألة قال : إعلم أنّ هذه المسألة في غاية الإشكال ، لدلالة كثير من الآيات (الآيات التي يُستظهر منها نسبة النسيان إلى بعض الأنبياء غير النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد قدّمناها) والأخبار على صدور السهو عنهم ، وإطباق الأصحاب إلا ما شدّد على عدم جواز السهو عليهم مع دلالة بعض الآيات والأخبار عليه في الجملة وشهادة بعض الدلائل الكلامية والأصول المبرهنة عليه ، مع ما عرفت في أخبار السهو من الخلل والاضطراب وقبول الآيات للتأويل ، والله يهدي إلى سواء السبيل (1).

ثم إنّ الشيخ المفيد وصف القائل بصدور السهو منه صلى الله عليه وآله من الشيعة بالمقلّدة ، وأراد : الصدوق وشيخه ابن الوليد. ولكن التعبير عنهما بالمقلّدة غير مرضي عندنا ، كيف؟! ويصف الأول الرجالي النقاد النجاشي بقوله : أبو جعفر ، شيخنا وفقهنا ، ووجه الطائفة بخراسان ، وكان ورد بغداد سنة 355 هـ ، وسمع منه شيوخ الطائفة ، وهو حدث السن (2).

ويقول في حق شيخه : أبو جعفر ، شيخ القميين ، وفقههم ، ومتقدّمهم ، ووجههم ، ويقال : إنّه نزيل قم ، وما كان أصله منها ، ثقة ، ثقة ، عين مسكون إليه (3).

ص: 334

1- البحار : 118 / 17 - 119.

2- رجال النجاشي : 2 / 311 برقم 1050.

3- رجال النجاشي : 2 / 301 برقم 1043.

والمحمل الصحيح لهذه التعابير ما أشار إليه شاعر الأهرام بقوله :

يشتد في سبب الخصومة لهجة *** لكن يرق خليقة وطباعا

وكذلك العلماء في أخلاقهم *** يتباعدون ويلتقون سراعاً

في الحق يختلفون إلا أنهم *** لا يبتغون إلى الحقوق ضياعاً

اللهم اغفر للماضين من علمائنا واحفظ الباقين منهم

ص: 335

مفهوم الإمام في القرآن الكريم

إشارة

ص: 337

1. نظرية الإمامة بين الفريقين.
2. هل الإمامة تفويض اجتماعي أو منصب إلهي؟
3. الاستدلال على كونها منصباً إلهياً.
4. ما هو الهدف من ابتلاء الخليل بالكلمات؟
5. ما هو المراد من الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام؟
6. ما هو المقصود من إتمام تلك الكلمات؟
7. ماذا يراد من الإمام في قوله: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)؟
8. توضيح النظريات الخمس في تفسير الإمام في الآية السابقة؟
9. كيف تكون الإمامة عهداً إلهياً؟
10. ما هو المراد من الظالمين في قوله: (لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)؟
11. بيان كيفية دلالة الآية على نزاهة الإمام من الذنب.

للتعرّف على مفهوم كلمة الإمام في القرآن أهمية خاصة ، كما أنّ التعرّف على مفهومي النبي والرسول فيه كذلك ، وقد فرغنا من تبين مفهوم الأخيرين في الجزء السابق ، وبقي البحث عن مفهوم الإمام في الكتاب العزيز .

إنّ الإمام في مصطلح المتكلمين هو القائد العام للمسلمين الذي يخلف النبي صلى الله عليه وآله في كل أو بعض ما يمتّ له بصلة ، وقد اتّفقت الأمة على انسداد باب الوحي وختم التشريع بموت النبي صلى الله عليه وآله ولحقه بالرفيق الأعلى ، وإنّما الكلام في مقدار المسؤولية التي يتحمّلها الإمام في خلافته عنه ، وهذا الاختلاف أوجد نظريتين في باب الإمامة بين المتكلمين ، بل أحدث مدرستين وصار سبباً للاختلاف في لزوم بعض الشروط في الإمام وعدمها ، ولا يمكن الوصول إلى الحق إلاّ بعد دراسة النظريتين على ضوء الكتاب والسنة والعقل ، ولا يصح إبداء النظر في لزوم الشروط التي ذكرها المتكلمون إلاّ بعد تلك الدراسة ، وإليك بيان النظريتين :

الإمامة تفويض اجتماعي

الإمامة منصب اجتماعي بمعنى أنّ الأمة هي صاحبة السلطة العليا تخوّلها للإمام ، وهي التي تحاسب الإمام وتراقب قراراته وعليها أن تنتخب من يقودها .

وبعبارة أخرى : إنّ من حقّ الأمة أن تختار حكّامها ، تعيّنهم وتعزلهم وتراقبهم في كل تصرفاتهم الشخصية والعامّة ، وعلى ذلك فالإمامة منصب عرفي كسائر المناصب المطروحة في المجتمع غير أنّها تتفاوت بسعة المسؤولية وضيقها ، فالإمام أكثر مسؤولية من الوزراء ، وهم أكبر مسؤولية من المدراء العامين ، ولا يخلف الإمام النبي الراحل إلّا في بعض مسؤوليته ، وهي الأخذ بزمام السلطة في الشؤون التي تتوقف عليها حياة الأمة ، ولأجل ذلك يعتبر فيه من المؤهلات والصلاحيات : الدراية والكفاية أولاً ، والعلم بالأحكام والقوانين على مستوى خاص ثانياً.

وأما سائر الشروط ، كالعصمة الإلهية ، والعلم بجميع الأحكام الشرعية ، والإجابة عن كل الأسئلة المطروحة ، والدفاع العلمي عن أصول الشريعة ومعارفها العليا ، وتفسير ما ورد من الآيات في الذكر الحكيم و... فلا يعتبر قطعاً ، لأنّ الهدف المتوخّى من الإمام على هذا الصعيد هو إعمال السلطة وقيادة السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وتكفيه المقدرة العادية والعلم بمقدار محدود.

هذا هو أساس تلك النظرية ، وعلى ذلك نجد أنّ معتقدي تلك النظرية يصفون الإمام وشروطه بالعبارات التالية :

يقول القاضي الباقلاني : يجب أن يكون الإمام على أوصاف : منها : أن يكون قرشياً من الصميم ، وأن يكون من العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين ، وأن يكون ذا بصيرة بأمر الحرب وتديير الجيوش والسرايا وسد الثغور وحماية البيضة وحفظ الأمة والانتقام من ظالمها ونصرة مظلومها وما يتعلّق به من مصالحها ، وأن لا يكون ممّن تلحقه رقة ولا هواده في إقامة الحدود ولا جزع

من ضرب الرقاب والابشار (1).

وقد جاء على منوال القاضي أكثر من تأخر عنه إلى عصرنا هذا، ولا حاجة لنقل ما ذكره المتأخرون عنه، ونكتفي بنقل ما ذكره أحد الشخصيات البارزة في زماننا ألا وهو الشيخ محمود شلتوت، حيث قال: اتفق الفقهاء على أن خليفة المسلمين هو مجرد وكيل عن الأمة يخضع لسلطان موكله في جميع أموره، وهو مثل وكيل من الأمة في البيع والشراء يخضع لما يخضع له الوكيل الشخصي كما اتفقوا على أن موظفي الدولة الذين يعينهم الخليفة أو يعزلهم، لا يعملون بولايته ولا ينزلون بعزله باعتباره الشخصي وإنما بولاية الأمة وعزلها التي وكلته في التولية والعزل، ولهذا إذا عزل الخليفة لا ينزل ولايته وقضاته، لأنهم يعملون باسم الأمة وفي حق الأمة لا باسم الخليفة ولا في خالص حق الخليفة (2).

وتتلخص تلك النظرية في أن الأمة نقلت إلى الإمام ولايتها، وجعلت فيه ثقتها، ولو قام أهل الحل والعقد بتنصيبه، فلأجل أنهم وكلاء الأمة.

هذه حقيقة تلك النظرية عند أصحابها، وسواء أطاقت واقع خلافة الخلفاء وجلوسهم على منصة الحكم أم لا، فهؤلاء يتبنون تلك النظرية ويحاولون أن يسوقوا على صحتها الشواهد والدلائل.

الخليفة والعدالة

إن أصحاب هذه النظرية اختلفوا في اشتراط العدالة في الخليفة، فهم بين نافرين لها مستدلين ببعض الخلفاء الذين افتقدوا السيرة المحمودة والعدالة، وبين

ص: 341

1- التمهيد: 181.

2- من توجيهات الإسلام: 563.

مشتتين لها ، وإليك نصوص كلا الطرفين :

يقول القاضي الباقلاني : قال الجمهور من أهل الاثبات وأصحاب الحديث : لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبخار وتناول النفوس المحرّمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود ولا ينخلع بهذه الأمور ، ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويله وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله ، واحتجوا لذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي والصحابة في وجوب طاعة الأئمة وان جاروا واستأثروا بالأموال (1).

وقال التفتازاني : وإذا مات الإمام وتصدى للإمامة من يستجمع شرائطها من غير استخلاف ، وقهر الناس بشوكته ، انعقدت الخلافة له ، وكذا إذا كان فاسقاً أو جائراً على الأظهر إلا أنه يعصي بما فعل ، وتجب طاعة الإمام ما لم يخالف حكم الشرع سواء كان عادلاً أو جائراً ، ولا ينعزل الإمام بالفسق (2).

وعلى هذا الأساس اشتهر بين أهل السنة : أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان منهم ظلم ويتمسكون في ذلك بأحاديث منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وربما يُعلّلون ذلك بأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل من ظلمهم بدون قتال ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ، ولا تكاد تعرف طائفة خرجت على السلطان ، إلا كان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته (3).

وعلى هذا الأساس تسلط أصحاب السلطة من الأمويين والعباسيين على

ص: 342

1- التمهيد : 186.

2- شرح المقاصد : 2 / 272 ، ط اسلامبول.

3- منهاج السنة : 78.

أعناق الناس ، وأراقوا الدماء واستباحوا الأعراض وانتهبوا الأموال ، وصار أصحاب الحديث يبرّون سلوكهم في عدم جهاد الطواغيت بهذه العلة التافهة التي لو أخذنا بها لاندرس من الدين حتّى الاسم ، وهؤلاء المساكين لا يدرون أنّه إنّما قام للإسلام عمود واخضر له عود ، بمجابهة المخلصين من المسلمين عن طريق ثوراتهم وأعمالهم على السلطات الجائرة حتّى استشهد كثير منهم ، وسقوا شجرة الإسلام بدمائهم الطاهرة ، فبقيت مخضرة تُؤتي أكلها كل حين.

وفي مقابل هذه الطائفة من أهل السنّة هناك من لمس الواقع ودرس حقيقة الإمامة على وجه صحيح ولو من بعض جوانبها ، منهم : القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ، وشارح كتابه المحقّق السيد الشريف ، إذ يقولان : نعم يجب أن يكون عدلاً في الظاهر لئلاّ يجور ، لأنّ الفاسق ربّما يصرف الأموال في أغراض نفسه ويضيع الحقوق (1).

ويقول إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني : إنّ الإمام إذا جار وظهر ظلمه وغيه ولم يرفع لزاجر من سوء صنيعه ، فلاهل الحل والعقد ، التواطؤ على رده ولو بحمل السلاح ونصب الحروب (2).

يقول العلامة الشيخ محمود شلتوت : فالحاكم يجب أن يكون حميد السيرة ، فإن ساءت سيرته فلأئمة عزله (3).

الإمامة والاجتهاد

يظهر من كثير من متكلمي السنّة شرط الاجتهاد في الإمامة.

ص: 343

1- شرح المواقف : 8 / 350 ، ط مصر.

2- شرح المقاصد : 2 / 272.

3- من توجيهات الإسلام : 563.

قال القاضي الإيجي : الجمهور على أنّ أهل الإمامة مجتهد في الأصول والفروع ليقوم بأمر الدين.

وقرّره على ذلك الشرط شارح المواقف السيد الشريف الجرجاني مفسراً العبارة المزبورة بقوله : حتّى يكون متمكناً من إقامة الحجج وحل الشبه في العقائد الدينية مستقلاً بالفتاوى في النوازل والأحكام والوقائع نصّاً واستنباطاً ، لأنّ أهم مقاصد الإمامة حفظ العقائد وفصل الحكومات ورفع المخاصمات ، ولن يتم ذلك بدون هذا (1).

وقال شمس الدين بن محمود الاصفهاني (المتوفى عام 749 هـ) المعروف بابن السناء : صفات الأئمة هي تسع : الأولى : أن يكون الإمام مجتهداً في أصول الدين وفروعه (2).

وقال إمام الحرمين : إنّ من شروط الإمام الاجتهاد بحيث لا يحتاج إلى استفتاء غيره في الحوادث ، قال : وهذا متفق عليه (3).

وقد أكد على ذلك الإمام في بعض أسفاره كـ « غياث الأمم » (4).

وقد تبلورت هذه النظرية عند المتأخرين من أهل السنة ، فترى أنّ الشيخ محمد أبو زهرة يقول في حق الحاكم : أن يكون مجتهداً مشاوراً للمجتهدين (5).

وهناك عدة أخرى من المتقدمين من العلماء والمتأخرين ركّزوا على هذا الشرط.

ص: 344

1- شرح المواقف : 8 / 349.

2- مطالع الأنظار : 470.

3- القرشي في كتاب الحكم والإدارة نقلاً عن الإرشاد : 426.

4- راجع غياث الأمم : 274.

5- المجتمع الإسلامي : 128.

وأنت إذا لاحظت ما نقلناه عن أصحاب هذه المدرسة في ماهية الإمامة وشروطها تخرج بهذه النتيجة : أنّ الإمامة عند أصحابها ليست إلا رئاسة عامة لتدبير أمر الجيوش وسد الثغور وردع الظالم والأخذ للمظلوم بحقه وإقامة الحدود وقسمة الفيء بين المسلمين ، ولا يشترط فيها نبوغ في العلم يزيد على علم الرعية ، بل هو والأمة في علم الشريعة سيان ، ويكفيه من العلم ما يكون عند القضاة ، هذه هي ماهية النظرية ، وأما الشروط فقد وقفت على متفقهها ومختلفها.

وعلى هذه النتيجة التي خرجنا بها يكون البحث عن العصمة الإلهية والعلم بكل الأحكام الشرعية والذب عن حريم العقائد والمعارف وتبيين ما أجمل من الكتاب أمراً غير لازم بل غير متحقق ولا متمكن منه ، إذ من المستحيل أن يكون منتخب الأمة حائزاً لهذا الكمال إذالم يكن المنتخب واقعاً في إطار التربية الغيبية كالنبي صلى الله عليه وآله والإمام في النظرية الثانية.

ولأجل ذلك نجد أنّ أصحاب هذه النظرية يستوحشون من سماع شرط العصمة في الإمام أو من سماع بعض الشروط مثل أن يكون أعلم الأمة وعارفاً بكل ما يرجع إلى الشريعة والسياسة. وإذ فرغنا من دراسة حقيقة هذه النظرية فهلّمّ معي ندرس حقيقة النظرية الأخرى.

الإمامة منصب إلهي

إشارة

إنّ أصحاب هذه النظرية يعترفون بختم النبوة والرسالة بارتحال النبي صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى وانقطاع الوحي بموته صلى الله عليه وآله ، ومع ذلك يقولون بأنّ منصب الإمامة استمرار لشؤون ووظائف الرسالة ، وأنّ الإمام يقوم بكل ما كان يقوم به النبي صلى الله عليه وآله و آله سوى كونه متلقياً للوحي ، فالرسول ، خص بالتشريع والوحي الإلهي ، وشأن

الخليفة والإمام التبليغ والبيان وتفصيل المجمل وتفسير المعضل وإظهار ما لم يتسن للنبي صلى الله عليه وآله الإشارة إليه إتماً لتأخر ظرفه ، اولعدم تهَيُّؤ النفوس له ، أو لغير ذلك من العلل ، وإذا مات الرسول فهناك أحكام لم تبلغ وإن كانت مشرعة وأخرى لم تأت ظروفها فالإمام مبلِّغها ومبيِّنها.

ولا تتم وظيفة الإمام في هذا المجال فحسب ، بل هناك وظائف أخرى ، كوظائف النبي صلى الله عليه وآله حذو القذة بالقذة ؛ فالإمام بيانه يكمل الشريعة ، ويزيح شبه الملحدين ، ويدرأ عن الدين عادية أعدائه بقوته وسلطانه ، ويقىم الأمت والعوج بيده ولسانه ، وعلى الجملة كل ما كان من الوظائف والمسؤوليات على عاتق النبي صلى الله عليه وآله ، فهو على عاتق الإمام إلاّ التشريع وتحمل الوحي الإلهي.

هذه هي حقيقة هذه النظرية وتترتب عليها الشروط التي تسالم أصحابها عليها من كون الإمام : أعلم الأمة ، وأقضاها ، وأعرفها بأصول الدين وفروعه ، وأقواها على الذب عن حريم الدين والعقائد والمعارف إلى غير ذلك من المؤهلات التي يجب أن يكون النبي متّصفاً بها ، وقد استدل أصحاب هذه النظرية على ما يتبنونه بوجه عقلية ونقلية مذكورة في كتبهم ، وعلى القارئ الكريم مراجعتها.

ولأجل إيضاح الحق نأتي بالبيان التالي :

إنّ رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أحدثت فراغاً هائلاً في مختلف المجالات المادية والمعنوية ، ومقتضى لطفه سبحانه وعنايته بالعباد ، أن يملأ هذا الفراغ بإنسان يخلف النبي صلى الله عليه وآله ولا يقدر على ذلك إلاّ الإنسان المثالي الذي يكون له من الوعي والتربية والعلم والشجاعة مثل ما كان للنبي صلى الله عليه وآله سوى كونه نبياً ذا شريعة وملتقىً للوحي.

كان النبي صلى الله عليه وآله يقوم بمسؤوليات كثيرة تجمعها الأمور التالية :

1. إدارة أمور الأمة في مختلف مجالاتها الحيوية : السياسية والاقتصادية والعسكرية والقضائية وغيرها ممّا تجمعها إدارة الحكومة.

2. تفسير الكتاب العزيز وتوضيح مقاصده وبيان أهدافه وكشف أسراه.

3. الإجابة عن الأسئلة الشرعية التي لها مساس بعمل المسلم في حياته من حيث الحلال والحرام.

4. الرد على الشبهات والتشكيكات التي يلقيها أعداء الإسلام ويوجهونها ضده من يهود ومسيحيين وغيرهم ، فكان يرد عليها تارة بلسان الوحي المقدّس وأخرى بلسان الحديث.

5. صيانة الدين الإسلامي عن أي فكرة تحريفية ، وعن أي دس في التعاليم ، فلم يكن لأي دسّاس مقدر على تحريف الدين أصولاً وفروعاً.

6. يرتقي بأمتّه إلى طريق الكمال والتقدّم الروحي.

ولا شك أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقوم بهذه المسؤوليات وكان فقدانه وغيابه عن الساحة ، يلازم حدوث فراغ هائل في حياة الأمة لايسدّ إلاّ بإنسان يتمتع بتلك الكفاءات عدا النبوة وتلقّي الوحي.

والفراغ الأوّل وإن كان يملأ باختيار الإمام من جانب الأمة لكن الفراغ الباقي لا يسدّ إلاّ بإنسان مثالي تربّي في وضع خاص من العناية الإلهية ، ولمّا كانت هذه الأمور النفسية والمؤهّلات المعنوية التي يتمكّن بها الإنسان المثالي من مل الفراغ ، لا يمكن الوقوف عليها ومعرفتها إلاّ بتعريف من الله تعالى وتعيين منه ، فلأجل ذلك صار الأصل عند أصحاب هذه النظرية في مسألة الإمامة هو التنصيب والتعيين من جانبه سبحانه.

ولمّا كان القيام بهذه المسؤوليات متوقفاً على كون الإنسان المثالي مصوناً من الزلل ومعصوماً عن الخطأ، كان الأصل في الإمام هو العصمة من الذنب.

إنّ الإجابة عن الأسئلة الشرعية على وجه الحق، وتفسير القرآن على النهج الصحيح، وتقنيده الشبهات على وجه يطابق الواقع، وصيانة الدين عن أي تحريف لا يحصل إلاّ بمن يعتصم بحبل العصمة ويكون قوله وفعله مميزين للحق والباطل.

نعم إنّ الإنسان الجليل ربّما يملأ هذا الفراغ ولكن لا بصورة تامة جداً، ولأجل ذلك نرى أنّ الأئمة اختلفت في الأصول والفروع إلى فرق كثيرة يصعب تحديدها وتعدادها.

فلأجل هذه الأمور لا محيص عن وجود إنسان كامل عارف بالشريعة: أصولها وفروعها، عالم بالقرآن، واقف على الشبهات وكيفية الإجابة عنها، قائم على الصراط السوي ليرجع إليه من تقدّم على الصراط ومن تأخّر عنه.

وهذا يقتضي كون الإمام منصوباً من جانبه سبحانه معصوماً بعصمته، وهذه خلاصة هذه النظرية وأدلتها التي تتمسك بها.

ثم إنّ أصحاب هذه النظرية استدلوا بآيات على لزوم كون الإمام معصوماً من الذنب، ونحن نقتصر الآن على آيتين:

أولاهما: آية الابتلاء. والثاني: آية التطهير، والآية الأولى تركّز على عصمة الإمام من الذنب على وجه الإطلاق، والآية الثانية تختص بجماعة خاصة.

الآية الأولى: قوله سبحانه: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (1).

ص: 348

1- البقرة: 124.

وكيفية الاستدلال بهذه الآية على عصمة الإمام يتوقف على البحث عن عدة نقاط ترتبط بها :

1. ما هو الهدف من الابتلاء؟

2. ما هو المراد من الكلمات؟

3. ما هو المراد من الإتمام؟

4. ما هو المراد من الإمام؟

5. كيف تكون الإمامة عهداً إلهياً؟

6. ما هو المراد من الظالمين؟

7. ما هي دلالة الآية على عصمة الإمام من الذنب؟

وإليك بيان كل واحدة من هذه النقاط على وجه الاختصار.

ص: 349

1. ما هو الهدف من الابتلاء ؟

هاهنا سؤال يفرض نفسه وهو أنّ الهدف من الامتحان هو الاطّلاع على أحوال الممتحن ، واللّه سبحانه مّطلع على أحوال العباد ، عارف بشؤونهم الخاصة والعامة ، فما هو الهدف من وضعهم في ظروف شاقّة من البلاء والامتحان ؟

والإجابة عن هذا السؤال تحصل بكل من الأمور التالية :

1. أنّ الهدف من الامتحان من غيره سبحانه ، الاطّلاع على سرائر الآخرين ، وأما بالنسبة إليه سبحانه وتعالى فالهدف هو إتمام الحجة على العبد ، قال سبحانه : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (1) ولنعم ما قال الشاعر البغدادي :

وليحيا الجيل عن بينة *** وليهلكن عليها من هلك

وعند الامتحان بالتكاليف والوظائف ينقسم العباد إلى قسمين :

طائفة تقوم بما أُلقي على عاتقها من التكاليف ، وأخرى : تخفق في مجال التكليف.

فالحياة للطائفة الأولى عن حجة. والهلاك للطائفة الثانية عن حجة أيضاً ،

ص: 350

قال سبحانه : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيُنذِرَ لِنَاسٍ لِّلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (1)، وقال سبحانه أيضاً : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) (2).

فالله سبحانه يعلم القائم بالوظائف من القاعد عنها ، ولكنّه لو جازاهم بهذا العلم ، ربما يعترض عليه القاعد بأنّه لو كلفه في الدنيا لقام بالوظائف ، فلماذا أثابه دونه ؟ فلاجل محو هذا الاعتراض من الأساس ، جعلهم في بوتقة الامتحان حتى تكون له الحجة البالغة على القاعدة.

2. انّ الهدف من الاختبار هو تمحيص المؤمن من الكافر ، وتمييز الخبيث من الطيب في المجتمع الإسلامي ، فإنّ لهذا التمحيص شأناً من الشؤون وأثراً من الآثار ، قال سبحانه : (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) (3) ، وقال سبحانه : (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ لِكُلِّ الْخَبِيثِ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (4) وبما أنّ المنافق يتظاهر بالإيمان ، والعدو بالصدقة ، فلا بدّ من إجراء الامتحان والابتلاء حتى يتميذا ، فإذا أمر الله سبحانه ببذل النفس والنفيس في سبيل الله فيتقدّم المؤمن حسب إيمانه ويتناقل المنافق ، وعندئذ يتميذا الصنفان.

3. انّ الهدف من الامتحان ، إبراز الطاقات الكامنة في الإنسان وإخراجها من مكانها ، فكل إنسان خلق وله قابليات خاصّة كامنة في ذاته ، غير أنّ ظهورها وخروجها من القوّة إلى الفعل ، يحتاج إلى وقوع الإنسان في خضمّ الامتحان والاختبار حتى تنبثق تلك القابليات من مكانها ، وترى نور الوجود فكما أنّ

ص: 351

1- النساء : 165.

2- الأنعام : 149.

3- آل عمران : 179.

4- الأنفال : 37.

البذرة لا تتفتح ، ولا تصير نباتاً ولا شجرة إلا بعد ابتلاء وتأثير من الهواء ، والشمس ، والأرض حتى تكون شجراً ، فهكذا الإنسان لا تتفتح طاقاته الكامنة إلا إذا وضع في ظروف خاصة توجب تفتح القوة وظهورها إلى مرحلة الكمال.

فالتكاليف الشاقة الملازمة للشدة والضغط ، توجب ظهور الثمار وإبراز الطاقة.

ولندرس حياة الخليل عليه السلام حتى نقف على حقيقة هذا الجواب.

كان الخليل عليه السلام قبل الابتلاء إنساناً ذا طاقة وكمال دفين في شخصيته غير أن تلك الطاقة - التي نعبر عنها : بأنه كان قابلاً لأن يكون إنساناً مثالياً ملكوتياً بترك كل شيء من أجل خالقه تعالى - كانت مستورة في وجوده ، دفينة في أغوار شخصيته ، فأراد سبحانه إظهارها فجعلها في مجال الامتحان وبوتقة الاختبار ، فتفتحت وصارت كاملاً بالفعل.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذا الجواب بقوله : « لا يقولنَّ أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن ، فإنَّ الله سبحانه يقول : (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) (1) » (2).

وهذا التعبير من الإمام يشير إلى أن الامتحان سنة ثابتة من الله سبحانه وتعالى في عباده ليس عنها محيص ، ويشير بعد ذلك إلى فلسفة تلك السنة بقوله عليه السلام : « ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال

ص: 352

1- الأنفال : 28.

2- بحار الأنوار : 197 / 94 ح 6.

التي بها يستحق الثواب والعقاب ، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث وبعضهم يحب المال ويكره انثلام الحال « (1).

إنه سبحانه جعل الخليل على محك الاختبار فأمره بمكافحة عبدة الأصنام وكسر آلهتهم المزعومة ، إلى حدّ يستعد به للبلاء في طريق طاعته ، وإن كان بالقتل والحرق ، كما أمره سبحانه بإسكان أهله بأرض غير ذي زرع ، كما أمره ببناء بيته وتطهيره ، وذبح ولده بيده ، و... فهذه الوظائف الشاقة المرّة في ظاهرها ، الحلوة في باطنها ، جعلت الخليل بفضل بطولاته العجيبة في مجال الامتحان إنساناً إلهياً لا يعرف في مسيرة حياته غير الله ولا يهيمه غير أمره ، وهذا منتهى الكمال الممكن للإنسان المثالي ، فكم فرق بين إنسان نسي ميوله الحيوانية وغرائزه عندما تعارضت مع مراد مولاه وغاية مناه وهو الله ، وبين إنسان غارق في الشهوات وخائض في لجج الغرائز ، أسره الهوى فصار عبداً للشيطان (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) (2).

فالاختبار يجلي تلك الطاقات الكامنة في الصنفين المتقابلين في الناس ، ويعمل في النفوس المستعدة عمل الحرارة من تمييز الذهب عن خليطه.

هذا مجمل القول حول فلسفة الامتحان والتفصيل موكول إلى البحث عن الآيات الواردة حوله.

ص: 353

1- نهج البلاغة : قسم الحكم برقم 93.

2- الفرقان : 43.

2. ما هو المراد من الكلمات ؟

الكلمات جمع « كلمة » ، والمراد منها هو المفرد من الألفاظ ، وربما يطلق على الجملة ، فيقال : « لا إله إلا الله » كلمة الإخلاص ، غير أن القرآن يتوسع بعناية خاصة في استعمال الكلمة فيطلقها على الأشياء والأفعال الخارجية قال سبحانه : (بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) (1) ، وقال سبحانه : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) (2) ، وكما أنه يستعملها في الأعيان الخارجية ، يستعملها أيضاً في الأفعال التي يقوم بها الإنسان الممتحن ، وقد اختلف المفسرون في تعيين تلك الأفعال التي اختبر الخليل بها ، فنأتي بآرائهم إجمالاً.

1. المراد من الكلمات هي الإمامة ، وتطهير البيت ، ورفع القواعد ، والدعاء لبعث محمد صلى الله عليه وآله ، فإن هذه الأمور شاقة ، أمّا الإمامة فلأن المراد منها هاهنا هو النبوة ، وهذا التكليف يتضمن مشاقاً عظيمة ، وأمّا بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده فمن وقف على ما روى في كيفية بنائه عرف شدة البلوى فيه ، ثم إنه يتضمن إقامة المناسك ، وقد امتحن الله الخليل عليه الصلاة والسلام بالشيطان في الموقف لرمي الجمار وغيره ، وأمّا اشتغاله بالدعاء في أن يبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله في آخر الزمان فهذا ممّا يحتاج إليه من إخلاص العمل لله وإزالة الحسد عن القلب بالكلية (3).

ص: 354

1- آل عمران : 45.

2- الكهف : 109.

3- مفاتيح الغيب : 1 / 490 ، ط مصر.

ولا يخفى أنّ الرازي ومن قال بهذا القول قد خلطوا الحق بالباطل ، أمّا الحق فلأنّ عدّ تطهير البيت ورفع قواعده من الأمور التي اختبر الله الخليل بها حق لا مرية فيه ، وسيوافيك بيانه ، وأمّا الباطل فهو أمران :

الأول : عدّ الإمامة من جملة ما اختبر بها إبراهيم عليه السلام ، فلأنّ الظاهر من الآية إنّ سبحانه شرف إبراهيم بمقام الإمامة بعد أمرين :

1. الابتلاء بالكلمات.

2. إتمامه إيّاه.

فعند ذلك نصبه سبحانه في مقام الإمامة ونتيجة ذلك مغايرة الكلمات مع الإمامة الموهوبة له ، ولو كانت الإمامة من جملة ما ابتلي به إبراهيم لوجب تقديمها على قوله : (فأتّمها) وناسب أن يقول : « وإذ ابتلي إبراهيم ربه بكلمات قال إني جاعلك للناس إماماً فأتّمهن ».

والعجب أنّ الرازي جعل تطهير البيت ورفع قواعده من جملة الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم ، ولم يجعل قيامه بذبح الولد ، واستعداده لذلك من جملة تلك الكلمات ، مع أنّه سبحانه يعرف ذلك العمل بأنّه بلاء مبين ويقول : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) (1).

وإنّما فعل الرازي ذلك لأنّه قصر نظره في الآيات الواردة بعد هذه الآية ، فقد ورد فيها الأمر بالتطهير ورفع القواعد وطلب بعث النبي صلى الله عليه وآله ، فزعم الكل تفسيراً « للكلمات » مع أنّه ليست في بيان تلك الأمور أيّة قرينة على كون هذه الأمور تفسيراً لها ، وإنّما وقفنا على كون بعض ما جاء فيها من الكلمات ، من

ص: 355

1- الصفات : 106.

والظاهر المتبادر، إن تنصبيه في مقام الإمامة كان جزءاً منه سبحانه لإتمامه الكلمات ونجاحه في الامتحان، فلو كانت الإمامة من جملة تلك الأمور لأصبح الكلام غير تام، وصار السامع في نظائر المقام ينتظر حين يسمع، المثوبة التي نالها إبراهيم لأجل النجاح في معترك الامتحان ولا يتم ذلك إلا بإخراج الإمامة عن جملة تلك الأمور، وجعلها جزءاً لإتمامه الكلمات لا من الأمور التي اختبر بها.

وأما ما يَدَّ به الرازي نظره وقال: ثم إنَّ الذي يدلُّ على أنَّ المراد ذلك أنَّه عقبه بذكره من غير فصل بحرف من حروف العطف، فلم يقل: فقال إنِّي جاعلك للناس إماماً» بل قال: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)، فدلَّ على أنَّ الابتلاء الوارد في الآية كان عبارة عن هذه الأمور المذكورة.

ففيه أنَّ (إِذْ) في قوله سبحانه (وَإِذْ ابْتَلَى) ظرفية زمانية، وليس مطروفة سوى قوله (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ)، ومفاد الآية هكذا: في الظرف الذي ابتلي إبراهيم بكلمات وأتمَّها، قيل له إنَّه منصوب للإمامة، وعلى هذا لا حاجة للإتيان بحرف العطف «فاء» كانت أو غيرها.

وبعبارة أخرى: يريد سبحانه أن يقول: في هذا الظرف الكذائي الذي ابتلاه الله بكلمات وهو أتمَّها، قال له سبحانه: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) وفي مثل المورد يكون العاطف مخللاً، ولعل الرازي توهم أنَّ إذ الظرفية متضمنة لمعنى الشرط، وهو غير صحيح، وليست هذه أول قارورة كسرهما الرازي، فله في تفسيره شطحات كثيرة يقف عليها السائر فيه، خصوصاً فيما يرجع إلى العلوم العربية وتفسير كلمات القرآن ومفرداتها، ولأجل ذلك قال أبو الوليد ابن الشحنة الحنفي الحلبي في روض

المناظرة في حوادث سنة 606 هـ : إن الرازي له اليد الطولى في العلوم خلا العربية (1).

الثاني : أنه زعم أن اشتغال الخليل بالدعاء في حق النبي صلى الله عليه وآله دليل على إخلاصه وزوال الحسد من قلبه.

وفيه : أنه لا شك في إخلاصه وطهارته من كل رذيلة خلقية ، لكن جعل هذا دليلاً عليه أشبه شيء بجعل الصباح دليلاً على وجود ضوء الشمس ، فإن العامة من الناس يقومون بذلك فضلاً عن الأكارم ، بالأنبياء ؟ ولا يستدل أحد بهذا العمل على إخلاص الداعي وطهارته من الحسد خصوصاً إذا كان المدعو له يجيء بعده بقرون وبالأخص إذا كان من أولاده وأحفاده.

ولعمر القارئ إنه لو وقف عربي صميم خال ذهنه عن المناقشات الكلامية على هذه الآية ، لقضى بأنه كان هناك ابتلاء من الله بالنسبة إلى نبيه إبراهيم بعدة أمور ، وإن إبراهيم أتمهن فجزاه الله سبحانه بتشريفه بمقام الإمامة ، وأما ما هو المراد من الكلمات ، فهو من الأمور التي يجب أن تطلب من التفحص حول ما ورد في حقه عليه السلام من الآيات ، ولا يخطر بباله أن الإمامة من جملة ما ابتلي به إبراهيم.

2. المراد من الكلمات : الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة ، وهي : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ، وتقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، والاستنجاء بالماء.

هذا الرأي لا يقصر عن سابقه ، فإن القيام بهذه الأمور ليس أمراً شاقاً حتى يبتلي الله بها أنبياءه ورسله ، بل يقوم بها كل إنسان بسهولة.

ص: 357

3. المراد من الكلمات هو الخصال الثلاثون التي لم يتبل أحد بها قبله ، فأقامها الخليل عليه السلام كلها فأتهمن فكتب له البراءة فقال تعالى : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) وهي :

عشرة في سورة براءة : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ...) (1) ، وعشرة في سورة الأحزاب : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...) (2) ، وعشرة في سورة المؤمنون : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ...) (3) ، وعشرة في سورة المعارج : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ... * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (4).

ولا يخفى أن هذا أشبه شيء بالترسيخ بالرأي ، وإنما هو مجرد استحسان ، ولم يدل دليل على كون المراد من الكلمات هذه الخصال الواردة في الآيات المباركة على أن الخصال تزيد من ثلاثين ، فلاحظ.

4. المراد هو التكليف الشاققة الملقاة على عاتق الخليل منذ شبابه إلى أخريات أيامه ، يظهر ذلك بالرجوع إلى الآيات التالية الحاكية عن حياته ، من شبابه إلى شيخوخته : (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَفُنَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَمِيعٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ *)

ص: 358

1- التوبة : 112.

2- الأحزاب : 35.

3- المؤمنون : 2 - 9.

4- المعارج : 23 - 34.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (1).

وهذه الآيات تصرّح بأن إبراهيم بطل التوحيد قد ابتلي منذ شبابه إلى شيخوخته بأمر:

1. أمره سبحانه بتحطيم الأصنام، فقام بهذا العمل الخطير بحماس ورباطة جأش، واستقبل رد فعل قومه وهو الإلقاء في النار، بصلابة وقوة عزيمة.
2. أمره تعالى بترك الوطن وإلقاء الرحل في دار الغربية لنشر الدعوة، فجاهه الوحي بأن يذهب بأهله وولده إلى واد غير ذي زرع، فاستقبل الأمر ببشاشة وجه، ونادى ربه بقوله: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (2).
3. أمره سبحانه بعمارة البيت ورفع قواعده وتطهيره، وجاء به النص في قوله

ص: 359

1- الصفات : 83 - 113.

2- إبراهيم : 37.

سبحانه : (وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ... * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (1).

4. أمره بذبح ولده ، فقام بامثال الأمر على صعوبته البالغة برحابة صدر وتسليم لأمر الله ، بحيث حكى ذلك تعالى بقوله : (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ...) .

فالله سبحانه يصف القيامة بالأمر الأخير بقوله : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) (2).

وهذا التوصيف (البلاء المبين) وإن كان ناظراً إلى قيام إبراهيم بمحاولة ذبح الولد ، ولكنه يشعر بأن بقية الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم كانت أعمالاً تشابه ذلك من حيث المشقة ، وليست تلك الأعمال في حياة إبراهيم إلا ما تكفلت تلك الآيات ببيانها.

فعند ذلك قامت الحجة على أن إبراهيم خالص من كل مزيج ، صفو من كل كدر ، فاستحق الارتقاء إلى منصب عال لم يرتق إليه أحد من قبله ، وهو منصب الإمامة.

3. المراد من الإتمام

الإتمام في مقابل النقص ، ومعنى الإتمام إبلاغ الشيء إلى حد الكمال ، يقول سبحانه : (وَأَتَمَّمْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) ، والمراد من إتمام الكلمات هو القيام بها

ص: 360

1- البقرة: 125 - 127.

2- الصافات: 106.

بنجاح في معترك الابتلاء ، وقد نقل سبحانه كيفية نجاح إبراهيم في تلك المعركة وتظهر بالرجوع إلى الآيات الواردة حول ابتلائه في السور المختلفة (1).

قال الزمخشري في « الكشاف » في تفسير « فأتْمَهَن » : فقام بهنّ حق القيام وأداهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان. ويؤيد كون الفاعل هو إبراهيم قوله سبحانه : (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (2) ، أي تمّم وأكمل ما ابتلي وامتنحن به أو الأعم منه وما أمر به (3).

وربّما يحتمل كون الفاعل ، هو الضمير العائد إلى الله سبحانه ، وعليه يكون مفاده توفيقه لما أراد منه حتى تصح نسبة إتمام الكلمات إليه سبحانه ، فالفاعل المباشر هو الخليل والله سبحانه هو الموقّق ، وتصح نسبة الفعل الواحد إلى المباشر والسبب جميعاً.

وأما تفسير الإتمام - بناء على كون الضمير عائداً إلى الله - « بأنّه أعطاه ما طلبه ولم ينقص منه شيئاً » (4) ، فهو كلام عار عن التحقيق ، فإنّ الضمير المتصل بالفعل يرجع إلى الكلمات ، أعني : « هن » في « أتمهن » وليست الكلمات شيئاً طلبها إبراهيم من الله ، بل الله سبحانه طلبها منه كما سيوافيك ، وعلى ذلك لا يصح تفسير إتمام الله بإعطائه ما طلبه إبراهيم منه ، وإتّما يصح بتوفيقه إيّاه للقيام بما أمر والنجاح في ما ابتلي.

ص: 361

-
- 1- البقرة: 127 - 128 ; الأنعام: 70 - 83 ; الأنبياء: 53 - 71 ; الحج: 26 - 27 ; وسورة إبراهيم: 37 - 40.
 - 2- النجم: 36 - 37.
 - 3- لاحظ الكشاف: 1 / 236 ; مجمع البيان: 5 / 180.
 - 4- لاحظ الكشاف: 1 / 236 ; مجمع البيان: 5 / 180.

إشارة

هذا هو البحث المهم في المقام الذي تضاربت فيه الآراء ، ونحن نرفع الستار عن وجه الحقيقة بالبحث عن أمور ثلاثة :

ألف. ما هو معنى الإمام لغة ؟

ب. ما هو مفهوم الإمام في القرآن الكريم ؟

ج. ما هو ملاك إمامة الخليل في هذه الآية ؟ وهذا هو المهم في فهم الآية ، وقد أهمل في كلمات المفسرين ، وسيوافيك أن البحث في الأمر الثاني لا يغني عن الثالث.

ألف. الإمام في اللغة

قال ابن فارس : الإمام كل من اقتدي به وقُدّم في الأمور ، والنبي إمام الأئمة ، والخليفة إمام الرعية ، والقرآن إمام المسلمين.

وقال ابن منظور : الإمام ما اتّمت به من رئيس وغيره ، وفي التنزيل العزيز : (فَقاتِلُوا أئمةَ الكُفْرِ) ، أي قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم ... إمام كل شيء قيّمه والمصلح له ، والقرآن إمام المسلمين.

وليست تلك النصوص من هذين العلمين مبيّنة للمعنى الأصلي للكلمة ، وإنّما تشير إلى مصاديق المعنى الأصلي ، والنص اللغوي الصحيح - الذي جاء يحدّد معنى الكلمة مجردة عن انطباقه على مصاديقها - هو ما ذكره صاحب القاموس : الإمام هو ما يتعلّمه الغلام كل يوم من رؤوس أقلام ، وما امتثل عليه من مثال ودليل ، وخشبة يسوى عليها البناء.

وهذه العبارة من صاحب القاموس توصلنا إلى أصل المعنى اللغوي ، وهو أنّ الإمام عبارة عن كل شيء يتّخذ الإنسان مثلاً لعمله ودليلاً لفعله ، ويطبّق فعله وعمله على ذلك المثل وذلك الدليل ، فهذا هو المعنى الأصلي لتلك الكلمة ، فالنبي صلى الله عليه وآله إمام ، والقرآن إمام ، وخشبة البناء إمام للبناء ، لأجل إنّ الإنسان يطبق عمله على عمل وقول النبي صلى الله عليه وآله أو القرآن ، فكل شيء اتّخذ مثلاً في الحياة وأسوة في مقام التطبيق يكون إماماً من غير فرق بين الأشياء المادية ، هذا كلّه في توضيح مفهوم «الإمام» من حيث اللغة ، وإليك توضيحه في القرآن.

ب. مفهوم الإمام في القرآن

جاء لفظ الإمام في الذكر الحكيم اثنتا عشرة مرة بين مفرد وجمع ، مفرداً سبع مرات ، وجمعها خمس مرات.

وقد استعملت في الجميع بمعنى واحد ، وهو الذي تعرّف عليه من صاحب القاموس وإن كانت تطبيقاتها مختلفة ، ولأجل ذلك لا يمكن عدّها من معاني كلمة الإمام.

وإليك تلك الموارد.

1. ترى أنّه سبحانه يصف التوراة بأنّها إمام ، يقول سبحانه وتعالى : (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) (1).

2. كما يصف الطريق الذي تمشي عليه القوافل إماماً ويقول : (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) (2) ، أي انتقمنا من قوم لوط وأصحاب الأيكة وأنّ

ص: 363

1- هود : 17.

2- الحجر : 79.

3. كما أنه يصف قادة الكفر والانحراف به ويقول: (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) (1)، بل يصف كل قائد بالإمامة بقوله: (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) (2).

فالمعنى في الجميع واحد، وهو الدليل الذي يهتدى به، والمثال الذي يمثل به، وإن كانت التطبيقات مختلفة، فالتوراة إمام، لأنها يقتدى بها، وطريق القوافل إمام، لأن القوافل تتخذة دليلاً وتمشي عليه، وقادة الكفر بل جميع القادة أئمة، لأن المقتدين يتخذونهم مثلاً في الحياة ويمشون على آثارهم حتى أن الأنبياء جميعهم أئمة بهذا المعنى، فإن عمل وقول النبي صلى الله عليه وآله وتقريره تتخذ مثلاً ودليلاً يسار على ضوئه.

وهذا ما قلناه من أن معنى الإمام في الذكر الحكيم لا يختلف عن المعنى الذي نصت عليه الكتب اللغوية حتى الإمام في الآية المباركة، فقد استعمل الإمام فيه في المعنى اللغوي لا غير، وهو الدليل والمثال والأسوة والمقتدى غير أن ما يجب التدبر فيه هو الوقوف على الملاك الذي جعل به الخليل عليه السلام إماماً، فهل هو لأجل كونه نبياً أو رسولاً أو خليلاً أو كونه مفترض الطاعة أو غير ذلك من الملاكات المختلفة التي تصحح كون الإنسان إماماً.

ج. ما هو ملاك إمامة الخليل في الآية؟

نرى أن المفسرين يفترضون للإمام معاني مختلفة، ثم يبحثون عن معناه في

ص: 364

1- القصص: 41.

2- الإسراء: 71.

هذه الآية ويذهبون يميناً وشمالاً ، غير أنّ البحث بهذه الكيفية غير تام أصلاً ، لأنّه ليس لذلك اللفظ إلا معنى واحد كما بيّنا ، والذي يجب التركيز عليه هو التعرض لملاك الإمامة ومعيّارها وإنه بماذا جعل الخليل إماماً في زمانه دون لوط عليه السلام مع أنّ الثاني كالأول كان نبياً ، ومع ذلك خُصّ بكونه إماماً من بين أنبياء عصره ، فلا بد أن يكون هناك ملاك يختص به الخليل . وعلى الجملة نحن لا نشك أنّ للكلمة في جميع موارد استعمالها معنى واحداً سواء أوقع وصفاً للكتاب أم للطريق أم للإنسان ، ولكن الذي كان من واجب المفسرين هو تعيين ملاك الإمامة في كل مورد من موارد استعمالها حتى الآية التي نبحت عنها غير أنّهم أهملوا تلك الناحية الحساسة في البحث .

ولأجل ذلك نطرح ما ذكره المفسرون على بساط البحث معبرين عنه بملاكات الإمامة ومعيّارها .

الملاك الأول هو النبوة

ذهب عدّة من المفسرين - منهم الرازي في « مفاتيح الغيب » - إلى أنّ المراد من الإمامة هنا هو النبوة .

بعبارة صحيحة : أنّ ملاك إمامة الخليل نبوته ، لأنّها تتضمن مشاقفاً عظيمة (1) .

وقال الشيخ محمد عبده على ما في « تفسير المنار » : الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تنال بكسب الكاسب ، وليس في الكلام دليل على أنّ الابتلاء كان قبل النبوة (2) .

ص: 365

1- مفاتيح الغيب : 1 / 490 .

2- تفسير المنار : 1 / 455 .

ولا يخفى وهن هذا الرأي ، لأن إبراهيم عليه السلام كان نبياً قبل الابتلاء بالكلمات وقبل تنصيبه إماماً ، فكيف يصحّ أن تفسر الإمامة بالنبوة على ما في لفظ الرازي والرسالة على ما في لفظ المنار؟! ويتضح ذلك بالأمر التالية :

1. انّ نزول الوحي على إبراهيم عليه السلام - كما تدل عليه الآية : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) - أوضح دليل على أنّه كان نبياً متلقياً للوحي قبل نزول هذه الآية ، وليس في وسع أحد أن يقول : إنّ الخطاب إليه بقوله : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) يدلّ على كونه نبياً حينه ، ولا يدلّ على كونه نبياً من قبل ، وذلك لأنّ أسلوب الوحي البدائي يختلف لونا عن الوحي الاستمراري ، فالمحاورّة الموجودة في هذه الآية تعرب عن أنّه كان مأنوساً بالوحي قبل نزولها ، ولأجل ذلك لما تشرف بمقام الإمامة أطال الكلام وطلبها لذريته ، وليس هذا اللون من الكلام يشبه الوحي الابتدائي أبداً ، فإنّ الإنسان في بدء لقائه وكلامه مع شخص ، لا يتجاوز عن أمور كلية ولا يتجاوز إلى أخص الخصوصيات ، وهي طلب المنزلة لنسله ، بل هذا يناسب كلام من كان مأنوساً بمخاطبه ومكلمه.

ويمكن لك أن تكشف الحقيقة بالخطاب النازل على موسى في بداية الإيحاء إليه بالنبوة قال سبحانه : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (1).

ونظير ذلك ما خوطب به النبي محمد صلى الله عليه وآله في بدء نزول الوحي ، قال سبحانه : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (2).

ومن هذا ينتج أنّ الخليل كان نبياً قبل إلقاء الخطاب بالرسالة عليه ، فيكون

ص: 366

1- القصص : 30.

2- العلق : 1.

2. دلت الآيات على أن إبراهيم كان نبياً ولم يرزق أي ولد لا إسماعيل ولا إسحاق.

أمّا الأول فإنما بُشِّرَ به بعد ما كان نبياً وقام بتحطيم الأصنام في « بابل » وحكم عليه بالإحراق ، ولما نجاه سبحانه ترك الموطن ذاهباً إلى فلسطين ، فعند ذلك جاءت البشارة بأنه يرزق غلاماً حليماً ، قال سبحانه : (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهِدِينَ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) (1).

وأما الثاني فقد بُشِّرَ به أيضاً عندما نزلت عليه الملائكة ضيوفاً ، قال سبحانه : (وَبَشَّرْنَاهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجَلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ) (2) ، ونزول الملائكة الذين كانوا مرسلين إلى قوم لوط ، عليه آية نبوته عند البشارة بإسحاق.

هذا من جانب ، ومن جانب آخر إن إبراهيم يطلب من الله سبحانه أن يرزق ذريته الإمامة كما رزقها إياه ، فطلبه لها دليل على أنه كان عند إفاضة الإمامة عليه ووقت الدعاء لذريته ، صاحب ذرية وأولاد.

ص: 367

1- الصفات : 93 - 102.

2- الحجر : 51 - 55.

إذا عرفت هذين الأمرين فنقول : يجب أن تكون الإمامة الموهوبة (عند ما كان الخليل صاحب ذرية) غير النبوة ، وإلا فيلزم أن تكون هبة المنصب الذي كان واحداً له قبل ذلك بكثير ، أشبه بتحصيل الحاصل .

والحاصل : ان الآية تدل على أن الإمامة أفيضت عليه عندما كان ذا ولد بدليل طلبها لهم ، ودلت الآيات الماضية على أنه كان نبياً قبل أن يرزق أي ولد ، فينتج ان الإمامة الموهوبة في الأزمنة المتأخرة عن بعثته بكثير ، غير النبوة ، غير ان بعض المفسرين لما وقف على ذلك الوجه وانه لا يصح طلب شيء للذرية إلا لمن كان له بعضها صار بصدده دفعه بأن إبراهيم يوم خوطب بقوله سبحانه : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ...) لم يكن ذا ذرية وإنما طلبها لهم لأجل التعرف من جواب الله سبحانه على أنه هل يكون في المستقبل ذا ذرية أم لا ؟ فوقف من جوابه سبحانه على أنه لا يموت عقيماً بل يكون ذا ذرية .

ولا يخفى أن ما ذكره غير صحيح ، لأن الحكم على الذرية على وجه الإيجاب يقتضي أن يكون الرجل رزق بعضها ، وأما إذا لم يكن له أي ولد فلا يستحسن في العرف ، الدعاء لهم بالإمامة ، ولأجل ذلك ترى أن إبراهيم يستعمل لفظ الذرية في أولاده المحققين ويقول : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (1) .

ويقول أيضاً : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْئِلِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْتَلِمَةً) (2) ، وقد طلب ذلك عندما كان يرفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل .

نعم إن الإنسان يصح أن يطلب من الله ذرية صالحة تكن قرّة عين له كما

ص : 368

1- إبراهيم : 37 .

2- البقرة : 128 .

أمر به سبحانه بقوله : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (1)، ولكن لا يصحّ إذا أعطي شيئاً من جانب الله سبحانه ، أن يطلبه في الوقت نفسه لذريته مع أنه لم يكن في وقت الطلب ذا ذرية ، فإنّ ذلك كلام خارج عن المتعارف ، وأمّا كون الطلب لأجل الوقوف على أنه هل يرزق في المستقبل بعض الذرية أو لا ؟ فهو كما ترى.

قال العلامة الطباطبائي : وكيف يسع من له أدنى تدريب بأدب الكلام ، وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به ؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول : ومن ذريتي إن رزقتي ذرية أو ما يؤدّي هذا المعنى (2).

الملاك الثاني كونه أسوة في المجالات الثلاثة

إشارة

النبوة عبارة عن نزول الوحي على الإنسان ، والرسالة إبلاغه وتحقيق النبوة في مجالها ، ولكن ليس كل نبي إماماً بل الأنبياء على قسمين : منهم أئمة ومنهم غير أئمة قال سبحانه : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (3)، والآية بحكم « من » التبعية تدل على أنه سبحانه لم يجعل كل الأنبياء أئمة ، بل جعل البعض منهم أئمة.

وعلى ذلك فيجب التفحص في الآيات الواردة حول الأنبياء للتعرف على الأئمة من بينهم ، ويستظهر أنّ المراد من يصلح أن يكون أسوة على الإطلاق في

ص: 369

1- الفرقان : 74.

2- الميزان : 1 / 27.

3- السجدة : 24.

جميع المجالات الثلاثة: قولاً وفعلاً وتقريباً، لا في مجال خاص كالإتيان بالواجبات وترك المحرمات دون مجال كترك الأولى.

توضيحه: إن الأنبياء على قسمين: قسم منهم يصح أن نجعل أقوالهم وأفعالهم وتقاريراتهم على وجه الإطلاق أسوة، ودليلاً في مجالات الحياة؛ وقسم منهم ليسوا كذلك، لأنهم اقتربوا ما كان الأولى والأليق بشأنهم تركه، ولأجل ذلك لا يصح أن يتخذوا أئمة على الإطلاق، ونرى أنه سبحانه ينقل عن عدة منهم اقتراح أمور لا تصح أن تجعل دليلاً في الحياة وأسوة للمؤمنين، يقول سبحانه في حق أبينا آدم: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (1).

كما ذكر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام عندما وكز عدوه وقضى عليه: (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) (2).

وينقل عن نبيه يونس قوله: (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (3).

وهذه الأعمال الصادرة من هؤلاء الأنبياء وإن لم تكن معصية ونقضاً للحكم المبرم وكانت عبارة عن ما يسمّى بـ «ترك الأولى» في المصطلح، وقد دللنا على ذلك عند البحث عن عصمة الأنبياء غير أن هذه الأفعال حالت بينهم وبين أن يكونوا أئمة على الإطلاق ويؤخذ بأفعالهم على وجه الإبرام، ولأجل ذلك لم يكونوا أئمة وأسوة في كل شيء وإثما كانت الإمامة ثابتة لطائفة أخرى من الأنبياء

ص: 370

1- طه: 115.

2- القصص: 15.

3- الأنبياء: 87.

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهم الذين يصفهم سبحانه بقوله : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) (1).

فالهداية المطلقة والدعوة الواسعة والأسوة التامة خاصة لقسم من الأنبياء وإن كان كل نبي داعياً وهدائياً إلى الحلال والحرام ، ويرشد إلى ذلك أن الخليل إنما وصل إلى ذلك المقام ، بعد ما صار خليلاً ، والخلة هي فراغ القلب من غير الله سبحانه بحيث لا يفعل صاحبها إلا ما فيه رضى الله سبحانه وتعالى ، وإليك متن الحديث : إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً ، وإن الله اتخذ نبياً قبل أن يتخذه رسولاً ، وإن الله اتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً ، وإن الله اتخذ خليلاً قبل أن يتخذه إماماً ، فلما جمع له الأشياء قال : (إني جاعلك للناس إماماً) (2).

فالإمامة نتيجة الخلة وصيرورة النبي فارغاً من كل شيء سوى الله سبحانه ، وعند ذلك ، يكون إماماً مطلقاً يستدل به وأسوة يقتدى به في المجالات الثلاثة : قولاً وفعلًا وتقريراً.

تحليل النظرية

وفيه : أولاً : فلأن هذه النظرية مبنية على ما استظهره من قوله سبحانه : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) ، فاستظهر أن الأنبياء على قسمين : إمام وغيره ، بشهادة كلمة « من » ، لكن الاستظهار غفلة عن مرجع الضمير ، فالضمير يرجع إلى

ص: 371

1- الأنبياء : 73.

2- الكافي : 1 / 175 ، باب طبقة الأنبياء.

بني إسرائيل لا إلى الأنبياء ، قال سبحانه : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (1).

ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه يصف إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب أئمة يهدون بأمره ، قال سبحانه : (وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) (2).

وعلى هذا فجعل الأنبياء على قسمين معتمداً على ما استظهر من الآية غير تام ، وإن كان أصل التقسيم صحيحاً على ما سيبين.

وثانياً : فلماذا لا تكون الإمامة ذات مراتب ودرجات ومقولةً بالتشكيك ويكون الكل باعتبار أنّ لهم نور الوحي والنبوة ، والعصمة والمصونية ، أئمة يقتدى بهم ، وتخصيص الإمامة بجماعة خاصة منهم بلغوا القمة في الطهارة والفضيلة يحتاج إلى دليل خاص ، فإنّ الإنسان المثالي إذا بلغ مقام العصمة يصبح أسوة للناس ودليلاً في الحياة ، وإماماً في القول والعمل ، فالتشدد والترتّب في شرطية ترك الأولى في الإمامة ، غير واضح.

نعم لو كان ما اقترفوه من الأعمال ، عصيانياً صحّ القول بعدم كونهم أئمة وأسوة على وجه الإطلاق ، وأمّا إذا كان أمراً مباحاً وجائزاً شرعاً وإن كان الأولى تركه ، فلا وجه لإخراج المقترفين منهم عن كونهم أئمة.

ص: 372

1- السجدة : 23 - 24.

2- الأنبياء : 71 - 73.

إشارة

إنّ هذه النظرية تتلخّص في كلمة : وهي أنّ الإمامة التي جاءت في هذه الآية من خصائص الخليل عليه السلام ، ولا تعدوه إلى أشخاص آخرين ، لاختصاص ملاكها به من الأنبياء ، وهو كونه بين الأنبياء واقعاً في قمة الهداية ومعلماً للآخرين ، وإنّ الذين جاءوا بعده ساروا على الطريق الذي اختطه.

ويظهر لك من الآيات الواردة في حقّه ، قال سبحانه : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (1).

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) (2).

فالآية الأولى تجلّ إبراهيم عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وتصفه بأنّه كان حنيفاً مسلماً وما كان مشركاً ، وذلك لأنّ اليهودية والنصرانية عدلتا عن جادة التوحيد وامتزجتا بالشرك ، مضافاً إلى أنّ إبراهيم بعث قبل نزول الشريعتين .

والآية الثانية تخص الأصناف الثلاثة بأنّهم أولى بإبراهيم ، فإنّ الأول هم الذين اتّبَعوه في عصره وما بعد عصره حتّى ظهور النبي محمد صلى الله عليه وآله ، والصنف الثاني هو النبي محمد صلى الله عليه وآله ، والثالث الذين آمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وآله ، فأولوية الصنف الأول به لأجل كونهم من أمته والثاني والثالث لوجود الوحدة بين الخطين والتشابه بين المنهجين .

نرى في بعض الآيات أنّ الأمر أعظم من ذلك حيث يأمر سبحانه النبي

ص: 373

1- آل عمران : 67.

2- آل عمران : 68.

الأكرم صلى الله عليه وآله باتّباع طريقة إبراهيم ، وهي الطريقة الحنيفية ، وخصّ منها البراءة من الشرك والنزاهة من الوثنية حتّى يعرف الخليل عليه السلام أنّه أبو الإسلام والمسلمين ، وأنّه هو أول من وصف مشاة خط التوحيد بالمسلمين ، قال سبحانه : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (1). ويقول أيضاً : (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (2).

وهذه الآيات وغيرها تعرب عن إمامة إبراهيم عبر العصور والأدوار وأنّه بطريقته المثلى وشريعته الحنيفية ونزاهته من ألوان الشرك في العقيدة والعمل صار مثلاً شاخصاً لجميع الأنبياء والمرسلين ، والشرائع السماوية من بدايتها إلى نهايتها التي تمت بشريعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ، وكأنّ الأنبياء في كل عصر يتبعون منهجه ويخطون خطواته ويمشون على الخط الذي مشى عليه ، ولأجل ذلك صار الخليل إماماً للناس ومثلاً للأمم يتمثل به ويتخذ مناراً يقتدى به في القول والعمل .

تحليل هذه النظرية

لا شك أنّ إبراهيم يعد من القمم بين الأنبياء وإنّ له من الصفات الجليلة التي يذكرها القرآن ما ليس لغيره إلا أنّ تفسير ملاك الإمامة على النحو الذي مرّ يوجب اختصاص الإمامة به من بين جميع الأنبياء والأولياء ولا تتعدى إلى غيره ، لأنّ الخصيصة التي نالها إبراهيم عليه السلام من جانب شريعته وطريقته حتّى صار علماً

ص: 374

1- النحل : 123.

2- الحج : 78.

ومناراً في حقول الشرائع والنبوءات أمر يختص به ، فلو كان ملاك الإمامة هو هذا ، يجب أن يكون هو الإمام وحده دون غيره مع أنه عليه السلام طلبها لذريته فأجيب بأنَّ عهده سبحانه : (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) مشعراً بأنَّ غيرهم ينالونه ، فلو كان ملاك الإمامة كون الإنسان مناراً بين الأنبياء ، وشريعته علماً بين الشرائع لاختصت الإمامة به ، ولا يناسب في المقام سؤلها للأولاد بما ذكر .

وحصيلة الجواب : انّ ما ذكر من الفضيلة لبطل التوحيد أمر لا ينكر على ضوء الآيات التي ذكرناها ، لكنّها لا تكون ملاكاً للإمامة بل يجب هناك شيء آخر وراءها يكون ملاكاً حتّى يصحّ طلبها لذريته وتصحّ الإجابة بنيل العدو منهم لها .

الملاك الرابع : كونه مفترض الطاعة

إشارة

هذه النظرية تتلخّص في أنّ الإمام في الآية هو الحاكم السائد على المجتمع ، والآخذ بيد الأمة إلى الكمال في الحياة الفردية والاجتماعية ، فيجب على الأمة امتثال أوامره وتوجيهاته في الحقول السياسية والاجتماعية والقضائية والعسكرية وغير ذلك ، ولا نقف على مدى صحة هذه النظرية إلاّ بعد الوقوف على معنى النبي والرسول في القرآن الكريم حتّى نعرف أنّ الإمام يشتمل على معنى لا يشتمل عليه اللفظان ، وعلى الأصحّ يشتمل منصب الإمامة على شيء لا يوجد في منصب النبوة والرسالة فنقول :

النبي - سواء أجعل بمعنى المّطلع على الغيب أو بمعنى المنبئ عن الغيب - إنسان مؤدّ عن الله بلا- واسطة بشرية (1) ، وهذا الإنسان باعتبار اتصاله بالملاّ

ص: 375

الأعلى وكونه متلقياً للوحي ومطلعاً عليه ومنبأً عنه ، يسمّ نبياً ، وإذا كلف بإبلاغ ما أمر به وتجسيد ما أخبر به على صعيد الحياة فهو رسول ، ففي إطار النبوة ليس إلا قضية الاطلاع على الغيب أو قدرة الإخبار عنه إلى الناس ولا يتعدى عنها كما أنه في إطار الرسالة ، مأمور بالإبلاغ والبيان ولا يتعدى عن هذه الوظيفة ، وهذا هو الموضوع الهام الذي فرغنا منه في الجزء الرابع من كتابنا : مفاهيم القرآن ولا حاجة للإعادة (1).

ولكن القول الذي نركّز عليه هو أنّ الرسول المأمور بالإبلاغ ليس له في هذا المجال أمر ولا نهى ولا إكراه ولا سيطرة ، بل تتلخص وظيفته في التذكير والتبليغ ، قال سبحانه : (فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (2) ويقول سبحانه : (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رِسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (3) ، ففي هذا المجال تتجلى وظيفة الرسالة في بيان الحلال والحرام والمشروع والممنوع وإراءة طرق الصلاح والفلاح ، فلو صحّ في تبين الحقيقة التمثيل بشيء أدون من الممثل فنقول : إنّ مثل الرسول في توجيهاته الرسالية أشبه بمستنبط الأحكام من الكتاب والسنة وإبلاغها للناس ، فإذا امتثل الناس بما يقول فقد امتثلوا إلى المشرّع الأعظم وأطاعوه ، وإن لم يقوموا بأداء ما يقول فقد خالفوا الشارع وعصوه ، وعلى هذا الضوء فالناس في صلاتهم وصومهم وحجهم وزكاتهم مطيعون لله سبحانه فقط وليس للرسول أيّ طاعة إلا بضرب من العناية ، كما أنّ للمفتي والمجتهد طاعة مثله ، فحين قال سبحانه : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (4) ، فهو يرشد إلى

ص: 376

1- لاحظ الجزء الرابع من هذه الموسوعة : 317 - 369.

2- الغاشية : 21 - 22.

3- المائدة : 92.

4- النساء : 64.

هذا النوع من الإطاعة ، فالمطاع هو الله سبحانه حقيقة والنبى مطاع بضرب من العناية إذ المفروض أنه ليس للرسول أيّ تشريع وأيّ تقنين ولا أمر ونهي فلا يكون له طاعة.

إمامة الرسول

هذا إذا قصرنا النظر على مجالي النبوة والرسالة ، ولكنّه سبحانه لما كساه ثوب الإمامة بعد أن ابتلاه ونصبه لمقام الإمامة وصار عند ذلك حاكماً سائداً على المجتمع ، رائداً للأمة ، قائماً بإرشادهم في الحقول المختلفة سياسياً وعسكرياً ...

فعند ذلك كان الرسول في مقام التنفيذ ذا أمر ونهي وأخذ ورد وتعيين وعزل إلى غير ذلك من الأمور التي يمارسها الرسول باعتبار كونه حاكماً وسائساً ومؤدّباً للأمة وقائداً للمجتمع وإماماً للمؤمنين .

ولا ريب أنّه ليس لأحد ولاية على أحد وإنّ الناس كأسنان المشط ليس لأحدهم حق حكم على الآخر ، بل الولاية المطلقة لله سبحانه وتعالى ، فهو باعتبار كونه خالقاً للكون ومدبراً لما فيه ، له حق الحكم والطاعة ، يقول سبحانه : (إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (1).

وهذا ما يعبر عنه بالتوحيد في الحاكمية والطاعة لا يشاركه فيها غيره ، لكن مع الاعتراف بذلك لا نعني من عنوان انحصار الحاكمية (بالله) حصر الإمرة بالله بأن يتولّى سبحانه الإمرة على العباد ، فالولاية وحق الحاكمية بالأصالة حق لله سبحانه ، ولكن الإمرة لخيرة عباده يتصدّون لها بإذنه .

ص: 377

وإن شئت قلت : إنَّ المقصود من قوله سبحانه : (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَنْصُرُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) (1)، وقوله : (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (2)، وقوله سبحانه : (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (3)، هو حصر الولاية وحق الحاكمية لا الإمرة والتصدي لنظام البلاد، إذ يستحيل ممارسة الحكم من الله تعالى بصورة مباشرة، ولأجل ذلك نجد جمعاً من الأنبياء تولّوا منصة الولاية بإذن الله وأخذوا بتدبير شؤون الحياة الاجتماعية للإنسان، ففي هذا الصدد يقول سبحانه : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) (4).

فالرسول الذي يحظى بمقام تنفيذ الولاية الإلهية في المجالات المختلفة بين الناس، هو الإمام المفترضة طاعته، ولا يحظى به إلا ثلثة من المصطفين الأخيار، وإليك الشواهد القرآنية التي تدل بوضوح على أنّ ملاك الإمامة في هذه الآية - لا مطلقاً - هو كونه مثلاً في القول والعمل، وعلى الأمة طاعته في كل ما يأمر وينهى ويبرم وينقض، فهو أسوة في الحياة وقدوة للجميع.

الشواهد القرآنية على تفسير الإمامة بافتراض الطاعة

إنّ تفسير ملاك الإمامة بافتراض الطاعة والقيادة الإلهية الحكيمة شيء تؤيده الآيات التالية بل تثبته.

ص: 378

1- الأنعام : 57.

2- الأنعام : 62.

3- القصص : 70.

4- ص : 26.

روى بعض المفسرين أن كعب بن الأشرف خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ، ليحالفوا قريشاً ضد الرسول صلى الله عليه وآله فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود في دور قريش ، فقالت قريش : إنكم أهل كتاب ، فلا نأمن من أن يكون هذا مكرأ منكم ، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ، ففعل ذلك .

ثم قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأيتنا أهدى طريقاً وأقرب للحق نحن أم محمد ؟

قال كعب : اعرضوا علي دينكم ، فلمّا عرض أبو سفيان عليه دينه ، قال كعب : أنتم واللّه أهدى سبيلاً ممّا عليه محمد .

فأنزل الله سبحانه الآيات التالية :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * ... أَمْ لَهُمْ نَصِيحٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (1). (2)

توضيح الاستدلال : أنه سبحانه ردّ على قولهم (هَؤُلَاءِ (المشركون) أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) بوجوه ثلاثة :

الأول والثاني : استفادان من قوله سبحانه : (أَمْ لَهُمْ نَصِيحٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) ، فإن « أم » بحكم كونها متصلة تدلّ على وجود معطوف

ص: 379

1- النساء : 51 - 54 .

2- مجمع البيان : 59/2 ، وغيره .

عليه محذوف ، مثل :

1. (أَلْهَمَ عِلْمَ فِي كُلِّ مَا حَكَمُوا بِهِ مِنْ حَكْمٍ) ثم قال :

2. (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ) .

وعلى ذلك فعطف على ذلك المقدر قوله : أم لهم نصيب من الملك ثم أجاب بجواب ثالث.

3. (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

فيؤول معنى الآية وجوابه سبحانه عنهم إلى شقوق ثلاثة :

الف. ألهم حق الحكم في كل شيء حتى في أن المشركين أهدى من الذين آمنوا ؟

ب. أم لهم نصيب من الملك الذي أنعم الله به على نبيّه ، ولو كان لهم نصيب من الملك لم يؤتوا الناس حتى أقل القليل الذي لا يعتد به لخلهم وسوء سريرتهم ، وهذا يظهر من قوله سبحانه : (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ) (1).

ثم عاد سبحانه يبيّن أساس قضائهم وحكمهم بكون المشركين أهدى من الذين آمنوا وقال :

ج. (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

فبيّن أن أساس حكمهم بكون المشرك أهدى من الموحد هو الحسد للموحد وهو النبي ، وبذلك تبيّن أن المراد من الناس المحسودين هو النبي صلى الله عليه وآله وإطلاق لفظ « الناس » عليه ، إمّا لأجل كونه في وحدته أمة ، كما كان إبراهيم

ص: 380

كذلك ، قال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (1) ، أو لأجل الذين التفوا حوله.

ولأجل أياسهم وقطع رجائهم في زوال هذه النعمة وانقطاع هذا الفضل ، بيّن بأنّ الله قد أعطى آل إبراهيم من فضله ما أعطى وآتاهم من رحمته ما أتى ليموتوا بغيظهم فلن ينفعهم الحسد له ، وقال : (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) فأخبر عن حقيقة ثابتة غير زائلة تعلّقت بها الإرادة الحكيمة وهي : آتاهم الكتاب أولاً ، والحكمة ثانياً ، والملك العظيم ثالثاً. وهذا النبي من آل إبراهيم أيضاً قد أُوتي مثل ما أُوتي سائرهم من غير فرق بين أولاد إسماعيل وإسحاق ، فشملته العناية الإلهية فأتاه الأمور الثلاثة فلن ينفعهم الحسد في زوال هذه النعمة.

والكتاب والحكمة واضحان ، فالكتاب رمز الوحي والنبوة ، والحكمة هي السنّة وجوامع الكلم. وأتّما الكلام في « الملك العظيم » الذي أعطاه الله سبحانه المصطفين من آل إبراهيم من غير فرق بين ولد إسماعيل وأخيه إسحاق.

فباقتران هذه الآية التي أخبر فيها سبحانه أنّه أعطى آل إبراهيم الملك العظيم بآية الابتلاء ، التي استجاب فيها سبحانه أن يرزق المصطفين من ذرية إبراهيم الإمامة ، يتبيّن أنّ الإمامة الموهوبة لهم (التي دللنا أنّها غير النبوة والرسالة) هي نفس « الملك العظيم » الذي يدلّ ظاهر الآية على أنّه غير النبوة والرسالة لعطفه على الكتاب والحكمة اللّذين يعدّان رمز الوحي ونزوله والاتصاف بالنبوة.

ولا يصح حمل الملك العظيم على النبوة أو الرسالة للاستغناء عنهما بما تقدم

ص: 381

من إيتاء الكتاب والحكمة ، كيف ؟ ونزول الكتاب والحكمة دليل على كون المنزول عليه نبياً ينزل عليه الوحي بلا واسطة فلا حاجة لتكراره مجدداً ، قال سبحانه : (وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم مَّا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ) (1) ، فالآية تهيب ببني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث بعث فيهم الأنبياء والرسول ، وقال سبحانه : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) (2) إلى غير ذلك من الآيات التي وردت فيهما الكلمتان.

وإن شئت قلت : إن الآية المباركة تدل على أنه سبحانه أعطى منصب الإمامة لآل إبراهيم وبعض ذريته.

والآية الثانية تدل على أنه سبحانه أعطى آل إبراهيم بعد الكتاب والحكمة ، الملك العظيم ، فباقتران الآيتين نخرج بهذه النتيجة : إن الإمامة المعطاة لآل إبراهيم هي الملك العظيم فيتحدان حقيقة ومصداقاً ، فإذا كان ملاك الإمامة في الذرية هو كونهم ذوي ملك عظيم ، فيصبح ملاكها في نفس الخليل أيضاً ذلك.

الملك العظيم في القرآن

إن القرآن الكريم يصنّف ذرية إبراهيم إلى قسمين :

قسم أُعطي النبوة والرسالة ، كأيوب وزكريا ويحيى وعيسى .

وقسم أُعطي بعدهما الملك والحكومة.

ص: 382

1- البقرة : 231.

2- النساء : 113.

وتشير إلى ذلك الآيات التالية :

ألف. يقول يوسف بعدما أعطي القوة والقدرة في حكومته وصار أميناً مكيناً فيها : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (1) ، فجملة (تأويل الأحاديث) رمز لجزء من النبوة ، والملك إشارة إلى السلطة والقدرة التي نالها.

ب. يقول سبحانه في حق داود : (وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) (2).

ويقول أيضاً : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ) (3).

ويحكي سبحانه عن سليمان أنه قال : (وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (4).

فاستجاب الله دعاءه كما تحكي الآية التالية : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (5).

ففي هذه الشخصيات الإلهية اجتمعت المناصب الثلاثة : النبوة ، والرسالة ، والإمامة. ولكن ربّما تقتضي المصلحة فصل الحكم عن النبوة والرسالة ، فيكون المبعوث بالنبوة والرسالة ، غير المبعوث للحكم ، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه يعرّف طالوت ملكاً على لسان نبي زمانه قال سبحانه : (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ

ص: 383

1- يوسف : 101.

2- البقرة : 251.

3- ص : 20.

4- ص : 35.

5- ص : 36 - 39.

وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (1).

ففي هذه الآية والآيات التي تليها عدة نكات نشير إليها :

أولاً : انّ المصالح ربّما تقتضي التفكيك بين المنصبين ، ولأجل إمكانه ما اعترض بنو إسرائيل باستهجانهم بل اعترضوا بأنهم أحق بالملك منه .

ثانياً : انّ طالوت صار ملكاً وحاكماً ورئيساً للجيش بأمر من الله سبحانه ، قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) .

ثالثاً : انّ وظيفة طالوت لم تتلخص في قيادة الجيش ، بل قيادة الجيش كانت جزءاً منها ، ولأجل ذلك يقول سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) ويقول في ذيلها : (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ) .

رابعاً : انّ الآية تشير إلى أنّ أعظم المؤهلات في القيادة الإلهية هو استكمال القائد من حيث العلم والجسم ، فالإنسان الجاهل بالشؤون الحكومية غير قادر عليها كما أنّ الإنسان الضعيف في القوى الجسمانية لا يقدر أن يقوم بمشاق الأمور ومصاعبها .

خامساً : أنّه سبحانه عندما يعد نعمه على بني إسرائيل يذكر منها أنّه جعل فيهم أنبياء وملوكاً قال سبحانه : (اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا) (2) ، فالآية تصرّح بأنهم كانوا ملوكاً ، غير أنّ نسبة الملوكية إلى الجميع لأجل أنّ طائفة منهم صاروا ملوكاً بأمر من الله سبحانه .

ص: 384

1- البقرة : 247.

2- المائدة : 20.

فحصيلة البحث : ان الآيات المتقدمة بأجمعها تعطي النتيجة التالية :

فمن جانب : طلب إبراهيم لذريته العطية الإلهية ، أعني : الإمامة ، وقد استجاب دعوته في بعضهم .

ومن جانب آخر : ان مجموعة من ذريته كيوسف وداود وسليمان حظوا مع النبوة والرسالة ، بمنصب الحكومة والقيادة .

ومن جانب ثالث : نرى أنه سبحانه أعطى آل إبراهيم مع الكتاب والحكمة الملك العظيم .

فبعد ضم هذه الأمور بعضها إلى بعض نخرج بهذه النتيجة : ان ملاك الإمامة في ذرية إبراهيم هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع لا غير ؛ وأما ملاكها في نفس إبراهيم ، فالآيات وإن كانت غير ناظرة إليها ، لكنّها تقضي بوحدة الملاك في الوالد والأولاد ، وان ملاك إمامة الخليل أيضاً هي حاكميته وافتراض طاعته ، وإلا لزم الفصل في ملاك الإمامة بينه وبين ذريته ، وهو كما ترى .

هذا ما وصلنا إليه من التدبّر في الآيات ، والله العالم بالحقائق .

الملك العظيم في الأحاديث الإسلامية

هذا وقد تضافرت الروايات على أن المراد من قوله (مُلْكًا عَظِيمًا) هو كونهم مفترضي الطاعة .

روى حمران بن أعين قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عزّ وجلّ : (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ) ؟ قال : « النبوة » ، قلت : (وَالْحِكْمَةَ) ؟ ، قال : « الفهم والقضاء » ، قلت : (وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) ؟ فقال : « الطاعة » .

وروى بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية المباركة أنه قال : « الملك العظيم : ان جعل فيهم أئمة من أطاعهم أطاع الله ، ومن عصاهم عصى الله ، فهو الملك العظيم » (1).

روى السيوطي وقال : أخرج الزبير بن بكار في الموفقيات ، عن ابن عباس أنّ معاوية قال : يا بني هاشم إنكم تريدون أن تستحقوا الخلافة كما أستحقتم النبوة ولا يجتمعان لأحد ، وترعمون أن لكم ملكاً. فقال له ابن عباس : أما قولك أنا نستحق الخلافة بالنبوة ، فإن لم نستحقها بالنبوة فبمن نستحقها؟! وأما قولك إن النبوة والخلافة لا يجتمعان لأحد فأين قول الله : (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (2) فالكتاب : النبوة ، والحكمة : السنة ، والملك : الخلافة ، نحن آل إبراهيم أمر الله فينا وفيهم واحد ، والسنة لنا ولهم جارية (3).

وهذا البيان الصافي أوقفنا على معنى (مُلْكًا عَظِيمًا) في الآية المباركة.

وبضم هذه الأحاديث إلى ما وصلنا إليه من التدبر في الآيات يتضح الحق بإذنه سبحانه.

أسئلة وأجوبتها

1. هل زعامة هؤلاء كانت بتشريع من الله ؟

الجواب : الآيات التي تلونها عليك دلت بوضوح على أن نيل هؤلاء لمقام الملك والإمامة كان بجعل منه سبحانه ، ويكفي في ذلك قوله سبحانه : (إنِّي

ص: 386

1- الكافي : 1 / 206 ، باب انّ الأئمة عليهم السلام ولاة الأمر وهم الناس المحسودون.

2- النساء : 54.

3- الدر المنثور : 2 / 173 - 174.

جَاعِلِكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ، وقوله سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) ، وهناك آيات أخر في هذا الصدد قد مرّت عليك.

2. ما هي النسبة بين النبوة والإمامة الواردة في الآية ؟

ما هي النسبة بين النبي والإمام ؟ فهل هما متساويان في الصدق ، بمعنى أنّ كل نبي إمام ، وكل إمام نبي أو لا ؟

الجواب : الآيات التي تلونها عليك تنفي الملازمة بينهما ، فهذا هو الخليل عليه السلام قد قضى شطراً كبيراً من عمره وكان نبياً ولم يكن إماماً ، وإنّما أفيضت الإمامة عليه بعد ما بلغ من العمر عتياً وابتلاه سبحانه بأمر كما بيّناه.

وهذا هو طالوت بعثه الله سبحانه ملكاً على بني إسرائيل ، وقد أخبر به بلسان نبيهم ، فصار إماماً مطاعاً وقائداً لهم ولم يكن نبياً.

وبذلك اتضح أنّه لا- ملازمة بين النبوة والإمامة ، وإنّه لا- يلزم أن يكون كل نبي إماماً ، كما هو الحال في الخليل - قبل أن يبلغ منصب الإمامة - وسائر الأنبياء الذين لم ينالوا منصب الإمامة ، كما أنّه لا يلزم أن يكون كل إمام نبياً كما هو الحال في طالوت. وقد تجتمعان في بعض الفترات مثل اجتماعهما في الخليل ويوسف وداود وسليمان والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله (1).

وربّما يستدل على تفكيك النبوة عن الإمامة بقوله سبحانه : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (2).

« فَإِنَّ الْآيَةَ - بحكم لفظة « من » التبعيضية - تصنّف الأنبياء إلى صنفين بين

ص: 387

1- وسيوافيك بيان إمامة النبي الأعظم ، فتربّص حتى حين.

2- السجدة : 24.

كونهم أئمة ، وغير أئمة ، لكن الاستدلال مبني على إرجاع الضمير إلى الأنبياء ، ولكنه غير صحيح ، بل الضمير يعود إلى « بني إسرائيل » ،
الوارد ذكرهم في ذيل الآية السابقة عليها ، قال سبحانه : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ *
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً) (1) وقد مر ذلك فلاحظ (2).

نعم عندما يصف مجموعة من الأنبياء بالإمامة يقول : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ
وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (3).

وقد وافاك ان ملاك إمامة هؤلاء ، كان نبوتهم لا غير .

نعم كان ملاك إمامة غيرهم كالخليل وأمثاله أمراً وراء نبوتهم كما أسلفنا بيانه .

3. هل الإمام لا يحقق أهدافه إلا في ضوء الشريعة ؟

إن محور السؤال في ما سبق هو التعرّف على مدى الملازمة بين النبوة والإمامة ، وأنه هل كل نبي إمام ، وكل إمام نبي أو لا ؟ وقد عرفت
عدمها ، ولكن الهدف من هذا السؤال هو التعرّف على الإطار الذي يحقق الإمام أهدافه فيه وهو الشريعة الإلهية ، فهل هو لا يأمر ولا ينهى
ولا يبعث ولا يزجر إلا استلهاماً من الدساتير الكلية السماوية سواء أكان هو نفس صاحب الشريعة أم غيره ، أو أنه يتوسع في حكمه وتدييره
ويعمل على صعيد أوسع منها ؟

ص: 388

1- السجدة : 23 - 24.

2- مر تفصيله عند البحث عن الملاك الثاني لإمامة الخليل .

3- الأنبياء : 73.

الحق الذي لا يعترضه الشك هو الأول ، لأنّ الإمامة وتديير الأُمَّة ليست مقصودة بالذات ، وأنّما اتخذت أداة لإسعاد الأُمَّة وإرشادها إلى قَمّة الكمال ، ولا يحصل ذلك إلّا بتطبيق الشريعة الإلهية وتجسيدها في المجتمع ، لقصور كل المناهج البشرية عن القيام بذلك الهدف الأسمى.

وهذا إنّ دَلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الإمام لا يحقّق أهدافه إلّا في ضوء الشريعة السماوية سواء أنزلت عليه أم نزلت على غيره ، وسواء كان ذلك الغير حياً حاضراً أم ميتاً راحلاً ، وعلى كل تقدير فسياسة الأُمَّة وتدييرها وقيادتها ودفعها إلى الكمال والتي تعد من الوظائف الأساسية للإمام ، لا تحصل إلّا أن يكون أمره ونهيه وفعله وتقريره انعكاساً عن الكليات والذاتيات العامة النازلة منه سبحانه على نبي زمانه وصاحب شريعته.

وقد عرفت أنّ وظيفة النبي تلقّي الوحي ، كما أنّ وظيفة الرسول هي إبلاغه إلى الناس ، ولكن تجسيد هذه الكليات وتحقيقها في المجتمع من وظيفة الإمام ، ولأجل ذلك يجب إمّا أن يكون نبياً صاحب شريعة ، أو يكون تابعاً لشريعة نبي آخر معاصر له أو لنبي قبله.

والأول كالخليل والنبي الأعظم ، والثاني : كطالوت بني إسرائيل الذي بعثه الله سبحانه سائساً لهم وقائداً مطاعاً.

وبذلك يعلم أنّ القادة المعصومين كعلي عليه السلام وأولاده الذين نصبوا أئمّة للأُمَّة الإسلامية لا يحقّقون أهدافهم ، ولا يقومون بشؤون الأُمَّة وسياستها إلّا في ضوء الشريعة المحمدية النازلة على النبي الأكرم ، فهم من تلك الجهة كداود وسليمان اللذين حقّقوا أهداف الإمامة في ضوء الشريعة الموسوية - سلام الله عليهم أجمعين - .

المتبادر من الآية الكريمة إنّ إفاضة الإمامة على الخليل كانت رهن ابتلائه وإتمامه الكلمات على النحو المطلوب ، ونجاحه الباهر في هذا المعترك.

وبعبارة أخرى : كانت هناك صلة - ولو بنحو المقتضى والمعد - بين النجاح في الامتحان ، وجعله إماماً وإن إتمامه الكلمات على النحو المطلوب صار أرضية مناسبة لمنح منصب الإمامة له.

ولا يشك في هذا من أعطي حق النظر في الآية بشرط تجرّده عن أي فكر مسبق ; وأمّا ما اختاره صاحب المنار : من عدم وجود الصلة بين الابتلاء وإفاضة الإمامة ، فهو على خلاف المتبادر من الآية. وإليك كلامه ، قال :

قال شيخنا : ولم يقل : « فقال إني جاعلك » للإشعار بأنّ هذه الإمامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فإنّ الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تنال بكسب الكاسب ، وليس في الكلام دليل على أنّ الابتلاء كان قبل النبوة ، وأمّا فائدة الابتلاء فهي تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه وأنّه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه. وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إيّاهم إلى التوحيد الخالص - وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم - فقام على عهده بالحنيفية ، وهي الإيمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة ، وتسلسل ذلك في ذريته خاصة ، فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الإسلام بأنّه ملة إبراهيم (1).

ولا يخفى ما فيه :

ص : 390

أما أولاً: فلأن الآية لما أخبرت عن إتمام الخليل (1) الكلمات التي ابتلي بها، صار المقام أن يسأل عن ماذا قال ربّه حين أتمّ الكلمات، أو فعل به عنده؟ فأجيب بقوله: (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) (2)، فعدم الإتيان بالفاء، لأجل كونه جواباً عن سؤال مقدّر يرد على الذهن عند الوقوف على قوله: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) (3)، وعلى ذلك فتكون الجملة استئنافية. وأما جعله بياناً لقوله: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ) وتفسير له، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت؛ فقد عرفت بطلانه، لأن ملاك الإمامة على هذا الفرض هي من الرسالة، وقد كان الخليل رسولاً قبل نزول الآية بكثير.

وثانياً: ما ذكره من أن الإمامة في الآية عبارة عن الرسالة وهي لا تنال بكسب الكاسب وإن كان صحيحاً (4) إلا أن الإفاضات على حسب اللياقات، والعطايا الإلهية على حد الصلاحيات، والمناصب المعنوية قيد مؤهلات وشروط، بين ما هي خارجة عن حدود الاختيار غير قابلة للاكتساب، وما هي داخلية فيها وقابلة له، فالرسالة لا تقاض على الإنسان ارتجالاً بلا سبق مؤهلات وقابليات ذاتية أو مكتسبة، وليست المناصب الإلهية غرضاً لكل هادف أو رمية لكل نابل، وإنما يصل إليها الأمثل فالأمثل. نعم، الله سبحانه: (أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، لكنّه لا يجعل رسالته إلا في النفوس والأرواح الكاملة، ذات الأرضيات الصالحة الذين يضرب بهم المثل في مجال الفضل والفضيلة، ويشار إليهم بالبنان

ص: 391

1- البقرة: 134.

2- البقرة: 134.

3- من غير فرق بين كون الضمير في أتمهنّ راجعاً إلى الخليل أو إلى الله سبحانه، لما عرفت عند البحث عن «إتمام الكلمات» من أن الإتمام من جانب إبراهيم عبارة عن قيامه بها، ومن جانبه سبحانه توفيقه لما أمر به وطلب منه، فهنا فعل واحد ينسب إلى المباشر والسبب معاً، فلورجع إلى إبراهيم لصح، لكونه الفاعل المباشر، ولورجع إلى الله لصح أيضاً لكونه السبب الموفق.

4- لكنه صحيح، لأن تفسير الإمامة بالرسالة غير صحيح كما شرحناه.

بين الموصوفين بالمثل العليا والفضائل الكبرى.

ثم إن كثيراً من هذه الصلاحيات وإن كانت خارجة عن إطار الاكتساب لكن بعضاً منها قابل له في ضوء المواهب الإلهية ، وكون الرسالة أمراً غير اكتسابي لا يلزم أن تكون جميع الأرضيات المصححة لإفاضتها ، أمراً خارجاً عن حد الاكتساب.

وبهذا تبين أنه إذا كانت الرسالة رهن قيد وشروط ، فالإمامة أخرى وأحوج إليها من الرسالة ، لأن وظيفة النبي والرسول تتلخص في تلقي الوحي وإبلاغ الرسالة ولكن وظيفة الإمام هي تجسيد البرامج الإلهية وتحقيقها في المجتمع ، وسوقه إلى سعادة الناشئين وهي أصعب من وظيفة التبليغ.

إن القيام بمسؤولية القيادة أشد وطأ من القيام بمسؤولية التبليغ والبيان ، وهي من أشكل الأمور وأصعبها ، فلا يقوم بها إلا الإنسان الصبور أمام المصاعب والمشاكل ، الواصل إلى مقام الخلة الذي لا يرى في نفسه وذاته سوى حبه سبحانه ورضاه.

نعم الابتلاء بالمشاكل ، والامتحان بأمر صعبة أحد العوامل البناءة للشخصيات الإلهية ، وهناك عوامل أخرى لبنائها وصنعها ، قد بينت في موضعها ، ولأجله لا يجب أن يكون كل إمام مبتلى بما ابتلي به إبراهيم ، وإنما الواجب الاتصاف بالمواهب الذاتية والفضائل الاكتسابية ، وغير ذلك من الأمور المصححة لإفاضة منصب سياسة الأمة وتدير أمورها وإسعادها في الدارين.

وباختصار : إن الابتلاء ليس العامل الوحيد لإيجاد المؤهلات والصلاحيات ، بل هناك عامل أو عوامل تقوم مقام الابتلاء وتؤثر أثره ، ولأجل ذلك قد بلغ بعض الأئمة المعصومين لدى الشيعة إلى القمة من الكمال والصلاح

من دون أن يتعرضوا للابتلاء، وصاروا ذوي شخصية صلبة غير متزعزعة أمام الأحداث والنواب، وإن لم يقعوا في معرض الامتحان، وذلك لما عرفت من أن الابتلاء ليس عاملاً وحيداً في تكوين الشخصيات العالية، بل هناك عوامل أخرى مكشوفة وغير مكشوفة مؤثرة في ذلك المضمار.

أمّا المكشوفة: فمنها الوراثة والتربية والبيئة. والأئمة المعصومون تربوا في بيت رفيع عريق طاهر معروف بالصدق، والوفاء، والشجاعة والسماحة، والغيرة والأمانة إلى غير ذلك من حميد الأخلاق، وكان أجدادهم شرفاء، كرماء، ومن هذا المنطلق ورث النبي صلى الله عليه وآله ما في هذا البيت من الشرف والكمال، فإذا كانت التربية عاملاً مؤثراً ببناءً في مجال تكوين الشخصيات، وموجبة لتفتح الكمالات المكنونة وازدهار كوامن النفوس، فقد تربوا في البيت النبوي تحت رعاية آبائهم المكرمين، فورثوا المكارم من أجدادهم وأظهروا الكمالات برعاية آبائهم.

وإذا كانت الوراثة والتربية والبيئة الصالحة من العوامل المكشوفة، فهناك عوامل غير مكشوفة لبناء الشخصيات، تساهم تلك العوامل في عملية تكوين الشخصيات الأصيلة، ولأجل ذلك نرى بروز نوابغ في بعض البيوتات من دون أن يكون هناك أثر من العوامل البتاء المعروفة، وما ذلك إلا لأن الإنسان ما أُوتي من العلم إلا قليلاً، ولا يعلم من أسرار الحياة إلا ظاهرها وقليلها (1). فهناك أسباب لتكون الشخصيات لم يعرفها الإنسان ولم يقف عليها، وهذه العوامل مكشوفها وغير مكشوفها تخلف الأرضية الصالحة لإفاضة منصب الإمامة، بل العصمة مضافاً إلى عنايته سبحانه وحكمته البالغة فإن الأمة تحتاج إلى معلم بارع وهاد

ص: 393

1- إيماء إلى قوله سبحانه: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء: 85) وقوله سبحانه: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الروم: 7).

مصون من الزلل والخطأ، ومقتضى لطفه وعنايته تقدير الأسباب المنتهية إلى تكوين شخصيات عالية صالحة، لأن يكونوا أئمة وأسوة في الحياة وقدوة في القول والفعل.

5. هل حقق الخليل أهداف الإمامة؟

وفي الختام يطرح هذا السؤال نفسه: إذا كان الهدف من تنصيب إبراهيم هو قيادة الأمة وتنظيم أمورهم في الحياة فلسائل أن يسأل عن تحقق تلك الغاية في حياة الخليل وعدمه، وأنه هل ساعدته الظروف لقيامه بتلك الوظيفة الخطيرة أم لا؟

الجواب: إن حياة الخليل كحياة سائر الأنبياء محفوفة بالإبهام، وما ورد في قصص الأنبياء لا يصح الركون إليه لأن أكثرها إسرائيليات أو مسيحيات، وأما العهدان، فقد لعب بهما الهوى، وسرى إليهما التحريف، فلا يصح الاعتماد على محتوياتهما، ولأجل ذلك لا يمكن إظهار النظر حول السؤال على وجه بات.

والآذي يمكن أن يقال: إن القيادة وافترض الطاعة وتنظيم أمور الأمة بالأمر والنهي ذات مراتب، وهي تختلف حسب اختلاف الظروف والإمكانات، وحسب اختلاف الأزمنة والحضارات، فالقيادة البارزة التي أتيحت للنبي أو لمن قبله من الأئمة كداود وسليمان لم تكن متاحة ولا ممكنة في زمن الخليل، لمعرفت من اختلاف القيادة باختلاف إمكانات الظروف، وازدهار الحضارات.

ولكن القيادة بإحدى مراتبها كانت متاحة ومتحققة له، وإلا يلزم لغوية جعل المنصب، ولو لم يتسن له مثل ما تسنى لسائر الأئمة فليس لقصور في القاعدة وبرامجه، بل لقصور في الظروف والأزمنة، أو لتقصير في الأمة والتابعين، أو غير ذلك.

دلّت الآية الكريمة على أنّه سبحانه جعل إبراهيم إماماً للناس ، وقد سأل الخليل أن يجعل من ذريته أئمة للناس ، فاستجاب سبحانه دعوته ، وصرّح بأنّها تنال غير الظالمين منهم ، والنبي الأعظم أفضل ذريته وأمّثلهم ، فطبع الحال يقتضي أن يكون مشمولاً لدعاء جده ويكون إماماً كالخليل ، هذا من جانب.

ومن جانب آخر ، قد استفاضت الآيات والروايات على أنّ النبي الخاتم صلى الله عليه وآله كان له منصب الإمامة وراء النبوة والرسالة ، فهو بما أنّه كان يتلقّى الوحي ويبلغه كان نبياً ورسولاً ، ولم تكن له في هذا المجال أئمة طاعة وعصيان إلاّ بالعناية.

وبما أنّه كان قائداً وزعيماً للأئمة في مختلف المجالات كان إماماً مفترض الطاعة ، وهو في هذا المقام صاحب أمر وبعث ونهي ، وزجر ونصب وعزل وقضاء وفصل وغزوة وسرية ، إلى غير ذلك من الأمور الراجعة إلى إدارة المجتمع وسياسته ، وإليك بيان ما يثبت إمامته بوضوح ، وما يدل على ذلك من الآيات :

1. (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ) (1) ، ومعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم ، أنّه أولى بهم منهم ، ومعنى الأولوية رجحان جانب النبي إذا دار الأمر بينه وبين غيره ، ويتحصّل من ذلك أنّ ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة وإنفاذ الإرادة ، فالنبي أولى بذلك من نفسه ، فلو دار الأمر بين النبي وبين نفس المؤمن وما يرجع إليه ، كان جانب النبي أرجح من جانب المؤمن نفسه وما يتعلّق به.

ص: 395

فعلى ذلك يجب أن يكون النبي أحب إليه من نفسه وأكرم عنده منها ولو دعت نفسه إلى شيء والنبي إلى خلافه كان المتمتعين إجابة النبي صلى الله عليه وآله وطاعته وتقديم أمر النبي على نفسه.

وعلى ذلك فمقتضى الإطلاق - إطلاق الأولوية - أن النبي أولى بهم فيما يتعلق بالأمر الديني أو الدينية ، وهذا يمثل قمة الإطاعة له وذروة الإمامة والقيادة في جميع المجالات على أحسن وجه.

نعم إذا أمر النبي بإخراج المؤمن عن نفسه ونفيسه ، فيجب عليه الخروج ، لأن النبي لا يأمر لغايات شخصية ، وإنما يأمر لمصالح الإسلام والمسلمين ، ولا يتصور أن الآية ، تهدف إلى جعله مستبدًا بالحكم وتسلم زمام المجتمع بيد الفرد حتى يتصرف فيه بما شاء هواه وأمرت به نفسه ، حاشا النبي الأعظم المسدد أن تكون سيادته على أساس التسلط الفردي والنفع الشخصي ، وإنما يتبع الوحي في حكمه وقضائه ويكون مصونًا بتسديد من الله عن الخطأ والزلل ، قال سبحانه : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (1) ، وقال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ... وَعَلَّمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (2).

وقد كان بعض الصحابة يصر على اتباع الرسول لأرائهم ، فرد الله عليهم بأن مقتضى الإيمان أن لا يتقدم المؤمن على الله سبحانه ورسوله ، ولو أن الرسول اتبع آراءهم ، لكانت عاقبة ذلك العنت والهلاك.

ص: 396

1- النجم : 3 - 4.

2- الحجرات : 1 - 7.

2. (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (1)، فقضاؤه صلى الله عليه وآله قضاء منه بولايته ، وفي الوقت نفسه قضاء من الله سبحانه ، لأنه الجاعل لولايته والمنفذ أمره ، وبما أنه جعل الأمر الواحد « قضى » متعلقاً لقضاء الله ورسوله معاً ، فهو يدل على أن المراد من القضاء التصرف في شؤون الناس في الأمور الدنيوية والأخرية ، لا القضاء بمعنى التشريع وجعل الأحكام ، لأنه مختص بالله سبحانه (2).

وبالجملة ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في أمر من أمورهم ، اختيار غير ما أراد الله ورسوله ، بل عليهم أن يتبعوا قضاء الله ورسوله ، فالآية تمثل أعلى مرتبة من الحكم للنبي صلى الله عليه وآله ، ومن المعلوم أن جعل قضاء الرسول كقضاء الله تابع لملاكات صحيحة تتبع المصالح العامة فقط لا المصالح الشخصية.

3. (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (3).

الآية تمثل مقام ولاية النبي في تقسيم الفيء ، وأنه يجب على المؤمنين أتباعه في كفيته ، ولا يعترضوا عليه بشيء ، هذا من غير فرق بين تفسير الإيتاء في (آتَاكُمْ) بمعنى الأمر والبعث بقريظة قوله : (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) والمعنى ما أمركم الرسول فخذوه بالاتباع والطاعة ، أو تفسيره بمعنى الإعطاء أي ما أعطاكم

ص: 397

1- الأحزاب : 36.

2- راجع الجزء الأول من هذه الموسوعة بحث التوحيد في التشريع والتقنين.

3- الحشر : 7.

الرسول من الفيء فخذوه ما نهاكم عنه ومنعكم فانتهاوا ولا تطلبوه ، وذلك لأن موقف الآية إعطاء الضابطة في كل ما آتاه الرسول فيجب اتّباعه سواء أكان في مجال الفيء أم غيره بشهادة قوله في ذيل الآية : (وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ، وكون المورد هو الفيء لا يوجب تخصيص الآية بها ، والرجوع إلى الآيات السابقة لهذه الآية يفيد بأن النبي صلى الله عليه وآله كان يمثل مقام الإمامة والحكم ، وإليك الآيات السابقة :

1. (مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ) .

2. (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) .

3. (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ) .

4. (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

فمجموع الآيات من بدئها إلى آخرها واردة في مجال الحكم والقضاء وإنّ الله فوّض إدارة أمور المسلمين إلى نبيه ، وأمرهم بالأخذ بما أتى والانتها عما نهى ، وبهذا المعنى صرّحت الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام فقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير الآية : « ثم فوّض إليه أمر الدين يسوس عباده فقال : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) انّ الرسول كان مسدداً موقفاً مؤيداً بروح القدس ولا يزل ولا يخطأ في شيء ممّا يسوس به الخلق » . (1)

وقال عليه السلام أيضاً : « إنّ الله عزّ وجل فوّض إلى نبيه أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم » ثم تلا هذه الآية (2) .

ص: 398

1- الكافي : 1 / 266 ، باب التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من كتاب الحجّة .

2- نفس المصدر .

والمراد من تفويض أمر خلقه ، إمضاؤه تعالى ما يأمر به وينهى عنه ، وافترض طاعته وإمضاء ولايته في أمر الناس .

نعم التفويض بمعنى سلبه تعالى ما أثبتته للنبي عن نفسه ، فمستحيل كما قرر في محله .

4. أنّ هناك آيات كثيرة تتجاوز عشرين آية تفرض طاعة الرسول على الأمة ، فيجب إمعان النظر فيما هو المراد من هذه الفريضة ، فنقول :

الرسول بما هو رسول وبما هو واسطة لإبلاغ كلامه سبحانه إلى الناس ليس له أمر ونهي حتّى تفترض له الطاعة ، بل هو في ذلك مبلّغ لرسالات الله ومذكر بآياته وليست له سلطة وسيطرة ، قال سبحانه : (**إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ**) (1) ، غير أنّ الرسول إذا كان له مع الرسالة منصب الحكم وحق الأمر والنهي في تدبير المجتمع وتجسيد الشريعة يكون له حق الطاعة وعلى الأمة فرض الاقتفاء ، والآيات التالية تشير إلى ذلك النوع من الطاعة حيث يقول سبحانه : (**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**) (2) .

فترى أنّه سبحانه يعطف طاعة الرسول على طاعته ، لكن بتكرار الفعل مشيراً إلى أنّ له طاعة خاصة وإن كانت في طول طاعة الله ومشتقة منها ، وقال سبحانه : (**مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**) (3) .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية : « فقرن طاعته بطاعته ،

ص : 399

1- الغاشية : 21 - 22 .

2- النساء : 59 .

3- النساء : 80 .

ومعصيته بمعصيته ، وكان ذلك دليلاً على ما فوّض إليه ، وشاهداً على من اتّبعه وعصاه ، وبيّن ذلك في غير موضع من الكتاب العظيم «
(1).

فالرجوع إلى الآيات الواردة فيها طاعة الرسول يوقفك على جلاء الحال.

الإمامة في الأحاديث الإسلامية

قد عرفت أنّ الإمامة التي أفيضت على الخليل كانت عبارة عن حكمه بين الناس وتدبيره أمورهم ، وقد استظهرنا ذلك من سائر الآيات الواردة في هذا المضممار والأحاديث الإسلامية تدعم ذلك المعنى بوضوح وتفسر الآية على النحو الذي فسرناه.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « والإمامة نظاماً للأمة والطاعة تعظيماً للإمامة » (2).

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « اتّقوا الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين » (3).

وقال الإمام الثامن علي الرضا عليه السلام : « إنّ الإمامة زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا ، وعز المؤمنين » (4).

وقال عليه السلام أيضاً : « الإمام يحلّل حلال الله ، ويحرّم حرامه ، ويقيم حدود الله ،

ص: 400

1- نور الثقلين : 1 / 431.

2- نهج البلاغة : قسم الحكم ، برقم 252. وقد جاء في المطبوع من نهج البلاغة بمصر بشرح الشيخ محمد عبده : « الأمانات » مكان « الإمامة ». وهو اشتباه محض وقد تبعه صبحي الصالح في الاشتباه.

3- وسائل الشيعة : 7 / 18 ، كتاب القضاء ، الباب 3 من أبواب صفات القاضي ، الحديث 3.

4- الكافي : 1 / 200 ، كتاب الحجّة ، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته.

ويذب عن دين الله ، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة - إلى أن قال : - مضطلع بالأمر ، عالم بالسياسة ، مستحق للرئاسة ، مفترض الطاعة ، قائم بأمر الله ، ناصح لعباد الله « (1).

فهذه العقود الدرّية تعرب عن مفهوم الإمامة لدى أئمّة أهل البيت ، وهو مطابق لما استفدناه من الآية الكريمة.

هذه هي النظريات الأربع المذكورة حول ملاك إمامة الخليل الواردة في آية الابتلاء ، وبقيت هنا نظرية خامسة اختارها العلامة الطباطبائي نتبرك في خاتمة المطاف بذكرها وتحليلها ، وإنما أحرنا ذكرها ، لأنّ للنظرية الرابعة تأثيراً خاصاً في فهمها وتوضيحها وما يتوجه إليها من الإشكال ، وإليك بيانها.

الملاك الخامس : تسيير النفوس إلى الكمال بهداية تكوينية

إشارة

ويتضح بيان أمور :

الأول : انّ تفسير الإمامة بالنبوة والخلافة ، أو الوصاية ، أو الرئاسة في أمور الدين والدنيا ، وكونه مطاعاً حدث من تكرّر الاستعمال بمرور الزمان كما ابتليت به سائر الألفاظ الواقعة في القرآن ، فإنّ النبوة معناها تحمّل النبأ من جانب الله ، والرسالة معناها تحمّل التبليغ ، والإطاعة من لوازم النبوة والرسالة [فكيف تفسّر الإمامة بالإطاعة] والخلافة نحو من النيابة ، وكذلك الوصاية والرئاسة نحو من الطاعة للموصي والرئيس ، وهو كون الإنسان مصدراً للحكم في المجتمع ، وكل هذه المعاني غير معنى الإمامة ، إذ لا معنى لأن يقال لنبي من الأنبياء مفترض الطاعة إني جاعلك للناس نبياً ، أو مطاعاً فيما تبلغه ، أو رئيساً تأمر وتنهى في

ص: 401

الدين أو وصياً أو خليفة في الأرض تقضي بين الناس في مراجعاتهم بحكم الله.

وبعبارة أخرى: لا يصح أن يقال لنبي من لوازم نبوته كونه مطاعاً بعد نبوته إني جاعلك مطاعاً في الناس بعد ما جعلتك كذلك. ولا يصح أن يقال له ما يؤول إليه معناه وان اختلف معه في العبارة، فهذه المواهب - أمثال الإمامة الإلهية - ليست مقصورة على مجرد المفاهيم اللفظية بل تصحبها المعارف الحقيقية.

الثاني: إذا نجد في كلامه تعالى أنه كلما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية تعرضاً تفسيراً، قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) (1)، وقال سبحانه: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ (أي بني إسرائيل) أئمةً يهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (2)، فوصفها بالهداية وصف تعريف ثم قيدها بالأمر، فبين إن الإمامة ليست مطلق الهداية، بل الهداية التي تقع بأمر الله والتعرف على أن الإمام هو الهادي « بأمر الله » هو المهم في فهم معنى الإمامة.

الثالث: أنه سبحانه بين سبب هبته الإمامة بقوله: (لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فبين أن الملاك في ذلك هو صبرهم في جنب الله وكونهم قبل ذلك موقنين: وقال سبحانه في حق إبراهيم: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (3)، فإراءة الملكوت لإبراهيم كانت مقدمة لإفاضة اليقين عليه، وقد علمت أن كونهم موقنين أحد أسباب إمامتهم.

الرابع: إن « الأمر » الذي يكون الإمام به هادياً ليس بمعنى الإذن، بل المراد

ص: 402

1- الأنبياء: 72 - 73.

2- السجدة: 24.

3- الأنعام: 75.

هو الأمر التكويني الذي بيّنت حقيقته في قوله : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) (1).

وقال سبحانه : (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) (2) ، والمراد بكلمة (كُنْ) ليس هو التلفظ بل وجود الشيء المعين بلا تدرج وتغيير كما هو اللائق بأفعاله سبحانه كما أنه مع التغيير والانطباق على قوانين الحركة والزمان هو الخلق.

إذا عرفت ذلك ، نقول : إنَّ شأن النبي والرسول هو إراءة الطريق وشأن الإمام هو الإيصال إلى المطلوب ، لأنَّ الإنسان الكامل الذي يهدي بأمر ملكوتي (3) (لا بأمر لفظي) يصاحب ذلك الأمر ، فالإمامة نحو ولاية للناس في أعمالهم ، وهدايتها ، إيصالها إياهم إلى المطلوب بأمر الله (4).

وقد أوضحه أيضاً في كتابه « الشيعة في الإسلام » بقوله :

كما أنَّ الإمام قائد ومسير وزعيم للأمة بالنسبة للظاهر من الأعمال ، كذلك هو قائد وزعيم بالنسبة للباطن من الأعمال أيضاً ، فهو المسير والقائد للإنسانية من الناحية المعنوية نحو خالق الكون وموجده.

إنَّ كل عمل من الأعمال الحسنة والسيئة تولد في الإنسان واقعية ، والحياة الأخروية ترتبط بهذه الواقعية ارتباطاً وثيقاً. والإنسان يتصف بحياة باطنية غير الحياة الظهرية التي يعيشها والتي تتبع من أعماله ، وترتبط حياته الأخروية بهذه الأعمال والأفعال التي يمارسها في حياته هنا ، قال سبحانه : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

ص: 403

1- يس : 82 - 83.

2- القمر : 50.

3- يريد بالأمر الملكوتي : الأمر التكويني الذي تعلقه بشيء نفس تحقّقه وتكوّنه ، وأين هو من الأمر اللفظي أو الذهني اللذين ينفكان عن المراد والمأمور به ويتوقفان على مقدمات ومعدّات.

4- الميزان : 1 / 274 - 276 بتلخيص.

مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (1).

إنَّ القرآن يدل على أنَّ هناك حياة أُسمى وروحاً أرفع من هذه الحياة للصالحين والمؤمنين ، ويؤكد على أنَّ نتائج الأعمال الباطنية تلازم الإنسان دوماً ولكن الإنسان ربما لا يشعر بأنَّ الأعمال الحسنة أو السيئة تكوّن في الإنسان حياةً أُخرى وواقعية باطنية وسعادة وشقاء ، ومع ذلك كلّه هي مؤثرة ، والإنسان في حياته يشبه الطفل حيث يملي عليه مربّيه بألفاظ الأمر والنهي ، فهما كافلان لتكوين حياة سعيدة له ، هو يأتمر أمره ولا يشعر بما يترتب على طاعة أمره ونهيه من النتائج ، لكنّه كلّما تقدّم في العمر استطاع أن يدرك ما قاله مربّيه ، فينال بذلك الحياة السعيدة ، وما ذلك إلاّ بما اتصف به من ملكات ، وإذا ما رفض وعصى معلمه الذي كان يسعى له بالصلاح ، تجد حياته مليئة بالمآسي والآلام.

الإنسان يشبه المريض الذي دأب على تطبيق أوامر الطبيب في الدواء والغذاء أو رياضة خاصة ، فهو لم يبال بشيء إلاّ ما أملاه عليه طبيبه ، فعندئذ يجد الراحة والصحة ويتحسن بتحسّن صحته.

فإذن الإنسان الذي يصبح قائداً للأمة بأمر من الله ، فهو قائد للحياة الظاهرية والمعنوية ، وما يتعلّق بها من أعمال تسير مع سيره ونهجه.

فالإمام فضلاً عن الإرشاد والهداية الظاهرية ، يختص بنوع من الهداية المعنوية ، فهو بواسطة الحقيقة والنور الباطني الذي يتصف به يستطيع أن يؤثر في القلوب المهيّأة وأن يتصرف بها كيف ما شاء ويسيرها نحو مراتب الكمال والغاية المتوخاة (2).

هذا غاية توضيح لهذه النظرية حررناها بشكل يقف على مرادها كل من له أدنى إلمام بالعلوم العقلية.

ص: 404

1- النحل : 97.

2- الشيعة في الإسلام : 163 - 166.

لا شك أنّ النفوس القوية تستطيع أن تؤثر في القلوب المهيّأة وتسيرها نحو الكمال ، لكن البحث في تفسير الإمام الوارد في الآية الكريمة بالمتصرف في القلوب والهادي لها تكويناً ومسيرها نحو الكمال ، فأنّه لا شاهد لذلك التفسير.

أمّا أولاً : فإنّ قوله : (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) في مقام الثناء عليهم بأنهم لا يصدرون في أمرهم ونهيهم إلاّ عن إذنه تعالى ، فلاجل ذلك صاروا هداة واقعيين ، فمنطقهم صواب ، وفعلهم وتقريرهم حجة وكل ما يمت إليهم هداية ، وأين ذلك من كون الجملة في مقام بيان حقيقة الإمامة وأنّها عبارة عن القدرة التكوينية التي يستطيع بها الإنسان الكامل أن يؤثر في النفوس المهيّأة لسوقها نحو الكمال.

ويظهر ما ذكرنا من رواية طلحة بن زيد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال : « إنّ الأئمة في كتاب الله عزّ وجل إمامان : قال الله تبارك وتعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) (1) لا بأمر الناس يقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم ، قال : (وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يدعون إلى النار) (2) يقدّمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجل » (3).

ويقول العلامة المجلسي رحمه الله حول الرواية : أي ليست هدايتهم للناس وإمامتهم بنصب الناس وأمرهم ، بل هم منصوبون لذلك من قبل الله

ص: 405

1- الأنبياء : 73.

2- القصص : 41.

3- الكافي : 1 / 216.

وثانياً: أن تفسير الإمامة بالقيادة العامة للأمة هو كون المتلبس بها أسوة في القول والعمل ، ليس من المعاني المتبدلة كيف ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : والإمامة نظاماً للأمة (2).

وثالثاً: ما أفاده من أنه لا معنى أن يقال لنبي مفترض الطاعة « إني جاعلك للناس إماماً أو مطاعاً » غير تام ، لما أوقفناك عليه من أن النبي بما هو نبي ليس له شأن إلا التنبؤ ، كما أن الرسول ليس له شأن إلا إبلاغ الرسالات ، وأما كونه مطاعاً بالنسبة إلى الأوامر التي تصدر منه لأجل مصالح الأمة ، فهو ليس من شؤون الرسالة ، وإنما يكون من شؤون مقام آخر يتلبس به بعدهما ويحول إليه بعد الاختبار والابتلاء.

وقد أوقفناك على أن مثل النبي والرسول فيما يبلغ من أمر الرسالة مثل المفتي والمستنبط للأحكام من الكتاب والسنة ليس له أمر ولا نهي ولا طاعة ولا معصية ، بل له حق الإبلاغ والإعلام لا الأمر والبعث والزجر والمنع ، كل ذلك يستوجب أن يكون له مقام آخر يناسب تلك الأمور ، وهو مقام الإمامة والقيادة والرئاسة وما أشبهها.

ففي المجال الأول يكون المطاع حقيقة هو الله ، ولو نسبت الطاعة إلى الرسول فبالعناية ، وبهذا يفسر قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (3) ، وإلا فالرسول بما هو رسول ومبلغ وواسطة بين الخالق والمخلوق لا أمر

ص: 406

1- مرآة العقول : 1 / 165 ، الطبعة القديمة الحجرية ، وفي أواخر الجزء الثاني من الطبعة الحديثة.

2- نهج البلاغة : قسم الحكم ، الرقم 252.

3- النساء : 64.

له حتى يطاع ولا نهى له حتى يعصى ، فمن أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فإثمًا عصى الله ، ونسبة الإطاعة إليه في الآية المباركة بضرب من العناية ، والمقصود من إطاعته سماع قوله ، وتطبيق العمل على كلامه نظير ما يقول الصديق للصديق « أطعت قولك » ، والمقصود جعل العمل مطابقاً لكلامه.

وبذلك يعلم أنّ ما ورد من الآيات من الأمر بإطاعة الرسول في جنب أولي الأمر ليس المراد من الرسول فيها الرسول بما هو رسول ، بل بما له من مقام الإطاعة فيكون الرسول عنواناً مشيراً إلى قيادته وإمامته ، قال سبحانه : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (1).

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا) (2).

والحاصل : إنّ للرسول إطاعتين.

إحدهما : ضرب من العناية ، كما هو شأن كل واسطة بين الأمر والمأمور ، ولا تعدّ هذه طاعة حقيقية ، وعلى هذا المعنى تنزل عدة من الآيات الواردة فيها طاعة الرسول.

وثانيتهما : إطاعة حقيقية عندما خلع عليه سبحانه ثوب الإمامة ولباس القيادة ، فيكون مطاعاً واقعاً ، وعلى كلا المعنيين يمكن تنزيل قوله سبحانه : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) . (3)

وعلى الجملة فما أفاده قدس سره فله حق عظيم علينا وعلى الأمة الإسلامية - كلام غير تام ، والله العالم.

ص: 407

1- النساء : 59.

2- الأنفال : 46.

3- النساء : 80.

وعلى كل تقدير فبين ما أفاده في « الميزان » وما بيّنه في الموضوع الآخر فرق واضح ، لأنه قدس سره في الأول لا يسلم كون القيادة الظاهرية من شؤون الإمام بل يفسر الإمام بالمتصرف في القلوب ، الهادي على نحو الإيصال إلى المطلوب ؛ ولكنه يسلم في كتاب « الشيعة في الاسلام » كونها أحد شؤونه كما هو لائح من عبائره ، ولعله أمتن ؛ وقد عرفت فيما سبق أنّ الوقوف على مفاد الآية يتوقف على البحث عن نقاط سبع ، وقد فرغنا من البحث عن أربع منها ، وبقي الكلام في نقاط ثلاث ، وإليك بيان الخامسة منها.

5. الإمامة عهد من الله

العهد في الأصل هو الاحتفاظ بالشيء ، وإليه ترجع سائر المعاني التي استعملت فيها تلك اللفظة ، فيقال للوصية : العهد. لأنه ينبغي الاحتفاظ بها كما يطلق على ما يكتب للولاية من الوصية ، لأنه ممّا ينبغي الاحتفاظ به ، والعهد : الكتاب الذي يستوثق به في البيعات (1).

وعلى ذلك فكل شيء غال قيم ينبغي الاحتفاظ به فهو العهد ، والله سبحانه ينسب الإمامة إلى نفسه ويقول : (عَهْدِي) ، ويريد بذلك إنّه شيء غال وهدية ثمينة من الله سبحانه يجب الاحتفاظ بها من جانب الأمة ، وبما أنّ الشيء الثمين لا يودع إلا عند من كان أميناً واضعاً كل شيء في مكانه ، قال سبحانه : (لا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ، فالإمامة ميثاق الله سبحانه بين الأمة يجب الاحتفاظ بها عن طريق امتثال ما يفترض من الأوامر والنواهي وعدم إضاعتها.

ويظهر ذلك - أي أنّ الإمامة عهد الله سبحانه - أنّ الإمامة نوع من

ص: 408

الحكومة ، وليس لأحد حق الحكم على أحد إلا بإذنه سبحانه ، فالحاكم الواقعي المشروع حكمه ، النافذ أمره ونهيه ، من استند في ولايته إلى الله سبحانه وتعالى .

6. ما هو المقصود من الظالمين ؟

الظلم في اللغة : هو وضع الشيء في غير موضعه ، قال ابن فارس بعد ذكره لهذه الجملة : ألا تراهم يقولون من أشبه أباه فما ظلم ، أي : ما وضع الشبه غير موضعه ، وبه قال غيره من اللغويين .

قال ابن منظور : الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، ومن أمثال العرب : من أشبه أباه فما ظلم . قال الأصمعي : أي ما وضع الشبه في غير موضعه . وفي المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم . وفي حديث ابن زمل : لزموا الطريق فلم يظلموه ، أي : لم يعدلوا عنه ، يقال : أخذ في طريق فما ظلم يميناً ولا شمالاً . وأصل الظلم : الجور ، ومجازة الحد . والظلم : الميل عن القصد ، والعرب تقول : الزم هذا الصوب ولا تظلم عنه ، أي لا تجز عنه . قال سبحانه : (إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ، وذلك لأنه جعل النعمة لغير ربها .

فإذا كان الظلم بمعنى مجاوزة الحد الذي عيّنه العرف أو الشرع ، فالمعصية كبيرها وصغيرها ظلم ، لأن مقترفهما يتجاوز عن الحد الذي رسمه الشارع ، والظلم له مراتب والمجموع يشترك في كونه تجاوزاً عن الحد ووضعاً للشيء في غير موضعه .

ولمّا خلع سبحانه ثوب الإمامة على خليله ونصبه إماماً للناس ودعا إبراهيم أن يجعل من ذريته إماماً ، فأجيب بأن الإمامة وثيقة إلهية قيمة لا تنال الظالمين ، لأن الإمام هو المطاع بين الناس ، المتصرف في النفوس والأموال ، والقائد للمجتمع إلى السعادة ، فيجب أن يكون على الصراط السوي حتى يكون أمره ونهيه وتصرفه

وقيادته نابعة عنه ، والظالم هو المتجاوز عن الحد ، المتمايل عن الصراط إلى اليمين والشمال (1) ، الواضع للشيء في غير موضعه لا يصلح لهذا المنصب وحدوده.

إنّ الظالم الناكث لعهد الله ، والناقض لدساتيره وحدوده على شفا جرف هار لا يؤتمن عليه ، ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة ، ولا مفاتيح القيادة ، لأنه على مقربة من الخيانة والتعدّي ، وعلى استعداد لأن يقع أداة للجائرين ، فكيف يصح في منطق العقل أن يكون إماماً مطاعاً ، نافذاً قوله ، مشروعاً تصرفه ، إلى غير ذلك من شؤون الإمامة ؟

7. دلالة الآية على عصمة الإمام

إنّ بعض المناصب والمقامات تعيّن شروطها بنفسها ، فمدير المستشفى ، له شروط تختلف عن شروط قائد الجيش ، وهكذا غيرهما. فالإمامة التي لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال ، وبها يناط حفظ القوانين ، يجب أن يكون القائم بها إنساناً مثالياً مالكاً لنفسه ، وغرائزه ، حتى لا يتجاوز في حكمه عن الحد ، وفي قضائه عن الحق.

والمستفاد من الآية أنّ الظلم بشتى ألوانه مانع من النيل لمقام الإمامة ، لأنّ كلمة « الظالمين » بحكم كونها محلاة باللام تفيد الاستغراق في الأفراد ، فإذا كان الظالمون بعامّة أفرادهم ممنوعين من الارتقاء إلى هذا المقام ، يكون الظلم بكل ألوانه وصوره مانعاً عن الرقي والنيل لهذا المنصب الإلهي ، فالاستغراق في جانب الأفراد يستلزم الاستغراق في جانب الظلم وأقسامه وتكون النتيجة مانعية كل فرد

ص: 410

1- ونعم ما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « اليمين والشمال مضلّة ، والطريق الوسطى هي الجادة ». (نهج البلاغة : قسم الخطب ، الرقم 15.

وبالجملة : فالآية تستغرق جميع الظالمين ، وتسلب الصلاحية عن كل فرد منهم ، وبالنتيجة تفيد بأن الظلم بأي شكل كان مانع عن الارتقاء إلى الإمامة. فالاستغراق في ناحية الأفراد يلازم الاستغراق في أقسام الظلم.

فتكون النتيجة : إن من صدق عليه أنه ظالم ولو في فترة من عمره يكون ممنوعاً من نيل هذا المقام الرفيع.

سؤال وجواب

أما السؤال ، فهو : إن الآية أتما تشمل من كان مقيماً على الظلم ، فأما التائب عنه فلا يتعلّق به الحكم ، لأنّ الحكم إذا كان معلّقاً على صفة وزالت الصفة زال الحكم ، وصفة الظلم صفة ذم ، فإنّما تلحقه ما دام مقيماً عليه ، فإذا زال عنه زالت الصفة عنه ، كذلك يزول عنه الحكم الذي علّق به من نفي نيل العهد في قوله تعالى : (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ألا ترى أنّ قوله تعالى : (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) إنّما هو نهى عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم ، وكذلك قوله تعالى : (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) إنّما هو ما أقاموا على الإحسان ، فقوله تعالى : (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) لم ينف به العهد عن من تاب عن ظلمه ، لأنّه في هذه الحالة لا يسمّى ظالماً كما لا يسمّى من تاب من الكفر كافراً ومن تاب من الفسق فاسقاً ، وإنّما يقال كان كافراً وكان فاسقاً ، وكان ظالماً ، والله تعالى لم يقل لم ينل عهدي من كان ظالماً ، وإنّما نفى ذلك عن من كان موسوماً بسمة الظالم والاسم لازم له باق عليه (1).

ص: 411

1- أحكام القرآن (لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ، المتوفى عام 370 هـ) : 1 / 72 بتلخيص.

إنّ ما أفاده الجصاص من أنّ الحكم يدور مدار وجود الموضوع ليس ضابطاً كلياً يعتمد عليه في كل الموارد ، وما استشهد به من المثالين لا يكون مبدأ لانتزاع القاعدة الكلية المزعومة ؛ بل الأحكام على قسمين : قسم يدور مدار وجود الموضوع ، فينتفي بانتفائه ، وقسم يكفي فيه اتصاف الموضوع بالوصف والعنوان آنأما ولحظة خاصة ، وإن انتفى بعد الاتصاف ، وإليك توضيح كلا القسمين :

أمّا القسم الأوّل : مثل قولنا الخمر حرام ، أو في سائمة الغنم زكاة ، فالمائع ما دام يصدق عليه عنوان الخمر يحرم شربه ، فإذا انقلب إلى الخل يرتفع عنه الحكم ، والغنم ما دامت سائمة تتعلّق بها الزكاة ، فإذا زال العنوان وعادت معلوفة يرتفع عنها الحكم ، وله في العرف والشريعة أمثلة لا تعد ولا تحصى .

وأمّا القسم الثاني : أعني ما يكفي في بقاء الحكم اتصاف الموضوع بالعنوان ولو مرة واحدة أو لحظة سريعة عابرة ، فهو كالزاني والسارق ، فالإنسان إذا تلبّس بالزنا أو السرقة ، يكون محكوماً بالحد وإن زال عنه العنوان ، بل وإن تاب وأتاب بعد ثبوت الحكم في حقه ، ومثله عنوان المستطيع ، فمن استطاع الحج يجب عليه وإن زالت عنه الاستطاعة وقصر في أداء الحج .

ومثل هذه الأمثلة ، عنوان « أمّهات نسائكم » فمن اتصفت بكونها أمّاً لزوجة ولو لحظة تحرم على الزوج وإن زالت علاقة الزوجية ، وعلى هذا الضوء يكون قوله تعالى : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (1) ، وقوله سبحانه : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) (2) ، وقوله سبحانه : (وَلِلَّهِ عَلَىٰ

ص: 412

1- المائدة : 38.

2- النور : 2.

النَّاسِ حَيْثُ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (1)، وقوله سبحانه: (وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) (2)، شاملاً لكل من تلبس بالسرقة والزنا والاستطاعة والأمومة للزوجة، سواء بقوا على العنوان أم زال عنهم، وعلى هذا القياس يجب تقسيم الموضوعات المتصفة بالعناوين إلى قسمين لا جعلهما قسماً واحداً كما صنع الجصاص.

نعم، المهم في المقام إثبات أن الموضوع في الآية من قبيل القسم الثاني لا القسم الأول، فما لم يثبت كونه منه لا يفيد تقسيم العنوان إلى قسمين.

وبعبارة أخرى: اللازم إثبات أن المتلبس بالظلم ولو آنأ ما، ولو فترة يسيرة من عمره لا يصلح للإمامة في كل عمره وإن تاب من الذنب، ويمكن إثبات ذلك من طريقين:

الأول: طريق العقل

إن الهدف الأسمى من تنصيب أمثال الخليل عليه السلام للإمامة تحقيق الشريعة الإلهية في المجتمع وتحقيقها بين الناس، فإذا كان القائد رجلاً مثالياً نقي الثوب، مشرق الصحيفة، ناصع السلوك، يكون لأمره ونهيه نفوذ في القلوب، ولا تكون قيادته محل طعن من قبل المجتمع، بل يستقبله الشعب بوجوه ملؤها الإجلال والإكبار، لأنه عاش بين ظهرانيتهم ولم يروا منه عصياناً ولا زلة، بل كان قائماً على الصراط السوي غير مائل عنه، وعند ذلك يتحقق الهدف الأسمى من تنصيب الشخصيات المعينة للإمامة.

وأما إذا كان في فترة من عمره مقترفاً للمعاصي، مجترحاً للسيئات، فهو

ص: 413

1- آل عمران: 97.

2- النساء: 23.

غرض لسهام الناقدين ، ومن البعيد أن ينفذ قوله وتقبل قيادته بسهولة ، بل يقع مورداً للاعتراض بأنه كان بالأمر يقترب الذنوب ويعمل المعاصي ، ويتبني الباطل وأصبح اليوم أمراً بالحق ومميتاً للباطل ! وعند ذلك لا يتحقق الهدف الذي لأجله خلعت عليه الإمامة.

وهذا التحليل العقلي يحكم بلزوم تقاوة الإمام عن كل زلة ومعصية وإنّ الإنابة لو كانت ناجحة في حياته الفردية لا تكون ناجحة في حياته الاجتماعية ولا يقع أمره ونهيه موقع القبول ولا يقدر أن يأخذ بمجامع القلوب.

الثاني طريق النقل

وهو تحليل الآية : ببيان أنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أربعة أقسام :

1. من كان في طيلة عمره ظالماً.
2. من كان طاهراً ونقياً في جميع عمره.
3. من كان ظالماً في بداية عمره وتائباً في آخره.
4. من كان طاهراً في بداية عمره وظالماً في آخره.

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم عليه السلام الذي سأل الإمامة لبعض ذريته ، أراد أي قسم منها ؟ حاشا إبراهيم عليه السلام أن يسأل الإمامة للقسم الأوّل والرابع من ذريته ، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره أو الموصوف به أيام تصدّيه للإمامة لا يصلح لأن يؤتمن عليها ، فبقي القسمان الآخران ، أعني : الثاني والثالث ، وقد نص سبحانه على أنّه : لا ينال عهده الظالم ، والظالم في هذه العبارة لا ينطبق إلا على القسم الثالث ، أعني : من كان ظالماً في

بداية عمره وصار تائباً حين التصدي، فإذا خرج هذا القسم بقي القسم الثاني، وهو من كان نقي الصحيفة طيلة عمره، لم ير منه لا قبل التصدي ولا بعده انحراف عن الحق، ومجاورة للصراط السوي.

وحصيلة البحث: إن الإمام هو الإنسان المثالي المطاع قوله، المقتدى بفعله، والمنصوب من الله سبحانه، لأجل تحقيق الأهداف الإلهية في المجتمع ولا يختلف كلامه وتقريره عنها قيد شعرة، حتى يحقق الهدف الذي نصب لأجله وبما أن الآية الكريمة تنفي صلاحية الظالم لنيل هذا المقام، وهي على وجه الاستغراق، فالظالم بجميع أصنافه لا يصلح لهذا المقام وإن تاب وطهر، لما عرفت من الوجهين من أن المقام من قبيل القسم الثاني الذي يكفي في ثبوت الحكم دائماً تلبس الموضوع بالعنوان آنأما.

سؤال وجواب

أمّا السؤال فحاصله: إن غاية ما يستفاد من الآية لزوم كون الإمام نقي الصحيفة عادلاً غير ظالم، وأمّا كونه معصوماً قد أفيضت عليه ملكة العصمة فلا يستفاد من الآية؟

وإن شئت قلت: إن نقي صلاحية الظالم للتصدي للإمامة لا يثبت إلا صلاحية تصدي العادل، وهو أعم من المعصوم الذي نحن بصدد إثباته؟

الجواب:

إن العدالة المطلقة التي يؤكد عليها القرآن - وهي كون الرجل نقياً عن كل ذنب، صغير وكبير طيلة عمره، من أوان بلوغه إلى لقاء ربه - تلازم العصمة ولا تنفك عنها، إذ من المستحيل عادة أن يثبت الإنسان على الحق ولا يتجاوز عنه ولا

ص: 415

تصدر منه كبيرة ولا صغيرة إلى أن يلاقي ربّه ، ومع ذلك يكون فاقداً للعصمة وملكة المصونية.

إنّ الإنسان القائم على الصراط السوي في جميع لحظات عمره غير مائل عن الحق فكراً وعملاً ، لا ينفك عن كونه يمتلك ملكة العصمة الحامية من الزلل.

نعم : العدالة غير المطلقة لا تلازم العصمة ، ولأجل ذلك ربّما يقترف العادل بعض المعاصي وإن كان يتوب بسرعة ، لكنّها ليست عدالة مطلقة ، بل عدالة خاصة لا تنافي صدور المعصية ، وأمّا العدالة المطلقة في جميع سني العمر ، والالتزام بالحق قولاً وفعلاً ، عقيدة وعملاً ، بلا انحراف ، فهي عبارة أخرى عن العصمة ، ولا تتحقق إلاّ بالموهبة الإلهية المفاضة من الله سبحانه على عباده المخلصين.

وإن أبيت إلاّ عن أعمية ما تهدف إليه الآية وإنّ المستفاد منها العدالة المطلقة لا العصمة المفاضة من الله سبحانه ، فنقول : إنّ الشيعة الإمامية تكتفي بذلك في نفي خلافة من تصدّى للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، بحجة أنّهم لم يكونوا ذوي عدالة مطلقة ، كيف وقد عبدوا الصنم والوثن في فترات من عمرهم !؟

فإذا ثبت عدم صلاحيتهم تعيّنت إمامة العترة الطاهرة ، لأنّ الأمة في مسألة الإمامة ذات قولين ، فذهبت طائفة إلى إمامة الخلفاء ، وذهبت طائفة أخرى إلى إمامة علي وأهل بيته عليهم السلام ، فإذا نفيت صلاحية الفرقة الأولى تعيّنت خلافة الطائفة الثانية ، لأنّ إمامة غير هاتين الطائفتين لم يذهب إليها أحد.

وبالجملة : اتفقت الأمة الإسلامية على قولين في مسألة الإمامة. فذهب أهل السنّة إلى خلافة الخلفاء الأربعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم تبدّلت الخلافة بعد الخليفة الرابع إلى الملوكية وخرجت عن صبغة الخلافة الإسلامية ، وقد كان أكثر هؤلاء الخلفاء الأربعة غير مجتنبين عن الشرك وعبادة الوثن في أوليات حياتهم ،

وإن صاروا ببركة الإسلام موحدّين تاركين الخط الجاهلي.

وذهب الشيعة بعامة فرقمهم إلى خلافة علي وبعده الحسن والحسين إلى آخر أئمة الهدى ، فهؤلاء كانوا طاهرين عن الشرك منذ نعومة أظفارهم إلى لقاء ربّهم ، وليس بين الأئمة قول بإمامة غير هاتين الطائفتين.

هذان هما القولان اللذان أشرنا إليهما ، ومن جانب آخر إنّ الآية تدلّ على شرطية طهارة الإمام على وجه الإطلاق عن كل ظلم في جميع أدوار الحياة ، وهذا لا ينطبق إلا على الطائفة الثانية ، لأنّ كثيراً من أفراد الطائفة الأولى كانوا غير مجتنبين عن الظلم في بداية حياتهم وذلك ممّا لم يختلف فيه اثنان.

ص: 417

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة و عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان.

إشارة

1. إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة.

2. عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان.

ص: 419

1. إطاعة السلطان العادل من صميم الدين وبيان دلائله.
2. إطاعة السلطان الجائر ورأي أهل السنّة فيها.
3. حكم الخروج عليه وجوباً وحرمة.
4. الأحاديث التي استدلت الحنابلة بها على وجوب إطاعة الحاكم الجائر وحرمة الخروج عليه.
5. عرض تلك الأحاديث على كتاب الله أولاً، والسنّة الصحيحة ثانياً، وأحاديث العترة الطاهرة ثالثاً، وسيرة السلف رابعاً.
6. محاولة الأستاذ « أبو زهرة » لتصحيح نظرية إمام الحنابلة في هذا المورد، وبيان ضعفها.
7. الصراع الدائم بين العقيدة والوجدان في نظائر المقام.
8. من هو الصحابي وتعريفه المختلفة والغاية السياسية بها؟
9. نظرية عدالة الصحابة كلهم، وتقييم تلك النظرية.
10. الصحبة ليست بمادة كيميائية تقلب المصاحب إلى إنسان مثالي.
11. الذكر الحكيم وأصناف الصحابة المختلفة.
12. الصحابة في السنّة النبوية.
13. الصحابة والتاريخ المتواتر.
14. آراء الصحابة بعضهم حول بعض.
15. النظرية الوسطى في الصحابة، نظرية الشيعة المنعكسة في دعاء الإمام السجاد.
16. كلام أبي المعالي الجويني، ونقد بعض الزيدية له.
17. النسبة المفتعلة إلى الشيعة الإمامية وإبطالها.

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إشارة

إطاعة الحاكم العادل من صميم الدين ، قال سبحانه : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (1) ، وليس المراد منه إطاعة مطلق ولاية الأمر ، بل المراد خصوص العدول منهم ، بقريضة النهي عن إطاعة المسرفين والغافلين عن ذكر الله سبحانه ، والمكذبين والآثمين وغيرهم ، قال سبحانه : (وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا) (2) ، وقال سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) (3) ، وقال سبحانه : (فَلَا تُطِيعِ الْمُكذِّبِينَ) (4) ، وقال تعالى : (وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَالِفٍ مَّهِينٍ) (5) ، وقال سبحانه : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) (6) ، وقال تعالى : (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) (7) ، إلى غير ذلك من الآيات الناهية عن طاعة الطغاة العصاة. فقريضة هذه الآيات الناهية يصح أن يقال : إن المراد من الأمر بإطاعة أولي الأمر ، هو إطاعة العدول منهم.

ص: 421

1- النساء : 59.

2- الكهف : 28.

3- الأحزاب : 1.

4- القلم : 8.

5- القلم : 10.

6- الإنسان : 24.

7- الشعراء : 151.

وقد تضافرت الروايات على وجوب إطاعة السلطان العادل المعربة عن عدم وجوب إطاعة السلطان الجائر أو حرمتها ، قال رسول الله عليه السلام : « السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض ويرفع له عمل سبعين صديقاً » (1).

وقال صلى الله عليه وآله : « ما من أحد أفضل منزلة من إمام إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن استرحم رحم » (2).

وقال صلى الله عليه وآله : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم مجلساً ، إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه إمام جائر » (3).

وقال صلى الله عليه وآله : « السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف ، وبه ينصر المظلوم ، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة » (4).

وقال صلى الله عليه وآله : « ثلاثة من كن فيه من الأئمة صلح أن يكون إماماً اضطلع بأمانته : إذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون رعيته ، وأقام كتاب الله تعالى في القريب والبعيد » (5) إلى غير ذلك من الروايات التي يقف عليها المتتبع في الجوامع الحديثية.

هذا من طريق أهل السنة ، وأما من طريق الشيعة فحدث عنه ولا حرج.

روى عمر بن حنظلة عن الصادق عليه السلام في لزوم طاعة الحاكم العادل : « من روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإني جعلته عليكم حاكماً ، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه ، فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد ، والراد علينا كالراد على الله ، وهو على حدّ الشرك بالله » (6).

ص: 422

- 1- كنز العمال : 6 / 6 ، الحديث 14589 ، 14593 ، 14604 ، 14572.
- 2- كنز العمال : 6 / 6 ، الحديث 14589 ، 14593 ، 14604 ، 14572.
- 3- كنز العمال : 6 / 6 ، الحديث 14589 ، 14593 ، 14604 ، 14572.
- 4- كنز العمال : 6 / 6 ، الحديث 14589 ، 14593 ، 14604 ، 14572.
- 5- كنز العمال : ج 5 ، الحديث 14315.
- 6- الوسائل : 18 ، الباب 11 ، من أبواب صفات القاضي ، الحديث 1.

ونكتفي بقول الإمام الحسين بن علي عليهما السلام في كتابه إلى أهل الكوفة حيث قال عليه السلام : « فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب ، القائم بالقسط ، الدائن بدين الحق ، الحابس نفسه على ذات الله » (1).

إذا فوجوب إطاعة السلطان العادل ممّا لا شك فيه ، ولا يحتاج إلى إسهاب الكلام فيه.

إطاعة السلطان الجائر

اتفقت كلمة الحنابلة ومن لفّ لفّهم على وجوب إطاعة السلطان الجائر ، وإليك نصوصهم :

قال أحمد بن حنبل في إحدى رسائله : السمع والطاعة للأئمة ، وأمير المؤمنين ، البر والفاجر ، ومن ولي الخلافة فأجمع الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف ، وسَمِّي أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة ، البر والفاجر ، وإقامة الحدود إلى الأئمة ، وليس لأحد أن يطعن عليهم وينازعهم ، ودفع الصدقات إليهم جائز من دفعها إليهم أجزاء عنهم ، برّاً كان أو فاجراً ، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولي ، جائزة إقامتها ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالفة للسنة (2).

ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه وأقرّوا له بالخلافة بأيّ وجه من الوجوه ، كان بالرضاء أو بالغلبة ، فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن مات الخارج عليه ، مات ميتة

ص: 423

1- بحار الأنوار : 15 / 116 ; تاريخ الطبري : 4 / 262 ، أحداث سنة 60 هـ .

2- تاريخ المذاهب الإسلامية : 2 / 322 .

هذا الرأي المنقول عن إمام الحنابلة لا يمكن إنكار صحة نسبته إليه ، ولأجل ذلك قال الأستاذ أبو زهرة : ولأحمد رأي يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء وهو جواز إمامة من تغلب ورضيه الناس وأقام الحكم الصالح بينهم ، بل أنه يرى أكثر من ذلك إن من تغلب وإن كان فاجراً تجب إطاعته حتى لا تكون الفتن (1).

والعبارة التي نقلناها عن إمام الحنابلة تعرب عن وجوب إطاعة الجائر ولو أمر بمعصية الخالق ، وهو أمر عجيب منه جداً ، مع أن أكثر الأشاعرة الذين يحرمون الخروج عليه ، لا يوجبون طاعته كما ستري عندما نوافيك بنصوصهم ، ولغرابة رأي ابن حنبل هذا ، ذيله أبو زهرة بقوله : ولكنه ينظر في هذه القضية إلى مصلحة المسلمين وأنه لا بد من نظام مستقر ثابت وإن الخروج على هذا النظام يحل قوة الأمة ، ويفك عراها ، ولأنه رأى من أخبار الخوارج وفتنتهم ما جعله يقرر أن النظام الثابت أولى ، وأن الخروج عليه يرتكب فيه من المظالم أضعاف ما يرتكبه الحاكم الظالم.

ثم إنه ينظر في القضية نظرة أتباع ، فإن التابعين عاشوا في العصر الأموي إلى أكثر من ثلثي زمانه قد رأوا مظالم كثيرة ، ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين ، وكانوا ينصحون الخلفاء والولاة إن وجدوا آذاناً تسمع ، وقلوباً تفقه ، وفي كل حال لا يخرجون ولا يؤيدون الخارج (2).

وهذا التوجيه من الأستاذ غريب جداً :

أما أولاً : فلأن الخروج على النظام الظالم إذا كان موجباً لحلّ قوة الأمة وفك

ص : 424

1- المصدر السابق : 321.

2- تاريخ المذاهب الإسلامية : 2 / 322.

عراها ، يكون الصبر عليه تشويقاً لتمامه في الظلم ، وإكثار الضغط على الأمة ، وبالنتيجة : تحويل الدين وتحريفه عمّا هو عليه من الحق ... فأبى فائدة تكمن في حفظ قوّة أمة ، انحرفت عن صراطها وتبدّلت سننها وتغيرت أصولها ، فإنّ الظالم لا يرى لظلمه حداً ولتعدّيه ضوابط ، فلورأى أنّ الإسلام بواقعه يضاد آراءه الشخصية وميوله الخبيثة ، عمد إلى تغييره وتحويره ، فليس يقتصر ظلم الظالم على التعدي على النفوس والأموال ، بل الراكب على أعناق الناس ، يغيّر كل شيء كيفما يريد ، وحيثما يرى أنّه لصالح شخصه ، والتاريخ شاهدنا الأصدق على ذلك.

وثانياً : فإنّ الأستاذ أبا زهرة نسب إلى التابعين الذين عاشوا في العصر الأموي إلى أكثر من ثلثي زمانه بأنهم رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين ... ، ولكنّه كيف غفل عن قضية الحرّة الدامية حيث كان الخارجون فيها على الحكومة الغاشمة هم الصحابة والتابعون

وهذا المسعودي صاحب « مروج الذهب » ينقل إلينا لمحة عمّا جرى هناك ويقول :

ولما انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحرّة وعليه « مُسرف » خرج إلى حربه أهلها ، عليهم عبد الله بن مطيع العدوي وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس ؛ فمن قتل من آل أبي طالب اثنان : عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب ؛ ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب ، الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ،

والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش ومثلهم من الأنصار ، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء ، دون من لم يعرف (1).

كيف نسي أبو زهرة - أو لعله تناسى - قضية دير الجماجم حيث قام ابن الأشعث التابعي في وجه الحجاج السفك بالموضع المعروف بدير الجماجم فكان بينهم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق ، وذلك في سنة اثنتين وثمانين (2).

وعلى كل تقدير فقد افتنى أثر أحمد بن حنبل جماعة من متكلمي الأشاعرة وادّعوا بأن هذه عقيدة إسلامية كان الصحابة والتابعون يدينون بها ، وأنه يجب الصبر على الطغاة الظلمة إذا تصدروا منصّة الحكم ، نعم غاية ما يقولون : إنه لا يجب إطاعتهم إذا أمروا بالحرام والفساد ، جاعلين قولهم هذا منعطفهم الوحيد عن قول ابن حنبل وبقيّة أهل الحديث ، وإليك نبذة من أقوال القوم :

1. قال الإمام الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي (المتوفى عام 321 هـ) في رسالته المسماة ب- « بيان السنّة والجماعة » المشهورة ب « العقيدة الطحاوية » :

ونرى الصلاة خلف كلِّ برٍّ وفاجر من أهل القبلة ، ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد إلا على من وجب عليه السيف (أي سفك الدم بالنص القاطع كالقاتل والزاني المحصن والمرتد) ولا نرى الخروج على أئمتنا ولا ولاة أمرنا وإن جاروا ، ولا ندعوا على أحد منهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من

ص: 426

1- مروج الذهب : 3 / 69 - 70 ، طبع بيروت.

2- المصدر السابق : 3 / 132.

طاعات الله عزّ وجلّ فريضة علينا ما لم يأمرُوا بمعصية (1).

2. قال الإمام الأشعري من جملة ما عليه أهل الحديث والسنة: ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل إمام بر وفاجر... إلى أن قال: ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف، وأن لا يقاتلوا في الفتن (2).

3. وقال الإمام أبو اليسر محمد بن عبد الكريم البزدوي: الإمام إذا جار أو فسق لا يعزل عند أصحاب أبي حنيفة بأجمعهم، وهو المذهب المرضي... ثم قال: وجه قول عامة أهل السنة والجماعة إجماع الأمة، فإنهم رأوا الفساق أئمة، فإن أكثر الصحابة كانوا يرون بني أمية وهم بنو مروان أئمة حتى كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلفهم، ويرون قضاياهم نافذة، وكذا الصحابة والتابعون، وكذا من بعدهم يرون خلافة بني عباس وأكثرهم كانوا فساقاً، ولأنّ القول بانعزال الأئمة بالفسق، إيقاع الفساد في العالم، وإثبات المنازعات وقتل الأنفس، فإنه إذا انعزل يجب على الناس تقليد غيره، وفيه فساد كثير، ثم قال: إذا فسق الإمام يجب الدعاء له بالتوبة، ولا يجوز الخروج عليه، وهذا مروى عن أبي حنيفة، لأنّ في الخروج إثارة الفتن والفساد في العالم (3).

4. وقال الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (المتوفى عام 403 هـ) في «التمهيد».

إن قال قائل: ما الذي يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أمور: منها كفر بعد إيمان، ومنها تركه الصلاة والدعاء إلى ذلك، ومنها عند كثير

ص: 427

1- شرح العقيدة الطحاوية: 110 و 111، طبع دمشق.

2- مقالات الإسلاميين: 323.

3- أصول الدين للإمام البزدوي: 190 - 192، ط القاهرة.

من الناس فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبخار ، وتناول النفوس المحرمة ، وتضييع الحقوق ، وتعطيل الحدود ، وقال الجمهور من أهل الأثبات وأصحاب الحديث : لا ينخلع بهذه الأمور ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويله وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله ، إذ احتجوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمة وإن جاروا واستأثروا بالأموال وأنه قال عليه السلام :

« واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع ، ولو لعبد حبشي ، وصلّوا وراء كلِّ برٍّ وفاجر ».

وروي أنه قال : « وان أكلوا مالك وضربوا ظهرك وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة » (1).

5. وقال الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي (المتوفى عام 537 هـ) في « العقائد النسفية » :

ولا ينزل الإمام بالفسق والجور ... ويجوز الصلاة خلف كلِّ برٍّ وفاجر. وعلمه الشارح التفتازاني بقوله : لأنه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمة والأمرء بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينفذون لهم ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم ولا يرون الخروج عليهم (2).

وقد أيدت تلك العقائد بروايات ربّما يتصوّر القارئ أنّ لها مسحة من الحق أو لمسة من الصدق ، لكن الحق أنّ أكثرها مفتعلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله قد

ص: 428

1- التمهيد : 186 ، ط القاهرة.

2- شرح العقائد النسفية : 185 - 186.

أفرغها في قالب الحديث جَمَعُ من وعَاز السلاطين ومرتزقتهم تحفظاً على عروشهم وحفظاً لمناصبهم ، وإليك بعض تلك الروايات التي رواها مسلم في صحيحه :

1. روى مسلم ، عن حذيفة بن اليمان ، قلت يا رسول الله ... إلى أن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يتسنون بسنتي ، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس » قال : قلت كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع ».
2. وروى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية ... إلى أن قال : ومن خرج على أمّتي يضرب برّها وفاجرها ، ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفني لذي عهد عهده فليس مني ولست منه ».
3. وروى عن ابن عباس أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية ».
4. روى عنه أيضاً ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « من رأى من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية ».
5. روي عن عبد الله بن عمر أنه جاء إلى عبد الله بن مطيع - حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية - فقال : اخرجوا لأبي عبد الرحمن وسادة فقال : إني ما أتيتك لأجلس ، أتيتك لأحدّثك حديثاً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

« من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ».

وقد فسر قول رسول الله صلى الله عليه وآله ابن عمر بلزوم بيعة يزيد وإطاعته حتى في مسألة الحرة.

6. روي عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع » قالوا : يا رسول الله ! ألا نقاتلهم ؟ قال : « لا ما صلوا ».

7. وروي عن عوف بن مالك في حديث : قيل يا رسول الله أفلا تنابذهم بالسيف ؟ فقال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولا تكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعته » (1).

وقد أورد ابن الأثير الجزري قسماً من هذه الأحاديث في جامع الأصول (2).

8. روى البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سيكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون ، ويفعلون بما يؤمرون ، وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن أنكر عليهم برئ ، ومن أمسك يده سلم ، ولكن من رضي وتابع » (3).

9. وروي ابن عبد ربّه ، عن عبد الله بن عمر : إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر ، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر (4).

ص: 430

1- صحيح مسلم باب الأمر بلزوم الجماعة : 6 ، وباب حكم من فرق أمر المسلمين : 20 - 24.

2- لاحظ جامع الأصول : 4 ، الكتاب الرابع في الخلافة والامارة ، الفصل الخامس : 451 ... الخ.

3- السنن الكبرى : 8 / 158.

4- العقد الفريد : 1 / 8.

وقبل كل شيء يجب علينا أن نعرض تلك الروايات على كتاب الله سبحانه فإنه المحك الأول لتشخيص الحديث الصحيح من السقيم.

قال سبحانه حاكياً عن العصاة والكفار : (يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنًا كَبِيرًا) (1).

فهذا القسم من الآيات يندد بقول من يرى وجوب طاعة السلطان الظالم التي توجب ضلالة المطيع لهم عن السبيل السوي ، وثمة آيات تندد بعمل من يصبر على عمل الطاغية من دون أن يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر ، وترى نفس السكوت والصبر على طغيان الطاغية جرماً وإثماً موجباً للهلاك ، وهذه الآيات هي الواردة حول قوم من بني إسرائيل الذين كانوا يعيشون قرب ساحل من سواحل البحر فتقسمهم إلى أصناف ثلاثة :

الأول : الجماعة المعتدية العادية التي رفضت حكم الله سبحانه حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قال سبحانه : (إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ) (2).

الثاني : الجماعة الساكنة التي أهمتهم أنفسهم لا يرتكبون ما حرم الله وفي الوقت نفسه لا ينهون الجماعة العادية عن عدوانها ، بل كانوا يعترضون على الجماعة الثالثة التي كانت تقوم بواجبها الديني من إرشاد الجاهل والقيام في وجه العاصي والطاغي ، بقولهم : (لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) (3).

ص : 431

1- الأحزاب : 66 - 68.

2- الأعراف : 163.

3- الأعراف : 164.

الثالث : الجماعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر محتسبين ذلك وظيفة دينية عريقة ونصيحة لازمة للإخوان ، وقد حكى الله سبحانه على لسانهم في محكم كتابه العزيز حيث قال : (مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (1).

نرى أن الله سبحانه أباد الطائفتين الأوليين وأنجى الثالثة قال سبحانه : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (2).

فالآية الأخيرة صريحة في حصر النجاة في الناهين عن السوء فقط ، دون العادين والساكتين على عدوانهم ، فلو كان السكوت والصبر على عدوان العادين أمراً جائزاً ، لماذا عمّ العذاب كلتا الطائفتين؟! أو ما كان في وسع هؤلاء أن يعتذروا للقائمين بالأمر بالمعروف ، بأن في القيام والخروج وحتى في النصيحة بالقول تضعيفاً لقوة الأمة وفكاً لعراها؟

فلو دلّت الآية الأولى على حرمة طاعة الظالم ودلّت الآية الثانية على حرمة السكوت في مقابل طغيان العادين ، فهناك آية ثالثة تدل على حرمة الركون إلى الظالم يقول سبحانه : (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) (3).

أوليس تأييد الحاكم الجائر والدعاء له في الجمعة والجماعات ، وإقامة الصلاة بأمره ، وإدارة كل شأن خول منه إليه ، يعد ركوناً إلى الظالم؟ فما هو جواب هؤلاء المرتزقة في الدول الإسلامية اصطلاحاً الذين يعترفون بجور حكامهم وانحرافهم عن الصراط السوي ، ومع ذلك يدعون لهم عقب خطب الجماعات بطول العمر ودوام السلامة ، ويديرون الشؤون الدينية حسب الخطط التي يرسمها

ص: 432

1- الأعراف : 164.

2- الأعراف : 165.

3- هود : 113.

ويصورها لهم أولئك الحكام ، الذين يعدّهم أولئك المرتزقة محاور ومراكز ، وأنفسهم أقماراً تدور في أفلاكها ، اللهم إلا أن يعتذر هؤلاء بعدم التمكن ممّا يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مراتبهما المختلفة ، ولكنه عذر لا يقبل في كثير من الأحيان ، وعلى ذلك الأساس فما قيمة تلك الروايات المعارضة لنصوص الكتاب وصريح الذكر الحكيم .

أضف إلى ذلك أنّ هناك روايات تنفي صحة الروايات السابقة وتجعلها في مدحرة البطلان ، وقد نقلها أصحاب الصحاح والسنن أيضاً ، وعند المعارضة يؤخذ من السنّة الشريفة ما يوافق كتاب الله الحكيم ، وإليك نزرّاً من تلك الروايات :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اسمعوا سيكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه ، وليس بوارد عليّ الحوض » (1).

هذا بعض ما لدى السنّة من الروايات وأمّا ما لدى الشيعة فنأتي ببعضها عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ألا ومن علّق سوطاً بين يدي سلطان جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من النار طوله سبعون ذراعاً يسلطه الله عليه في نار جهنم وبئس المصير » .

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً أنّه قال : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين أعوان الظلمة ، ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً ، أو مدّ لهم مدة قلم ، فاحشروهم معهم » .

وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال : « من خف لسُلطان جائر في حاجة كان قرينه في النار » .

ص: 433

1- جامع الأصول : 4 / 75 ، نقلاً عن الترمذي والنسائي .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما اقترب عبد من سلطان جائر إلا تباعد من الله ».

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : « من أحب بقاء الظالمين فقد أحب أن يُعصى الله ».

وعنه عليه السلام أنه قال : « من سؤد اسمه في ديوان الجبارين ... حشره الله يوم القيامة حيراناً ».

وعنه عليه السلام أنه قال : « من مشى إلى ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام ».

وعن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : « ما أحب أني عقدت لهم عقدة أو وكيت لهم وكاء وإن لي ما بين لابتيتها ، لا ولا مدّة بقلم ، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد » (1).

وغيرها من عشرات الأحاديث والروايات الواردة من النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام الناهية عن السكوت على الحاكم الجائر ، والحائثة على زجره ودفعه ، والإنكار عليه بكل الوسائل الممكنة ، فهذه الأحاديث تدل على أن ما مرّ من الروايات الحائثة على السكوت عن الحاكم الظالم ، والانصياع لحكمه ، والتسليم لظلمه ، والرضا بجوره ، جميعها ممّا لفقّه رواة السوء والجور بإيعاز من السلطات الحاكمة في تلك العصور المظلمة ، فنسبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو صلى الله عليه وآله منها براء لمعارضتها الصريحة لمبادئ الكتاب والسنة.

ولو لم يكن في المقام إلا قول علي عليه السلام في خطبته : « ... وما أخذ الله على

ص: 434

1- راجع لمعرفة هذه الأحاديث وسائل الشيعة : 12 ، الباب 42 من أبواب ما يكتسب به ، الأحاديث 6 ، 10 ، 11 ، 12 ، 14 ، 15 ، والباب 44 من نفس الأبواب الحديث 5 و 6.

العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ... » (1) لكفى في وهن تلك الروايات المفتعلة على لسان النبي صلى الله عليه وآله

وفي ختام الكلام نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما ألقاه الإمام أبو الشهداء الحسين بن علي عليه السلام إلى أهالي الكوفة حيث خطب أصحابه ، وأصحاب الحر - قائد جيش عبید الله بن زياد آنذاك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ، ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غيري » (2).

وهذه النصوص الرائعة المؤيدة بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين قاموا في وجه الطغاة من بني أمية وبني العباس ، تشهد بأن ما نسب إلى الصحابة والتابعين من الاستسلام والسكوت على ظلم الظالمين لكون ذلك من عقيدتهم الإسلامية ، ما هو إلا بعض مفتعلات أصحاب العروش ، وقد وضعها وعاظهم ومرتقتهم ، وإلا فالطيون - من الصحابة والتابعين - بريئون من هذه النسبة.

صراع بين العقيدة والوجدان

نرى أن بعض الشباب المسلم في البلاد الإسلامية قد انخرطوا في الأحزاب

ص: 435

1- نهج البلاغة : الخطبة 3.

2- تاريخ الطبري : 5 / 204 حوادث سنة 61 هـ.

السياسية، ورفضوا الدين من أساسه، ولعل بعض السبب هو أنّهم وجدوا في أنفسهم صراعاً عنيفاً بين العقيدة والوجدان، فمن جانب توحى إليهم فطرتهم وعقيدتهم الإنسانية السليمة، إلى أنّه تجب مكافحة الظالمين، والخروج عليهم، ونصرة المظلومين، وأخذ حقوقهم من أيدي الظالمين، ومن جانب آخر يسمعون من علماء الدين أو المتزيّين بلباسه، أنّه لا يجوز الخروج على السلطان، بل تجب طاعته وإن أمر بالظلم والعدوان، فحينئذ يقع الشاب في حيرة من أمره بين أتباع الفطرة والعقل السليم، وأتباع كلام هؤلاء العلماء الذين ينطقون باسم الدين خصوصاً إذا كان المتكلم رجلاً يكن المجتمع له الاحترام والإكبار، ويعرفه التاريخ بالخطيب الزاهد كالحسن البصري، فإنّه عندما سئل عن مقاتلة الحجاج ذلك السيف المشهور على الأمة والإسلام فأجاب: «أرى أن لا تقا تلوه، فإنّها إن تكن عقوبة من الله، فما أنتم برادّيها، وإن يكن بلاءً فاصبروا حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين» فخرج السائلون من عنده وهم يقولون مستنكرين ما سمعوا منه: أنطيع هذا العليج، ثم خرجوا مع ابن الأشعث على قتال الحجاج (1).

فإذا سمع الشاب الثوري هذه الكلمة من عميد الدين وخطيبه - كما يقال - عاد يصف جميع رجال الدين بما وُصِفَ به الحسن البصري، وبالتالي يخرج من الدين ويتركه، ويصف الدين سناداً للظالم وملجأً له.

وفي الختام نوجّه نظر الأعلام من السنّة إلى خطورة الموقف في هذه الأيام، وأنّ أعداء الإسلام لبالمرصاد يصطادون الشباب بسهام الدعاية الكاذبة، ويعرّفون الإسلام بأنّه سند الظالمين، وركن الجائرين بحجة أنّه ينهى عن الخروج على السلطان الجائر.

ص: 436

والمسلم غير العارف بالدين وما ألصق به ، لا يميز بين الحقيقة الناصعة وبين ما ألبس عليها من ثوب رديء قاتم.

وليس هذا أوّل ولا آخر مورد يجد الشاب الثوري صراعاً في نفسه بين العقلية الإنسانية وبين الدعاية الكاذبة عن الإسلام ، فيختار وحي الفطرة ويصبح ثائراً على القوى الطاغية ، ويظن أنّه ترك الإسلام باعتقاد أنّ المتروك هو الدين الحقيقي الذي أنزله الله تعالى على النبي محمد صلى الله عليه وآله ، وهذه الجريمة متوجهة بالدرجة الأولى على هذا النمط من العلماء.

فواجب على علماء الدين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلامية الصحيحة في تشخيص ما هو من صميم الدين عمّا ألصق به ، ولا يقتنعوا بما كتب باسم الدين عن السلف الصالح ، وليس كل ما نسب إلى السلف الصالح أو قالوا به صميم الدين ، كما أنّه ليس كل سلف صالحاً ، بل هم بين صالح وطالح ، وسعيد وشقي ، وعالم وجاهل ، وليس كل سلف أفضل وأتقى وأعلم من كل خلف ، فليدرسوا الأصول المسلّمة من رأس ، نعم لا أكتّم أنّ هناك أناساً واقفين على الحقيقة ، ولكن لا تقتضي مصالحتهم الشخصية إظهارها وقد نزل فيهم قوله سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (1) ، كما أنّ بينهم شخصيات لامعة جاهروا بالحقيقة واصحروا بها واشتروا رضا الرب بأثمان غالية وتضحيات ثمينة.

ص: 437

1- البقرة : 159.

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

إشارة

عدالة الصحابة كلهم بلا استثناء ، ونزاهتهم من كل سوء هي إحدى الأصول التي يتدين بها أهل السنة ، وقد راجت تلك العقيدة بينهم حتى اتخذها الإمام الأشعري إحدى الأصول التي يبتني عليها مذهب أهل السنة جميعاً (1). ونحن نعرض هذه العقيدة على الكتاب أولاً ، وعلى السنة النبوية الصحيحة ثانياً ، والتاريخ ثالثاً ، حتى يتجلى الحق بأجلى مظاهره إن شاء الله تعالى ، وقبل أن ندخل في صلب المسألة نقدم تعريف الصحابي فنقول :

من هو الصحابي ؟

إنّ هناك تعاريف مختلفة للصحابي تأتي ببعضها على وجه الإجمال :

1. قال سعيد بن المسيب : الصحابي لا نعدّه إلاّ من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وآله سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين.

2. قال الواقدي : رأينا أهل العلم يقولون : كل من رأى رسول الله ، وقد

ص: 438

1- مقالات الإسلاميين : 1 / 323. يقول : ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه بصحبة نبيه صلى الله عليه وآله ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عمّا شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم.

أدرك فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه ، فهو عندنا ممّن صحب رسول الله ، ولو ساعة من نهار ، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام.

3. قال أحمد بن حنبل : أصحاب رسول الله كل من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه.

4. قال البخاري : من صحب رسول الله أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه.

5. وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب : لا خلاف بين أهل اللغة في أنّ الصحابي مشتق من الصحبة قليلاً كان أو كثيراً ، ثم قال : ومع هذا فقد تقرّر للأمة عرف ، فإنّهم لا يستعملون هذه التسمية إلاّ في من كثرت صحبته ولا يجيزون ذلك إلاّ فيمن كثرت صحبته لا على من لقيه ساعة أو مشي معه خطى ، أو سمع منه حديثاً ، فوجب ذلك أن لا يجري هذا الاسم إلاّ على من هذه حاله ، ومع هذا فإنّ خبر الثقة الأمين عنه مقبول ومعمول به ، وإن لم تطل صحبته ولا سمع عنه حديثاً واحداً.

6. وقال صاحب الغوالي : لا يطلق اسم الصحبة إلاّ على من صحبه ثم يكفي في الاسم من حيث الوضع ، الصحبة ولو ساعة ، ولكن العرف يخصه بمن كثرت صحبته.

قال الجزري بعد ذكر هذه النقول : قلت : وأصحاب رسول الله على ما شرطوه كثيرون ، فإنّ رسول الله شهد حينئذٍ ومعه اثنا عشر ألف سوى الأتباع والنساء ، وجاء إليه « هوازن » مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم ، وترك مكة مملوءة ناساً وكذلك المدينة أيضاً ، وكل من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين ، فهؤلاء كلّهم لهم صحبة وقد شهد معه تبوك من الخلق الكثير ما لا

يحصيهم ديوان ، وكذلك حجّة الوداع وكلّهم له صحبة (1).

ولا يخفى أنّ التوسع في مفهوم الصحابي على الوجه الذي عرفته في كلماتهم ممّا لا تساعده اللغة والعرف العام ، فإنّ صحابة الرجل عبارة عن جماعة تكون لهم خلطة ومعاشرة معه مدّة مديدة فلا تصدق على من ليس له حظ إلا الرؤية من بعيد ، أو سماع الكلام ، أو المكالمة أو المحادثة فترة يسيرة ، أو الإقامة معه زمناً قليلاً.

وأظن أنّ في هذا التبسيط والتوسع غاية سياسية لما سيوافيك من أنّ النبي قد تتبّأ بارتداد ثلثة من أصحابه بعد رحلته فأرادوا بهذا التبسيط صرف هذه النصوص إلى الأعراب وأهل البوادي ، الذين لم يكن لهم حظ من الصحبة إلا اللقاء القصير ، وسيأتي أنّ هذه النصوص راجعة إلى الملتفين حوله الذين كانوا مع النبي ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً إلى حدّ كان النبي يعرفهم بأعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم ، فكيف يصحّ صرفها إلى أهل البوادي والصحاري من الأعراب؟! فتربص حتّى تأتيك النصوص.

وعلى كل تقدير فلسنا في هذا البحث بصدد تعريف الصحابة وتحقيق الحق بين هذه التعاريف غير أنّنا نركز الكلام في أنّ أهل السنّة يقولون بعدالة هذا الجمع الغفير المدعوين باسم الصحابة ، وإليك كلماتهم :

عدالة الصحابة جميعهم

قال ابن عبد البر : ثبتت عدالة جميعهم (2).

ص: 440

1- أسد الغابة : 1 / 12 ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

2- الاستيعاب في أسماء الأصحاب : 1 / 2 في هامش « الإصابة ».

وقال ابن الأثير : إنَّ السنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام إلى غير ذلك من أمور الدين ، إنما تثبت بعد معرفة رجال أسانيدھا ورواتها ، وأولھم والمقدّم عليهم أصحاب رسول الله فإذا جهلهم الإنسان كان بغيرهم أشدَّ جهلاً وأعظم إنكاراً ، فينبغي أن يعرفوا بأنسابهم وأحوالهم ، هم وغيرهم من الرواة حتّى يصحَّ العمل بما رواه الثقات منهم وتقوم به الحجّة فإنَّ المجهول لا تصحَّ روايته ولا يبغي العمل بما رواه ، والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل ، فإنّهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ورسوله زكيّاهم وعدلاهم ، وذلك مشهور لا نحتاج لذكره (1).

وقال الحافظ ابن حجر في الفصل الثالث من « الإصابة » : اتفق أهل السنّة على أنّ الجميع عدول ، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة ، وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلاً نفيساً في ذلك فقال : عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم ، ثم نقل عدّة آيات حاول بها إثبات عدالتهم وطهارتهم جميعاً - إلى أن قال : - روى الخطيب بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله فاعلم أنّه زنديق ، وذلك أنّ الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وأنما أدّى إلينا ذلك كلّهُ الصحابة ، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة (2). هذه كلمات القوم ، وكم لها من نظائر نتركها طلباً للاختصار.

ص: 441

1- أسد الغابة : 1 / 3.

2- الإصابة : 1 / 17.

تقييم هذه النظرية يتم بتبيين أمور :

1. انّ البحث عن عدالة الصحابي أو جرحه ليس لغاية إبطال الكتاب والسنة ، ولا لإبطال شهود المسلمين ، لما سيوافيك من أنّ الكتاب شهد على فضل عدة منهم ، وزيف آخرين ، وهكذا السنة ، والغاية في هذا البحث هي الغاية في البحث عن عدالة التابعين ومن تلاهم من رواة القرون المختلفة ، فالغاية في الجميع هي التعرف على الصالحين والطالحين ، حتّى يتسنى لنا أخذ الدين عن الصالحاء ، والتنزّه عن أخذه عن غيرهم ، فلو قام الرجل بهذا العمل وتحمل العبء الثقيل ، لما كان عليه لوم ، فلو قال أبو زرعة مكان قوله الآنف ، هذا القول : « إذا رأيت الرجل يتفحص عن أحد من أصحاب الرسول لغاية العلم بصدقه أو كذبه ، أو خيره أو شره ، حتّى يأخذ دينه عن الخيرة الصادقين ، ويحترز عن الآخرين ، فاعلم أنّه من جملة المحققين في الدين والمتحررين للحقيقة » لكان أحسن وأولى ، بل هو الحسن والمتعين .

ومن غير الصحيح أن يتهم العالم أحداً يريد التثبت في أمور الدين والتحقيق في مطالب الشريعة « بالزندقة » وأنّه يريد جرح شهود المسلمين لإبطال الكتاب والسنة ، وما شهود المسلمين إلاّ الآلاف المكتظة من أصحابه صلى الله عليه وآله ، فلا يضر بالكتاب والسنة جرح لفيف منهم وتعديل قسم منهم ، وليس الدين القيم قائماً بهذا الصنف من المجروحين . « ما هكذا تورد يا سعد الإبل » !!

2. انّ هذه النظرية تكونت من العاطفة الدينية التي حملها المسلمون تجاه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وجرتهم إلى تبني تلك الفكرة ، وقد قيل : « من عشق شيئاً عشق لوازمه وآثاره » .

إِنَّ صَحْبَةَ الصَّحَابَةِ لَمْ تَكُنْ بِأَكْثَرٍ وَلَا أَقْوَى مِنْ صَحْبَةِ امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ فَمَا اغْتَنِيَهُمَا عَنِ اللَّهِ شَيْئًا ، قَالَ سُبْحَانَهُ : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) (1).

إِنَّ التَّشَرُّفَ بِصَحْبَةِ النَّبِيِّ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ امْتِيَازًا وَتَأْتِيرًا مِنَ التَّشَرُّفِ بِالزَّوْجِ مِنَ النَّبِيِّ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِ أَزْوَاجِهِ : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) (2).

3. انَّ أساتذة العلوم التربوية كشفوا عن قانون مجرَّب وهو أنَّ الإنسان الواقع في إطار التربية ، إنَّما يتأثر بعواملها إذا لم تكمل شخصيته الروحية والفكرية ، لأنَّ النفوذ في النفوس المكتملة شخصية والتأثير عليها والثورة على أفكارها وروحياتها ، يكون صعباً جداً (لا أقول أمراً محالاً) بخلاف ما إذا كان الواقع في إطارها صبيّاً يافعاً ، أو شاباً في عنفوان السن ، إذ عندئذ يكون قلبه وروحه كالأرض الخالية ينبت فيها ما أُلقي بها ، وعلى هذا الأساس لا يصح لنا أن نقول : إنَّ الصحبة والمجالسة وسماع بعض الآيات والأحاديث ، أو جدت ثورة عارمة في صحابة النبي صلى الله عليه وآله وأزالت شخصياتهم المكونة طيلة سنين في العصر الجاهلي ، وكوّنت منهم شخصيات عالية تعد مثلاً للفضل والفضيلة ، مع أنَّهم متفاوتون في السن ومقدار الصحبة ، مختلفون في الاستعداد والتأثر ، وحسبك أن بعضهم أسلم وهو صبيٌّ لم يبلغ الحلم ، وبعضهم أسلم وهو في أوليات شبابه ، كما أسلم بعضهم في الأربعينات والخمسينات من أعمارهم إلى أن أسلم بعضهم وهو شيخ طاعن في

ص: 443

1- التحريم : 10.

2- الأحزاب : 30.

فكما أنّهم كانوا مختلفين في السن عند الانقياد للإسلام، كذلك كانوا مختلفين أيضاً في مقدار الصحبة فبعضهم صحب النبي صلى الله عليه وآله من بدء البعثة إلى لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة، وربما أدركوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أياماً أو ساعة، فهل يصح أن نقول: إنّ صحبة ما قلعت ما في نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات رديئة وكوّنت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا في إطار التعديل والجرح؟

إنّ تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلّهم أشبه شيء بمادة كيميائية تستعمل في تحليل عنصر كالتحليل إلى عنصر آخر كالذهب، فكانّ الصحبة قلبت كلّ مصاحب إلى إنسان مثالي يتحلّى بالعدالة، وهذا ممّا يرده المنطق والبرهان السليم، وذلك لأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الإعجاز (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (1)، بل قام بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الحقّ وصحبهم في بوتقات الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والإمكانات الموجودة، كتلاوة القرآن الكريم، والنصيحة بكلماته النافذة وسلوكه القويم، وبعث رسله، ودعاة دينه إلى الأقطار، ونحو ذلك، والدعوة القائمة على هذا الأساس، يختلف أثرها في النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابليتها، فلا يصح لنا أن نرmi الجميع بسهم واحد.

إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة: أنّ الأصول التربوية تقضي بأنّ بعض الصحابة يمكن أن يصل في قوّة الإيمان ورسوخ العقيدة إلى درجات عالية، كما

ص: 444

يمكن أن يصل بعضهم في الكمال والفضيلة إلى درجات متوسطة ، ومن الممكن أن لا يتأثر بعضهم بالصحة وسائر العوامل المؤثرة إلا شيئاً طفيفاً لا يجعله في صفوف العدول وزمرة الصالحين.

هذا هو مقتضى التحليل حسب الأصول النفسية والتربوية غير أن البحث لا يكتمل ، ولا يصح القضاء البات إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم حتى نقف على نظره فيهم كما تجب علينا النظرة العابرة إلى كلمات الرسول في حقهم ، وملاحظة سلوكهم وحياتهم في زمنه صلى الله عليه وآله وبعده.

الصحابة في الذكر الحكيم

إشارة

نرى أن الذكر الحكيم يصنّف صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويمدحهم في ضمن أصناف تأتي ببعضها :

1. السابقون الأولون

يصف الذكر الحكيم السابقين الأولين من المهاجرين والانصار والتابعين لهم بأنّ الله رضي عنهم وهم رضوا عنه ، قال عزّ من قائل : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (1).

2. المبايعون تحت الشجرة

يصف سبحانه جماعة من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة بنزول

ص: 445

السكينة عليهم ويقول في محكم كتابه : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) (1).

3. المهاجرون

وهؤلاء الذين يصفهم تعالى ذكره بقوله : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (2).

أصحاب الفتح

هؤلاء هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في آخر سورة الفتح بقوله : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (3).

الأصناف الأخرى للصحابة

إشارة

فالناظر المخلص المتجرد عن كل رأي مسبق ، يجد في نفسه تكريماً لهؤلاء

ص: 446

1- الفتح : 18.

2- الحشر : 8.

3- الفتح : 29.

الصحابة غير أن القضاء البات في عامة الصحابة ، يستوجب النظر إلى كل الآيات القرآنية الواردة في حقهم ، فعندئذ يتبين لنا أن هناك أصنافاً أخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها ، تمنعنا من أن نضرب الكل بسهم واحد ، ونصف الكل بالرضا والرضوان ، وهذا الصنف من الآيات يدل بوضوح على وجود مجموعات من الصحابة تضاد الأصناف السابقة في الخلقيات والملكات والسلوك والعمل ، وإليك قسطاً منهم :

1. المنافقون المعروفون

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت في حقهم سورة « المنافقون » ، قال سبحانه : (إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ قَالُوا نَسَّ هَدًى إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَأَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ ...) (إلى آخر سورة المنافقون).

فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك وكان لهم شأن ، فنزلت سورة قرآنية كاملة في حقهم.

2. المنافقون المختفون

تدل بعض الآيات على أنه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة ، جماعة مردوا على النفاق وكان النبي الأعظم لا يعرف بعضهم ، ومن تلك الآيات قوله سبحانه : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا(1) عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ(2)).

ص: 447

1- مردوا على النفاق : تمرنوا وتمرسوا عليه.

2- التوبة : 101.

لقد أعطى القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرّب عن نواياهم ونَدَّد بهم في السور التالية: البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، محمد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، والمنافقون.

وهذا ان دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ المنافقين كانوا جماعة هائلة في المجتمع الإسلامي بين معروف، عرف بسمة النفاق ووصمة الكذب، وغير معروف بذلك مُتَّع بقناع التظاهر بالإيمان والحب للنبي، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة في القرآن الكريم وهناك ثلثة من المحقّقين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات، وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليهم فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم (1). وهذا ان دلّ على شيء فإنّما يدل على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك في المجتمع الإسلامي، وعلى ذلك لا يصح لنا الحكم بعدالة كل من صحب مع غض النظر عن تلك العصاة المجرمة، المتظاهرة بالنفاق أو المخفية في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله.

3. مرضى القلوب

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين، بل كانوا يتلونهم في الروحيات والملكات مع ضعف في الإيمان والثقة بالله ورسوله صلى الله عليه وآله، قال سبحانه بحقهم: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) (2).

فأتى لنا أنّ نصف مرضى القلوب الذين ينسبون خلف الوعد إلى الله سبحانه وإلى رسوله صلى الله عليه وآله بالتقوى والعدالة؟

ص: 448

1- النفاق والمنافقون: تأليف الأستاذ إبراهيم علي سالم المصري.

2- الأحزاب: 12.

4. السَّمَاعُونَ

تلك المجموعة كانت قلوبهم كالريشة في مهب الريح تتمايل تارة إلى هؤلاء ، وأخرى إلى أولئك بسبب ضعف إيمانهم ، وقد حذر الباري عز وجل المسلمين منهم حيث قال عز من قائل ، واصفاً إياهم بالسَّمَاعُونَ لأهل الريب : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَاتَبْتُمْ قُلُوبَهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّحَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (1) ، وذيل الآية دليل على كون السَّمَاعِينَ من الظالمين لا من العدول.

5. خالطوا العمل الصالح بالسيء

وهؤلاء هم الذين يقومون بالصلاح والفلاح تارة ، والفساد والعبث مرة أخرى ، فلأجل ذلك خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيئ ، قال سبحانه : (وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) (2).

6. المشرفون على الارتداد

إن بعض الآيات تدل على أن مجموعة من الصحابة كانت قد أشرفت على الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر ، وكانت الحرب بينهم وبين قريش طاحنة فأحسوا بضعفهم ، وقد أشرفوا على الارتداد عرفهم الحق سبحانه بقوله : (وَطَائِفَةٌ

ص: 449

1- التوبة : 45 - 47.

2- التوبة : 102.

قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا (1).

7. الفاسق

إنّ القرآن الكريم يحثّ المؤمنين وفي مقدمتهم الصحابة الحضور ، على التحرز من خبر الفاسق حتى يتبين ، فمن هذا الفاسق الذي أمر القرآن بالتحرز منه ؟ اقرأ أنت ما نزل حول الآية من شأن النزول واحكم بما هو الحق ، قال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (2).

فإنّ من المجمع عليه بين أهل العلم أنّه نزل في حق الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وذكره المفسرون في تفسير الآية ، فلا نحتاج إلى ذكر المصادر.

كما نزل في حقه قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ) (3). نقل الطبري في تفسيره باسناده أنّه كان بين الوليد وعلي ، كلام فقال الوليد : أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأرد منك للكتيبة ، فقال علي عليه السلام : « اسكت فإنك فاسق » فأنزل الله فيهما : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ) (4).

وقد نظم الحديث حسان بن ثابت (شاعر عصر الرسالة) وقال :

ص: 450

1- آل عمران : 154.

2- الحجرات : 6.

3- السجدة : 18.

4- تفسير الطبري : 62 / 21 ; تفسير ابن كثير : 462 / 3.

أنزل الله والكتاب عزيز *** في علي وفي الوليد قرآنا

فتبوا الوليد إذ ذاك فسقا *** وعلي مبراً إيماناً

ليس من كان مؤمناً عرف *** الله كمن كان فاسقاً خوَّاناً

سوف يدعى الوليد بعد قليل *** وعلي إلى الحساب عياناً

فعلي يجزى بذاك جناناً *** ووليد يجزى بذاك هواناً (1)

أفهل يمكن لباحث حر ، التصديق بما ذكره ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر وفي مقدمتهم أبو زرعة الرازي الذي هاجم المتنفحّصين المحققين في أحوال الصحابة واتّهمهم بالزندقة.

8. المسلمون غير المؤمنين

إنّ القرآن يعد جماعة من الأعراب الذين رأوا النبي وشاهدوه وتكلّموا معه ، مسلمين غير مؤمنين وأنّهم بعد لم يدخل الإيمان في قلوبهم قال سبحانه : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (2).

أفهل يصح عد عصابة غير مؤمنين من العدول الأتقياء؟!

9. المؤلّفة قلوبهم

اتفق الفقهاء على أنّ المؤلّفة قلوبهم ممّن تصرف عليهم الصدقات ، قال

ص: 451

1- تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي : 115 ; « كفاية » الكنجي : 55 ; مطالب السؤول : 20 ; شرح النهج : 2 / 103 ، الطبعة القديمة ;

جمهرة الخطب : 2 / 23 ; لاحظ الغدير : 2 / 42.

2- الحجرات : 14.

سبحانه : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (1).

والمراد من (وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) : الذين كانوا في صدر الإسلام ممن يظهرون الإسلام ، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم ، وهناك أقوال أخرى فيهم متقاربة ، والكل يهدف إلى الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء (2).

10. المولون أمام الكفار

إن التولي عن الجهاد والفرار منه ، من الكبائر الموبقة التي ندد بها سبحانه بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَن يُولِهِمْ يُؤْمِنُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (3).

إن التحذير من التولي والفرار من الزحف ، والحث على الصمود أمام العدو ، لم يصدر من القرآن إلا بعد فرار مجموعة كبيرة من صحابة النبي في غزوة « أحد » و « حنين ».

أما الأول ، فيكفيك قول ابن هشام في تفسير الآيات النازلة في أحد ، قال : ثم أنبهم بالفرار عن نبيهم وهم يدعون ، لا يعطفون عليه لدعائه إياهم فقال :

ص: 452

1- التوبة : 60.

2- تفسير القرطبي : 8 / 187. لاحظ المغني لابن قدامة : 2 / 556.

3- الأنفال : 15 - 16.

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ) .

وأما الثاني : فقد قال ابن هشام فيه أيضاً : فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله من جفأة أهل مكة ، الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وصرخ جبلة بن حنبل : ألا بطل السحر اليوم ... (1).

أبعد هذا يصح أن يعد جميع الصحابة بحجة أنهم رأوا نور النبوة عدولاً أتقياء!؟

قال القرطبي في « تفسيره » قد فرّ الناس يوم « أحد » وعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين : (ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ) ثم ذكر فرار عدة من أصحاب النبي من بعض السرايا (2).

هذا الإمام الواقدي يرسم لنا تولّي الصحابة منهزمين ويقول : فقالت أم الحارث فمر بي عمر بن الخطاب ، فقالت أم الحارث : يا عمر ما هذا ؟ فقال عمر : « أمر الله » ، وجعلت أم الحارث تقول : يا رسول الله من جاوز بعيري فاقتله (3).

هذه هي الأصناف العشرة من صحابة النبي ممّن لا يمكن توصيفهم بالعدالة والتقوى ، أتينا بها في هذه العجالة مضافاً إلى الأصناف المضادة لها ، ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى الآيات الواردة في أوائل سورة البقرة وسورة النساء

ص: 453

1- سيرة ابن هشام : 3 / 114 و 4 / 444. ولاحظ التفاسير.

2- تفسير القرطبي : 7 / 383.

3- مغازي الواقدي : 3 / 904. انّ تعليق الفرار عن الزحف بقضاء الله كتعليق عباد الأوثان شركهم به كما في قوله سبحانه حاكياً عن المشركين : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا) (الأنعام : 148) وتلزم من ذلك تبرئة العصاة والكفار ، لأن أعمالهم كلّها بقضاء منه.

وغيرها من الآيات القرآنية، فترى فيها أنّ الإيمان بعدالة الصحابة مطلقاً خطأ في القول، وزلة في الرأي، يضاد نصوص الذكر الحكيم، ولم يكن الصحابة إلا كسائر الناس، فيهم صالح تقي بلغ القمة في التقى والنزاهة، وفيهم طالح شقي سقط إلى هوة الشقاء والدناءة، ولكن الذي يميّز الصحابة عن غيرهم أنّهم رأوا نور النبوة وتشرفوا بصحبة النبي صلى الله عليه وآله وشاهدوا معجزاته في حلبة المباراة بأمر أعينهم، ولأجل ذلك تحمّلوا مسؤولية كبيرة أمام الله وأمام رسوله وأمام الأجيال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فإنّهم ليسوا كسائر الناس فزيغهم وميلهم عن الحق أشد لا يعادل زيغ أكثر الناس وانحرافهم، وقد قال سبحانه في حق أزواج النبي صلى الله عليه وآله: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ) (1)، فلو انحرف هؤلاء فقد انحرفوا في حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة، وشتان الفرق بينهم وبين غيرهم.

الصحابة في السنّة النبوية

إذا راجعنا الصحاح والمسانيد نجد أنّ أصحابها أفردوا باباً بشأن فضائل الصحابة، إلا أنّهم لم يفرّدوا باباً في مثالبهم، بل أقحموا ما يرجع إلى هذه الناحية في أبواب آخر ستراً لمثالبهم، وقد ذكرها البخاري في الجزء التاسع من صحيحه في باب الفتن، وأدرجها ابن الأثير في جامعهم في أبواب القيامة عند البحث عن الحوض، والوضع الطبيعي لجمع الأحاديث وترتيبها كان يقتضي عقد باب مستقل للمثالب في جنب الفضائل حتّى يطّلع القارئ على قضاء السنّة حول صحابة النبي الأكرم.

روى أبو حازم، عن سهل بن سعد قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: « أنا فرطكم على

ص: 454

الحوض من ورد شرب ، ومن شرب لم يظماً أبداً ، وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ... » قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم بهذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم. قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : « إثم مني » ، فيقال : إثمك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : « سحناً سحناً لمن بدّل بعدي ». أخرجه البخاري ومسلم (1).

وظاهر الحديث أنّ المراد بقريظة « بدّل بعدي » أصحابه الذين عاصروه وصحبوه وكانوا معه مدة ثم مضوا.

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي - أوقال من أمّتي - فيحلّون عن الحوض ، فأقول : يارب أصحابي ، فيقول : إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقري » (2).

ثم قال : وللبخاري : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلّم ، فقلت : أين ؟ فقال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقري ، ثم إذا زمرة أخرى حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال لهم : هلّم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم قد ارتدّوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم » (3).

ص: 455

-
- 1- جامع الأصول : 11 / 120 ، الحديث 7972 ، كتاب الحوض في ورود الناس عليه. و « الفرط » : المتقدّم قومه إلى الماء ويستوي فيه الواحد والجمع ، يقال رجل فرط وقوم فرط.
 - 2- جامع الأصول : 11 / 120 ، الحديث 7973.
 - 3- جامع الأصول : 11 / 121. و « همل النعم » كناية عن أنّ الناجي عدد قليل.

وظاهر الحديث بقرينة « حتى إذا عرفتهم » وقوله : « ارتدوا على أذارهم الفهقري » أن الذين أدركوا عصره وكانوا معه هم الذين يرتدون بعده.

الصحابة والتاريخ المتواتر

كيف يمكن عد الصحابة جميعاً عدولاً والتاريخ بين أيدينا نرى أن بعضهم ظهر عليه الفسق في حياة النبي وبعدها كوليده بن عقبة.

أما ظهور الفسق في حياة النبي صلى الله عليه وآله : فقد عرفت نزول الآية في حقه.

وأما ظهوره بعدها : فقد روى أصحاب السير والتاريخ أن الوليد بن عقبة أيام ولايته بالكوفة شرب الخمر ، وقام ليصلي بالناس صلاة الفجر ، فصلّى أربع ركعات وكان يقول في ركوعه وسجوده : اشربي واسقني ، ثم قام في المحراب ، ثم سلم وقال : هل أزيدكم ، إلى آخر ما ذكره (1).

وبعضهم ظهرت عليه سمة الارتداد عندما بدت علائم الهزيمة عند المسلمين فقال : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر (2). وقال الآخر : ألا بطل السحر اليوم (3).

وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطب ذي الخويصرة عندما قال للنبي في تقسيم غنائم حنين : اعدل بقوله : « ويحك إن لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ » ثم قال : « فانه يكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية » (4).

ص: 456

-
- 1- الكامل : 2 / 42 ; أسد الغابة : 5 / 91 وغيرهما. وقد أقام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عليه الحد خلافة عثمان بإصرار من الناس وإلحاح منهم لئلا تتعطل الحدود.
 - 2- سيرة ابن هشام : 4 / 86 ، والقائل أبو سفيان.
 - 3- سيرة ابن هشام : 4 / 86 ، والقائل كلدّة ابن الحنبل ، فقال له صفوان : اسكت فض الله فاك.
 - 4- سيرة ابن هشام : 4 / 139.

وهذا أبو سفيان يضرب برجله قبر حمزة عليه السلام ويقول: إنَّ الملك الذي كُنَّا نتنازع عليه أصبح اليوم بيد صبيانا (1).

وهذا أبو سفيان عندما بويع عثمان ، دخل إليه بنو أبيه حتَّى امتلأت بهم الدار ثم أغلقوها عليهم ، فقال أبو سفيان : أعندكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، قال : يا بني أُمية تلقَّفوها تلقَّف الكرة ، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة (2).

أفهل بعد كلمات الردة الخبيثة هذه يصح لمسلم أن يعد هؤلاء وأمثالهم من صنف العدول وطبقة الصالحين وبعد جرحهم إبطالاً للكتاب والسنة وتضعيفاً لشهود المسلمين؟!!!

آراء الصحابة بعضهم حول بعض

النظرة العابرة إلى تاريخ الصحابة تقضي بأنَّ بعضهم كان يتهم الآخر بالنفاق والكذب ، كما أنَّ بعضهم يقاتل بعضاً ، ويقود جيشاً لمحاربتة ، فقتل بين ذلك جماعة كثيرة ، أفهل يمكن تبرير أعمالهم من الشاتم والمشتوم ، والقاتل والمقتول ، عدولاً ومثل للفضل والفضيلة ، وإليك نزراً يسيراً من تاريخهم ممَّا حفظته يد النقل غفلة عن المبادئ العامة لأصحاب الحديث :

1. روى البخاري مشاجرة سعد بن معاذ مع سعد بن عبادة سيد الخزرج في قضية الإفك ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعدا يومئذ من عبد الله ابن أبي وهو على المنبر فقال : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في

ص: 457

1- قاموس الرجال : 10 / 89 ، نقلاً عن الشرح الحديدي.

2- الشرح الحديدي : 9 / 53 ، نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري.

أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرک ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ، ففعلنا أمرک ، فقام رجل من الخزرج - وهو سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد - فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله ، فأتك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت (1).

اقرأ فاقض ، فإن هؤلاء يتهم بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق ، ونحن نعتبرهم عدولاً صلحاء ، والإنسان على نفسه بصيرة .

2. إن الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم وحتى الثورة التي أقامها أصحاب النبي ومن اتبعهم على عثمان بن عفان وجرت إلى قتله أفضل دليل على أنه لا يصح تعريف الصحابة وتوصيفهم بالعدالة والتقوى ، إذ كيف يصح أن يكون القاتل والمقتول على الحق والعدالة .

وهذا هو طلحة وهذا الزبير قد جهّزا جيشاً جرّاراً لحرب الإمام علي عليه السلام وأعانتها أم المؤمنين ، فقتلت جماعة كثيرة بين ذلك ، فهل يمكن تعديل كل هذه الجماعة حتى الباغين على الإمام المفترض الطاعة بالنص أولاً ، وبيعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً؟!

ص: 458

1- صحيح البخاري : 5 / 151 - 152 ، في تفسير سورة النور .

وهذا معاوية بن أبي سفيان يعد من الصحابة وقد صنع بالإسلام والمسلمين ما قد صنع ممّا هو مشهور في التاريخ ، ومن ذلك أنّه حارب الإمام علياً عليه الصلاة والسلام في صفين ، وكان مع علي كل من بقي من البدرين وهم قريب من مائة شخص ، فهل من حارب هؤلاء الصحابة جميعاً بما فيهم سيد الصحابة علي عليه السلام يعد من أهل الفضل والصلاح والعدالة؟! فاقض ما أنت قاض.

نقل صاحب المنار : إنّ قال أحد علماء الألمان في « الاستانة » لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : إنّ ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا « برلين » ، قيل له : لماذا؟ قال : لأنّه هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب (الملك لمن غلب) ولولا ذلك ، لعم الإسلام العالم كله ، ولكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا عرباً مسلمين (1).

هذا خال المؤمنين الذي يترحم عليه خطباء الجمعة والجماعة ، فكيف حال غيره؟! أضف إليه ما له من الموبقات والمهلكات ممّا لا يمكن لأحد إنكاره ، والاعتذار منه في تبرير أعماله القاسية باجتهاده في ما ناء به وباء بإثمه من حروب دامية وإزهاق نفوس بريئة تعد بالآلاف المؤلفة ليس إلا ضلالة وخداعاً للعقل ، فإنّه اجتهاد على خلاف الله وضد رسوله ، وإلا يصحّ أن يعد جميع المناوئين للإسلام مجتهدين في صدر الإسلام ومؤخّره.

هذا مجمل القول في هذا الأصل الذي اتّخذ أصحاب الحديث أصلاً من أصول الإسلام ، ثم أدخله الأشعري في الأصول التي يتبناها أكثر أهل السنّة والجماعة.

ص: 459

1- تفسير المنار : 11 / 269 ، في تفسير سورة يونس.

وما أتفه قول من يريد تبرير عمل هؤلاء بالاجتهاد ، وأنهم كانوا مجتهدين في أعمالهم وأفعالهم ، أهل يصحّ تبرير عمل القتل والفتك والخروج على الإمام المفترضة طاعته ، بالاجتهاد؟! ولو صحّ هذا الاجتهاد (ولن يصحّ أبداً) لصحّ من كل من خالف الحق وحالف الباطل من اليهود والنصارى وغيرهم من الطغام اللئام.

أيّ قيمة للاجتهاد في قبال النصّ وصريح السنّة النبوية وإجماع الأمة. أيّ قيمة للاجتهاد الذي أباح دماء المسلمين ودمر كياناتهم وشق عصاهم وفكك عرى وحدته ، أيّ ، أيّ ، أيّ ، أيّ؟!!!

إنّ القائلين بعدالة الصحابة يتمسكون بما يروون عن النبي أنّه قال : أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم (1). غير أنّ متن الحديث يكذب صدوره عن النبي ، إذ ليس كل نجم هادياً للإنسان في البر والبحر ، بل هناك نجوم خاصة موجبة للاهتداء ، ولأجل ذلك قال سبحانه : (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (2).

ولم يقل « وبالنجوم يهتدون » ، ولو كان كل نجم هادياً للضال لكان الأنسب الإتيان بصيغة الجمع ، ولو افترضنا صحة الاهتداء بكل نجم في السماء ، أهل يمكن أن يكون كل صحابي نجماً لامعاً في سماء الحياة ، هادياً للأمة؟!!!

هذا قدامة بن مظعون صحابي بدري يعد من السابقين الأولين ومن

ص: 460

1- جامع الأصول : 9 / 410 ، الحديث 6359 ، كتاب الفضائل.

2- النحل : 16.

المهاجرين هجرتين ، روي أنه شرب الخمر وأقام عليه عمر الحد (1).

كما أن المشهور أن عبد الرحمن الأصغر بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر (2).

وقد ارتد طلحة بن خويلد عن الإسلام وادّعى النبوة ، ومثله مسيلمة بن العنسي الكذاب وأمرهما أشهر من أن يذكر.

إنّ بعض الصحابة خضب وجه الأرض بالدماء ، فاقراً تاريخ بسر بن أرطاة حتّى أنّه قتل طفلين لعبيد الله بن عباس . وكم وكم بين الصحابة ليدّة هؤلاء من رجال العبث والفساد قد احتفل التاريخ بضبط مساوئهم ، أفبعد هذه البيّنات يصحّ لأيّ ابن أنثى أن يتقولّ بعدالة الصحابة مطلقاً ويتخذها مذهباً ويرمي المخالف له ، بما هو بري منه !؟

والنظرية القويمة المستقيمة هي نظرية الشيعة المنعكسة في الدعاء المروي عن الإمام الطاهر علي بن الحسين عليهما السلام ترى أنّه يدعو الله سبحانه في حق أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، لا لكلّهم ، بل للذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره ، والذين عاضدوه وأسرعوا إلى وفادته ، وإليك تلك الكلمات المباركة من الصحيفة السجادية :

« اللهم وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله خاصة الذين أحسنوا الصحبة ، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره ، وكانقوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسابقوا إلى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته ، يرجون

ص: 461

1- أسد الغابة : 4 / 199 ، وسائر الكتب الرجالية.

2- نفس المصدر : 3 / 312.

تجارة لن تبور في مودته ، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته ، وانتفت منهم القربات إذ سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك ، وارضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك ، دعاة لك إليك ، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم ، اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا ... » (1).

خاتمة المطاف

إنّ لأبي المعالي الجويني كلاماً حول الصحابة دعا فيه إلى أنّ الواجب ، الكف والإمسك عن الصحابة وعمّا شجر بينهم ، نقله الشارح الحديدي في شرحه على نهج البلاغة كما نقل نقد بعض الزيدية له ، الذي سمعه من أستاذه النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري في سنة إحدى وعشرة وستمئة ببغداد وعنده جماعة ، وما نقله عن أستاذه رسالة مبسوبة في الموضوع فيها نكات بديعة لا يسعنا إيرادها في المقام ولذلك نقتبس بعضها ، وقد نقل فيها قضايا تعرب عن جريان السيرة على النقد والرد والمشاجرة ، وإليك بعضها :

1. هذه عائشة أم المؤمنين خرجت بقميص رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت للناس : هذا قميص رسول الله لم يبيل ، وعثمان قد أبلى سنته ، ثم تقول : اقتلوا نعثلاً ، قتل الله نعثلاً ، ثم لم ترض بذلك حتى قالت : أشهد أنّ عثمان جيفة على الصراط غدا.
2. هذا المغيرة بن شعبة وهو من الصحابة ، ادّعي عليه الزنا وشهد عليه قوم بذلك ، فلم ينكر ذلك عمر ولا قال : هذا محال وباطل ، لأنّ هذا صحابي من

ص: 462

صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز عليه الزنا ، وهلا أنكر عمر على اليهود وقال لهم : ويحكم هلا تغافلتم عنه لمارأيتموه يفعل ذلك ، فإن الله تعالى قد أوجب الإمساك عن مساوئ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأوجب الستر عليهم؟! وهلا تركتموه لرسول الله في قوله دعوا لي أصحابي؟! ما رأينا عمر إلا قد انتصب لسماع الدعوى وإقامة الشهادة وأقبل يقول للمغيرة : يا مغيرة ذهب ربعك ، يا مغيرة ذهب نصفك ، يا مغيرة ذهب ثلاثة أرباعك حتى اضطرب الرابع ، فجلد الثلاثة ، وهلا قال المغيرة لعمر : كيف تسمع في قول هؤلاء وليسوا من الصحابة وأنا من الصحابة ورسول الله صلى الله عليه وآله قد قال : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ؟ ما رأيناه قال ذلك ، بل استسلم لحكم الله تعالى.

3. وهاهنا ، من هو أمثل من المغيرة وأفضل ، كقدامة بن مظعون ، لما شرب الخمر في أيام عمر فأقام عليه الحد ، وهو رجل من عليّة الصحابة ، ومن أهل بدر المشهود لهم بالجنة ، فلم يرد عمر الشهادة ولا درأ عنه الحد ، لعلّه أنّه بدري ، ولا قال قد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذكر مساوئ الصحابة ، وقد ضرب عمر أيضاً ابنه حداً فمات ، وكان ممن عاصر رسول الله صلى الله عليه وآله ولم تمنعه معاصرته له من إقامة الحد عليه.

4. كيف يصحّ أن يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، لأنّ هذا يوجب أن يكون أهل الشام في صفين على هدى ، وأن يكون أهل العراق أيضاً على هدى ، وأن يكون قاتل عمار بن ياسر مهتدياً ، وقد صحّ الخبر الصحيح أنّه صلى الله عليه وآله قال له : « تقتلك الفئة الباغية » ، وقال الله سبحانه : (فَقاتِلُوا الّتي تَبغِي حَتّى تَقِيءَ إلى أمرِ اللّهِ) (1) ، فدلّ على أنّها ما دامت موصوفة

ص: 463

بالمقام على البغي مفارقة لأمر الله ، ومن يفارق أمر الله لا يكون مهتدياً ، وكان يجب أن يكون بسر بن أرطاة الذي ذبح ولدي عبيد الله بن عباس الصغيرين ، مهتدياً ، لأنَّ بسراً من الصحابة أيضاً ، وكان يجب أن يكون عمرو بن العاص ومعاوية اللذان كانا يلعانان علياً وولديه أدبار الصلاة ، مهتدين ؛ وقد كان في الصحابة من يزني ، ومن يشرب الخمر ، كأبي محجن الثقفي ؛ ومن يرتد عن الإسلام ، كطليحة بن خويلد ، فيجب أن يكون كل من اقتدى بهؤلاء في أفعالهم مهتدياً.

5. هذا الحديث (أصحابي كالنجوم) من موضوعات متعصبة الأموية ، فإنَّ لهم من ينصرهم بلسانه وبوضعه الأحاديث ، إذا عجز عن نصرهم بالسيف ، وكذا القول في الحديث الآخر وهو قوله : « القرن الذي أنا فيه » ومما يدل على بطلانه أنَّ القرن الذي جاء بعده بخمسين سنة ، شر قرون الدنيا ، وهو أحد القرون التي ذكرها في النص ، وكان ذلك القرن هو القرن الذي قتل فيه الحسين ، وأوقع بالمدينة ، وحوصرت مكة ، ونقضت الكعبة ، وشربت خلفاؤه والقائمون مقامه المنتصبون في منصب النبوة ، الخمر وارتكبوا الفجور ، كما جرى ليزيد بن معاوية وليزيد بن عاتكة ولوليد بن يزيد ، وأريقتم الدماء الحرام ، وقتل المسلمون وسبي الحريم ، واستعبد أبناء المهاجرين والأنصار ، ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدي الروم ، وذلك في خلافة عبد الملك ، وإمرة الحجاج ، وإذا تأملت كتب التواريخ وجدت الخمسين الثانية ، شراً كلها لا خير فيها ولا في رؤسائها وأمرائها ، والناس برؤسائهم وأمرائهم ، والقرن خمسون سنة فكيف يصحَّ هذا الخبر؟!

6. فأما ما ورد في القرآن من قوله تعالى : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) (1) ، وقوله : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) (2) ، وقول النبي صلى الله عليه وآله :

ص: 464

1- الفتح : 18.

2- الفتح : 29.

« إنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ » إنَّ كَانَ الْخَبْرَ صَحِيحاً فَكَلَهُ مَشْرُوطٌ بِسَلَامَةِ الْعَاقِبَةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَخْبَرَ الْحَكِيمُ مَكْلُفًا غَيْرَ مَعْصُومٍ ، بَأَنَّهُ لَا عِقَابَ فِيهِ فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ .

7. من الَّذِي يَجْتَرِئُ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا تَجُوزُ الْبِرَاءَةُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَإِنْ أَسَاءَ وَعَصَى بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّذِي شَرَّفُوا بِرُؤْيَيْهِ : (لَيْسَ أَشْرَكَتَ لِي حَبْطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (1) ، وَبَعْدَ قَوْلِهِ : (قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (2) ، وَبَعْدَ قَوْلِهِ : (فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (3) ، إِلَّا مِنْ لَا فَهْمَ وَلَا نَظَرَ مَعَهُ وَلَا تَمَيِّزَ عِنْدَهُ .

8. وَالْعَجَبُ مِنَ الْحَشْوِيَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ إِذْ يَجَادِلُونَ عَلَى مَعَاصِي الْأَنْبِيَاءِ وَيُثَبِّتُونَ أَنََّّهُمْ عَصَوْا اللَّهَ تَعَالَى ، وَيَنْكُرُونَ عَلَى مَنْ يَنْكُرُ ذَلِكَ وَيَطْعَنُونَ فِيهِ وَيَقُولُونَ : قَدْرِي ، مَعْتَزَلِي ، وَرَبِّمَا قَالُوا مَلْحَدٌ مُخَالَفٌ لِنَصِّ الْكِتَابِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمْ الْوَاحِدَ وَالْمِائَةَ وَالْأَلْفَ يَجَادِلُ فِي هَذَا الْبَابِ فَتَارَةً يَقُولُونَ : إِنَّ يَوْسُفَ قَعَدَ مِنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : إِنَّ دَاوُدَ قَتَلَ أُورِيَّا لِيَنْكَحَ امْرَأَتَهُ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ كَافِرًا ضَالًّا قَبْلَ النَّبُوَّةِ ، وَرَبِّمَا ذَكَرُوا زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَقِصَّةَ الْفِدَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَمَّا قَدْحُهُمْ فِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِثْبَاتُهُمْ مَعْصِيَتَهُ وَمَنَاظَرَتُهُمْ مَنْ يَنْكُرُ ذَلِكَ ، فَهُوَ رَأْيُهُمْ وَدَيْدَنُهُمْ ، فَإِذَا تَكَلَّمَ وَاحِدٌ فِي « عَمْرُوبِ بْنِ الْعَاصِ » وَفِي « مَعَاوِيَةَ » وَأَمْثَالَهُمَا وَنَسَبَهُمْ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَفَعَلَ الْقَبِيحَ أَحْمَرَتْ وَجُوهَهُمْ ، وَطَالَتْ أَعْنَاقُهُمْ وَتَخَاذَرَتْ أَعْيُنُهُمْ ، وَقَالُوا : مَبْتَدَعٌ ، رَافِضِيٌّ ، يَسِبُ

ص: 465

1- الزمر : 65.

2- الأنعام : 15.

3- ص : 26.

الصحابة ويشتم السلف.

فإن قالوا: إنما أتبعنا في ذكر معاصي الأنبياء نصوص الكتاب.

قيل لهم: فاتبعوا في البراءة عن جميع العصاة نصوص الكتاب، فإنه تعالى قال: (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (1)، وقال: (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) (2)، وقال: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (3). (4)

قتل الخليفة المفترض الطاعة

قد تصافق أهل السير والتاريخ أنّ عثمان بن عفان قد حوَّصر ثم هوجم وقتل في عاصمة الإسلام، وقد قتله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، حتَّى منعوا عن تجهيزه وتغسيله ودفنه والصلاة عليه، وهذا إمام المؤرخين يتلو علينا كيفية الإجهاز عليه والهجوم على داره بعد محاصرته قرابة أربعين يوماً.

يقول الطبري: دخل محمد بن أبي بكر على عثمان فأخذ بلحيته... ثم دخل الناس، فمنهم من يجأ بنعل سيفه، وآخر يلكزه، وجاء رجل بمشاقص معه فوجأه في ترقوته، ودخل آخرون فلما رأوه مغشياً عليه جروا برجله، وجاء التجيبي مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه، فوقته نائلة فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه في صدره، وقتل عثمان رضى الله عنه قبل غروب الشمس.

ص: 466

1- المجادلة: 22.

2- الحجرات: 9.

3- النساء: 59.

4- الشرح الحديدي: 12 / 20 - 30 والرسالة مبسطة مفصلة، أخذنا المهم منها.

وفي نص آخر يقول : طعن محمد بن أبي بكر جنبيه بمشقص في يده ، وضرب كنانة بن بشر مقدم رأسه بعمود ، وضربه سودان بن حمران المرادي بعد ما خر لجبينه ، ووثب عمرو بن الحمق فجلس على صدره وبه رمق قطعنه تسع طعنات ، إلى آخر ما ذكره (1).

وقد وقعت الواقعة بمرأى ومسمع من معظم الصحابة وليس لأحد أن يتفوه أنّهم لم يكونوا عالمين بها ، فإنّها ما كانت مباغته ولا غيلة حتّى يكونوا في غفلة عنها ، وقد استدام الحوار أكثر من شهرين والحصر حوالي أربعين يوماً ، كل ذلك يعرب عن أنّهم كانوا راضين بهذه الاحدوثة ، لو لم نقل أنّهم كانوا بين مباشر لها ، إلى خاذل للمودي به ، إلى مؤلّب عليه ، إلى مشبط عنه ، إلى راض بما فعلوا ، إلى محبّد لتلك الأحوال ، كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الدار وقتل الخليفة متجرّداً عن أهواء وميول أموية.

فعندئذ يدور الأمر بين أمرين بأيّهما أخذنا يبطل الأصل المزعوم من عدالة الصحابة أجمع.

فإن كان الخليفة ، قائماً على جادة الحق غير مائل عن الطريقة المثلى ، فالمجهزون على قتله والناصرين له فساق ان لم نقل أنّهم مرّاق عن الدين لخروجهم على الإمام المفترضة طاعته.

وإن كان مانئاً عن الحق ، منحرفاً عن الطريقة المثلى ، مستحقاً للقتل ، فما معنى القول بعدالة الصحابة كلهم من إمامهم إلى مأمومهم ؟

وأما تبرير عمل المجهزين عليه ، والهاجمين على داره بأنّهم كانوا عدولاً

ص: 467

خاطئين في اجتهادهم ، فهو خداع وضلال وتمهّل لا- يصار إليه ، ولا يركن إليه أيّ ذو مسكة من العقل إذ أيّ قيمة لاجتهادهم ، تجاه نصوص الكتاب العزيز ، قال عز من قائل : (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) (1).

هذا غيظ من فيض ، وقليل من كثير من تاريخ الصحابة وأحوالهم ، وهي مشحونة بالصواب والخطأ والهدى والضلال ، ضعه أمام عقلك وفكرك ، فاقض ما أنت قاض ولا تتبع الأهواء.

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (2).

عثرة لا تقال

لما انتهت محاضراتنا في البحث عن عدالة الصحابة وقفنا على كتاب باسم « صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأكرم » تأليف الكاتب : السيد أبو الحسن الندوي الهندي - أقال الله عثراته - وقد بالغ في الذب عن عدالتهم بملفق الكلام وتزويره ، مضافاً إلى ما فيه من بوادر وعثرات أعاد فيها ما سبقه الآخرون من رمي الشيعة الإمامية إلى نسب مفتعلة هم برآء منها ، وكأنه لم يك يحسب أن يأتي عليه يوم يناقشه قلم التنقيب أو كان غير مكترث لأية تبعة ومغبة.

وقد صاغ كتابه هذا في قالب « علم كلام جديد » لم يسبقه إليه أحد من أئمة الاعتزال وأعلام الأشاعرة ، فأصبح كحاطب ليل رزم في حزمته كل رطب ويابس ولذلك عقدنا الفصل التالي لتتبع عثراته وزلاته ، وإلى الله المشتكى.

ص: 468

1- المائدة : 32.

2- المائدة : 42.

صورتان متضادتان أو رسالتان متضادتان دراسة موجزة وتحليل رائع للشروط اللازمة للرسالة الخالدة والنبوة الدائمة

إشارة

ص: 469

1. نظريتان متضادتان حول الشعب الإيراني المسلم.
2. الحوافز التي دعت الكاتب إلى اتخاذ موقفين متضادين.
3. الملامح العامة للشعب الإيراني في الرسالة الأولى.
4. الملامح العامة المناقضة لها في الرسالة الثانية.
5. النشاطات القرآنية في الجمهورية الإسلامية.
6. موقف الكاتب من الطغمة الأثيمة وركونه إليها في حلّه وترحاله.
7. الشرط الأول للرسالة الخالدة.
8. نظرية الكاتب تواكب نظرية الملاحدة : ماركس وانجلس والبهائية.
9. النبي الأكرم كان ناجحاً في دعوته لا بمعنى عدالة كل من صحبه.
10. ارتداد الصحابة على أديارهم القهقري في الصحيحين : البخاري ومسلم.
11. الشرط الثاني للرسالة الخالدة وموقف الشيعة منه.
12. حكم الكتاب العزيز والسنة النبوية في هذا المجال.
13. الشرط الثالث للرسالة الخالدة وإصفاق الشيعة والسنة على صحته وتحققه.
14. الكتب المؤلفة بيد أعلام الشيعة في صيانة الكتاب من التحريف.
15. اعتماد الكاتب على روايات ضعاف لا قيمة لها في سوق الاعتبار.
16. نظرية قائد الثورة الإسلامية حول التحريف.
17. اقتراح للمتسرعين في الكتابة وطلب إقامة مؤتمر حر في إحدى العواصم الإسلامية.
18. الشرط الرابع للرسالة الخالدة وتحليله وما هي مشكلة المسلمين الأساسية.

إشارة

في هذه الظروف الصعبة التي تمر بها الأمة الإسلامية في كافة أرجاء العالم ويعاني فيها المسلمون من أنواع الابتلاءات والمحن ، وصلنا كتاب باسم « صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم » نشره المجمع الإسلامي العلمي في « لكهنو » في الهند عام 1405 هـ . ق - 1985 م ، أُلّف بقلم العالم الأديب السيد أبو الحسن الندوي أصلح الله حاله ، وقد ترجم الكتاب إلى لغات عديدة وتم نشره على نطاق واسع.

والنتيجة التي أُريد للقارئ أن يستنبطها من خلال سبر هذا الكتاب ، هي : أنّ هناك أمة إسلامية كبيرة باسم الشيعة الإمامية يعتقدون بأُمور - على زعم الكتاب - لا تجتمع مع شروط النبوة الخالدة والرسالة المستمرة.

والكتاب بمادته وصورته - إلا ما شذ - على غرار الرسائل الكثيرة التي أُلّفَت على مر القرون بهدف النيل من عقيدة هذه الطائفة ، والتي أُجيب عنها عشرات المرّات على أيدي المحقّقين وأصحاب البصائر ، والكل يشتمل على نبش الدفائن وإثارة الضغائن ، وما يشق به عصا المسلمين ، وتنفك به أواصر الوحدة بينهم ، مضافاً إلى التهم المفتعلة والنسب الباطلة إلى هذه الطائفة ، وكان المترقب من

كاتب مثل السيد الندوي وخاصة في ظروفنا الحساسة أن يسعى إلى تقريب الخطى بين المسلمين ، وإزالة النعرات الطائفية ذات الضرر العظيم ، والخطر الكبير على الرسالة المحمدية ، ولكن يا للأسف أنّ الكاتب أطلق عنان قلمه في بيان معتقدات هذه الطائفة وتحليلها على نحو لا يناسب مقام الكاتب المتحرّي للحقيقة.

ولعلّه كان مجبراً على اتخاذ تلك المواقف من قبل حكام المنطقة ، أعني : الذين لا يروقه انتشار الثورة الإسلامية في مناطقهم واندلاعها في بلدانهم.

وأعجب من هذا أنّ الأستاذ ألف كتيباً باسم « اسمعي يا إيران » قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران ، ونشرته دار عرفات في الهند عام 1393 هـ . ق - 1972 م ، وعندما يقارن بين محتوى الرسالتين ، يقف القارئ على التناقض الواضح بين التحليلين عن شعب واحد في فترتين متقاربتين ، وعندئذ يطرح السؤال نفسه. أنّ الرسالة الأولى كتبت ونشرت قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران ، وكان الترف والتظاهر بالسفور والخمور ، والانحراف التربوي والمظاهر اللادينية ، طاغية على المجتمع ، ومع ذلك كلّه فقد وصف الكاتب الإيرانيين حكومة وشعباً بعكس ما وصفهم بعد قيام الثورة ، فأطرى في الرسالة الأولى عليهم ، بما يناسب الحكومات المثالية ، والأمة المسلمة المتكاملة ، وعندما تحولت الملكية إلى الجمهورية الإسلامية ، تحولت تلك الصفات إلى خلافها ، وهذا من العجيب جداً؟!

وإليك خلاصة ما في الرسالة الأولى :

خاطب الأستاذ في هذه الرسالة الشعب الإيراني على وجه يستظهر منه أنّه الفيلسوف الكبير ، العارف بالداء والدواء ، يريد نصح أبنائه وتلاميذه تحت عنوان « اسمعي يا إيران » وفيها العلماء والقادة ، والحكماء والمفكّرون ، ممّن لا يشقّ غبارهم

علماً، ولا يصل الكاتب مهما جد واجتهد إلى شأوهم ومستواهم، بقوله بنص عبارته :

« كانت زيارة إيران يونان الشرق أُمّنية قديمة كانت تراود النفس ، الفضل في هذه الزيارة وما لقيه أعضاء الوفد من حفاوة بالغة من حكومة إيران الموقّرة والشعب الإيراني المسلم ، والمنظمات الدينية والعلمية والشخصيات البارزة في هذا البلد الكبير ، يرجع إلى رابطة العالم الإسلامي وكان لرئاسة مجلس الأوقاف بإيران ، الذي يشرف عليه معالي الدكتور « منوچهر آزمون » نائب رئيس وزراء إيران ، الفضل الكبير في تيسير هذه الرحلة ووضع مخطّطها ، وكانت الأيام العشرة التاريخية التي قضّاها الوفد في إيران ، حافلة بالزيارات ، واللقاءات ، والرحلات ، والمحاضرات ، وكان التنزل في « پارك هتل » أحد فنادق العاصمة الكبرى ، وقد زار الوفد خلال هذه الأيام عدداً من الوزراء الكبار نخص بالذكر منهم : عباس هويدا رئيس الوزراء ، ومعالي الأستاذ كاظم زاده وزير التعليم العالي ، ومعالي الدكتور آزمون ، فقد أقام الدكتور حفلة عشاء فاخرة ، تكريماً لأعضاء الوفد في فندق « هلتون » حضرها عدد من الوزراء ، وغيرهم .

ومن المدن التي زارها الوفد مدينة طهران وقم ومشهد واصفهان وشيراز ، وقد تجوّل الوفد في أحياء هذه المدن وزار في مدينة مشهد ضريح شاعر إيران الخالد الفردوسي ، كما زار قبر السيد علي بن موسى الرضا عليه السلام ، ولم يعرف أثراً لضريح هارون الرشيد الذي دوى اسمه في الآفاق ، كما زار قبر الشيخ مصلح الدين سعدي ، وقبر الخواجه حافظ ، وتخت جمشيد في شيراز ، وقد عقدت حكومة إيران في هذا المكان « تخت جمشيد » في العام الماضي مهرجاناً بمناسبة مرور 2500 سنة على الامبراطورية الإيرانية حضره رؤساء الجمهوريات وملوك العالم ، وأنفق

عليه الملايين من النقود، وتفاصيل هذا المهرجان لا تقل عن أساطير ألف ليلة وليلة».

ثم يقول: هذا استعراض مجمل لهذه الجولة التي كان لها صدى في القلوب والنفوس (1).

نظرتنا حول هذه الجولة

1. كان اللازم على العالم الإسلامي، العارف بحلال الإسلام وحرامه، أن يرفض ضيافة حكومة جائرة زائغة عن الحق، متسلطة على الشعب بقوة السيف ورعب الإرهاب، لأن في قبول هذه الضيافة تأييداً لها ولأهدافها، والعجب أن الأستاذ يتقبل تلك الهدية الموهوبة له ولوفده من حكومة ضالّة مضلّة، ولكنه عوض أن يرفضها، أخذ يفتخر بحفلات العشاء ومأدبات الطعام التي أُقيمت له في الفنادق الكبرى التي أسست وبنيت من دم الشعب المظلوم.

فلو كان الوفد عارفاً بوظيفته، عالماً بحدود الإسلام وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاؤوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لاستنكر هذه الضيافات الفاخرة، بدل الافتخار بها، كيف؟! وفي البلد « بطون غرثى، وأكباد حرّى، وأقدام حافية ».

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الأسوة الحسنة لكل من أراد الاقتداء به، لما بلغه أن عامله استجاب دعوة أحد الأثرياء، كتب إليه: « فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب دعوة قوم، عائلهم مجفو وغنيهم مدعو... فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشبه عليك علمه،

ص: 474

فألفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه ... هيهات ، هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطمعة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشعب ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى ، أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة *** وحولك أكباد تحنّ إلى القدّ «

2. لا يشك من طالع كتب الأستاذ أو استمع محاضراته ، أنه من المتأثرين بالوهابية ومن دعائها ، ومن المعلوم أنّ الوهابية تعتقد بحرمة شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة المعروفة ، تمسكاً بالحديث النبوي : « لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ».

ولكن نسال الأستاذ وأعضاء الوفد كيف شدّوا الرحال إلى زيارة قبور أبي حامد الغزالي ، وسعدي الشيرازي ، وخواجه حافظ الدين وقد دفنوا في مشارق إيران ومغربها ، فقد تجوّل الوفد لزيارة هذه القبور من العاصمة إلى الشرق ، ومنه إلى الجنوب ، ما هذا التناقض بين العقيدة والعمل ، والفكرة والتطبيق ، أفهل يسوغ شدّ الرحال إلى زيارة الشعراء وأصحاب الملحقات ، ويحرم شدّها إلى زيارة ضريح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؟!!

وأعجب منه أنّ الأستاذ اشتاق إلى زيارة ضريح هارون الرشيد الذي سمّ الإمام الطاهر موسى بن جعفر عليه السلام وحبس كثيراً من العلويين في سجونهم التي لا يتميز فيها النهار من الليل ، وكان له من الجنائيات والفضائح ما تزخر به كتب التاريخ.

3. وأعجب من ذلك ، التناقضات الصارخة بين ما جاء في تلك الرسالة في حق الشعب الإيراني وما جاء في الرسالة الثانية في حق هذا الشعب بعد قيام

الثورة الإسلامية ، مع أن الأمة هي الأمة لم يتغير منها شيء إلا النظام السائد عليها في الفترة الأولى ، فتبدلت الحكومة الفردية الملكية ، إلى الجمهورية الإسلامية المباركة.

ومقتضى الطبع أن تكون الأمة في الفترة الثانية ، أشد تمسكاً بالقيم والأخلاق والكتاب والسنة وأحرى بالمدح والتمجيد ، ومع ذلك فوصفها في الكتاب الثاني عنهم ، يصور تدهور الشعب الإيراني فيما يرجع إلى صلب الدين ، وإليك مقارنة البيانين :

الملاح العامة للشعب الإيراني في الرسالة الأولى

أ. أن أول شيء بهرنا وأثار فينا الاستغراب مع الإعجاب ، والحيرة مع المسرة هي قوة العاطفة الإسلامية وشدة رغبة إخواننا الإيرانيين على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم في الوحدة الإسلامية والالتقاء على صعيد واحد من جوهر الإسلام ومبادئه الأولية ، وأعترف هنا أننا لم نكن نتوقع هذه الموجه القوية من حب الوحدة ومد يد الأخوة والصدقة إلى سائر المسلمين في العالم ، وتكوين جبهة موحدة ضد اللادينية التي تتحدى جميع الأديان وجميع القيم الخلقية.

ب. والشيء الثاني ما لمسناه في هذه الزيارة من عناية زائدة بالآثار الإسلامية والتأليف باللغة العربية ، وإحياء التراث الإسلامي ، ونشر آثار علماء الإسلام ، والاعتناء الزائد بالمصاحف الأثرية ، وتزيينها مما يدل على التقدير والإجلال والاحترام والاهتمام وقراءة القرآن وأكثره من صوت القراء المصريين المسجل في المشاهد والحفلات باحترامها ، وذلك يدل على الإيمان وإجلال القرآن.

ج. الغيرة الدينية ومحاربة الحركات الهدامة الثائرة على الإسلام.

د. دماثة الخلق ورقة العاطفة وكرم الضيافة والتواضع الزائد الذي يلقي به المسلم الإيراني أخاه الوافد من بلاد الإسلام، وإشعاره بأنه بين إخوانه وأحبابه وفي بلده (1).

الملاح العامة للشعب الإيراني في الرسالة الثانية

هذا ما عرّف به الكاتب الشعب الإيراني بما أنّهم يمثلون مذهب الشيعة الإمامية في المجتمع الإسلامي، وإليك ما يذكره الأستاذ عنهم في الرسالة الثانية كأنه نسي ما ذكره في أولهما :

يقول :

1. « ونتيجة لما مر من آراء ومعتقدات الشيعة عن القرآن الكريم، فإنّهم لا يهتمون بالقرآن ولا يرتبطون به عملياً، وإنّ الشيعة لا يوجد فيهم حفظة القرآن، وذلك نتيجة نفسية الشك في صحة القرآن الكريم وأصالته، وقد جربت ذلك شخصياً لدى رحلتي إلى إيران عام 1973 م » !!

باللّٰه عليك أيّها الأستاذ، لو كان الشعب الإيراني - كما زعمت - شاكاً في صحة القرآن الكريم، فما معنى قولك في الرسالة الأولى في الفقرة الثانية: « الاعتناء الزائد بالمصاحف الأثرية وتزيينها... وذلك يدل على الإيمان وإجلال القرآن » فهل يجتمع الإيمان بالقرآن مع الشك فيه؟! !!

كيف تتهم الإيرانيين بعدم الاهتمام بالقرآن وحفظه وقد وقف الأصم

ص: 477

1- اسمعي يا إيران : 20 - 23 بتلخيص.

والأبكم فضلاً عن السميع والبصير على أنهم شاركوا في مسابقات عديدة لقراءة القرآن وحفظه في البلاد الإسلامية المختلفة وفازوا بالرتب الأولى، مرة بعد أخرى، وأحياناً كانوا في الدرجة الثانية من الفائزين، ونحن نكتب هذه السطور انعقدت مسابقة دولية لتلاوة القرآن وحفظه في مسجد الإرشاد في طهران، اشترك فيها قرّاء من 26 بلداً إسلامياً آسيوياً وأفريقياً، وتستغرق المسابقة خمسة أيام، وذكرت الأنباء أنّ سيرلانكا، ماليزيا، تنزانيا، موريتانيا، عمان، الهند، غانا، باكستان، سورية، بالإضافة إلى عدد آخر من الأقطار المسلمة، قد بعثت مشاركين إلى المؤتمر، وتقيم الجمهورية الإسلامية منذ تأسيسها ولحد الآن مسابقات دولية سنوية لحفظ وقراءة وتفسير وبيان مفاهيم القرآن الكريم بمناسبة عيد المبعث النبوي في 27 رجب، وكان آخرها المسابقة التي أُقيمت في طهران هذا العام (1420 هـ).

وهذه هي إذاعة القرآن التي أسست بصورة مستقلة في الجمهورية الإسلامية وتبث القرآن قراءة وتعليماً وعلومياً عدة ساعات كل يوم، فهو خير شاهد على ما قلناه.

وهؤلاء هم حفظة القرآن في عاصمة الجمهورية الإسلامية، وسائر بلدانها يقرأون القرآن في المجالس والمحافل عن ظهر القلب، ويشتركون في المسابقات الدولية والمؤتمرات العالمية ويفوزون وهم بين طفل لم يبلغ الحلم، أو شاب يافع، أو كهل، أو شيخ طاعن في السن.

النشاطات القرآنية في الجمهورية الإسلامية

على الرغم ممّا نسب الكاتب إلى الشعب المسلم في إيران من عدم إيمانه بصحة القرآن الكريم والقول بتحريفه، فنحن نجد في هذا البلد الإسلامي

نشاطات واسعة وجادة حول القرآن الكريم بعد الثورة الإسلامية قلمًا يوجد لها نظير في سائر العواصم والبلاد الإسلامية.

ونحن نشير إلى أبرز هذه النشاطات باختصار ، مضافاً إلى ما أشرنا من تأسيس إذاعة خاصة بالقرآن :

1. تأليف ووضع دائرة المعارف القرآنية تضم كل المعلومات التي ترتبط بالقرآن الكريم.

2. فتح جناح خاص بكنوز القرآن يضم أقدم المخطوطات القرآنية ، وذلك في مؤسسة دار القرآن الكريم في قم وطهران.

3. تأسيس مؤسسة خاصة باسم « بنياد قرآن » منذ سنين تهتم بنشر كل ما يرتبط بالقرآن ويدور حوله من مؤلفات ، وقد طبعت إلى الآن عشرات الكتب والرسائل لمختلف علماء الإسلام.

4. الاهتمام بتعليم القرآن بطريقة سريعة وميسرة ، وذلك بابتكار طريقة تتكفل تعليم قراءة القرآن لغير الناطقين بالعربية خلال ثلاثين ساعة أو أقل من ذلك.

5. تأليف كتاب يضم أكثر من ثلاثمائة حديث مروياً عن النبي الأكرم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام تحت أبواب مختلفة باسم « القرآن في أحاديث النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين » تأليف جعفر الهادي ، وقد أُلِّف للحث والتشجيع على تعلّم القرآن الكريم والعناية به قراءة وحفظاً وتجويداً ، طبعته مؤسسة تحفيظ القرآن الكريم في طهران عاصمة الجمهورية الإسلامية ، مرة في القاهرة ، ومرات في إيران ، ووزّع في كثير من البلاد الإسلامية.

والروايات المتضاربة المنقولة في هذا الكتاب تمثل نظرية أهل البيت

وشيعتهم في القرآن الكريم : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (1) ، وأي باطل أشوه وأفزع من تطرق التقصان إليه ، سبحانه أنت القائل : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (2) ، وأنت حفظته من إبطال المبطلين .

2. وأضاف قائلاً : « إنَّ مكتبات الاثنا عشرية لا تحتوي على آثار ونماذج كثيرة لخدمة القرآن والتأليف بمختلف مطبوعاته ولا تشهد بالحركة العلمية القوية في باين إعجازه وما يشتمل عليه من علوم وحقائق » !!

أقول : لو كانت مكتبات الشيعة الإمامية على ما وصفت ، فما معنى قولك في الفقرة الثانية من الرسالة الأولى : « والشيء الثاني ما لمسناه في هذه الزيارة من عناية زائدة بالآثار الإسلامية والتأليف باللغة العربية وإحياء التراث الإسلامي ونشر آثار علماء الإسلام والاعتناء الزائد بالمصاحف » !!؟

إنَّ الشيعة الإمامية تهتم بالقرآن الكريم ، لأنه الثقل الأكبر الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأمة وإنَّ الكتب والرسائل التي ألُفت بيد تلك الأمة حول القرآن الكريم تتجاوز المئات ، وإنَّ الفهارس المطبوعة تغنينا عن طرح أسمائها .

إنِّي لأعذر الأستاذ في عدم وقوفه على كتب الشيعة في التفسير وعلوم القرآن وتبيين طرق إعجازه ، إذ ليست بينه وبينهم أية صلة ، حتَّى أنه بعد زيارته إيران لم يلتق بالعلماء الربانيين الذين كرّسوا حياتهم لخدمة العلوم والمسائل الإسلامية ولم يلتق إلا بمن سمحت مديرية الأوقاف بزيارته ولقائه ، ولم يزر المكتبات العامة الكبيرة المليئة بنفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة ، ولم يجالس علماء الشيعة

ص : 480

1- فصلت : 41 - 42.

2- الحجر : 9.

الواقعيين إلا الشاذ النادر ، فإن الزيارة الرسمية التي رسم مقدماتها عملاء الطاغوت لا تسمح بإنجاز هذه الأمور.

كيف ينكر الأستاذ خدمة الشيعة للقرآن وعلومه وتبيين وجوه إعجازه مع أن المفسّر الأول هو إمام الشيعة وإمام المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام ثم تلميذه الأكبر ابن عباس حبر الأمة ، ثم أئمة أهل البيت عليهم السلام كلّهم ، ثم تلاميذهم المترّبون في أحضانهم ومناهجهم وقد توالى التأليف حول القرآن في كل ما يرجع إليه من زمن ابن عباس إلى زماننا هذا.

ولإيقاف الأستاذ على النزر اليسير من الجهود العلمية التي تحمّلها علماء الشيعة نأتي بأسماء التفاسير التي أُلّف أكثرها في أواخر القرن الرابع عشر الهجري باللغة العربية فقط وترك ما أُلّف بغيرها :

1. « آلاء الرحمن في تفسير القرآن » : تأليف العلامة المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي (المتوفّى عام 1352 هـ) صدر منه جزءان.
2. « الميزان في تفسير القرآن » : تأليف العلامة المحقّق المتألّه الأكبر السيد محمد حسين الطباطبائي (المتوفّى 1402 هـ) وهو في عشرين جزءاً ، طبع في بيروت وإيران.
3. « البيان في تفسير القرآن » : تأليف المحقّق الأكبر السيد أبو القاسم الخوئي النجفي - دام ظلّه - طبع طبعات متعددة ، منها ما نشرته مؤسسة الأعلمي بيروت ، الطبعة الثالثة - 1394 هـ / 1974 م.
4. « التفسير الوجيز » : للعلامة الفقيه السيد محمد التبريزي (مولانا) (المتوفّى عام 1363 هـ) وهو تفسير على غرار تفسير الجلالين ، طبع في قم المقدسة من قبل مؤسسة الإمام المنتظر عليه السلام - 1418 هـ .

5. « التفسير الكاشف » : في سبعة أجزاء ، تأليف العلامة الحجة المجاهد الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله وهو من فطاحل علماء بيروت ومن المناضلين ضد البدع ، وله مع ذلك تفسير صغير آخر ألفه للشباب.
6. « الفرقان في تفسير القرآن » : للعلامة الحجة الشيخ محمد الصادقي الطهراني ، طبع في بيروت من قبل مؤسسة الأعلمي في 30 جزءاً.
7. « التمهيد في علوم القرآن » : للعلامة الحجة الشيخ محمد هادي معرفة ، صدرت منه ستة أجزاء.
8. « التفسير الأمثل » : للعلامة آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - حياه الله وبياه - ، وهو ترجمة لتفسيره باللغة الفارسية في عشرين جزءاً ، من منشورات مؤسسة البعثة ، بيروت - 1413 هـ.
9. « القرآن والعقل » : للعلامة السيد نور الدين العراقي (المتوفى 1341 هـ) ، وهو تفسير بديع في اسلوبه ، في ثلاثة أجزاء ، مطبوع في إيران سنة 1403 هـ.
10. « تقريب القرآن إلى الأذهان » : تأليف العلامة السيد محمد الشيرازي ، ويقع في 30 جزءاً.
11. « التحقيق في كلمات القرآن » : في أربعة عشر جزءاً تأليف المحقق الشيخ حسن المصطفوي - دام ظلّه - ، وقد خرج جميع الأجزاء.
12. « مواهب الرحمن في تفسير القرآن » : للعلامة الحجة السيد عبد الأعلى السبزواري النجفي ، صدر منه عشرة أجزاء.
13. « تفسير القرآن الكريم مفتاح أحسن الخزائن الإلهية » : تأليف العلامة

المحقق السيد مصطفى الخميني ، مطبوع في إيران خمسة أجزاء ، من منشورات مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره عام 1418 هـ.

14. « تفسير البصائر » : تأليف العلامة المحقق الشيخ يعسوب الدين الجويباري ، ويقع في 60 جزءاً ، مطبوع في قم المقدسة عام 1413 هـ.

15. « الجديد في تفسير القرآن المجيد » : تأليف العلامة الحجة الشيخ محمد بن حبيب الله المعروف بالسبزواري النجفي ، سبعة أجزاء ، مطبوع في بيروت من منشورات دار التعارف للمطبوعات - 1402 هـ.

16. « مفاهيم القرآن » : كتاب يفسر القرآن حسب موضوعاته ، وهو مبتكر في موضوعه ، بديع في بابه ، تأليف كاتب هذه السطور ، صدرت منه حتى الآن عشرة أجزاء ، طبع في إيران عدة طبعات.

هذه هي أسماء التفاسير التي ألفت باللغة العربية في العصر الأخير أتينا بأسمائها من دون مراجعة الفهارس المكتبية.

وهناك تفاسير كثيرة باللغة العربية مطبوعة ومخطوطة لأعلام المعاصرين لم يسمح لهم الزمان بنشرها ، ومن أراد الوقوف على عناية طائفة الإمامية بتفسير الذكر الحكيم طول القرون ، فعليه الرجوع إلى كتاب « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » (الجزء الرابع مادة التفسير) ومع ذلك فقد فاتته أسماء قسم من التفاسير التي ألفت في العصر الأخير.

ونحن نكتفي بهذا المقدار من التناقض الموجود بين الرسالتين ، ولا- يفوت القارئ الكريم عرفان الحوافر التي دفعت المؤلف إلى هذا التناقض.

فإن الكاتب في الفترة الأولى أطلّ بنظرة على الحقائق لا بعين السخط ، وإن

قصّر في كثير من الأمور، ولكنّه في الرسالة الثانية أطلّ بنظره عليها بعين السخط بعد قيام الثورة الإسلامية التي أثارت المستضعفين والمحرومين في المنطقة على أصحاب العروش، الذين لم يزل الأستاذ وأعضاء الوفد والرابطة يؤيدونهم وينصرونهم بأفلامهم وألسنتهم، فلم يكن له بد من النظر إلى تلك الطائفة من زاوية السخط والغضب، ولأجل ذلك جاء بالطامات والأكاذيب والنسب المفتعلة التي تشير إلى بعضها، وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة*** ولكن عين السخط تبدي المساويا

ولكن لم يكن هناك أيّ سوء أبداه سوى النسب المفتعلة.

وهناك مؤاخذة عامة تعم هذا الفريق من الكتاب ولا تختص بالأستاذ ولا بوفده، وهي أنّهم قد اعتادوا على السكوت على الظالم بل الركون إليه والجلوس على موائده، والتبجح بضيافته، وهذه شنشنة نعرفها من هذه الجماعة من عصر الأمويين إلى يومنا هذا، ونجلّ العلماء الواقعيين من السنّة عن هذه المؤاخذة.

ولذلك ينبغي أن نركّز على هذه النقطة التي كانت ولا تزال أساس الكثير من الانحرافات التي ألحقت بالمسلمين أكبر الأضرار في حياتهم الاجتماعية والسياسية، وجعلت الكتاب والمفكرين في خدمة الظالم.

الركون إلى الظالم وحكمه في الإسلام

لا- شك أنّ الإسلام قد حرّم الركون إلى الظالم فقال سبحانه: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) (1)، والكاتب وزملاؤه من مؤيدي الحكومات

ص: 484

الجائزة والدعاة لهم في صلوات الجمعة والجماعة ، فما هو جوابهم عند الله عن هذا الركون الذي لا يمكن إنكاره؟!

هذا هو زميله أبو الأعلى المودودي أول فائز بجائزة الملك فيصل ، وذلك نصيره الآخر « عبد رب الرسول سيف » الفائز بالجائزة الملكية عام 1404 هـ (1)، وهكذا دواليك فلا يشك ذو مسكة ان جميع مشاريعهم وخططهم قائمة بالأجور المبدولة من قبل الحكومات المفروضة على الأمة الإسلامية ، وهؤلاء قبال هذه النعم والترف ، يسعون بكل قوة وحماس ، في تدعيم عروشهم وتحكيم دعائمها ، ومع ذلك يدعون أنهم على خط الإسلام ، والتوحيد وغيرهم على خط الوثنية والشرك.

فما هذا التوحيد الذي يدعونه ويجعلونه واجهة لكل آمالهم وأمنياتهم الدنيوية؟! فلو كانت حقيقة التوحيد كسر الأصنام والأوثان ، وحذف الوسائط بين العبد والرب ، فما معنى تكريم هذه الطواغيت الجائرة ، والدعاء لهم والافتخار بضيافتهم الفاخرة ، والنزول عند رغباتهم واتخاذهم سناداً وعماداً في الحياة حتى كأنه لولاهم لما استقر لهم العيش؟

نراهم ونرى كل من كان في الخط الذي يمشي عليه هؤلاء ، ساكتين في مقابل طواغيت العصر وأعمالهم الإجرامية ومنها تسامحهم بل تعاملهم مع الشيطان الأكبر الذي زرع دويلة إسرائيل في قلب الأمة الإسلامية ، وهو معلوم للأصم والأعمى ، فكيف بالسميع والبصير؟!

نرى أنه سبحانه يذمّ الساكّتين ويندّد بالمحايدين عندما يطرح حياة أمة من بني إسرائيل الذين كانوا يعيشون في ساحل من سواحل البحر ، فيقسمهم إلى ثلاثة أصناف :

ص: 485

الأول : الجماعة الرافضة لحكم الله سبحانه ، حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قائلاً : (... إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ) (1).

الثاني : الجماعة الساكنة التي أهملتهم أنفسهم ، لا يهون المعتدين عن عدوانهم ، بل كانوا يعترضون على القائمين بوظيفة الإرشاد ، والرد في وجه العصيين والطاغين بقولهم : (لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) .

الثالث : الجماعة الآمرة بالمعروف والناهي عن المنكر ، محتسبين ذلك وظيفة دينية عريقة ، وقد حكى الله سبحانه على لسانهم وقال : (مَعذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) .

فالله سبحانه يخبر أنه اباد الطائفتين الأوليين « المنكرين ، والساكتين والمحايدين » وأنجى الطائفة الثالثة قائلاً : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (2) ، فالآية صريحة في حصر النجاة في الناهين عن السوء وشمول العذاب للمعتدين والساكتين .

فما أصرح الآية في تبين مصيركم أيها الساكتون في وجه الطغاة ، الجالسون حول موائدهم العامرة ، المترادون لمجالسهم وضيافاتهم الفاخرة ، من دون أن تقابلوهم بوجه مكفهر أو بقلوب مملوءة بالغضب ، ومع ذلك تدعون أنكم دعاة التوحيد وأعلام الهداية وشعاركم الوحيد « إلى الإسلام من جديد » !!؟

وهل الإسلام إلا أصول وعقائد وأحكام ووظائف جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين وملاً فمه : « من رأى منكراً فليغيره بلسانه ، فإن لم يستطع فبيده ، ومن لم

ص: 486

1- الأعراف : 163.

2- الأعراف : 165.

يستطع فقبله ، وذلك أضعف الإيمان».

فهل أنت أيها الأستاذ ويا أصحاب الندوة والندويين المرتزقين من الوهابية على هذا النمط ؟ فهل رفعتهم عقيرتكم على أصحاب الجلالات والعروش بمساهماتهم مع الشيطان الأكبر بإيوانه ثغر الإسلام وأمّ القرى ومن حولها ؟ كلا ، ولا !! فإنكم تدركون خطورة الموقف ، وأنّ التخلف عن الأدب الرسمي فضلاً عن رفع العقيرة ، ينتهي إلى قطع الرواتب والمنح والجوائز ، وبالنتيجة السقوط عن أعينهم وأعين من يعينونهم.

فأنتم بهذا الحال وعَاطِ السلاطين وخدامهم لا وعَاطِ الإسلام وخدام المسلمين غير انكم اتّخذتم الإسلام والدين واجهة في المجتمع ، ومع ذلك تتمنون أن يلتف حولكم شباب المسلمين زاعمين أنّكم الإسلام المجسد مع أنّ حياتكم ومنحكم وأجوركم كلها على عاتق الملوك ، لا على الشعب المسلم ، هذا موجز من دوركم في الحواضر الإسلامية ، ولا نريد البسط والإسهاب « في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء » !!؟

لقد رأى الكاتب صورتي النبي وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في المساجد والبيوت ، وقد عزّ عليه ذلك.

أقول : إنّ الكاتب رأى سفور النساء في شوارع طهران يومذاك ورأى المؤسسات الربوية في جميع المدن التي زارها ، كما رأى التماثيل المنصوبة لطاغوت العصر في الساحات والبيادين ، ولمس سنّ القوانين الكافرة في البلاد ، ولاحظ البرامج التربوية المنحرفة في الجامعات والكليات ، ومع ذلك كله لم ينس في شأن تلك الموارد بنت شفة ولم يعترض لا على مضيّقه ، ولا أتى بذكر واحدة من تلك الأمور المهمة الهدامة لأسس الإسلام في صميم رسالته ، ولكنه عزّ عليه وجود

صورة النبي والولي في بعض المساجد ، التي لا يوافق عليها العلماء ولا يفعلها إلا بعض الجهلة والسذج.

فالإسلام الذي يجتمع مع سفور النساء ، وإنشاء المؤسسات الربوية ، وانحراف المناهج التربوية ، ويلتئم مع القوانين الكافرة في جميع المظاهر ، ويجتمع مع الدعاء للطواغيت والخضوع لهم ، وأخذ المنح والجوائز من أيديهم ، والتذلل لهم بكل الوسائل ، عليه السلام ، وعلى مثل ذلك الدين العفا ، وكأني بشاعر المعرّة يخاطب تلك الزمرة ، ويقول :

إذا وصف الطائي بالبخل مادر *** وغير قسّاً بالفهاهة باقل

وقال السهي للشمس أنت خفية *** وقال الدجي للصبح لونك حائل

وطاولت الأرض السماء ترفّعاً *** وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فياموت زر أنّ الحياة ذميمة *** ويا نفس جدي أنّ دهرك هازل

ويا للعجب انكم تشاهدون بأُمّ أعينكم السفور والخمور في شوارع العواصم الإسلامية وتعلمون أنّ الحكومات التي أنتم تؤيدونها وتدعمونها ، هي السبب الوحيد لهذه الأوضاع الخلقية المؤسفة ومع ذلك لا تنسون بنت شفة ، ولما قامت الثورة الإسلامية في إيران ، فجابها فوضى الفساد ، وقطعت جذورها ، خرجتم من أوكاركم متسلحين باسم الإسلام المزعوم تصبون القارعات عليها ، وتشنون الغارات إليها بكل قوّة ووسيلة ، وتكتبون في كل شهر وشهرين رسالة حولها إبعاداً لها عن قلوب الشباب ، وتحاولون تشويه سمعتها ، ما هذا التساهل في مقابل الطغمة الأثيمة في الحواضر الإسلامية ، وما هو الهدف وراء هذه الهجمة الشرسة على الحكومة الإسلامية الفتية التي تريد إيقاظ الطوائف الإسلامية ، حتّى تقوم بواجبها وتركز على التمسك بالوحدة؟!

فبدلاً من دعمها وتأييدها وصيانتها عن الزلة حتّى تنمو وتصير شجرة مثمرة معطية أكلها كلّ حين ، قمتم بوجه تلك الحكومة بنشر كتيبات ورسائل تكثرّون الشبه التي أكل عليها الدهر وشرب ، وأجاب عنها الفطاحل الأعلام ، وقبل كل شيء تشقون عصا المسلمين وتمزقون الوحدة ولو كان الهدف من نشرها هو الهداية والإرشاد إلى سبيل التوحيد ، فليست الفرية والافتعال والاعتماد على كتب مخالفيهم ، بل وعلى كتب اليهود والنصارى من شروطها ، ولا نبش الدفائن من أسسها !! « ما هكذا تورّد يا سعد الأبل ».

إنّ ما تذكرونه من الشبهات مأخوذ من كتاب مغفّلين أو مستغربين ، كموسى جار الله التركستاني ، وأحمد أمين المصري ، ذلك الكاتب المتحدلق المختلق ، والقصيمي النجدي ذلك الكيذبان الأشرس على المسلمين جميعاً وعلى الشيعة خصوصاً ، وغيرهم ، وقد قام الفطاحل الأعلام من الإمامية بنقد هذه النسب المفتعلة أو تفسيرها على نهج الحق ، نظراء : الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والسيد محسن الأمين الشامي ، وشرف الدين العاملي ، وعبد الله السبتي ، والعلامة الأميني - قدس الله أسرارهم وأسكنهم فسيح جناته - فكان الواجب على الكاتب ونظيره ترك التعرّض لهذه المسائل بعد الوقوف على هذه الكتب ، غير أنّه راقه تكرار المكرّرات وإغواء البسطاء ، وقبل كل شيء إرضاء الأسياد الذين يقومون في وجه الثورة الإسلامية يخافون من اندلاعها في المنطقة.

لا شك أنّ الحركة نحو الإسلام قد استفحلت في جميع الأقطار الإسلامية وتشرف أن تكون ناضجة مثمرة في الأبعاد الكثيرة ، وإنّ الأمانة التي كانت تجول في خواطر الشخصيات الإسلامية الكبيرة منذ بداية القرن الرابع عشر كالسيد جمال الدين الأسدآبادي ، وتلميذه شيخ الأزهر محمد عبده المصري ، والسيد الكواكبي الشامي وسائر الأعلام ، أخذت تتجسد في المجتمع.

فهل يصحّ في هذه الظروف نبش الدفائن والتتقيب عن المسائل التي تفكك عرى الوحدة، وتوجد القلق والاضطراب، أو ليست الوظيفة في هذه الظروف الدعوة إلى الوحدة وتناسي البحث عن هذه المسائل أو تأجيلها إلى آونة أخرى؟!

هذه خلاصة القول في الرسالة الأولى، وكفانا في نقدها ما كتبه العلامة المحقق الشيخ لطف الله الصافي (دام ظله) قبل أعوام عندما نشر الكاتب المذكور رسالته الأولى، فأجاب عنها الشيخ برسالة أسماها «إيران تسمع فتجيب» (1)، وقد قابله بأجوبة رصينة، وبما أنّ الظروف في تلك الأعوام لم تسمح له بالأصحار بالحقائق بأكثر ممّا فيها، لذلك طوى الكلام عن كثير من الانتقادات المتوجهة إليها، فشكر الله مساعي شيخنا المحقق ونفعنا الله بوجوده وعلومه.

موجز الرسالة الثانية

إشارة

إنّ الرسالة الثانية تشتمل قبل كل شيء على «علم كلام» جديد غفل عنه مشايخ المعتزلة وأئمة الأشاعرة، كما تشتمل على أمور مفتعلة على الشيعة وهم برآء منها، وقد طرحت في كتب المغرضين من القدماء كابن حزم وتيمية وحجر، والمتأخرين عنهم أحمد أمين المصري والخضري ذلك الأموي المباهت وغيرهم من كتب السلف والخلف. والمطلب الجديد الذي أتى به الكاتب ما زعم أنّه يشترط في النبوة الدائمة تحقّق شروط أربعة وإنّها من ملامح الرسالة الخالدة، وإليك تحليل تلك الشروط واحداً بعد الآخر.

الشرط الأول للرسالة الخالدة

إشارة

يقول: إنّ معجزة التأثير والهداية يجب أن تتحقّق في حياة الرسول وعلى أثر

ص: 490

1- طبعت الرسالة عام 1399 هـ، ونشرتها دار القرآن الكريم في قم المشرفة.

وفاته ، ويجب على الرسول أن يقدم أمام العالم عدداً وجيهاً من نماذج عملية ناجحة ببناء ، ومجتمعاً مثالياً في أيامه ، لأن الشجرة التي لم تؤت ثمارها اليانعة الحلوة ولم تتلحح أزهارها العطرة الجميلة أيام شبابها ، وفي موسم ربيعها (وهو عهد النبوة) لا تعتبر شجرة مثمرة سليمة.

وكيف يسوغ لدعاة هذه الدعوة والدين وممثليهما - الذين ظهروا بعد أن مضى على عهد النبوة زمن طويل - أن يوجهوا إلى الجيل المعاصر والعالم الحاضر دعوة إلى الإيمان والعمل ، والدخول في السلم كافة وهم عاجزون من تقديم نتائج حية باهرة للألباب ، مسلمة عند المؤرخين للمجهودات التي بذلت في العهد الأول وفي فجر تاريخه في سبيل إبراز أمة جديدة وإنشاء جيل مثالي يمثل التعاليم النبوية أصدق تمثيل ويبرهن على تأثيرها ونجاحها (1).

وحاصل هذا الشرط الذي ذكره مع ما فيه من التعقيد في العبارة هو أن من شرائط النبوة الخالدة أن يكون صاحبها ناجحاً في تربية الجيل الأول وأصحابه الذين التفوا حوله ، إذ لولا ذلك لما صحّت لمن يجيء بعد الرسول ، الدعوة إلى دينه ودعوته بحجة أن صاحب الدعوة إذا لم يكن موفقاً في دعوته ، فكيف تكون دعوة الغير إلى سبيله ناجحة ومفيدة ؟

وبالتالي يجب أن يكون صحابته جيلاً مثالياً رائعاً ، وهذا ما يقتضيه الدليل النفسي الاجتماعي ، مع أن الشيعة الإمامية يخالفون هذا الرأي ويخطئون الصحابة.

تحليل هذه النظرية

إن كمال الدعوة وصحتها يتمثل في قوة المحتوى ورصانة حجتها ، بحيث

ص: 491

تكون الدعوة مطابقة للفطرة ، وموافقة لحكم العقل السليم ، ومتماشية مع الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية ، عند ذلك تتم الحجة من الله سبحانه على العباد ، وأما اشتراط كون الداعي موفقاً وناجحاً في دعوته ، وتربية جيله ، فلم يدل عليه شيء من العقل والشرع ، إذ النجاح والفوز ليس دليلاً على صحة الدعوة ، ولا تولي الناس وعدم استجابتهم برهاناً لبطالانها ، والعجب أن المنطق الذي اعتمد عليه الأستاذ في بيانه مما تكرّسه الملاحظة من أتباع « ماركس » و « البهاء » وغيرهم من الأحزاب الباطلة ، فهم يستدلون على صحة خططهم في مجال الحياة بالنفوذ والاستيلاء على الأفكار في مختلف الأقطار ، ويقولون إنه لم يمض على موت ماركس وانجسحت حتى غطت فلسفتهم ربيع المعمورة ، واعتنقها ملايين الناس .

وهذه هي البهائية البغيضة تشترط في صحة دعوى النبوة أموراً أربعة :

1. ادعاء النبوة.

2. النفوذ والنجاح في الدعوة.

3. ثبات المدعي في طريقها.

4. وكونه صاحب شريعة وبرنامج.

هذه هي الأمور التي نسمعها من الماركسية والبهائية ، فإذا نتحير كيف تسربت هذه الأفكار المنحرفة إلى ذهن الكاتب فقام بادعاء ، لا يفترق عن ادعائهم قيد شعرة !!؟

لو كان من شروط النبوة الخالدة إقبال الناس على الداعي إليها ، وخاصة جيله المعاصر له ، يلزم أن يعذر المولون عن الدعوة في صدر البعثة ، نظراً : أبي لهب وأبي جهل وأمّية بن خلف ، إذ في وسعهم أن يقولوا : إن من شرائط صحة النبوة الخالدة إقبال الناس إلى الداعي ونفوذ دعوته في نفوسهم ، ونحن لا ندري هل يكون هذا الداعي ناجحاً في دعوته ، وهل الناس يستقبلونها بوجه مشرقة ، أو يردونها بألسنتهم وأكفهم ، فإذا نحن لا نؤمن بدعوته ونبوته ورسالته للشك في

ص: 492

ما أشبه الليلة بالبارحة

والعجب أن يهود أبناء قريظة والنضير وقينقاع ، تمسكوا بهذا العذر عندما دعاهم النبي إلى الطريق المهيع .

فقالوا : يا محمد إلى مَ تدعو؟ قال : « إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأني الذي تجدونني مكتوباً في التوراة ، والذي أخبركم به علماؤكم أن مخرجي بمكة ومهاجري بهذه الحرة ... يبلغ سلطاني منقطع الخف والحافر » فقالوا له : قد سمعنا ما تقول ، وقد جنناك لنطلب منك الهدنة على أن لا- نكون لك ولا عليك ولا نعين عليك أحداً ولا نتعرض لأحد من أصحابك ولا نتعرض لنا ولا لأحد من اصحابنا حتى ننظر إلى ما يصير أمرك (1).

فقولهم : « حتى ننظر إلى ما يصير أمرك » تعليلاً لتوقفهم في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأن تثبتهم لأجل الاستطلاع عن بلوغ سلطانه منقطع الخف والحافر أو لا- ، وكأنهم يقولون : « فما لم نر بأمر أعيننا أنه آمنت بك جمهرة الناس ، فلا نؤمن بك » فلو كان هذا الكلام ، دليلاً رصيناً يصح لكل من كفر ولم يؤمن به في بدء الدعوة الالتجاء إلى هذا العذر ، وعند ذاك أصبح إيمان الناس بدعوة النبي أشبه بالدور ، إذ تلبية كل إنسان معاصر في بدء الدعوة وإيمانه بالدعوة النبوية ، يتوقف على تحقق هذا الشرط أي إيمان الجيل المعاصر به ، ومن جانب آخر يتوقف تحقق هذا الشرط على تلبية كل إنسان معاصر للدعوة وإيمانه به ، وهل هذا إلا الدور الصريح المحال ، وعندئذ لا يصل الداعي إلى نتيجة إيجابية أبداً ، ويكون الكفار في صدر الدعوة معذورين حسب هذا المنطق.

ص: 493

هذا كله راجع إلى تحليل هذا الشرط من زاوية قضاء العقل ، فهلم معي نعرض صحة هذا الشرط على القرآن الكريم ، وهل هو يصدق الكاتب في هذا الادعاء أو يكذبه من أساسه.

نحن نرى أن هناك أنبياء صادقين لم ينجحوا في دعوتهم طيلة حياتهم ، هذا قوله سبحانه يصف كيفية نجاح نوح عليه السلام بقوله :

(وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (1) ، وقد قام بالدعوة وإرشاد الناس ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فما آمن به إلا عدة قليلة أركبها على الفلك.

إن الاعتماد على الكثرة هو منطق الفراعنة ، وقد كان فرعون يصف أتباع موسى بقوله : (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) (2) ، وعلى العكس يصف سبحانه أتباع الحق ويقول : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) (3).

على أنه لا ملازمة بين صحة دعوة الداعي ، وإجابة المدعوين ، فربما يكون الداعي كاملاً في دعوته ، قوياً في منطقته ، رصيناً في بيانه ومجرباً في إلقاء الحجّة ، إلا أن الظروف لا تسمح للتجاوب والتصويت ، أو يكون المدعوون أسراء الشهوة وطلاب اللذة فلا يكون الداعي مهما بلغ في صحة الدعوة شأواً شامخاً ناجحاً في الدعوة.

فلسفة جديدة

وان تعجب فعجب أنه جعل نجاح الداعي في تربية الجيل الأول وصحبه الكرام شرطاً للرسالة الدائمة والنبوة الخالدة ، لا شرطاً لمطلق النبوة والرسالة ، وإن

ص: 494

1- هود : 40.

2- الشعراء : 54.

3- ص : 24.

طال الفصل بين دعوة النبي الأوّل ودعوة النبي الآخر الناسخ لشريعته ، كدعوة موسى بن عمران بالنسبة إلى دعوة المسيح ، حيث إنّ الفصل بين الدعوتين يقرب من ثلاثة آلاف سنة ، فنسأل الأستاذ بأيّ دليل جعل النجاح شرطاً للرسالة الخالدة دون مطلقها مع أنّ بعض الرسائل غير الخالدة ، كانت مستمرة حوالي ثلاث آلاف سنة ، أي أكثر ممّا مضى من بعثة الرسول الأكرم إلى زماننا هذا ، فلو كان عدم النجاح في الرسالة الخالدة دليلاً على وهن الدعوة في نظر الناس الذين جاءوا بعد مضي صاحبها بقرون ، فليكن عدم الفوز والنجاح موهناً في نظر الناس في نظائر الرسائل الطويلة وان لم تكن خالدة ، وعلى هذا الأساس يكون الكافرون بشرائع ، كشرية موسى لأجل عدم نجاحه في طريق دعوته ، معذورين عند الله ، ولا أظن لمسلم واع أن يصحح ذلك الادّعاء ويعذر الكافرين والمتولّين عن دعوة الأنبياء ، ولأجل ذلك يصبح منطق الأستاذ فلسفة جديدة لم يسبق إليها أحد من علماء الكلام ولا فلاسفة الإسلام.

النبي الأعظم كان ناجحاً في دعوته

إنّ النبي الأكرم قد نجح في دعوته ، ولكن ليس معنى نجاح دعوته هو عدالة كل من رآه أو سمع منه شيئاً أو صحبه يوماً أو يوماً أو سنة أو سنتين ، إذ لا ملازمة بين نجاح الدعوة وعدالة من صحبه ، بل المراد من نجاحه هو تأثيرها في أمم العالم ، معاصرة كانت أم لاحقة ، والدعوة المحمدية أثرت في أمم العالم وشعوبها وأصحابه والتابعين لهم بإحسان حتّى المنافقين من أصحابه ، والكل أخذوا منه حسب قابليتهم واستعدادهم ، فقد بلغت عدّة من أصحابه إلى القمّة كعلي بن أبي طالب ، وسلمان ، وأبي ذر ، والمقداد ، وخزيمة بن ثابت ، إلى غير ذلك من أصحابه الكرام ، كما بلغت عدة منهم درجة المتوسطين في الإيمان والعمل ، كما

أنّ هناك عدة أخرى تعد من الراسبين في كلالـ المجالين ، ومن قرأ تاريخ الصحابة يعلم أنّهم لم يكونوا على مستوى واحد في الإيمان والعمل.

نحن نفترض صحة ما ادّعه من الشرط وأنّ الصورة الواقعية من الإسلام الصحيح ، هو الذي رسمه من لزوم نجاح الرسول في تربية جيله الأول عامّة ، وأنّ كل من رآه وسمع كلامه وصحبه ، كان مؤمناً ورعاً متريماً بالتربية الصحيحة الإسلامية ، وبقوا على هذه الحالة حتّى انتقلوا إلى رحمة الله ، غير أنّنا نرى أنّ الصحاح والمسانيد ، تقدّم صورة معاكسة لما صوّره الأستاذ ، فهي تهدم كل مجهودات النبي في مجال التربية وتوجيه الرعيل الأول ، وتثبت له إخفاقاً لم يواجهه أي مصلح أو مرب خبير ، وتقدم صورة كالحجة جاحدة للنعمة ، وإليك ما يذكره البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ذلك الجيل المثالي خريج مدرسة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فروى الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما ما يدل على أنّ أصحابه صلى الله عليه وآله ارتدوا على أديارهم القهقري ، فجوابك أيّها الأستاذ عن هذه الأحاديث هو جواب الشيعة عن أخبار الارتداد حرفاً بحرف ، وإليك نقل ما رواه الشيخان :

1. روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إليّ رجال منكم ، حتّى إذا أهويت إليهم لأنأولهم اختلجوا دوني ، فأقول : أي رب ، أصحابي ، فيقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ». أخرجه البخاري ومسلم.

2. روى أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبنني حتّى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ ، اختلجوا دوني ، فلاقولنّ أي ربّ أصحابي أصحابي ، فليقالن لي إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ».

وفي رواية « ليردن عليّ أناس من أمتي » - الحديث - وفي آخره : « فأقول سحراً

لمن بدّل بعدي». أخرجه البخاري ومسلم.

3. روى أبو حازم رحمه الله عن سهل بن سعد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول : « أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم » قال أبو حازم فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري : لسمعتة يزيد فيقول : « إنهم مني فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحراً سحراً لمن بدّل بعدي ». أخرجه البخاري ومسلم.

4. روى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي - أو قال من أمّتي - فيحلّون عن الحوض ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقريّ ». وفي رواية « فيجلون ». أخرجه البخاري ومسلم.

5. روى البخاري : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلم ، فقلت : أين ؟ قال : إلى النار والله. فقلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقريّ ، ثم إذا زمرة أخرى ، حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال لهم : هلم ، فقلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله. قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلاّ مثل همل النعم ». .

6. وروى مسلم : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ترد عليّ أمّتي الحوض وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله » قالوا : يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : « نعم ، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون عليّ غزاً محجّلين من آثار الوضوء ،

وليصدّن عني طائفة منكم ، فلا يصلون ، فأقول : يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ ».

7. روت عائشة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول - وهو بين ظهرائي أصحابه - : « إني على الحوض أنتظر من يرد عليّ منكم ، فوالله ليقطنن دوني رجال فلاقولن : اي ربّ مني ومن أمّتي ، فيقول : إنك لا- تدري ما عملوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم ». أخرجه مسلم.

8. روت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إني على الحوض أنظر من يرد عليّ ، وسيؤخذ ناس دوني ، فأقول : يا ربّ مني ومن أمّتي - وفي رواية فأقول : أصحابي - فيقال : هل شعرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم » أخرجه البخاري ومسلم (1).

فإذا كان رمز صدق الرسالة الخالدة هو النجاح الذي يلقاه صاحب الدعوة في دعوته وتربية الجيل الأوّل ، فمن هؤلاء الذين يقول في حقّهم النبي صلى الله عليه وآله : « سحراً سحراً ، لمن غيرّ بعدي » !!؟

هذا كلّه حول الشرط الأوّل للرسالة الخالدة. وفي ما يلي دراسة باقي شرائط الرسالة الدائمة في ضوء العقل والكتاب والسنة.

الشرط الثاني للرسالة الخالدة

يقول الكاتب :

يجب أن يكون الداعي الأوّل متميّزاً عن مؤسس الحكومات والدعاة

ص : 498

1- راجع جامع الأصول : 11 / 119 - 121 ، وعليك مراجعة ذلك الكتاب لمعرفة ما لم ننقل من الأحاديث ، لاحظ ص 478 من هذه الموسوعة.

الماديين ، فإنّ محور الجهود التي يبذلها مؤسسو تلك الحكومات هو قيام مملكة خاصّة ، وتأسيس حكومة وراثية ، ثم استنتج من هذا الشرط أنّ عقيدة الشيعة بالإمامة الموروثة على خلاف هذا الشرط (1).

أقول : إنّ الشيعة الإمامية عن بكرة أبيهم لم يقولوا بالحكومة الوراثية ، وإنّما هي تهمة ألصقت بهم بسبب الجهل بمعتقداتهم ، فإنّ الشيعة وإن قالت بأنّ الإمام المفترضة طاعته بعد علي ، هو ابنه الحسن ، فالحسين ، وهكذا ، ولكنّه ليس لأجل أنّهما ولدا الإمام علي بن أبي طالب ، وإنّما لأجل التنصيب على إمامتهما من جانب الرسول خلال حياته ، بقوله : « الحسن والحسين ابناي إمامان قاما أو قعدا » (2). ولو قالت الشيعة بأنّ الإمام بعد الحسين هو ابنه علي بن الحسين لا من جهة أنّه ولده ووارثه ، بل لأجل التنصيب من الله سبحانه لهم ، ولو كانت الوراثة هي المحور للإمامة لكان أخو الإمام الحسين ، أعني : محمد بن الحنفية أولى بها من علي بن الحسين ، لأنّه ابن الإمام أمير المؤمنين علي ، وأكبر سنّاً من ابن الحسين علي السجاد.

وعلى ذلك ، فالشيعة تعتقد بإمامة الأئمة الاثني عشر أولهم أمير المؤمنين عليه السلام وآخرهم الإمام القائم الذي أخبر عنه الرسول وعن غيبته وظهوره وقيامه في كلماته ، وقد ملأت كتب الفريقين أحاديثه ، وذلك لأجل وجود النص على إمامة هؤلاء من النبي الأكرم ومن كلّ إمام بالنسبة إلى إمام بعده ، فباكتمال العدد الاثني عشر ، انتهت الإمامة التنصيبية ، فلو كانت الإمامة عندهم بملاك الوراثة لوجبّت إدامة الإمامة ، إدامة وراثية من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وأولاد الأئمة

ص: 499

1- صورتان متضادتان : 12.

2- أو أبناي هذان ... رواه أعلام الفريقين : لاحظ « أهل البيت » تأليف أبو علم طبع مطبعة السعادة بالقاهرة.

الأطهار ، وهذه الحقيقة يلمسها كل من وقف على معتقدات الشيعة.

ثم لو فرضنا صحة ما يقوله الأستاذ ، فنقول : إن الشيعة والسنة في هذا الأمر سواسية ، وقد روى مسلم في صحيحه مسألة وراثه قريش الإمامة والخلافة واحداً تلو الآخر منهم ، إلى أن ينتهي عددهم إلى الاثني عشر ، فجواب الأستاذ عن هذه الأحاديث هو نفس جواب الشيعة عن الإمامة الوراثية المزعومة.

روى مسلم في صحيحه عن رسول الله أنه قال : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان ».

وروى عن جابر بن سمرة ، قال : دخلت مع أبي علي النبي صلى الله عليه وآله فسمعتة يقول : « إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة » ثم تكلم بكلام خفي عليّ قال : فقلت لأبي ما قال ؟ قال : قال « كلهم من قريش ».

وفي نص آخر يقول : « لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة » ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي ما قال ؟ فقال : « كلهم من قريش » (1).

فنسأل الأستاذ ما معنى هذه الحكومة الوراثية التي أخبر عنها النبي الصادق بالحق ، وأن قبيلة قريش تستلم الخلافة واحداً تلو الآخر إلى أن ينتهي عدد الخلفاء إلى اثني عشر خليفة ؟ فلو كانت الحكومة الوراثية صورة معكوسة عن الحكومة الإلهية والدعوة السماوية ، فلماذا أخبر عنها النبي كما أخبر بأن الإسلام يعتز بهم ، فهل يتصور عزة الإسلام بحكومة على غرار الحكومات المادية ؟!

ثم نسأل الأستاذ مَنْ أولئك الأئمة الاثنا عشر الذين أخبر عنهم خاتم الأنبياء والرسول ؟ فهل ينطبق ذلك بعد الخلفاء الأربعة ، على خلفاء الأمويين أو

ص: 500

1- صحيح مسلم : 3 / 2 ، كتاب الامارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة لقريش.

العباسيين؟ وهل الإسلام اعترى بخلافة معاوية ثم ابنه يزيد، ثم المروانيين وبعدهم العباسيون؟!

نعم هذه الأحاديث التي جاءت في صحيح مسلم لا تنطبق إلا على الأئمة الاثني عشر، الذين ذهبوا إلى خلافتهم وجاءت النصوص على إمامتهم من النبي الأكرم وأهل بيته على وجه لو جمعت تلك النصوص لصارت كتاباً مفرداً ضخماً وقد اعترى الإسلام بعلومهم وسلوكهم.

وفي ختام دراسة هذا الشرط نلفت نظر الكاتب إلى أنه إذا كانت الحكومة الوراثية شعار الحكومات المادية، فيجب تنزيه النبوات على الإطلاق عنها من غير فرق بين الدائمة والمؤقتة، ومع ذلك كله نرى وجود الحكومة الوراثية في النبوات السابقة، قال سبحانه: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (1)، فالله سبحانه وهب الملك العظيم لآل إبراهيم، فجعل من بينهم ملوكاً وأمراء فلو كانت الحكومة الوراثية رمز الحكومات المادية البشرية، فلماذا وهبها سبحانه للأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام إذ قال: (أَمْ يَحْسُدُونَ... الخ)؟

وقال سبحانه: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ) (2)، هذا كله حول الشرط الثاني من الشروط التي انتخبها الأستاذ للنبوات الخالدة حسب ذوقه، وقد عرفت أن الكتاب والسنة يخالفاه، وإليك تحليل الشرط الثالث.

ص: 501

1- النساء: 54.

2- المائدة: 20.

قال الأستاذ :

يجب أن تكون الصحيفة السماوية الأخيرة التي نزلت على النبي الخاتم (والتي تعتبر أساساً لدينه ، ومصدراً لتعاليمه ودعوته ووسيلة دائمة لربط الخلق بخالقه) مصونة سالمة في كل حرف من حروفها ونقطها.

أقول : لا شك أن الرسول الخاتم لأجل خلود رسالته ودوام نبوته يجب أن تكون صحيفته السماوية مصونة عن كل تحريف ، لأن المفروض أن رسالته خاتمة الرسالات ونبوته خاتمة النبوات ، وكتابه خاتم الكتب ، لا ينزل بعده أي كتاب وصحيفة إلى يوم القيامة ، وعلى ضوء ذلك لا محيص عن تعلق مشيئته الحكيمة على حفظه وصيانته ، ليتسنى للبشر إلى يوم القيامة العمل ببرامج وتعاليم تلك الرسالة ، ولو طرأ عليه التحريف لما تسنى للأجيال الآتية القيام بوظائفهم الحقيقية وعندئذ ضاعت غاية « البعثة » وهدفها ويكون الناس إلى يوم القيامة جاهلين بالشرية.

وقد ذهب المحققون من الشيعة والسنة إلى تحقق هذا الشرط في نبوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وإن وجد بين الطائفتين من الحشوية من السنة ، والاخبارية من الشيعة من ذهب إلى طروء التحريف على كتابه ، لكن القول به شاذ في كلتا الطائفتين والروايات الواردة في كتبهم روايات شاذة لا يعاب بها ، والرأي السائد في عامة الأجيال بين الفريقين هو صيانة الكتاب من التحريف ، أما السنة فقد تسالم عليها الأستاذ ، وأما الشيعة فقد نسب إليهم الكاتب التحريف تقليداً لمن سبقه من رماة القول على عواهنه ، ومن راجع كتب المحققين منهم يرى اتفاقهم على ذلك ،

ص: 502

ونحن نأتي بأسماء مجموعة منهم ، وإن كان الفائت من أسمائهم أكثر ممّا أتينا به :

1. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (المتوفى 381 هـ) يقول : اعتقدنا في القرآن أنه كلام الله ووحيه وتنزيله وقوله وكتابه وإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم ، وأنه القصص الحق ، وأنه لحق فصل وما هو بالهزل ، وإن الله تبارك وتعالى محدثه ومنزله وربّه وحافظه والمتكلّم به (1).

2. السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (المتوفى 436 هـ) قال : إن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي عدّة ختمات ، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور ولا مبثوث (2).

3. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (المتوفى 460 هـ) : قال : وأمّا الكلام في زيادة القرآن ونقصه فممّا لا يليق به أيضاً ، لأنّ الزيادة فيه مجمع على بطلانها ، وأمّا النقصان فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه ، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى ، وهو الظاهر في الرواية ، قيل إنه رويت روايات كثيرة من جهة الشيعة وأهل السنّة ينقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع ، لكن طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً ، والأولى الإعراض عنها (3).

4. أبو علي الطبرسي ، صاحب تفسير « مجمع البيان » يقول : الكلام في زيادة

ص: 503

1- الاعتقادات : 93.

2- مجمع البيان : 1 / 10 ، نقلاً عن جواب المسائل الطرابلسيات للسيد.

3- التبيان : 1 / 3.

القرآن ونقصانه ، أمّا الزيادة فيه فمجمع على بطلانها ، وأمّا النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أنّ في القرآن تغييراً أو نقصاناً والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه (1).

5. السيد علي بن طاووس الحلبي (المتوفى 664 هـ) : قال : إنّ رأي الإمامية هو عدم التحريف (2).

6. الشيخ زين الدين العاملي النباطي البياضي (المتوفى 877 هـ) يقول في تفسير قوله : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (3) : أي إنّنا لحافظون له من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (4).

7. القاضي السيد نور الله التستري صاحب كتاب « إحقاق الحق » (المتوفى 1019 هـ) يقول : ما نسب إلى الشيعة الإمامية من وقوع التغيير في القرآن ليس ممّا يقول به جمهور الإمامية إنّما قال به شذمة قليلة منهم ، لا اعتداد لهم فيما بينهم (5).

8. الشيخ البهائي نابغة عصره ونادرة دهره محمد بن حسين المشتهر ببهاء الدين العاملي (المتوفى 1030 هـ) قال : الصحيح أنّ القرآن العظيم محفوظ عن ذلك زيادة كان أو نقصاناً ، وما اشتهر بين العلماء من إسقاط اسم أمير المؤمنين عليه السلام منه في بعض المواضع فهو غير معتبر عند العلماء (6).

9. المحدث الأكبر الفيض الكاشاني (المتوفى 1091 هـ) صاحب كتاب « الوافي » الذي يعد من الجوامع الحديثية المتأخرة قال : وقال الله تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) (7) وقال : (إِنَّا نَحْنُ

ص: 504

1- مجمع البيان : 1 / 10.

2- سعد السعود : 144.

3- الحجر : 9.

4- إظهار الحق : 2 / 130.

5- و (6) آلاء الرحمان : 1 / 25 - 26.

6- فصلت : 41 - 42.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) عندئذ كيف يتطرق إليه التحريف والتغيير ... مع أنّ خبر التحريف مخالف لكتاب الله ، مكذب له ، فيجب رده والحكم بفساده وتأويله (1).

10. الشيخ الحر العاملي (المتوفى 1104 هـ) قال : والمتبع للتاريخ والأخبار والآثار يعلم يقيناً بأنّ القرآن ثابت بغاية التواتر ، وينقل الآلاف من الصحابة ، وإنّ القرآن كان مجموعاً مؤلفاً في عهد الرسول (2).

هذه هي الشخصيات الكبيرة من الإمامية الذين عرفت تنصيبهم على عدم طرؤ تحريف على الذكر الحكيم ، وقد جئنا بأسماء القائلين بعدم التحريف إلى نهاية القرن الحادي عشر ، وأمّا الذين نصّوا على عدم التحريف في القرون الأخيرة فحدّث عنهم ولا حرج ، كيف ، وقد ألفوا رسائل كبيرة وصغيرة حول الموضوع ، ونحن نسأل الأستاذ بأيّ دليل يقول بأنّ تنصيب الشخصيات الأربع الأول على عدم التحريف من باب التقيّة ، أهكذا أدب العلم وأدب الإسلام ؟ أليس الله تعالى يقول : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) (3)؟! والعجب أنّه يستشهد على هذا النظر بقول أعداء الشيعة ويترك قول علمائهم ، وبما أنّ الكاتب يستند في بعض أبحاثه إلى كلمات قائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني - دام ظله - نأتي بنصّ كلامه في هذا الموضوع ، وهذا ما جاء في محاضراته التي ألقيت قبل بضع وثلاثين سنة :

« إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة ، يقف على بطلان تلك المزعمة (التحريف) وإنّه لا ينبغي أن يركن إليها ذو

ص: 505

1- تفسير الصافي : 1 / 51.

2- راجع آلاء الرحمان : 1 / 25.

3- النساء : 94.

مسكة ، وما وردت فيه من الأخبار ، بين ضعيف لا يستدل به ، إلى مجعول يلوح منه أمارات الجعل ، إلى غريب يقضي منه العجب ، إلى صحيح يدل على أنّ مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره ، إلى غير ذلك من الأقسام التي يحتاج بيان المراد منها إلى تأليف كتاب حافل ، ولولا خوف الخروج عن طور البحث لأرخينا عنان البيان إلى تشريح تاريخ القرآن وما جرى عليه طيلة القرون ، وأوضحنا لك أنّ الكتاب هو عين ما بين الدفتين ، والاختلاف الناشئ بين القراء ليس إلاّ أمراً حديثاً لا ربط له بما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين (1).

الرسائل المفردة حول صيانة القرآن من التحريف

إنّ علماء الشيعة الإمامية لم يقتصروا على هذه الجمل القصيرة حول صيانة الذكر الحكيم من التحريف بل ألفوا رسائل مفردة منذ أربعة قرون حولها :

1. الشيخ الحر العاملي قد أفرد رسالة في هذا الموضوع أسماها « تواتر القرآن » (2).
2. الشيخ عبد العالي الكركي ، فقد ألف رسالة في نفي النقيصة عن القرآن ، ذكرها العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي في « آلاء الرحمن » (3). وقد جاء في الرسالة كلام الصدوق ، ثم أعترض على نفسه بورود روايات تدل على التحريف ، فأجاب بأنّ الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة أو الإجماع ولم يتمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه ، وجب طرحه.

ص: 506

1- تهذيب الأصول : 2 / 96 ، تقريرات أبحاث الإمام الخميني بقلم جعفر السبحاني.

2- أمل الآمل : 1 / 31.

3- آلاء الرحمن : 1 / 26.

3. المتتبع البارع الشيخ آغا بزرك الطهراني مؤلف « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » ، فقد أفرد رسالة أسماها « النقد اللطيف في نفي التحريف ».
4. العلامة الحجة الشيخ عبد الحسين الرشتي الحائري ، فقد ألّف رسالة حول الموضوع أسماها « كشف الاشتباه ».
5. خصص العلامة المحقق السيد الطباطبائي بحثاً مبسوطاً في صيانة الذكر الحكيم في ميزانه ، في تفسير قوله : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (1).
6. إن العلامة المحقق السيد الخوئي - دام ظلّه - قد أفرد بحثاً ضافياً حول صيانة الذكر الحكيم في كتابه « البيان في تفسير القرآن » ، وقد أغرق نزاعاً في التحقيق فلم يبق في القوس منزعاً.
7. وقد قام العلامة الشيخ رسول جعفریان بتأليف رسالة نافعة حول الموضوع أسماها « أكلوبة تحريف القرآن » حياها الله وبياه.
8. العلامة الشيخ آية الله محمد هادي معرفة ، فقد قام بتأليف كتاب قيم حول الموضوع أسماه « صيانة القرآن من التحريف » طبع في قم المقدسة سنة 1413 هـ ، وهو من منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.
- وليست عقيدة الشيعة حول الذكر الحكيم أمراً مخفياً على المحققين من السنّة ، فهذا علامة الهنود رحمة الله الهندي نقل عقيدة الشيعة في كتابه ، وقال : إن القرآن المجيد عند جمهور علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية محفوظ عن التغيير والتبديل ، ومن قال منهم بوقوع النقصان فيه ، فقله مردود غير مقبول عندهم (2).

ص: 507

1- الميزان : 12 / 106 - 137.

2- إظهار الحق : 2 / 128.

وأخيراً نلقت نظر القارئ، إلى محقق عصرنا السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، فقد قال في كتابه «أجوبة مسائل موسى جار الله» نسب إلى الشيعة القول بتحريف القرآن بإسقاط كلمات وآيات، ثم قال: نعوذ بالله من هذا القول، ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الجهل، وكلُّ من نسب هذا الرأي إلينا، جاهل بمذهبنا أو مفتر علينا، فإنَّ القرآن العظيم والذكر الحكيم متواتر من طرفنا بجميع آياته وكلماته وسائر حروفه وحركاته وسكناته تواتراً قطعياً عن أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام ولا يرتاب في ذلك إلاَّ معتوه (1).

ثم إنَّ المتحاملين على الشيعة في مسألة تحريف القرآن يستندون إلى كتاب «فصل الخطاب» للمحدِّث النوري الذي جمع فيه المسانيد والمراسيل التي استدلت بها على النقيصة، ولكن غفل المتحامل عن الرسائل الكثيرة التي ألُفَّت رداً عليه، وكفى بذلك ما ذكره العلامة البلاغي فقال: إنَّ القسم الوافر من الروايات ترجع أسانيدُه إلى بضعة أنفار وقد وصف علماء الرجال كلاًَّ منهم بأنه:

1. إمَّا ضعيف الحديث، فاسد المذهب، مجفُو الرواية.

2. وإمَّا بأنه مضطرب الحديث والمذهب يعرف حديثه وينكر، ويروي عن الضعفاء.

3. وإمَّا بأنه كذاب متهم لا استحلال أن أروي من تفسيره حديثاً واحداً، وإنَّه معروف بالوقف وأشدَّ الناس عداوة للرضا عليه السلام.

4. وإمَّا بأنه كان غالباً كذاباً.

5. وإمَّا بأنه ضعيف لا يلتفت إليه ولا يعول عليه ومن الكذَّابين.

6. وإمَّا بأنه فاسد الرواية يرمى بالغلو.

ص: 508

1- أجوبة مسائل موسى جار الله : 34.

ومن الواضح أنّ أمثال هؤلاء لا تجدي كثرتهم شيئاً، هذه حال المسانيد، وأمّا أكثر المراسيل فمأخوذة من تلك المسانيد (1).

هذا توصيف إجمالي عن هذه الروايات التي يستند إليها أعداء الشيعة في هذه النسبة، ويكفي في ذلك أنّ ثلاثمائة حديث من هذه الأحاديث، يرويه السياري: ويكفي في ضعفه قول الرجالي المحقّق النجاشي: أنّه ضعيف الحديث، فاسد المذهب، مجفوء الرواية، كثير المراسيل، متهم بالغلو (2).

كما أنّ كثيراً من هذه الروايات ينتهي إلى يونس بن ظبيان الذي وصفه النجاشي بقوله: ضعيف جداً، لا يلتفت إلى ما رواه، كل كتبه تخليط (3).

كما أنّ قسماً منه ينتهي إلى منخل بن جميل الكوفي وقد نص النجاشي على كونه ضعيفاً فاسد الرواية (4).

الكافي كتاب حديث لا كتاب عقيدة

ثم إنّ الكاتب يستند في هذه النسبة إلى وجود روايات التحريف في الكافي، ولكنّه غفل عن أنّ كتاب الكافي في نظر الإمامية ليس كالصحيح في نظر أهل السنّة الذين يقولون: إنّ كل ما في البخاري صحيح، وإنّما هو كتاب: فيه الصحيح والضعيف والمرسل، وما يوافق الكتاب وما يخالفه، فلا يمكن الاستدلال بوجود الرواية فيه على عقيدة الشيعة، وما يلهج به علماء الحديث في حق صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد ويقولون:

ص: 509

1- آلاء الرحمن: 1 / 26.

2- رجال النجاشي: 1 / 211 برقم 190.

3- رجال النجاشي: 2 / 423 برقم 1211.

4- رجال النجاشي: 2 / 372 برقم 1128.

وما من صحيح كالبخاري جامعاً*** ولا مسند يلفى كمسند أحمد

أقول : إنّ ما يلهجون به في حق كتبهم مخصوص بهم ، فليس كلّ ما في الجوامع الحديثية عند الشيعة ، صحاحاً يستدل بكلّ حديث ورد فيها في كلّ موضوع ومورد ، بل الاستدلال يتوقّف على اجتماع شرائط الصحّة التي ذكرها علماء الدراية والحديث ، ونحن واللّه نعاني من عدم اطلاع هؤلاء على « أبجدية » عقائد الشيعة ومداركها ومصادرها.

التحريف في كتب أهل السنّة

نحن نجلّ علماء السنّة ومحقّقيهم عن نسبة التحريف إليهم ، ولكن لو كان وجود الرواية في كتب التفسير والحديث دليلاً على العقيدة ، فقد رويت أحاديث التحريف في كتبهم أيضاً ، ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من هذه الروايات نشير إلى بعضها :

1. أخرج أبو عبيد في الفضائل ، وابن مردويه ، وابن الأنباري ، عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله عليه و آله مائتي آية ، فلمّا كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلاّ على ما هو الآن (1).

2. عن عمر : لولا أن يقول الناس ، إنّ عمر زاد في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي (2).

3. نقل عن ابن مسعود أنّه حذف المعوذتين من المصحف ، وقال : إنّهما ليستا من كتاب الله (3).

ص: 510

1- الدر المنثور : 5 / 180 ; تفسير القرطبي : 14 / 113.

2- صحيح البخاري : 1 / 69 ، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء ، ط مصر - 1372 هـ .

3- الدر المنثور : 6 / 416.

وهناك روايات كثيرة مبنوثة في كتب التفاسير والحديث والتاريخ تحكي عن طروء التحريف على الذكر الحكيم ، ونحن نقتصر على الأقل القليل منها ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب « اكدوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة » : ص 27 - 33.

ونحن نرى أن في الإصرار على نسبة التحريف إلى أية طائفة من الطوائف الإسلامية ضرراً واسعاً على الإسلام والمسلمين ، ولا يستفيد منه إلا المستعمرون وأذئابهم.

وعلى الرغم من كثرة هذه الروايات نحن لا نؤمن بصحتها كما لا يؤمن علماء أهل السنة المحققون بها ، ولا تبني عقيدتهم عليها ، فهي بين ضعاف السند ، أو ضعاف الدلالة ، وقبل كل شيء تخالف الذكر الحكيم وإجماع الأمة.

اقترح للمتسرّعين في الكتابة

نحن نرى أن عدّة من المتسرّعين في الكتابة حول الملل والنحل ، وبالأخص حول الشيعة الإمامية ، يجترئون في خلق النسب المخزية إلى تلك الطائفة ، ويعتمدون في كل ذلك على كتب المستشرقين ، أو ما ألف بيد المغفلين الجاهلين بعقيدة الشيعة ، وأخيراً يعتمدون على بعض كتب الشيعة التي لا تعد مصدراً رصيناً لبيان عقيدة تلك الطائفة.

ونحن نقترح على هؤلاء الكتاب أن يقيموا مؤتمراً علمياً حراً في إحدى العواصم الإسلامية تحضره عدّة من محققي السنة والشيعة ليتدارسوا تلك النسب المفتعلة ، على ضوء المصادر الصحيحة للشيعة والسنة ، فلعل هذا المؤتمر إذا أُقيم بشكل صحيح يكون ناجحاً في رفع الأغشية والأغشية عن أعين كثير من غير

المُطلعين على عقيدة تلك الطائفة ، وأنّ علماء الشيعة مستعدون للبحث والنقاش والحوار الصحيح الذي دعا إليه القرآن الكريم في كل مكان وزمان بشرط أن يكون المؤتمر محايداً حراً غير منحاز إلى فئة دون فئة ، وسياسة دون سياسة ، فعند ذلك ستتجلّى الحقيقة ويرى إخواننا أهل السنة أنّ هناك مشتركات بين الطائفتين تزيد على مفترقاتهما القليلة ، وأنّ ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا ، كما تتجلّى قوّة منطق الشيعة في مورد المفترقات (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) (1).

هذا كلّه حول الشرط الثالث ، وإليك الشرط الرابع الذي هو آخر الشرائط الأربعة للنبوة الخالدة.

الشرط الرابع للنبوة الخالدة

إشارة

قال الكاتب : الشرط الرابع : هو أن يكون النبيُّ بذاته مركز الهداية ومصدر القيادة ومحور العلاقة القلبية والانقياد الفكري للأُمَّة ، فتعتقد بكونه خاتم الرسل ولا تسمح لأحد بعده بالمشاركة في النبوة والتشريع المطلق ، ولا تعتقد في أحد آخر العصمة وتعتبره مورد الوحي ثم إنّه استنتج من هذا الشرط أنّ الشيعة الإمامية يخالفونه ويعتقدون بالأُمور التالية :

1. إنّ خلفاء الرسول قد تمّ تعيينهم من عند الله.
2. وأنّهم معصومون كالنبيِّ.
3. أنّهم مفترضو الطاعة ، وطاعتهم واجبة كطاعة الرسول.
4. إنّ الملائكة تردّد على الأئمة ليلاً ونهاراً.
5. أنّ الأئمة لهم الخيار في تحليل الأشياء وتحريمها.

ص: 512

6. انّ المؤمن بالأئمة من أهل الجنة وإن كان ظالماً وفاقراً وفاجراً.

ثم استشهد على ذلك بقول المستشرقين الثلاثة : البطريق « هوجيس » ، « فيلب حتي » ، « واوانو » (1).

نظريتنا في هذا الشرط وتحليله

إنّ ما رتب على هذا الشرط بين صحيح دَلّ عليه الدليل ، وبين مختلق مكذوب على الشيعة ، كما أنّ نفس الشرط أمر مجمل يحتاج إلى تفسير ، ولأجل ذلك نبحت عن كلّ واحد من هذه الأمور واحداً تلو الآخر حتى يتضح مدى صحة هذا الشرط وصحة ما تعتقده الطائفة الإمامية من بعض هذه الأمور :

أمّا الأول : أعني : كون الإمامة عند الشيعة الإمامية تنصيبية ، وعند أهل السنّة انتخابية ، فالشيعة يعتقدون أنّ الإمام بعد الرسول الأكرم يعيّن من جانبه سبحانه ، وأهل السنّة يعتقدون بأنّ أهل الحل والعقد يقومون بانتخابه ، فكلتا النظريتين بالنسبة إلى الشرط الرابع سواسية ، فإنّ كون شخصية الرسول مركز الهداية ومحور العلاقة القلبية ، لا ينافي أن يأمره سبحانه بنصب الخليفة بعده ، كما لا يخالف أن يفوض أمر تعيينه إلى الأئمة ، فاستنتاج صحة إحدى القضيتين وبطلان النظرية الأخرى من الشرط الرابع على فرض صحته ، غريب جداً. وأي معارضة بين كون الرسول مركز الهداية وكون الإمام بعده والخليفة القائم مقامه منصوباً من جانبه سبحانه ؟ لأنّ للنبي وظائف ، وللإمام والخليفة وظائف ، ولا يشارك الإمام في جميع شؤون النبي منصوباً كان أو منتخباً ، فتأسيس الشريعة

ص: 513

1- صورتان متضادتان : 16 ، 83 ، 84. ولا تنس انّ الكاتب يعد النبي الأكرم مصدر التشريع. والشيعة كما لا نقول بكون الأئمة من مصادره لا تقول بأنّه صلى الله عليه وآله مشرعاً ومصدراً للتشريع بل مبلغاً رسالة الله ، فلو وصفنا النبي أحياناً بمصدر التشريع فهو من باب المجازة للقوم.

يختص به لا يشاركه الإمام في كلتا النظريتين.

لا- شك أنّ الكليم موسى عليه السلام كان مركز الهداية ، ومحور العلاقة القلبية ، ومع ذلك نصب هارون عليه السلام مكانه ، وقال : (اٰخُلْفٰنِي فِي قَوْمِي وَاَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيْلَ الْمُفْسِدِيْنَ) (1) ، ولم يكن تنصيبه أخاه مكانه إلا برضا منه سبحانه.

إنّ معنى كون الرسول الأ-عظم مركز الهداية عبارة عن كونه خاتماً للنبوّة والرسالة ، لا خاتماً للوصاية والخلافة والإمارة ، والأوصياء عند الشيعة ليسوا بأنبياء كما أنّهم ليسوا رسلاً ، وإنّما هم خلفاء الرسول شأنهم تنفيذ ما شرّع الرسول الأعظم في غيابه.

وأما الثاني : أعني : عصمة الأئمة من الذنوب ، فتكفي في ذلك آية التطهير ، أعني قوله سبحانه : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (2) ، فإنّ الآية بحكم تذكير الضمائر ، أعني : « عنكم » و « يطهركم » لا تمت لنسائه وزوجاته بصلة ، وقد دلّت الآثار النبوية على اختصاص الآية بالخمسة الطاهرة ، أعني : النبي الأكرم وفاطمة وبعلاها وبنيتها ، وأما دلالتها على نزاهتهم من الذنب ، فلاجل أنّ الإرادة الواردة في الآية تكوينية خلاقة للمراد لا تنفك عنه ، أعني : التطهير من الذنب ، وليست الإرادة التشريعية بمعنى طلب التطهير عنهم ، لأنّها لا تختص بطائفة دون طائفة بل تعم المكلفين عامة ، ولكن الآية تخصص هذه الإرادة بأهل البيت وتقول : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ، والحال أنّ الإرادة التشريعية عامّة تعم جميع المكلفين لا جماعة خاصة.

هذا هو موجز ممّا فصله المحققون في رسائلهم وتفسيرهم حول الآية ، ومن

ص : 514

1- الأعراف : 142.

2- الأحزاب : 33.

أراد التفصيل فليرجع إلى ما سبق في هذا الجزء.

والكاتب قدّم الفكرة أولاً وصوّرها عند نفسه سالمة عن النقد وهي انحصار العصمة في النبي الأكرم ، ولأجل ذلك عاد يصوّر القول بعصمة الأئمة أمراً مناقضاً لكون النبي مركز الهداية مع أنّ كون النبي مركزها ومصدرها ليس بمعنى انحصار العصمة فيه ، بل معناه أنّه صاحب النبوة والرسالة وصاحب الشريعة والملة وغيره يتفدّ ما خطّه الرسول ورسّمه مع عصمة في القول وصيانة عن الزلل في العمل ، وإن أردت تصوير كون النبي مركز الهداية ومصدر القيادة فقل : إن النبيّ الأكرم واقع في نقطة المركز من الدائرة وغيره كالخطوط النابعة منه يستضيء بنوره ويقتبس من علمه ، وهذا لا ينافي أن يكون المستضيء والمستفيد معصوماً مثله ويكون في الوقت نفسه تابعاً له متتوراً بنوره.

وأما الثالث : أعني كونهم مفترضي الطاعة فليس هذا بأمر عجيب فإنّ وجوب الطاعة لا يختص بالنبي الأكرم ، بل تجب إطاعة أولي الأمر بنص الذكر الحكيم ، قال سبحانه : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (1).

إنّ الأستاذ يعيب على الشيعة بأنهم يقولون بأنّ الأئمة مفترضو الطاعة مع أنّهم يقولون بافتراض طاعة السلطان برأ كان أو فاجراً ، ولا أقل يقولون بحرمة الخروج على السلطان الجائر وإن بلغ من الجور والفساد ما بلغ (2).

وأما الرابع : أعني : قوله : إنّ الملائكة تردّد على الأئمة ليل نهار ، فلو كان هذا بمعنى كونهم أنبياء فالشيعة برآء منه ، فإنّ النبوة قد ختمت بالنبي الأكرم بنصّ الذكر الحكيم وإجماع المسلمين وتواتر الروايات ، وإن كان بمعنى كونهم محدّثين

ص: 515

1- النساء : 59.

2- مقالات الإسلاميين لإمام الأشاعرة : 323 ، ط القاهرة.

(بالفتح) وإن الملائكة تكلمهم فليس هذا بأمر غريب، وهذه مريم البتول قد كلمتها الملائكة، وقالت لها: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) (1). فلم تكن مريم بتكليم الملائكة إياها نبية أو رسولة، وإنما صارت محدثة (بالفتح)، وكون الإنسان محدثاً غير كونه نبياً أو رسولاً، والكاتب لم يفرق بين الرسالة والنبوة، ومسألة التحدث مع الملائكة.

وقد أصفقت الأمة الإسلامية على أن في هذه الأمة على غرار الأمم السابقة أناساً محدثون (بالفتح)، وقد أخبر بذلك النبي الأعظم كما ورد في الصحاح والمسانيد، والمحدث من تكلمه الملائكة بلا نبوة ولا رؤية صورة، أو يلهم ويلقى في روعه شيء من العلم على وجه الإلهام والمكاشفة من المبدأ الأعلى، او ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره، أو غير ذلك من المعاني التي يمكن أن يراد منه، فهذا أمر مسلم غير أن الخلاف في مصاديقه وجزئياته، فالشيعة تعتقد بأن علياً أمير المؤمنين وأولاده الأئمة من المحدثين وأهل السنة يرون غيرهم.

أخرج البخاري في باب مناقب عمر بن الخطاب عن أبي هريرة، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم، فإنه عمر بن الخطاب» (2).

ونحن نكتفي بهذا المقدار في تحقيق الحال والتبسيط يحتاج إلى أفراد رسالة في هذا الموضوع، على أن الآية الحاكية عن تكريم الملائكة لمريم البتول كافية في الموضوع، فإنها دليل أولاً على كون مريم محدثة تكلمها الملائكة، وهي تسمع كلامهم، كما أنها دليل على اعتصامها بعصمة الله فهي مصطفاة معصومة، فلا ذنب للشيعة إذا اعتقدت أن الأئمة من بعد الرسول محدثون بلا نبوة ولا رسالة،

ص: 516

1- آل عمران : 42.

2- صحيح البخاري : 2 / 194.

مطهرون من الذنب والخلاف ، نظير مريم البتول.

والعجب من الكاتب ومن لفّ لفه أنّهم يفرون من نسبة العصمة إلى الأئمة فرار المزكوم من المسك مع أنّهم يتعاملون مع الصحابة معاملة العصمة ، ويحرمون البحث حول ما صدر عنهم من الأفعال المضادة للكتاب والسنة ، والإنسان عندما يقف على حساسية القوم الخاصّة بحياة الصحابة ، يتحيّرون أنّهم كيف يجعلون الصحابة بمقربة من العصمة وفي الوقت نفسه لا يباليون عن نسبة الذنب والخلاف إلى أنبياء الله ورسله ، والكتب الكلامية لأهل السنة لا تأبى عن نسبة الذنب إلى الأنبياء صغيراً وأحياناً كبيراً (1).

وأما الخامس : أعني : كون الأئمة لهم الخيار في تحليل الأشياء وتحريمها ، فهي فرية واضحة على الشيعة ، فإنّ الشيعة عن بكرة أبيهم قائلون بختم النبوة والرسالة ، وأنّ حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

اتّقت كلمتهم على أنّ منكر الخاتمية مرتد خارج عن الإسلام ، وقد تضافرت الروايات على ذلك (2).

ولعمر الحق أنّ الرجل قد أشرك الشيعة في أمور لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وهم برآء منها براءة يوسف عن تهمة الطاغية.

وبما أنّ هذه الفكرة الخاطئة قد تسرّبت إلى أذهان البسطاء بحق هذه الطائفة نبحت عن هذا الموضوع بإسهاب :

ص: 517

-
- 1- للوقوف على آراء أهل السنة حول عصمة الأنبياء لاحظ مفاهيم القرآن : 4 / الفصل السادس ، العصمة في القرآن الكريم.
 - 2- ومن أراد الوقوف على عقيدة الشيعة في الخاتمية وكيفية برهنتهم عليها من الكتاب والسنة ، فليرجع إلى موسوعتنا القرآنية ، مفاهيم القرآن : 3 / 117 - 317.

الإمامية تعتقد بأنَّ مصدر التشريع هو الله الجليل وأنه ليس للنبيّ - فضلاً عن الأنمة - حق التشريع ، وأنه محصور في حقه سبحانه ، وأنَّ الاعتقاد بذلك هو أحد مراتب التوحيد ودرجاته ، وقد دلَّت الآيات على انحصار هذا الحق به سبحانه قال : (إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (1).

وليست هذه الآية هي الآية الوحيدة في هذا الباب ، بل هناك طائفة من الآيات تتحد معها في حصر الحاكمية بالله سبحانه كما تحصر حق التقنين والتشريع به ، ومن أجل ذلك يندد القرآن باليهود والنصارى حيث اتخذوا الأحبار والرهبان مصادر للتقنين بقوله سبحانه : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ) (2) ، ومعنى الاعتقاد بربوبيتهم هو امتلاكهم زمام التحليل والتحريم ، مع أنَّ زمامهما بيده سبحانه لم يفوضهما لأحد.

قال الإمام الباقر عليه السلام : « يا جابر انا لو كنا نحدِّثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ، ولكننا نحدِّثكم بأحاديث نكتننها عن رسول الله كما يكتنن هؤلاء ذهبهم وفضتهم ».

وفي رواية أخرى : « ولكننا نفتيهم بأثر من رسول الله وأصول علم عندنا نتوارثها كابراً عن كابر ».

وفي رواية محمد بن شريح عن الصادق عليه السلام : « والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا ولا نقول إلا ما قال ربُّنا ».

ص: 518

1- يوسف : 40.

2- التوبة : 31.

وفي رواية عنه عليه السلام : « مهما أجبته في شيء فهو عن رسول الله ، لسنا نقول برأينا من شيء » (1).

ولولا- الخوف من تعكير الصفو لأتينا بنصوص كثيرة ممن يحسبون أنّ الخلفاء والصحابة من مصادر التشريع ، بل لا يختص التشريع بالصحابة ويعم الأمراء والسلاطين فتتخذ آراؤهم ونظرياتهم أحكاماً إلهية ، وبما أنّ البحث في هذه المواضيع يوجب الخروج عن الموضوع نظوي الكلام فيه ، وكفى في ذلك أنّ الأستاذ عبد الوهاب خلاف عدّ في كتابه « مصادر التشريع الإسلامي » فيما لا نص فيه : إجماع أهل المدينة ، وقول الصحابي ، وإجماع أهل الكوفة ، وإجماع الخلفاء الأربعة من مصادره (2).

وأما السادس : أعني : كون المؤمن بالأئمة من أهل الجنة وإن كان ظالماً وفاسقاً ، فهو بهتان عظيم ، ويكفي في ذلك قول الإمام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر الجعفي قال له : « يا جابر أيكفي من انتحل التشيع وأحبنا أهل البيت ، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه ، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع ، وبالإنابة وكثرة ذكر الله ، والصلاة والصوم ، وبر الوالدين ، وتعاهد الجيران والفقراء والمساكين والغارمين والأيتام ، وصدق الحديث وتلاوة القرآن ، وكف الألسن عن الناس ، إلا من خير ، وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء » (3) وقال سبحانه : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (4).

ص: 519

1- راجع جامع أحاديث الشيعة : 1 / 17 ، المقدمة.

2- مصادر التشريع الإسلامي : 109.

3- أمالي ابن الشيخ المطبوع مع أمالي الشيخ : 97.

4- آل عمران : 31.

إنّ الكاتب ومن لفّ لفّه يزعمون أنّ المشكلة الوحيدة التي يواجهها الإسلام هي مشكلة الشيعة والجمهورية الإسلامية الإيرانية ، ولأجل ذلك لا يهتمّ شيء إلاّ الكتابة حول عقيدة الشيعة والنيل من مبادئهم وأصولهم ، ولهذا نرى أنّ الهجمة والصولة اشتدّت في السنوات الأخيرة على الشيعة ومبادئهم وأفكارهم لكي يستطيع هؤلاء أن يزيلوا مشكلتهم الصعبة هذه من مسيرتهم ويصلوا إلى القمّة من السعادة والهناء !!

وعجيب أنّ الكاتب يعيش في شبه القارة الهندية التي تحلق فيها بالمسلمين مشاكل جمّة ، وكانت العناية بحلّها أولى وألزم من النيل من عقائد طائفة ليس لها ذنب إلاّ التمسك بكتاب الله وعترته رسوله الطاهرة اللذين تركهما رسول الله صلى الله عليه وآله حجّتين بين الأُمّة إلى يوم القيامة وقال : « إنّني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي » (1).

أوليس الكاتب يرى بأنّ الوثنية هي التي أخذت تتزايد وتتسع في القطر الهندي ، المكان الذي يقطن فيه الكاتب مع أبناء جلدته وما من يوم ولا أسبوع إلاّ ويؤسس فيه معبد بل ومعابد للوثنيين ، حتى في البلاد المكتظة بالمسلمين كلكهنو الندوي التي تكون فيها المعابد الوثنية على مقربة من داره.

وهذه الصحف العالمية تتناقل أخبار شروع الحكومة الوثنية الهندية باغتصاب مساجد المسلمين وتحويلها إلى معابد للأوثان بحجج واهية ، هذا ،

ص: 520

1- صحيح مسلم : 122 / 7 ; سنن الترمذي : 37 / 2 ; مسند أحمد بن حنبل : 14 / 3 و 17 ، وغيره.

والندوي وداره وأعوانه لا ينسون في ذلك بنت شفة ، فهم لا يعينهم تبديل بيوت الله إلى بيوت أوثان إنما تعينهم مهاجمة الشيعة ومبادئها. وهذه أيضاً مدينة حيدر آباد الإسلامية في الهند ، مكتظة باتباع الرسالة المحمدية وكان بناء معابد الوثن فيها ممنوعاً أشد المنع ، إلا أن الحكومة الوثنية هناك ضربت بهذا المنع عرض الحائط ، وبدأت ببناء المعابد الوثنية ناوية بذلك استئصال شأفة المسلمين وقطع جذورهم. وزيادة على ذلك ، فقد أريقت دماء مليون مسلم في ولاية آسام بيد الحكومة الهندية ، ونشرت خبر ذلك الصحف وتناقلته وكالات الأنباء ، ومع ذلك كله لا نرى ولا نسمع استنكاراً شديداً مقروناً بحماس من دار الندوة وروّادها ، أضف إلى ذلك انتشار الأفلام والكتب التي تهين الإسلام وتتعدى على حرمة وتصوّر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصورة معكوسة تقشعر منها الجلود ، ولكن يا للأسف إن هذه ليست مشكلة الوهابية ودعاتها ، إنما مشكلتهم هي مسألة زيارة القبور والتوسل بالأرواح المقدسة ودعاء الله سبحانه بحرمتهم ومقامهم.

وأما المخازي والجنايات الموجودة في الهند ضد الإسلام فحدّث عنها ولا حرج وهي لا زالت في تزايد ، كما أنّ هجمة القوم القوية ضد الشيعة والجمهورية الإسلامية لا زالت تتسع ، ومنطقهم في ترك مكافحة الشرك والإلحاد الواجبة على كل مسلم ، والهجمة على الطائفة الإمامية المسلمة المؤمنة بالكتاب والسنة والعترة الطاهرة ، هو قول القائل :

إذا لم تستطع أمراً فدعه *** وجاوزه إلى ما تستطيع

وفي الختام ندعو الله سبحانه بالدعاء التالي :

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزبها الإسلام وأهله

وتذل بها النفاق وأهله ، وتجعلنا فيها من الدعوة

إلى طاعتك ، والقادة إلى سبيلك

وترزقنا بها كرامة

الدنيا والآخرة

أمين رب العالمين

جعفر السبحاني

قم المقدسة - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

عشية آخر شعبان من سنة 1407 هـ

ص: 522

فهرس المحتويات

كتاب كريم لسماحة العلامة الحجة آية الله المحقق الصافي - دام ظله - ... 5

كتاب كريم للأستاذ المحقق آية الله الشيخ مكارم الشيرازي - دام ظله - ... 8

مقدمة المؤلف : المفاهيم القرآنية بين الجمود والتأويل ... 15

مبتدعة السلف ... 17

معطلة السلفية ... 21

المؤولة ... 27

التأويل باسم التفسير العلمي ... 29

التأويل الإلحادي ... 30

ص: 523

عصمة الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم

مبدأ ظهور فكرة العصمة في الأمة الإسلامية ... 36

القرآن يطرح مسألة العصمة ... 38

عصمة النبي في القرآن الكريم ... 39

نظرية أحمد أمين حول كلام الشيعة ... 40

مناقشة أحمد أمين في مزعمته من أن الشيعة أخذت منهجها الفكري من المعتزلة ... 41

ما هي حقيقة العصمة؟ ... 47

1. العصمة الدرجة القصوى من التقوى ... 49

2. العصمة : نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي ... 50

3. الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجماله ... 53

الروح التي تسدد الأولياء ... 55

هل العصمة موهبة إلهية أو أمر اكتسابي؟ ... 57

العصمة المفاضة كمال لصاحبها ... 60

كلام السيد المرتضى ... 63

هل العصمة تسلب الاختيار؟ ... 64

مراحل العصمة ودالاتها ... 69

المرحلة الأولى : عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة ... 72

القرآن وعصمة النبي في مجال تلقي الوحي و ... 75

المرحلة الثانية : عصمة الأنبياء عن المعصية ... 81

العقل وعصمة الأنبياء ... 81

سؤال وجواب ... 82

تقرير المرتضى لهذا البرهان ... 83

إجابة عن سؤال آخر ... 86

القرآن وعصمة الأنبياء من المعصية ... 87

حجة المخالفين للعصمة ببعض آيات من القرآن الكريم ... 97

الطائفة الأولى : ما يمس ظاهرها عصمة جميع الأنبياء ... 97

الآية الأولى ... 97

الآية الثانية ... 105

1. ما معنى أمانة الرسول أو النبي؟ ... 106

ص: 525

2. ما معنى إلقاء الشيطان في أمانة الرسل ؟ ... 108

3. ما معنى نسخه سبحانه ما يلقيه الشيطان ؟ ... 110

4. ما معنى إحكامه سبحانه آياته ؟ ... 111

5. ما هي النتيجة من هذا الصراع ؟ ... 112

التفسير الباطل للآية ... 114

الطائفة الثانية : الآيات التي تمس عصمة عدّة خاصة من الأنبياء ... 119

1. عصمة آدم عليه السلام والشجرة المنهي عنها ... 119

التساؤلات حول الآيات ... 121

ما هي نوعية النهي في قوله تعالى : (لا تُقْرَبَا) ... 122

ما معنى وسوسة الشيطان لآدم ؟ ... 128

ماذا يراد من قوله : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ) ؟ ... 130

ما معنى قوله : (وَعَصَى) و (فَعَوَى) ؟ ... 130

ما معنى قول آدم عليه السلام : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) ؟ ... 133

ما المراد من قوله : (فَتَابَ عَلَيْهِ) ؟ ... 134

ما معنى الغفران في قوله : (وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا) ؟ ... 135

عصمة آدم عليه السلام وجعل الشريك لله ! ... 137

ص: 526

تفسير قوله : (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ) ؟ ... 137

2. عصمة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام والمطالبة بنجاة ابنه العاصي ... 142

كيف يجتمع قول نوح عليه السلام : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) مع قوله سبحانه : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) ؟ 143

لا دلالة لقوله : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) على صدور سؤال غير لائق بساحة الأنبياء 148

تفسير قوله تعالى : (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي) ... 151

3. عصمة إبراهيم الخليل عليه السلام والمسائل الثلاث ... 153

تفسير قوله للنجم : (هَذَا رَبِّي) ... 154

تفسير قوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) ... 156

تفسير قوله : (إِنِّي سَقِيمٌ) ... 160

4. عصمة يوسف عليه السلام وقول الله (... وَهَمَّ بِهَا) ... 164

يوسف الصديق هو الأسوة ... 164

أسباب هائلة في صرح العزيزة لو توجهت إلى جبل لهذته ... 165

تفسير قوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) ... 168

ص: 527

ما هو جواب : (لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ... 169

ما هو المراد من البرهان ؟ ... 171

دلالة الآية على عصمة يوسف عليه السلام ... 172

أربعة أسئلة وأجوبة ... 174

5. عصمة موسى عليه السلام وقتل القبطي ومشاجرته أخاه ... 182

عصمة موسى عليه السلام وقتل القبطي ... 183

تفسير قوله : (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) ... 185

تفسير قوله : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) ... 186

تفسير قوله : (فَاعْفُرْ لِي فَغْفَرَ لِي) ... 187

تفسير قوله : (فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) ... 188

تحليل إلقائه الألواح ومشاجرته أخاه ... 189

6. عصمة داود عليه السلام وقضاؤه في النعجة ... 194

توضيح المفردات الآية ... 195

إيضاح القصة ... 196

ص: 528

هل الخصمان كانا من جنس البشر؟ ... 197

لماذا استغفر داود عليه السلام؟ ... 198

7. عصمة سليمان عليه السلام ومسألة عرض الصافنات الجياد وطلب الملك ... 200

عرض عسكري قام به سليمان عليه السلام في أيام ملكه ... 200

تفسير قوله: (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) ... 203

تقد التفسير المفروض على القرآن ... 204

الفتنة التي امتحن بها سليمان وطلبه المغفرة ... 208

ما معنى طلبه الملك؟ ... 210

8. عصمة أيوب عليه السلام ومسّ الشيطان له بعداب ... 214

تفسير قوله تعالى: (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ... 216

تفسير قوله: (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ) ... 217

9. عصمة يونس عليه السلام وذهابه مغضباً ... 221

لماذا كشف العذاب عن قوم يونس دون غيرهم؟ ... 223

ص: 529

هل كان كشف العذاب تكذيباً لإيعاد يونس ؟ ... 225

ما معنى قوله : (مُغَاضِبًا) ومن المغضوب عليه ؟ ... 227

ما معنى قوله : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) ؟ ... 228

كيف تجتمع العصمة مع اعترافه بكونه من الضالين ؟ ... 229

الطائفة الثالثة : عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما تمسكت به المخطئة ... 231

دلائل عصمته عن الذنب في القرآن الكريم ... 231

أدلة المخطئة ... 235

1. العصمة والخطابات الحادة ... 236

2. العصمة والعفو والاعتراض ... 240

3. العصمة والأمر بطلب المغفرة ... 244

4. العصمة وغفران الذنب ... 247

ما هو المراد من الفتح في الآية ؟ ... 248

ما هو المراد من الذنب ؟ ... 250

الغفران في اللغة ... 251

الفتح لغاية مغفرة الذنب ... 252

ص: 530

العصمة والتولي عن الأعمى ... 257

شأن النزول لا ينطبق على أوصاف النبي صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم ... 258

شأن النزول الثاني لا ينطبق على ظاهر الآيات ... 260

دين النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة ... 263

عبد المطلب وإيمانه ومواقفه ... 264

أبو طالب وإيمانه قبل البعثة وبعدها ... 269

إيمان والدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ... 275

إيمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة ... 282

الشريعة التي كان يعمل بها النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة ... 283

نظرة إجمالية على حياته ... 285

نظرية التوقف في تعبده ... 288

نظرية عمله بالشرائع السابقة ... 288

نظرية عمله بما يلهم ويوحى إليه ... 292

حاله بعد البعثة ... 294

الآيات التي وقعت ذريعة لبعض المخطئة ... 297

ص: 531

تفسير قوله : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) ... 299

تفسير قوله : (وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ) ... 306

تفسير قوله : (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) ... 308

تفسير قوله : (مَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ) ... 315

تفسير قوله : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ) ... 318

عصمة النبي صلى الله عليه وآله الأعظم عن الخطأ ... 319

القرآن وعصمة النبي صلى الله عليه وآله عن الخطأ والسهو ... 321

أدلة المخطئة على جواز عروض الخطأ والنسيان للنبي صلى الله عليه وآله ونقدها ... 326

الرأي السائد بين الإمامية حول سهو النبي صلى الله عليه وآله ... 329

كيفية معالجة المأثورات حول سهو النبي صلى الله عليه وآله ... 332

الفصل الثاني

مفهوم الإمامة وملاكها في الخليل

ودلائل عصمة الإمام

مفهوم الإمام في القرآن الكريم ... 339

ص: 532

الإمامة منصب اجتماعي عند أهل السنّة ... 339

الخليفة والعدالة والاجتهاد عند السنّة ... 341

الإمامة منصب إلهي عند الشيعة الإمامية ... 345

ما هو الهدف من الابتلاء في قوله سبحانه : (وَإِذِ ابْتَلَى) ؟ ... 350

ما هو المراد من الكلمات في قوله : (بِكَلِمَاتٍ) ؟ ... 354

ما هو المراد من الإتمام في قوله (فَاتَّمَّهُنَّ) ؟ ... 360

المراد من الإمام ... 362

الإمام في اللغة ... 362

مفهوم الإمام في القرآن ... 363

ليس للإمام إلا معنى واحد ، وإنما الاختلاف في ملاك الامامة ... 364

ما هو ملاك إمامة الخليل ؟ ... 364

الملاك الأول : النبوة ... 365

الملاك الثاني : كونه أسوة في المجالات الثلاثة ... 369

الملاك الثالث : كونه معلم الهداية عبر العصور ... 373

الملاك الرابع : كونه مفترض الطاعة ... 375

إمامة الرسول ... 377

ص: 533

الشواهد القرآنية على كون ملاك إمامته هو افتراض طاعته ... 378

الملك العظيم في القرآن ... 382

الملك العظيم في الأحاديث الإسلامية ... 385

هل زعامة هؤلاء كانت بتشريع من الله؟ ... 386

ما هي النسبة بين النبوة والإمامة الواردة في الآية؟ ... 387

هل الإمام لا يحقق أهدافه إلا في ضوء الشريعة؟ ... 388

هل الإمامة رهن الابتلاء في جميع الأدوار والعصور؟ ... 390

هل حقق الخليل أهداف الإمامة؟ ... 394

دلائل إمامة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ... 395

الإمامة في الأحاديث الإسلامية ... 400

الملاك الخامس لإمامة الخليل: تسيير النفوس إلى الكمال بهداية تكوينية ... 401

هل الإمامة عهد من الله؟ ... 408

ما هو المقصود من الظالمين؟ ... 409

دلالة الآية على عصمة الإمام ... 410

سؤال وجواب ... 411

ص: 534

في إطاعة السلطان وعدالة الصحابة

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة ... 421

إطاعة السلطان العادل من صميم الدين وحكم إطاعة السلطان الجائر ... 421

لزوم إطاعة السلطان الجائر أو حرمة الخروج عليه عند أهل السنّة ... 423

عرض هذا القول على الكتاب والسنّة ... 431

صراع بين العقيدة والوجدان عند شباب أهل السنّة ... 435

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان ... 438

مَن هو الصحابي؟ ... 438

عدالة الصحابة جميعهم ... 440

تقييم هذه النظرية من ناحية المباحث النفيسة ... 442

الصحابة في الذكر الحكيم وأصنافهم ... 445

ص: 535

الصحابة والتاريخ المتواتر وما ظهرت من بعضهم من بوادر الارتداد ... 456

آراء الصحابة بعضهم حول بعض وثورة الحيان : الأوس والخزرج في حضرة الرسول صلى الله عليه وآله 457

التعذير التافه أو أسطورة الاجتهاد في تنزيه الظالمين ... 460

كلام أبي المعالي الجويني حول الصحابة ونقد بعض الزيدية له ... 462

ما ورد في القرآن من إبداء الرضا عن المؤمنين مشروط بسلامة العاقبة ... 464

قتل الخليفة المفترض الطاعة دليل على عدم عدالة الصحابة ... 466

عثة لا تقال للكتاب الندوي ... 468

صورتان متضادتان أو رسالتان متضادتان

صورتان متضادتان ... 471

476 ... ملامح الشعب الإيراني في الرسالة الأولى للندوي

477 ... الملامح العامة لهذا الشعب المضادة للصورة الأولى له أيضاً

478 ... النشاطات القرآنية في الجمهورية الإسلامية

484 ... الركون إلى الظالم وحكمه في الإسلام

الكاتب لا يتأثر من سفور النساء والمؤسسات الربوية ولكن يتأثر من مشاهدة صورة الإمام علي عليه السلام في المساجد !! 487

490 ... الشروط الأربعة التي انتخبها الأستاذ للرسالة الخالدة

490 ... الشرط الأول للرسالة الخالدة : نجاح النبي صلى الله عليه وآله في تربية الجيل الأول ، وتحليل هذا الشرط

493 ... وحدة منطق الكاتب مع منطق يهود بدء الرسالة

495 ... النبي الأعظم كان ناجحاً في رسالته بلا كلام

ص: 537

الأحاديث الدالة على ارتداد الصحابة في الصحاح ... 496

الشرط الثاني للرسالة الخالدة : تأسيس حكومة غير وراثية ... 498

براءة الشيعة عن فكرة الحكومة الوراثية ... 499

الأئمة الاثنا عشر في صحيح مسلم ... 500

الشرط الثالث للرسالة : صيانة القرآن الكريم من التحريف ... 502

صيانة القرآن عن التحريف عند الشيعة ... 502

نصوص المحققين من الشيعة في المقام ... 503

الرسائل المفردة حول صيانة القرآن من التحريف ... 506

الكافي كتاب حديث لا كتاب عقيدة ... 509

أحاديث التحريف في كتب أهل السنة ... 510

اقتراح للمتسرّعين في الكتابة ... 511

الشرط الرابع للرسالة الخالدة : انّ النبي مركز الهداية ... 512

عصمة الأئمة وتعيينهم من جانب الله وتكليمهم الملائكة لا

ص: 538

يخالف ذلك الشرط ... 513

الدلائل القرآنية على عقيدة الشيعة في هذه المواضيع ... 514

الشيعة والسنة وفكرة التشريع ... 518

ما هي المشكلة الأساسية للمسلمين؟ ... 520

تدهور الوضع الإسلامي في القطر الهندي ... 520

فهرس المحتويات ... 523

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(ق - 37)

ص: 539

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباه اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

